رِسَالَــة

إِلَى

الدَّعَوَاتِ الإِسْلامِيَّة

من

دعوة العمل الإسلامي

جمال البنا

المحتويات

الفصل السادس: وأخيرًا – العدل: "مايسترو" الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

مقدمة

كان لنا مندوحة عن أن نكتب هذه الرسـالة، لأنها تقول كلمة الحق، وكلمـة الحـق مـرة، عن دعوات إسلامية بعضها وصل إلى الحكم، ونقدها يعني الاضطهاد، وبعضها الآخر ممن لم يصل إلى الحكم تربطنا بهـا وشـائج قديمـة. ونقـدها يعـني القطيعة. وكنا عن هـذا وذاك في غـنىً لـو آثرنـا العافيـــة ولـــذنا بالصــمت. ونحن لا نزهـــد في العافية، كما يعز علينا أن نفقد صـداقاتنا، ولكننـا لا نسـمح لهـذين أن يفتاتـا على الحقيقـة الـتي حـالت حوائـل عديـدة دون أن تظهـر. فمن رزق الشـجاعة أعـوزه عمـق الفكـر أو سـعة الأفـق، ومن رزق هـــذين وقفتـــه روابـــط الوظيفـــة، وانتمـــاءات الحـــزب والهيئـــة، والأمـــل في المسـتقبل، والخـوف من الاضـطهاد. أو حـالت المجاملات دون أن يقول "كل حق" أو أن تكـون نبرته كما ينبغي لنبرة الحق أن تكون.

وقـد انتظرنـا أربعين عامًـا أن ينهض أحـد المفكرين بهذه المهمة المقدسـة، ولكن هـذا لم يحـدث بالصـورة المطلوبـة، ولم يعـد يجمـل الانتظار، وقد جاوزنا السـبعين وأصـبح أداء هـذه الرسالة فـرض عين، قبـل أن يمضـي بنـا قطـار العمر، ونحاسب على ما فرطنا.

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيـدُ إِلاَّ الإِصلاح مَـا اسْـتَطَعْتُ وَمَـا تَـوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود: 188

جمال البنا

القاهرة/ جمادي الآخرة 1412
ديسمبر 1991

الباب الأول
الدعوات الإسلامية على الساحة
الفصل الأول
دعوة الأخوان المسلمين العالمية

دعوة الأخوان المسـلمين هي أُولى، وكـبرى الدعوات الإسلامية المعاصرة.

وقد أثرت أثرًا عميقًا، وتـركت بصـمتها على الدعوات الإسلامية الأخـرى حـتى الـتي انشـقت عليها أو التي تختلف معها.

وبقدر ما كانت سيئة الحظ في بلـدها، بقـدر ما رزقت الانتشار والذيوع في دول أخـرى.. بمـا في ذلك الدول الأوروبية والأمريكية..

المجتمع المصري قبيل الأخوان:

كان المجتمع المصـري في عشـرينيات هـذا القرن[1] يدخل مرحلة جديدة تختلـف جـذريًا عن المراحل السابقة.

ففي الربع الأخـير من القـرن التاسـع عشـر حاول جمال الأفغاني أن يثير نهضة إسلامية تنقذ مصر من تغلغل النفوذ الأوروبي.

ولكنه أبعـد عن البلاد في وقت كـانت مصـر أشد ما تكون حاجة إليه.

فقـد أدت دعوتـه إلى الثـورة العرابيـة الـتي انتهت – لعــدم وجــود القيــادة الحازمــة – إلى الاحتلال البريطاني عام 1982م.

---

1 (?) القرن العشرين الميلادي.

وما إن دخل الجيش البريطـاني مصـر حـتى واصل بصورة شاملة عملية التغـريب الـتي كـان إسماعيل باشا (الخديو) قد بدأها بصورة جزئية.

فغيرت منهـاج الدراسـة لتنفـق مـع المنـاهج الأوربية، وجعلت لغتها، "الإنجليزية"..

وهيمن الإنجلـيز على كـل المناصـب العليـا، وخضـــع الـــوزراء المصـــريون لتوجيهـــات المستشارين الإنجليز.

وكانت كل الشـركات التجاريـة، والمصـارف والبنـوك، والـدور الصـناعية في يـد الإنجلـيز أو غــــيرهم من الأجـــانب، وكـــانت لغتهـــا هي: الإنجليزية، أو الفرنسية..

وشــجعت صــور من اللهــو والفحش، وأبيح وحمى البغــاء، وانتشــرت الحانــات، وظهــرت المراقص والكباريهات التي كانت مباءات لإغـواء الشــباب، وابــتزاز "العُمــد" الــذين يــأتون إلى القاهرة ليشهدوا عالم "كشكش بيه"..

وكـــانت الأواصـــر الـــتي تربـــط المجتمـــع بمقوماته الإسلامية تتهاوى شيئًا فشيئًا..

وبـدا كـأن مصـر تسـير في طريـق التطـور الأوروبي، عنـــدما انفجـــر الشـــعب في ثـــورة 1919م، الــتي عــبر بهــا عن رفضــه لسياســة الاحتلال..

وكانت انتفاضـة تلقائيـة شـعبية عنيفـة قـامت دون تــرتيب من الزعمــاء، وتطــورت رغم إرادة الزعمــاء الــذين مــا كــانوا يريــدون إلا مفاوضــة الإنجليز، وليس الثورة على الإنجليز..

وتـــبينت بريطانيـــا أن الشـــعب لا يقبـــل الاحتلال..

وكانت بريطانيا قد اضطرت قبيـل ذلـك إلى إقالة عميدها العتيد "لـورد كرومـر" إثـر فضـيحة محكمة دنشواي، فأعادت ترتيب الأوراق وغيرت في سياســتها، واعـــترفت باســتقلال مصـــر بتحفظات أربع[1].

وكـان ذلـك إيـذانًا بـدخول مصـر المرحلـة الليبرالية التي تقوم على ركائز ثلاث:

نواة هي الفرد

هدف هو الربح والكسب

مناخ هو الحرية

وقد يطلق على هذه المرحلة..

إذا نظرنــا إليهــا من الزاويــة الاقتصــادية: "الرأسمالية".

وإذا نظرنــا إليهــا من الزاويــة السياســية: "الديمقراطية".

وإذا نظرنــا إليهــا من الزاويــة الطبقيــة: "البرجوازية".

فهذه التسميات كلها جوانب متعددة لحقيقة واحدة..

ووجدت المرحلة فارسها في سـعد زغلـول، ووثيقتها في دستور عام 1923..

وكـان سـعد زغلـول تلميـذًا لمحمـد عبـده، ومحمد عبده كان تلميذا لجمال الأفغاني، ولكنــه

1 (?) تتعلــق (1) بتــأمين المواصــلات البريطانيــة. (2) الــدفاع عن مصــر. (3) حمايــة المصــالح الأجنبيــة والأقليات . (4) السودان.

انسلخ من فكر جمال الأفغاني الثوري الكفـاحي واتجـه إصـلاحا توفيقيًـا: فتقبـل مهادنـة اللـورد كرومر..

فجاء سعد زغلول ليمضـي بهـذا الاتجـاه إلى غايته التي تؤدي – لا محالة – إلى الفصل ما بين الدين.. والمجتمع.

بحيث يقوم المجتمع على الركـائز الليبراليـة الثلاث التي أشرنا إليهـا، ويـأوي الـدين إلى ركن قصي في المسـاجد والزوايـا والطـرق الصـوفية وأئمة المساجد..

ووجـدت المرحلـة وثيقتهـا في دسـتور عـام 1923م الذي أقـام الأحـزاب، ومجلس النـواب، ومجلس الشيوخ، وسمح بانطلاقـة الرأسـمالية.. وحرية الفكر..

كان المجتمع المصـري خارجًـا من اسـتعمار بغيض، ومجتاز لثورة عصـيبة ضـحى فيهـا بـأكثر من ثلاثة آلاف قتيل، فتجاوب مع العهد..

واكتسـب سـعد زغلـول – لأسـباب عديـدة – شهرة أسطورية..

وخلال عشر سنوات تقريبًا من بدء المرحلـة ظهرت ثمارهـا في الطبقـة المثقفـة الجديـدة – رواد حركـة التنـوير[1] – طـه حسـين، ومنصـور فهمي، وإسـماعيل مظهـر، ومحمـود عـزمي، وحسين هيكل، وسلامه موسـى، وقاسـم أمين[2]

1 (?) كما أطلقوا عليها بعدئذ.

2 (?) من الجـدير بالـذكر أن معظم هـذه الشخصـيات عادت إلى الفكر الإسلامي، وتـبينت أن اتجاههـا لأول إنما كان بتأثير الانبهار الأول.

الذين فتنوا بالثقافـة الأوربيـة، وانبهـروا بمظـاهر الثراء والحرية وصور الاستمتاع الطليق ومشاهد الجمال في كل ناحية، فعادوا مبشرين بها.

وظهرت الأحزاب وأخذت تتسـابق وتتصـارع على الحكم، وشـــغلت النـــاس بمعاركهــــا ومؤامراتها..

ووصـل التعصـب للأحـزاب والأشـخاص في بعض الحالات إلى درجة أن هتف بعضهم:

"الحماية على يد سعد أفضل من الاسـتقلال على يد عدلي!".

وكان الإنجليز والملك يتلاعبان بالأحزاب..

واحتلت أخبـــار الأحـــزاب أنهـــار الصـــحف وزاحمت أخبـــار الفنـــانين والفنانـــات والممثلين والممثلات والمغنـــيين والمغنيـــات والراقصـــات، وقامت السينما بدور مؤثر في إفساد المقومات وإشاعة التفاهة والفحشاء.

ولم يكن لدى الأحزاب أي حس إسلامي، ولا نجد في برامجها أية إشارة إلى الإسلام.

ولم تكن مواقفها متجاوبة – بل لعلهـا كـانت متجافية – مع الإسلام..

وفي ظـــل حكم الأحـــزاب اعتمـــد الاقتصـــاد الرأسمالي الربـــوي.. والديمقراطيـــة الليبراليـــة.. والتحررية الاجتماعية.. كمثل عليا للنظام..

ولم تقم محاولة واحدة لاستلهام الإسلام..

ولم يظهـــر الإســـلام على خريطـــة الـــبرامج التعليمية إلا بصورة تافهة..

ولم يظهـر التـاريخ الهجـري إلا بعـد التقـويم الميلادي

ولم تظفر اللغة العربية بما تستحقه..

وكان يمكن لمسيرة الليبرالية أن تسير على عواهنها، وتمضـي إلى غايتهـا لـولا ظهـور دعـوة الأخوان المسلمين..

دعوة الأخوان المسلمين:

كــان على دعــوة الأخــوان المســلمين أن تتصـدى لهـذا التيـار الكاسـح الـذي كـان يمضـي قدمًا مسلحًا بالفكر والثقافـة، مـدعمًا بباشـوات السياسة والاقتصـاد، مؤيـدًا من القـوى العالميـة الـتي جعلت مقاومـة الإسـلام جـزءًا رئيسـيًا من سياستها..

كان على دعوة الأخوان المسـلمين أن تـبين خطـأ وقصـور الفكـر الليـبرالي الـبرجوازي، وأن هــذه النظم الــتي فُتن بهــا المجتمــع المصــري ليســت هي بــالنظم المُثلى، ولا هي خاليــة من المثالب والقصور.. وأن المَثـل الأعلى الليـبرالي الذي يتمحـور حـول الفـرد، ويسـتهدف الـربح أو الكسـب ليس هـو المثـل الـذي ينهض بالأمـة أو يحقــق الســلام الاجتمــاعي أو يكفــل تضــافر الجهود.

وكــان على دعــوة الأخــوان المســلمين أن تقدم البديل الإسلامي:

بأن تبرز نظامًا اقتصاديًا إسـلاميًا أفضـل من اقتصاد ربوي..

وسياسة إسلامية تفضل الديمقراطية والبرلمانية والتعددية الحزبية..

وقيمًا اجتماعية إسلامية أفضل من القيم التي تقوم على الفردية والأثرة والأنانية وتستهدف الاستمتاع.

وكان على دعوة الأخوان المسلمين أن تعيد الإسلام من ركنه البعيد القصي إلى قلب وصميم المجتمع، بحيث يثري القضية الاجتماعية، ويعرض وجهة النظر الإسلامية، وأن تصحح المفهوم الليبرالي، الذي قد يسميه البعض "العلماني" لدور الدين في المجتمع..

هذا الدور الذي تأثر في أوروبا بمسلك الكنيسة عندما استحوزت على السلطان، أو تعاونت مع الملوك في مواجهة الشعوب، وقاومت كل أفكار التقدم العلمي.

وأن هذه الفكرة إن كانت صحيحة في أوربا، فإنها غير ذات موضوع في مصر، وفي الدول الإسلامية:

أولاً: لأنه لا يوجد في الإسلام كنيسة.

وثانيًا: لأن الإسلام لا يقاوم العلم.

وثالثًا: لأن الإسلام دين حياة، فالزكاة مقترنة بالصلاة، والعمل الطيب مقترن بالإيمان، والجهاد يعد من أولى الواجبات..، والقرآن يحرم صراحة وبقوة الخمر والميسر والربا والزنا وكلها أمور ممارسة في المجتمع..

وكان على دعوة الأخوان المسلمين مرة أخرى أن تصحح المفاهيم الإسلامية نفسها التي سادت وقتئذ.

فعندما عزلت الليبرالية الإسلام عن قضايا المجتمع الحيوية، وعندما أغلقت في وجهه هذه المجالات فإنه تقوقع في قوقعتي "العبادة" و "المذهبية".

وأصبحت كل المشاكل التي يعني بها الشيوخ، ويهتم بها الناس هي جزئيات الشعائر والطقوس، والمسائل الخلافية فيها بين المذاهب.

* * * *

وكما ذكرنا فإن الليبرالية وإن أبعدت الإسلام عن صدارة المجتمع، فإنها لم تمس الدين نفسه. بل على العكس، فإنها لم تضن عليه بمعسول القول، كما أنها عُنيت بأن تكفل للشيوخ والفقهاء. تأمينًا ماديًا.

وبين آونة وأخرى في المناسبات يُدعى هؤلاء الشيوخ ليشتركوا مع الليبراليين على منصة الاحتفالات.

وبهذه الوسائل حالوا دون ثورة الشيوخ على الأوضاع القائمة.

وخلال هذه الرحلة الطويلة التي تدحرجت فيها الفكرة عن الإسلام شيئًا فشيئًا، حتى فقدت روحها ولم تحتفظ إلا بقشورها اختفى المعنى الجهادي من الإسلام.

مع أن الجهادي أحد عناصر الحيوية والفعالية في الإسلام.

وكان على دعوة الأخوان أن تتصدى لقضية الخلافات المذهبية، والاهتمام بالجزئيات والشكليات، وأن تضع الأولويات في مكانها.

وقـــد أورد الإمـــام الشـــهيد أول اســـتقبال الشيوخ له في جامع الإسـماعيلية وأسـئلتهم لـه عن:

"التوسل" ....

السلام بعد الأذان ....

قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ....

الســـــيادة للرســـــول في التشـــــهد ....

عن أبوي الرسول ....

قراءة القرآن للميت ....

وسارت دعوة الأخوان المسـلمين قـدمًا في هـذه الناحيـة إلى الدرجـة الـتي جـاوزت الفقـه المذهبي واستشرفت فقه السنة..

ودفـع الإمـام الشـهيد الشـيخ سـيد سـابق لتـأليف كتابـه المشـهور "فقـه السـنة" وكتب مقدمته.

بل إن دعوة الأخوان المسلمين جاوزت هـذا الإطار إلى إطار التقريب ما بين السنة والشيعة، عنــدما شــاركت الســيد تقي الــدين القِمِّي في تكوين دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

* * * *

وقبل دعوة الأخوان المسلمين كـان الجـانب الــتربوي مقصــورًا على الطــرق الصــوفية، ولم يكن للإمـام البنـا اعـتراض على فكـرة تصـوف سليمة رشيدة تلحظ آداب وروح الإسلام.

ولكن الحقيقـة أن ذلـك كـان ينـاقض الإرث الصوفي.

ولهـذا عُـني الأخـوان المسـلمون بالجـانب التربوي؛ فكانوا مدرسة ترعى أعضاءها وتجعلهم يأخذون أنفسـهم بـآداب الإسـلام وتوجيهاتـه في كـل جزئيـات حيـاتهم: في الطعـام والشـراب والملبس والنفقـة والعمـل والعلم والعلاقـات الاجتماعية..

ووضـع الإمـام البَنَّا رسـائل خاصـة بـذلك كرسالة التعاليم..

كمـا أن هنـاك وسـائل تربويـة عمليـة كـالرحلات، والنـدوات، ونظـام الأسـر، والمؤتمرات، والكتائب، والمخيمات، والدورات..

وكلها وسائل جماعية مدروسة ومبرمجة[1].

وهكذا كـان على دعـوة الأخـوان المسـلمين أن تقوم ثلاث مهام:

أولاً: تقديم الإسلام كدين حياة يقـول كلمتـه في الاجتمـاع والاقتصـاد والسياسـة، ويلهم الناس القيم والمثل، وإثبات أن ما جاء بـه الإسـلام يفضـل كـل مـا جـاءت بـه النظم "العلمانيـة" أو الأوربيـة. وإنقـاذ المجتمـع المصري من "الانبهار" بالحضارة الأوربيـة وتحويل التطور ليسير المسار السليم.

ثانيًا: إخلاص الدين لله، وتـرتيب الأولويـات فيـه، والابتعاد عن الجـدل والمـراء والشـكليات والخلاف..

ثالثًا: إيجاد "المسلم النمطي" عن طريق التربية والتعليم بحيث يحيـا حيـاة إسـلامية ويعلم

---

1 [(?)] راجـع وسـائل التربيـة عنـد الإخـوان المسـلمين دراسة تحليلية تاريخيـة: د. على عبـد الحليم محمـود دار الوفاء.

الاتجاهــات والمواقــف والقــرارات الــتي يتخـــذها في مواجهـــة مشـــكلات الحيـــاة الحديثــة، وتكــون عنــده "الإجابــات" عن الأسئلة التي يطرحها العصر.

* * * *

ونعتقد أن دعوة الأخــوان المســلمين نجحت إلى حدٍ ما، وبقدر مـا سـمحت بـه الظـروف في هذه المهام الثلاثة.

ومن العسير تصور المجتمع المصـري لـو لم توقف دعـوة الأخـوان موجـة التحلـل والانسـياق وراء مظـاهر الحيـاة الحديثـة الـتي كـانت تـدق طبولها فنون وآداب، وأهواء وشهوات، ومصـالح، وانخداع بالظواهر..

ومع أنها لم تستأصل هذا الاتجاه الـذي كـان يمضــي بحكم تطــور لا يمكن إيقافــه، إلا أنهــا أوجـدت رأيًـا عامًـا إسـلاميًا يتمتـع بقـوة شـعبية تفوق ما يتمتع بـه الاتجـاه الـدنيوي. مـع أنهـا لم تتوصـل في يـوم من أيامهـا إلى أجهـزة الإعلام التي هي في يد الحاكم.

وكان من عبقرية الإمـام البَنَّا أنـه صـاغ هـذا الحــل في كلمــات معــدودات وشــعارات عامــة ومفهومة، ولا يكاد يكون هناك خلاف عليها.

مثل: "دين ودولة"، "اللــه غايتنــا".. "القــرآن دســـتورنا".. "الرســـول زعيمنـــا".. "الجهـــاد سبيلنا".. "الموت في سبيل الله أسمى أمانينا".

وكان هذا الرأي الإسلامي العام في أصل ما أطلق عليه فيما بعد: الصحوة الإسلامية.

ونجحت فكـــرة الأخـــوان المســـلمين في القضـاء على الخلافـات المذهبيـة، الـتي كـانت محتدمة تشغل بال المسـلمين وتفـرق وحـدتهم، حـتى كـادت هـذه الخلافـات أن تنتهي وتطـوي صفحتها.

كمـا أنهـا قـدمت المسـلم النمطي في هـذا العصر طالبًا متفوقًا.. عاملاً دؤوبًا.. موظفًا أمينًا.

ولم تركـــز تربيـــة الأخـــوان وقتئـــذ على الشكليات والمظـاهر الـتي استشـرت بعـد ذلـك وأصبحت نوعًـا من "اللازمـة" كتفضـيل القميص "الجلابية" والطاقية على أي زي آخر.

.. فهذا شيء لم تعرفه المدرسة الأخوانية..

وكان معظم شـباب الأخـوان حليقي اللحى، يرتدون البـدل والكـارفت، ويضـعون الطـرابيش وكـان الإمـام البَنَّا نفسـه يرتـدي يرتـدي البدلـه والطربوش كما يظهر في صوره.

وبفضـل دعـوة الأخـوان وعملهـا المتصـل والمخلص عاد الإسـلام مـرة أخـرى دعـوة إنقـاذ وإنهاض، واستعاد جهاديته وحيويتـه ووقـف أمـام تحـديات العصـر بعـد أن نجحت علمانيـة الحقبـة الليبرالية في أن تُقصيه إلى ركن بعيد من أركان المجتمع.

حسن البَنَّا: رجلاً وإمامًا وشهيدًا:

كانت دعوة الأخوان المسـلمين[1] هي ثمـرة فهم وعمـل رجـل مـؤمن موهـوب موفـق هـو: "الإمام الشـهيد حسـن البَنَّا" الـذي رُزق عوامـل

---

1 (?) وكلمـــة: "دعـــوة" من نحت وصـــياغة الإخـــوان المسلمين.

أهلتـه للقيـام بهـذه الـدعوة من طفولتـه حـتى شهادته.

ومن هذه العوامل:

كـان الإمـام البَنَّا هـو الابن البكـر لرجـل عـر بالعصامية وعلو الهمـة والإبـداع وخدمـة السـنة. وولـد وشـبَّ في بقعـة من أجمـل بقـاع الريـف المصـري. وعلى ضـفاف النيـل – واشـترك مـع اترابـه في الألعـاب الجماعيـة، ثم انتظم في دراسـاته بحيث تخـرج بـترتيب الأول من دار العلـوم ليعمـل في المهنـة الـتي أحبهـا وبمـرتب يفوق مـا كـان يتقاضـاه الأوسـاط من النـاس ثم تزوج في مستهل شبابه زواجًا موفقًا [1].

هذه العوامـل المواتيـة كلهـا حـالت دون أن يصـاب الإمـام الشـهيد بالتعقيـد أو الانطـواء أو الشـعور بنقص، أو يبـدأ دعوتـه في سـن الأربعينيات من العمر،أو يضطر للتغيير فيها كمـا حدث لكثير من الدعاه، وجعلت "منفتحًا"، مرنًـا. وكان هذا في أصل سـعة أفقـه، وتلقائيتـه، لكـل الاتجاهات الإسلامية التي أشرنا إليها.

وكان الإمام الشهيد بصفة عامـة يتقبـل كـل واحد يعرض خداماته على الأخوان ويأمر بإعـداد مكتب لـه. فـإذا كـان لديـه جديـد، فستكسـب الـدعوة. وإلا فسـيدرك إمكانياتـه. وقـد كتب مقدمة كتاب الأستاذ عبد الحميد جـودة السـحار عن أبي ذر، ودفع الشيخ سيد سابق لكتابة كتاب "فقه السنة" وكتب مقدمته، وأمر بطبع "العدالة الاجتماعية" للشهيد سيد قطب.

---

1 [?] لمزيد من آثار الوراثة والطفولة، انظـر.. خطابـات حسن البنا الشاب إلى أبيه .. للمؤلف.

توفرت في الإمـام الشـهيد صـفات الداعيـة النموذجي فكان كاتبًـا وخطيبًـا ومربيًـا ومنظمًـا. وجمع بين الفكر والعمل. وكان لديـه من الـذكاء والحس والحضـور والكياسـة مـا يكسـب قلب جليسـه. وعصـمه اللـه من فتن الـدنيا: المـال والنساء فكان متقشفًا ولم يملك في حياتـه بيتًـا أو عربـة. وكـان مأكلـه وملبسـه هـو أكـل عامـة الناس.

وكـان الإمـام الشـهيد هـو شـيخ الـدعوة والمرشـد الـروحي لأعضـائها. فهـو إمـامهم في الصـلاة: يصـلي فيحسـن الصـلاة ويقـرأ القـرآن على غير ما ألف الشـيوخ بصـورة تمس شـغاف قلوبهم وتجعل أحد كُتابهم يقول أن الصـلاة وراء الإمام الشهيد كانت جـزءًا من التكـوين الـروحي لهم. وهـو ضـيف الشـرف في كـل مناسـبة. من ولادة أو زواج أو وفـاة.. وهـو "مطـوِّفهم" في الحج وهو في كل هذه المناسبات الخطيب الذي يـأتي بمـا يتطلبـه المقـام دون إسـهاب مُمـل أو إيجاز مُخل، ويغلب أن يتضمن حديثـة استشـهادًا موفقًا من الشعر أو الحديث أو القرآن..

كان الإمام الشهيد منظمًا قـديرًا نابهًـا. وقـد اسـتطاع خلال عشـرين عامًـا، وتحت مظلـه من النكـر والخفـاء، أن يضـع بيـده بـذرة خمسـمائة شعبه من أقصى الشـمال إلى أقصـى الجنـوب. وكان يعرف الناس ويتذكر الوجوه والأسماء بعـد عشرات الأعوام ويخاطب ويعامل كل واحـد بمـا يتفق مـع نفسـيته. وكـان حسـه المرهـف وأدبـه يكسـبه حب الجميـع. وفي كـل شـعبة من هـذه الشـعب الخمسـمائة. خطب الإمـام الشـهيد.

وصـلى. وتنـاول الطعـام، وأمضـى ليلـة أو أكـثر وتعامــل مــع أهلهــا واســتخلص من آنس فيــه الخير..

وقد استطاع أن يربط بين هذه الشعب، وأن يجمـع بين القلـوب وأن يمسـك بكـل الخيـوط بصورة لا أثر فيها لقسر أو ضغط. كانت الخيوط الـتي تربـط التنظيم الأخـواني في مثـل متانـة ونعومـة الحريـر لا في قسـوة وصـلابة الحديـد فالأعضاء، إنما يسـلمون لـه القيـاد لأنهم تأكـدوا من إيمانه وكفاءته وتوفيق اللـه لـه.. ووثقـوا بـه قائـدًا ومرشـدًا، وهـو – من ناحيتـه – يـدخل بين الضــرورات الإداريــة الجافــة عنصــرًا نفســيًا وعاطفيًا هو "الحب في الله".

إن هذه الصفات قلما توفرت لشخص واحــد من قيادات الدعوة الإسـلامية، فجمـال الأفغـاني كــان ثوريًــا. ولكنــه لم يكن منظمًــا جماهيريًــا، ومحمد عبده ورشيد رضا كانـا رجـال قلم وفكـر وكتابــة ولم يكونــا رجــال عمــل وتنظيم وإدارة. وسوف نرى أن "المـودودي" منشـئ "الجماعـة الإسلامية" كان باحثًا وكاتبًا، ولكنه لم يكن رجــل جمــاهير وتنظيم – وبصــفة عامــة فيغلب أن لا يكـون رجـل الكتابـة والفكـر هـو رجـل العمـل والتنظيم، وأن لا يكــون واحــد من هــذين مربيًــا روحيًــا، وكــان الإمــام البَنَّا الثلاثــة معًــا: الكــاتب المفكر، الإداري المنظم، المرشد الروحي.

ومكَّنت هــذه الصــفات الإمــام الشــهيد أن يتوصــل إلى صــيغة "الأخــوان المســلمين" دون ســابق وجــود، فقـد كـان هنـاك هيئـات صـوفي وهيئات لمقاومة البدع ونشر السنة، وكان هنـاك

"الشبان المسلمون" التي تجمع الشبان على رياضة وثقافة.. وكانت لهذه الهيئات تركزاتها في أقاليم أو مناطق من العاصمة. وكلن لم تكن هناك هيئة شاملة يمكن أن تصهر جوانب الإسلام المختلفة في بوتقه واحدة. ولكن الإمام الشهيد بانفتاحه ضمَّ أفضل ما في الدعوات الإسلامية مثل ثورية الأفغاني وسلفية محمد عبده ورشيد رضا وتربوية بعض الطرق الصوفية، وكان لابد أن يصقل هذه الجوانب جميعًا حتى لا يحد تنافر أو تلفيق، وقد استوعبها أولاً في نفسه.. ثم نقلها إلى الأخوان وليس شرطًا أن هذه الجوانب كلها ظهرت مرة واحدة في الدعوة لأن الدعوة المنفتحة كانت تتطور تطورًا طبيعيًا، أشبه بالنمو العضوي..

العشرون عامًا الأولى:

قبل أن يتخرج الإمام الشهيد من دار العلوم ويذهب إلى الإسماعيلية؛ كانت قضية الإصلاح همًا مؤرقًا له، فحاول أن يدفع بعضًا من أفضل الشيوخ المعروفين وقتئذ للعمل وللقيام بدور إيجابي، وعندما صدم بالسلبية واليأس لم يستسلم وتابعهم ولاحقهم حتى استطاع بفضل هذه الملاحقة والتذكير استثارة بقية وهنانه من الإيمان في نفوسهم، وكانت نتيجة ذلك إصدار مجلة الفتح[1].

1 [(?)] من الخير للقارئ أن يعود إلى هذه المحاولة في "مذكرات الدعوة والداعية" لأنها حافلة بالدلالات. ولولا طولها لنقلناها.

ومن أجل هذا فإنه عندما نقل إلى الإسماعيلية وفكر في القيام بالدعوة – فإنه استبعد العمل مع المشايخ والفقهاء أو الدعوة في المساجد. وانتهى إلى طريقة مختلفة كل الاختلاف عن مألوف وطرق الدعوة الدينية.

ذهب إلى المقاهي. وأخذ يجلس في كل مقهى من المقاهي الثلاث في "حي العرب" يومين في الأسبوع، كما لو كان مرتادًا عاديًا، ولكنه لا يُعدم وسيلة للتعرف إلى بعض الجالسين، والحديث معهم حديثًا عاديًا، لا يلبث أن يتطرق إلى حديث نبوي أو آية قرآنية، يعرضه عرضًا رفيقًا جذابًا.

من هذه البداية المتواضعة وعلى أيدي ستة من عمال شركة قناة السويس تكونت النواة الأولى للأخوان المسلمين – تلك النواة التي ستصبح أكبر الدعوات الإسلامية في العصر الحديث.

واستعراض تطور الأخوان المسلمين خلال العشرين عامًا الأولى – من 28 إلى48 – حقبة البنا في تاريخ الدعوة. يوضح المراحل التي كانت تشغلها. ففي مرحلة الإسماعيلية – قرابة عشر سنوات – كان الطابع التربوي الصوفي يغلب العناصر الأخرى، وكانت شعب الأخوان مركزه تقريبًا في منطقة القنال وشرق الدلتا. ولم يكن بالقاهرة شُعبة إلا عندما انضمت جمعية الحضارة الإسلامية التي كونها الشقيق التالي للإمام الشهيد – الأستاذ عبد الرحمن إلى الأخوان واعتبرت نفسها شُعبة القاهرة..

وفي مرحلة تاليه من 40 ـ 45 – استهدفت الـدعوة حشـد الجمـاهير وجمعهـا على أسـاس مسلمًات من العقيـدة - وبـدأت شـعاراتها تـتردد في حـواري وأحشـاء القـاهرة حـتى انتقلت إلى شـقة كبـيرة بميـدان العتبـة – وكـان هـذا أول ظهورها "على وش الدنيا" كمـا يقولـون وتركهـا لحواري وأحشاء القاهرة:

في هذه المرحلة بدأ غزو الجامعة وانضـمام أعداد ضئيلة أولاً ثم كثيرة حتى أصبحت الغالبيـة تقريبًـا في المرحلـة الثالثـة من حقبـة العشـرين عامًا، وبرز العنصر الجهادي في تكوين "الجولة" و "النظام الخاص" الذي كان بتعبير أحد الكتـاب الإخوانيين"جيشًا إسـلاميًا" وبـدأ الفكـر السـلفي يأخـــذ طابعًـــا حياتيًـــا، ويتخلص من كثـــير من حواشيه..

وأخيرًا تأتي المرحلة الثالثة من هذه الحقبة، وهي أهمها وآخرها عندما تعرفت الحكومـة على قـوة الأخـوان، إثـر نشـر الصـحفي الصـهيوني البريطاني جون كمش تقريرًا طويلاً عن الأخوان في الصـــحف البريطانيـــة، وتـــبين السياســـي المصـري الطيب مصـطفى النحـاس أن الشـيخ البنـــا ليس كشـــيوخ الطـــرق الصـــوفية الـــذين يجوبون القرى في الموالد والمناسبات الأخـرى. وبـدأ نـوع من التحفـز بين السـلطة والأخـوان. وحدثت حوادث فردية، لكنها كانت ذات أثر بعيـد في وقـوع الصـراع مثـل اسـتيلاء الشـرطة على عربة جيب بها وثائق النظام الخاص، ومثل غياب الأستاذ البنا في إحدى الأوقات الحرجـة للصـراع في الحجاز، بحيث حدث الصدام على غـير هـوى

الأخوان. وفي ديسمبر سنة 48 أعلن النقراشي، وهو سياسي مصري ضيق الأفق – حل الأخوان وكان هذا الحدث أول حدث من نوعه تشهده البلاد، إذ كان في كل قرية مصرية أخوانيٌ أو أكثر، وفي كل شارع من شوارع المدن بيت أخواني أو أكثر. كانت هيئة الأخوان هي أكثر الهيئات حشدًا وتمثيلاً للشعب المصري، وكان لديها عقيدة، وبين يدها تاريخ كفاحي لعشرين عامًا. وكان المتطوعون الذين هرعوا لفلسطين يهزمون الإسرائيليين، ويساندون الجيش المصري. فكأن حل هذه الهيئة بقرار "عسكري" أمرًا في منتهى الفجاجة ونوعًا من التحدي الوقح لمشاعر الشعب. وهذه الملابسات هي التي جعلت الأخوان لا يتبرأون من مقتل النقراشي الذي تم بإحكام على يد إحدى خلايا النظام الخاص.

إن الدرس الأليم الذي يقدمه اغتيال النقراشي في 28 يناير سنة 1949، لا يتعلق بشرعية هذا الاغتيال. فممَّا لا جدال فيه أنَّ نشر الحكومة للإرهاب وحل أكبر هيئة شعبية بقرار عسكري منفرد والاعتقال الجماعي الوبائي، يبرر الاغتيال. ولا هو يتعلق بشخص النقراشي، فقد كان حزبيًا من هؤلاء الحزبيين الذين لا يساوون شيئًا، وقصارى جهده أن يناور ليصل إلى الحكم، وأن يصانع الإنجليز والسراي لمصلحة مجموعة ضئيلة من البورجوازية الطامعة، ومن الناحية الشخصية، فلم يكن موهوبًا البتة. باختصار كان منهم الذين تكسب البلاد بموتهم أكثر مما تكسب من حياتهم. ولكن

عندما يشغل مثل هـذا الشـخص القميء، رآسـة الــوزارة – ورآســة حــزب مــا، فقــد يظن بعض المهووسين أن الثأر له إنما يكون باغتيـال رئيس الهيئة الأخـرى – أي مرشـد الأخـوان – وقيـل أن اغتيال المرشد تم بنـاءً على مثـل هـذه الفكـره. ومن هنـا يكـون على الـذين يقومـون بخطـوات حاسمه أن يحسبوا حساب ردود الفعل كائنة مــا كانت – معقولة، أو مجنونة!!

على أننا نؤمن أن اغتيال الإمام الشــهيد في 12 فبراير سـنة 49 كـان أكـثر خفـاء حـتى ممـا أظهرتـــه التحقيقـــات بعـــد ســـقوط الملكيـــة. واكتشـاف يـد السـراي، وإبـراهيم عبـد الهـادي، وعبد الرحمن عمار (وكيل الداخلية) فقـد كـانت هــذه الفــترة هي فــترة خــروج الديبلوماســية السرية الأمريكية وعملها على مسرح المنطقـة، وظهور إسرائيل واعتراف الولايات المتحـدة بهـا كدولة بعد دقائق من إعلان "بن جوربون" قيامها وكانت الفـترة الـتي شـاهدت بطولـة متطـوعي الأخوان في فلسطين وصـعود نجم الأخـوان في القـاهرة، بحيث أصـبحت الهيئـة المؤهلـة ــ في وقت قـريب ــ للقيـام بـدور حاسـم. كمـا كـانت الفترة التي شاهدت ثـورة الميثـاق سـنة 1948 في اليمن الــتي نظمهــا الأخــوان وكــانت قــاب قوسين من النجاح لولا عوامل طارئة، ومن غـير المعقـــول أن دلالات ذلـــك خفيت على القـــوى الدولية ذات المصلحة في المنطقة، وكانت أكـثر هي الفــترة الــتي نظم فيهــا عميــل الـ C.I.A كرميت روزفلت انقلابات سوريا، ثم زار القاهرة بعدها. ومـا لم يلـق مـا يسـتحقه من اهتمـام، أو

يعنيه من دلالة انتحار الأمـيرالاي محمـد وصـفي رئيس حرس الوزارات، عنـدما كـادت تحقيقـات الجيش تلحقــه وكــان هــو حلقــه الوصــل بين الداخلية المصرية، والسفارات الأجنبيـة. وقضـى هذا الانتحار على السر الأكبر في المأساة كلهـا، الذي كان يمكن أن يكشف عن خيط ما بين هـذا الحـادث الآليم ومنـدوب الـ C.I.A في السـفارة الأمريكية بالقاهرة، وهذا الضابط الأثيم هو الذي ذهب إلى مستشـفى القصـر العيـني ليتأكـد من وفاة الإمام الشهيد بالفعـل وليجهـز عليـه أن لم يكن قد مات.

على أن اغتيال الإمام البَنَّا كان أمرًا مقدورًا، رسم في قضاء الله وقدره – كـان كاغتيـال على بن طالب، وختم الخلافة الراشدة. وعندما يضيق مجتمع ما بمثل على بن أبي طالب وحسن البَنَّا، فـإن استشـهادهما يصـبح قـدرًا مقـدورًا. وقـد اسـتراح الـرجلان، ولكن مـا أكـثر مـا حـاق بمجتمعهما من المتاعب..

ذلك أن الإمام الشـهيد كـان يعمـل بطريقـة مرحلية، وكـان قـد وصـل إلى مرحلـة "الحشـد" الــتي جمــع فيهــا الجمــاهير تحت شــعارات ومسـلمَات وأصـول عامـة. وكـان يجب أن تـأتي مرحلــة "إلفــرز" والتميــيز، والتحقيــق ســواء بالنسبة للأعضـاء أو للموضـوعات. وكـان الفكـر الأخواني قد أضفى على الفكر السلفي قدرًا من المرونة والانفتاح، ولكنه كان لا يزال مرتبطًا بـه. وكـانت الخطـوة التاليـة هي الانتقـال من فقـه المذاهب إلى فقـه السـنة ثم إلى فقـه القـرآن. كما كان يجب عرض موقف الأخوان من القضايا

السياسـية والاقتصـادية بنـوع من التحديـد يسـير خطـوة بعـد مـا جـاء في "مشـكلاتنا في ضـوء النظام الإسلامي"، ولم يكن الإمـام الشـهيد قـد وصل إلى ذلـك عنـدما حـدث الصـدام، ولم تكن رغبته أولاً في تفادي الصدام، وثانيًـا في الخلاص منه بالمفاوضة، إلا إدراكًـا منـه أن الصـدام وقـع قبل وقته، وقبل أن يتم تطـوير الفكـر، والتنظيم الأخواني بالصورة المنشودة. ولو سـارت الأمـور كما رسمها، لما حدث الصـدام في هـذا الـوقت، ولكن عوامل طارئة مثل اكتشـاف عربـة الجيب الـتي بهـا وثـائق النظـام الخـاص. وغيبـة الإمـام الشهيد نفسه في الحجاز قرابة شهرين في هذه الفـترة كانتـا من العوامـل الـتي أدت إلى وقـوع الصدام في وقت غير مناسب..

ولو لم يحـدث هـذا الصـدام، الـذي أدى إلى اغتيال الإمام الشهيد، لتغـيرت مصـاير المنطقـة تمامًـا، فمثلاً مـا كـان انقلاب 23 يوليـو يقـع بالصـورة الـتي وقـع بهـا، وهـذا مثـال واحـد من أمثلة عديـدة كـان يمكن أن تحـدث، لـو لم ينجح هـذا الاغتيـال الأثيم في حرمـان أكـبر الهيئـات المصرية تمثيلاً وتنظيمًا من قائدها الموهوب.

السنوات اللاحقة:

مع أن الاغتيـال الأثيم للمرشـد حـرم الهيئـة من قائـدها، فإنـه حقـق لهـا تعـاطف الجميـع، ووضـعها في المعسـكر الشـعبي المضـطهد من السلطة والسراي – فضـلاً – إن هـذا الاستشـهاد كان العامل الثاني (كان العامل الأول هـو حـرب فلسطين وهزيمة الجيش والذخائر الفاسدة الخ)

في زلزلـة الملكيـة، وزعزعـة، النظـام، وقيـام الانقلاب العسكري بعد ذلك.

ولم يكن في الهيئـة من يماثـل، أو يقـارب. الإمام الشهيد، فبعـد فـترة قصـيرة وليَ أمورهـا الشيخ الباقوري بتوصية كن الإمـام الشـهيد كمـا تُنوقِلَ وقتئذ، انتخبت الهيئة التأسيسـية القاضـي حسن الهضيبي مرشدًا عامًا.

لقد وجه البعض النقد للإمام الشهيد لأنـه لم يوجد "خليفة" له، وهذه قضية جدلية فإن تعـيين خليفـة كـان سيتضـمن قـدرًا من الوصـاية على إرادة وحريـة القاعـدة، فضـلاً عن أن القائـد لا يُصنع، ولكنه "يُخلق" فالله تعالى وحده هو الذي يضع ملكات القيادة في مَن يشاء..

وكـان الأسـتاذ الهضـيبي رحمـه اللـه قاضـيًا ممتازًا، وصـل إلى أعلى درجـات القضـاء. وآمن بالـدعوة وبـايع الإمـام الشـهيد فيمـا قيـل – وإن حـالت صـفته كقـاض دون أن يمـارس عملاً، أو حتى أن يظهر في دوائر الأخـوان. وجـاء انتخابـه نتيجة لملابسة خاصة هي تمسـك كـل واحـد من المرشـحين الأربعـة من أعضـاء مكتب الإرشـاد العـام بنفسـه في "معركـة القيـادة" كمـا أطلـق عليهـا، وبالإنجليزيـة أيضًـا: Battle of Leadership زعيم طلاب الأخـوان وقتئـذ مصطفى مؤمن. وكان هذا التمسـك مألوفًـا في الممارسـات الحزبيـة، ولكنـه كـان في دوائـر الأخوان شيئًا إدًّا. واهتبل الفرصة جناح معين برز وقتئـذ في الـدوائر الأخوانيـة، وأطلـق عليـه – الرَّوْضِيُّون – لأن معظم شخصياته كـانت تسـكن حي منيل الروضة، وكان له اتجاه خـاص وفـرض

الهضيبي، ولم يجد المرشحون الأربعة بُدًا من قبوله.

ولا جدال في أن هذا الإجراء، كان خطأ – فبصرف النظر عن أنه كان من الواجب الأدبي والإسلامي أن يتنازل بعض المرشحين الأربعة للأكفأ فيهم وهم أدري بقدراتهم – فإن الإجراء السليم في حالة عدم قيامهم بذلك هو إجراء انتخابات، ولم يكن هذا ليحدث قلقلة لأنه سيتم في إطار "الهيئة التأسيسية"، ولأن جمهور الأخوان عرف بالطاعة والالتزام. ومسئولية هذا الخطأ التاريخي تقع على الإخوة الروضيين الذين كانوا هم أول من دفع ثمن خطئهم.

وظهرت جريرة هذا الخطأ الفادح عندما قام انقلاب 23 يوليو سنة 52.

وقد عالجنا تلك القصة في قرابة مائة صفحة كبيرة من كتابنا "الإسلام هو الحل"[(1)]. ومع أن الكتابات الزائفة أو شبه الرسمية تُضائلُ من أثر الأخوان في قيام الانقلاب فإن هذا يعود إلى الاتجاهات المضادة لمعظم الذين سجلوا أحداث تلك الفترة. والذين لا يعجزون عن أن يجعلوا من هزيمة 56 انتصارًا، ومن انتصار 73 هزيمة، لا يعجزهم قلب الحقائق بالنسبة لما سبق، ولما لحق أحداث 23 يوليو ولكن كائنًا ما كان صياح الإذاعيين والطبَّالين والزمَّارين وكُتاب السلطة الذين وُضعوا رؤساء للصحف فإن الحقيقة لا تموت"..

---

1 [(?)] الإسلام هو الحل - جمال البنا – دار الفكر الإسلامي – ص 166 إلى ص 175

والحقيقة التي لا مراءَ فيهـا أن عبـد الناصـر رغم أنـه اتصـل بكـل الهيئـات والأحـزاب، فإنـه اعتمد على الأخوان في تكوين الضباط الأحــرار، ثم اعتمد عليهم في مساندة الانقلاب، والحقيقـة أيضًـا هي أن الأخـوان كـان لهم تنظيم قـوي في الجيش وآخــر في البــوليس، وأن هــذه الوقــائع التي لم تكن خافية على الأخـواني العـاق جمـال عبد الناصـر كـانت في أصـل تقربـه إليهم، وأنهـا أيضًا كانت سبب نقمته عليهم وتمثيله بهم تمثيلاً لم يشرك به هيئة أخرى..

الشاهد هنا، أن اللحظة كانت تتطلب موقفًـا مختلفًا تمامًا عما وقفه الهضيبي رحمه الله. فقد وقف موقفًـا جافًـا – ولكن سـلبيًا – من الانقلاب وقادته، فلا هو سـلك سـبيل اصـطناعه واحتوائـه والتعامل معه بما لا ترفضه السياسة الإسـلامية، وضرورات العمل واللحظة، ولا هو قاومه وقضى عليه به عندما كان قادرًا على ذلك. وقد اعترفت معظم الكتابـات "الأخوانيـة" الـتي عـنيت بهـذه النقطة بخطأ السلبية القاتلة حتى وإن لم تحمل الهضيبي رحمه الله مسئولية ذلك، أو توجه إليــه النقد تورعًا والتزامًا..

على كل حال، فإن ما ابتلي بـه الأخـوان من البلاء العظيم، ومــا أمتحنــوا بــه في المعتقلات والسجون، وما قدموه من ضـحايا وشـهداء كـان في حــد ذات دليــل صــوابهم في معارضــة عبــد الناصر، وأنه كـان ديكتـاتورا، ولا يفلح الـديكتاتور حيث أتى وبقدر ما أكسبه هذا الاضـطهاد شـعبية ومجـدًا فإنـه كـان "الوصـمة" الـتي قضـت على العهد وأدانته..

وفي هذا البلاء أثبت الأستاذ الهضيبي قدرًا من الصلابة ثم تُوفِّيَ ليخلفه الأستاذ عمر التلمساني وهو من الرعيل الأول ووضع سياسة مهادنة السادات حتى تبرأ جراح الأخوان – وعندما توفاه الله امتلأ ميدان التحرير، وهو أوسع ميادين القاهرة والشوارع المحيطة به، بالذين صلوا عليه وقدر عددهم بما بين مائة ألف وخمسمائة ألف وأعلنوا وقتئذ أن من الجائز أن يسجد الواحد على ظهر أخيه إذا ضاق المكان. وحدث التجمع وتم الانصراف بنظام وفي منتهى الهدوء.

وأخيرًا انتخب الأستاذ محمد حامد أبو النصر.

* * * *

إننا أولى الناس بمعرفة منزلة، وسابقة، وجهاد دعوة الأخوان. وأنها أعرق وأطيب الدعوات. وأنها قدمت شهداءها لمقاومة الحزبية داخل البلاد.. ولمقاومة الإنجليز في القنال.. ولمقاومة الإسرائيليين في فلسطين. والحق أقول أني، أكثر من مرة، لا أفتح إحدى الإعداد القديمة لمجلة الأخوان حتى تطالعني صورة شهيد.. وأتساءل وأتعجب من إهمال هذه الدعوة لشهدائها ...

وقد عايشناهم من الأيام الأولى للدعوة وأكرمنا الله بالاعتقال معهم عام 1948، ولنا صداقات وذكريات مع الرعيل الأول..

ومن ثم فنحن عندما نعرض نقدًا أو نقترح إصلاحا فإن هذا يكون من منطلق "صديقك من صَدَقَكَ لا من صدَّقك " و "رحم الله امروء أهدى إليَّ عيوبي" و "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"

وهو شيء لم نقدمه للهيئات الإسلامية الأخرى التي أشرنا إليها لحق الأخوان علينا وخصوصية العلاقة بهم..

عن هذه الروح نكتب وبهذه الروح نرجو أن يُقرأ.

لقد حفلت الفترة من استشهاد الإمام البَنَّا حتى الوقت الراهن بالأحداث والفرص.. ففي مستهلها كان الشعب بأسره متعاطفًا مع الأخوان إثر الاغتيال الأثيم، وحل الهيئة والزج بالألوف إلى المعتقلات. ثم قام انقلاب 23 يوليو مرتكزًا على الأخوان.. وكانت هذه فرصة كبيرة أضاعها الأخوان. ومرة أخرى يتعرض الأخوان للاضطهاد والتعذيب ويقدمون شهداء ممن حكمت عليهم محاكم جمال سالم، والدجوي، أو ممن فاضت روحهم في يد الجلّادين، واكتسب الأخوان عطف المجتمع خاصة وقد تكشفت سوءات العهد حتى جاءت هزيمة 67 حاكمة عليه، ومنهية له.. فسمحت فرصة أخرى أضاعها الأخوان.. وآثروا السلبية..

أن السلبية في الهيئات – كما هي في الأفراد – تعني الصدأ والتآكل الذي ينتهي بما يماثل الشلل. وهو في حقيقة الحال نوع من الانتحار الاختياري البطيء..

ولم تقتصر السلبية على النشاط السياسي وما قد يثيره من صدام – ولكن شملت مجال الفكر الإسلامي الذي رفعت لواءه، وسارت به خطوات بعد السلفية التقليدية.

هـذا المجـال الـذي كـان يمكن أن تملأ بـه القيادة الأخوانية الفراغ.. لم يشــهد عملاً من أي نـوع، ولم يضـع واحـد من الثلاثـة الـذين خلفـوا الإمام الشهيد إضافة أو مساهمة ذات أصاله [1]. في الفقه، أو التفسير أو الحديث أو الاقتصـاد أو الإجتماع. ولم يقم بهذا أحد مفكري الأخـوان مـع أن المنـاخ كـان مهيئًا لـه، بـل ويتطلبـه.. والـذي حدث هو النكوص عمـا وصـل إليـه الأخـوان من مرونـة فكريـة إلى السـلفية التقليديـة الجامـدة والمتزمتة. وفي بعض الدول العربيـة والجاليـات الإسـلامية في دول أوروبيــة حــدث تحـالف بين الأخــوان والهيئــات الوهابيــة الــتي تســاندها السعودية – لمواجهة اتجاهات إسلامية متحـررة، أو صاعدة. أو وقـف الأخـوان موقـف المعارضـة من هيئات إسلامية أخرى..

* * * *

إنه لمن العسير أن يستسيغ أي واحد أكذوبة عدم شرعية الهيئـة وصـبر الأخـوان عليهـا لأكـثر من عشرين عامًا انتظارًا لحكم إحدى المحــاكم، أو عجزهم عن إصدار مجلة أو تأسيس دار..

هــذا أمــر لا يمكن أن يفهم، إلا إذا كــانت السلبية والاستخذاء، أصبحا السياسة المقررة..

الغــريب أن القــوة لا تنقص الأخــوان، وأن الشــارع لم يتخــل عن الأخـوان، وأن الأحــزاب المقررة تغـازل الأخـوان، وأن الشـارع لم يتخـل عن الأخــوان، وأن الأحــزاب المقــررة تغــازل الأخــوان. وأنهــا جميعًــا ســعت، أو قبلت –

---

1 [?] باستثناء كتاب "دُعاة لا قُضـاة" الـذي صـدر باسـم الأستاذ الهضيبي.

شخصـــيات إخوانيـــة تـــدخل انتخابـــات مجلس الشعب تحت مظلتها. وإن المرحلة الأخيرة لهـذا "التحـــالف" أدخلت قرابـــة خمســـين نائبًـــا من الأخوان.. فإذا كان "المجلس الموقر" قـد نسـج شـــبكة من اللـــوائح الداخليـــة الـــتي تحاصـــر المعارضة، أو إذا كان يحكم بديكتاتورية الأغلبية، أو أن رئيســه يــرى أن "المجلس ســيد قــراره" ليجب بذلك الشرعية والحقيقة.. فقد كان واجب نواب الأخوان أن يتقدموا إلى الشـعب باسـتقالة جماعية يقولـون فيهـا: إننـا دخلنـا لنخـدم – وقـد حِيل بيننا وبين ذلك. فنحن نستقيل.

وكـان عليهم عندئـذ أن يركـزوا جهـدهم في العمل الشعبي وهو مجـالهم الأصـيل وأن يعتنـوا بالتكتلات الشـعبية المنظمـة كاتحـادات الطلاب. والنقابات. والجمعيات الريفية الخ..

لقد خسر الأخوان كثـيرًا من طلبـه الجامعـة الـــذين ضـــاقوا بســـلبيتهم، فانحـــازوا إلى الـــذين يرفعــون شــارات الجهــاد. وعــوض اللــه تعــالى الأخـــوان بأغلبيـــة في بعض النقابـــات المهنيـــة.. لكنهم عجزوا عن أن يقدموا "الوجـه الإسـلامي" للخدمة التي يفـترض أن تقـوم بهـا نقابـة مهنيـة في خدمـة عامـة كـالطب، لأنهم دخلـوا الحركـة النقابية بفهم سلفي ومزاج بورجوازي، ولا يمكن توقع نجاح مع هذا، فالحركة النقابية لهـا أصـولها ومقوماتها الـتي يكـون عليهم أن يتعلموهـا، ولم يكن هذا عسيرًا عليهم لأن هذا المجال قد خـــدم في مجال الكتابة والتنظير، وهناك هيئة إسـلامية مختصة ليست بعيدة عنهم.

* * *

إننـــا لنأمـــل أن يعيـــد الأخـــوان النظـــر في تـــاريخهم المجيـــد وتقاليـــد الإمـــام الشـــهيد. فلا يتخذون السلبية منهجًا والتقوقع أسلوبًا. إن هـــذا وذاك يخالفان جهاديـة الأخـوان وانفتـاحهم. وقـد أدَّت ســلبيتهم إلى ازدهـــار صـــور الفســـاد في المجتمع المصري حتى أصـبح لـه "مافيـا" قويـة وانصـــارًا أو حمـــاة في أعلى المناصـــب وتـــدنَّت المســـتويات اجتماعيـــة وسياســـية واقتصـــادية وخلقيــة – إلى الــدرك الأسـفل وأصـبح الزيـف والباطـل شـرعة وحقيقـة – وهم مسـئولون عن هذا أمام اللـه.. وأمـام المجتمـع المصـري لأنهم أقـــوى هيئـــة يمكن أن تكبح جماحـــه وتوقـــف استشراءه.

وليس شرطًا أن يأخـذ كفـاح الأخـوان لهـذه الصـور من المفاسـد صـورة العمـل السياسـي والوصـول إلى الحكم للإصـلاح – لأن في أيـديهم ما هو أدنى وأقـوى، ومـا هـو أقـرب إليهم روحًـا وممارســة وهي الــدعوة. ويــا ليتهم يعلنــون أن الحكم ليس هـــــدفًا. وأن جهادنـــــا الأول ليس بالســيف ولا بــالحكم، ولكن "بــه" أي بــالقرآن "وجاهـدهم بــه" أي بالـدعوة.. فـالأخوان هيئـة دعوة.. هيئـة ضـغط.. هيئـة أمـر بمعـروف ونهي عن منكر. لا يدخل فيها الإصلاح باليد..

إن الملم بتـــاريخ الهيئـــات العامـــة يعلم أن الجمعيـة الفابيـة الـتي ظهـرت في بريطانيـا في أواخر القـرن التاسـع عشـر وكـانت هيئـة دعـوة تلجأ إلى إصدار الكتيبـات والـدوريات والمراجـع. وتعقد دورات ثقافية.. إن هـذه الهيئـة أثـرت في المجتمـــع البريطـــاني بحيث حققت أهـــدافها في

الإصلاح الاجتماعي خلال سبعين سنة بفضل تعبير الفك والرأي العام. وإن تجربتها تلك تفضل تجربة الحزب الشيوعي الذي اغتصب الحكم بتكنيك سياسي. وفرض التطبيق اللينيني على المجتمع الروسي بكل ما أوتي من قوة، وحقق بالفعل تغييرات جذرية. ولكنها - بعد سبعين عامًا فشلت وانتكس المجتمع الروسي كما هو معروف. إن سبعين عامًا من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة نجحت في التغيير وإن سبعين عامًا من الحكم والتطبيق والتشريع فشلت في تحقيق أهدافها..

وتتفق هذه الرؤية، مع النتائج التي انتهينا إليها في هذا الكتاب عن دراسة بعض الدعوات الإسلامية التي وصلت إلى الحكم. وكيف أن الحكم في حد ذاته لم يحقق طائلاً، وأن الدعوة الإسلامية التي تجعل الحكم غاية بفكرة تطبيق ما أنزل الله تقع في خطأ جسيم لأن الحكم وسيلة. وليس غاية. ولا يجوز للوسيلة أن تكون غاية.. قد تقولون أن الحكم وسيلة وأن الغاية هي تطبيق ما أنزل الله. لكن تجربة التاريخ في كل زمان ومكان - تدلنا على أن الحكم - أو السلطة - تصبح غاية حتى عندما تراد كوسيلة. ولم يستهدف الرسول في دعوته حكمًا.. وإنما نشر دعوته حتى دعته الظروف أن يطبق الشريعة - وكان نبيًا يُعصم مما لا يُعصم منه غيره[1]..

---

1 [?] أنظر فصل "دعوات وصلت إلى الحكم" في هذا الكتاب.

والدعوات الإسلامية بصـفة عامـة تميـل إلى أن تنسـب للحكم قـوة ليسـت لـه، وقـد تتعجلـه قبل تهيئة المنـاخ وإصـلاح النفـوس. في حين أن هـذا الأخـير نفسـه هـو المطلـوب. ومـا لا يمكن للحكم أن يحققه. ولو ركز الأخـوان جهـدهم في الدعوة لجاءكم الحكم "يجرجر أذياله" ولعل هذا هو ما عناه الإمـام الشـهيد عنـدما قـال: "نحن لا نسعى للحكم. إن الحكم هو الذي يسعى إلينـا". والذي أعلمه، ولعل بعض الأخوان يعلمونه أكـثر، أن فكـــرة التركـــيز على الـــدعوة بالحكمـــة والموعظـــة الحســـنة لم تكن بعيـــدة عن ذهن الإمـام الشـهيد خلال الشـهور الأخـيرة العاصـفة الـتي سـبقت استشـهاده. وليس معـنى هـذا أن يقتصـــر الأمـــر على إصـــلاح النفـــوس بالتربيـــة والعبادة. ولكن إصلاح المجتمع بكشف السوءات والتنديـد بهـا وعـرض طـرق الإصـلاح والـدعوة إليهـا.. حـتى لا تكـون الأخـوان هيئـة صـوفية أو سلفية.. وإنما حياتيه تقوم اليـوم بمـا قـامت بـه في الأمس، عندما استنقذت الإسلام من الــركن القصــي الــذي أبعــد فيــه إلى صــميم الحيــاة والمجتمع، والجامعة والشـباب وقضـايا الاقتصـاد والاجتماع والسياسة.

إن الأخذ بمثل هذه الفكرة لا يمثـل انتكاسًـا أو تغييرًا في الخط الأخواني ولكنه "الرجوع إلى الأصل".

وإذا جـاز لنـا أن نقـترح على الأخـوان أمثلـة للمجـالات الجديـدة للـدعوة يمكن الإشـارة إلى قضــية محــو الأميــة الــتي أعيت من يــداويها، وفشـلت فيهـا كـل الأجهـزة والهيئـات. ويمكن

للإخـوان أن تركـز كـل جهودهـا في حملـة تحت الشعار القرآني "إقرأ" فإذا لم تنجح في محوهـا تمامًـا، فلا ريب في أنهـا ستقضـي على نسـبة كبيرة منها. وسيكون عملهـا حـافزًا ومثـالاً لبقيـة هيئـات البلاد، بحيث يمكن، في فـترة قريبـة – القضاء عليها.

وإسلاميًا.. فهل هناك أفضل من "اقْـرَأْ" أول لفظـة نـزلت من السـماء إلى الأرض. يحملهـا جبريل.. إلى محمد ليبلغها محمد للناس...؟

وهناك أيضًا مجال قد لا يمكن لغـير الأخـوان أن يطرقوه هو إنشـاء هيئـات "صـوفية إسـلامية مهنية" لإيجاد طراز جديد من الممرضـات اللاتي يـدخلن هـذه المهنـة النبيلـة بإيمـان وإخلاص وللقـربى إلى اللـه. ويمكن لهـذه الهيئـات أن تحمل اسم "الخديجات" أو "الفاطمـات" وتضـم كرائم الآنسـات والسـيدات المتطوعـات وتقـدم لهن دراسـات فنيـة في التمـريض ودروس إسلامية روحية. بحيث يمكن أن توجد ممرضـات مسـلمات يمـاثلن نظـام الممرضـات الراهبـات الذي سبقت إليه المسيحية، والموقف الإسلامي الأمثل منه هو "نحن أولى به منهم.." كما ضرب لنا الرسول المثل من قبل ...

والأخـوان، وعلاقتهم وثيقـة بنقابـة الأطبـاء يعلمون أن "عنق الزجاجة" في العلاج المصـري هـو التمـريض. وإن مهـارة الطـبيب وحداثـه المعـدات والوسـائل، تـذهب في النهايـة هـدرًا لسـوء التمـريض لأننـا ظلمنـا الممرضـة، فلم تستطع القيام بدورها وتقديم عطائهـا، ولا يمكن بالوسـائل البيروقراطيـة والرسـمية إصـلاح هـذا الخطـأ، لأن القضـية ليسـت فحسـب ظلم

الممرضـة ماديًـا، ولكنـه أيضًـا المفهـوم الطبقي المزيف للمجتمع المصري نحوهـا ونظرتـه إليهـا في اسـتغلاء ولا يمكن القضـاء عليـه، إلا بـإحلال مفهوم إسلامي، كالـذي أوجـده الرسـول عنـدما رفع عاليًا اليد التي خشنها العمل قائلاً "هـذه يـد يحبها الله ورسوله".

وحملات محـــو الأميـــة تحت شـــعار "اقـــرأ" وإنشاء هيئـات "الفاطمـات" و "الخـديجات" هي من أفكـار "الاتحـاد الإسـلامي الـدولي للعمـل" ونحن نقـدمها للأخـوان لأنهم اليـوم أقـدر على التحقيق.

وعن "الإصـلاحات" الجزئيـة لبعض الأوضـاع في النظم الأخوانيـة، فـإن من الخـير السـعي لإكتشـاف القيـادات الشـابه وإفسـاح المجـال أمامها من القاعدة حتى القمة، ويدخل في ذلـك استبعاد المبـدأ العقيم الـذي اتبعتـه أخـيرًا. وهـو انتخاب أكبر أعضاء الهيئة التأسيسية سنًا ليكـون مرشدًا. إن هذا يمكن أن يساغ لو كـان الأخـوان هيئـة من أصـحاب المعاشـات أو المحـالين على التقاعد.

كذلك يجب أن تفهم القيادات الأخوانية أن البيعة لا تعني استسلام العضو جسمًا وروحًا للأوامر.. وأن الطاعة في المنشط والمكره لا تستبعد الشورى – التي يبدو أنها نُسيت، فإنما تكون الطاعة فيما انْتُهيَ إليه بأعمال الشورى.

الفصل الثاني

الجماعة الإسلامية باكستان – الهند

تاريخ عريق:

قد يكون من الضروري قبل الحديث عن الجماعة الإسلامية أن نعرف القارئ العربي في اختصار شديد "بالمشهد الهندي" والملابسات التي قامت قبل "الجماعة الإسلامية"، إذ يغلب أن يكون ذلك جديدًا عليه.

كما أن من العسير أن يتفهم القارئ المؤثرات التي أثرت على الجماعة الإسلامية" دون إلمامه بهذا التاريخ.

فقد بدأت الموجه الأولى للفتح الإسلامي للهند بقيادة "محمد بن القاسم" ذي السبعة عشر ربيعًا من الشاطئ الغربي الشمالي (السند) عام 92 هـ..

وكان من الممكن أن يمضي قدمًا لولا المؤامرات التي انتزعته من الهند[1].

وجاءت الموجه الثانية مع دخول السلطان "محمود الغزنوي" (388 ـ 421 هـ) عن طريق الحدود الشمالية الغربية.

والمدة الطويلة ما بين 92 و 400 هـ التي تفصل الموجة الثانية عن الأولى توضح لنا

---

1 (?) وقصة المؤامرات: أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد سير ابن أخيه محمد بن القاسم على رأس جيش إلى الهند وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك وفي تلك الأثناء أراد الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه فساعده الحجاج في ذلك، إلا أن سليمان تولى بعد موت أخيه الوليد، وانتقم سليمان من الحجاج في شخص رجاله، ومنهم بن القاسم الذي استدعاه من الهند وسجنه.

جريرة المؤامرات وكيف يمكن أن تكـون بعيـدة المدى في مصائر الشعوب!

فقد كان من الممكن اختصـار ثلاثمائـة سـنة لتمكين الإسلام في الهند..

ودخل مع السلطان محمود الغزنـوي الـترك والأفغان، وأسسـوا الدولـة الإسـلامية في الهنـد الـتي بلغت أوجها في عهـد الملـك أكـبر، وشـاه جهان، وأورانجزب..

وظلت قائمـــة.. ثم أخـــذت تتـــدهور حـــتى دهمتها الجيوش الأوروبية.

وبدأت صفحة التدخل بالاستعمار البريطـاني الــذي تــرك آثــارًا عميقــة على حاضــر القــارة الهندية، وكان أصلاً لمعظم مشاكلها.

واختلـف المجتمـع الإسـلامي في الهنـد عن المجتمع الإسـلامي في مصـر وسـوريا والعـراق في أن الفتح لم يعط الهند لغته العربية.

كان هناك كثافة سكانية، وكان هنـاك تقاليـد وأوضاع مؤثله، فضلاً عن أنه – باسـتثناء الموجـه الأولى التي قادها محمد بن القاسم الـتي كـانت عربية خالصة – فإن معظم الفاتحين المسـلمين لم يكونوا عربًا، أو لم يكونوا من الذين يحكمـون العربية.

وهكـذا حـرم المجتمـع المسـلم الهنـدي من اللغة العربية.

وفي دين كالإسلام – معجزته الكبرى وجذره الأصـيل القـرآن – يكـون عـدم الإلمـام بالعربيـة نقصًا كبيرًا في الإيمان..

فمن لا يعرف العربية يغلب أن لا يصل إلى أعماق العقيدة التي عبَّر عنها القرآن بأسلوب فريد يعسر أن يترجم.

ولم تقتصر جريرة مؤامرة استدعاء محمد بن القاسم وإيقاف الموجة الأولى من موجات الفتح الإسلامي على تأخر وقوع الموجة الثانية ثلاثة قرون، ولكن أيضًا أنها حالت دون تغلغل اللغة العربية..

وإنه من العجيب أن تتكرر هذه المأساة بالنسبة لإيران..

وتكررت مرة أخرى في الباكستان – دون أن يكون هناك مبرر حقيقي – إلا الغفلة عن أهمية تلك النقطة التي جعلت الباكستانيين يبقون على لغتهم الأصلية، ولو جعلوا العربية لغة رسمية لهم منذ استقلالهم عام 1957 لأصبحوا عربًا (لأن العربية هي اللسان) ولأصبحوا أقرب إلى المجموعة العربية من الصومال وجيبوتي.. الأعضاء في الجامعة العربية.

أخطاء يظن أنها صغيرة.. وتجر عواقب مصيرية خطيره..

* * * *

وفي نظرنا أن تلك الواقعة فرضت نفسها على مدى وعمق ونقاء إسلامية المجتمع الهندي، وكانت في أصل ما تعرض له من مفارقات ومن شذوذ ظهر في سياسة الملك "أكبر" الذي كاد يمرق من حظيرة الإسلام، وما اتسم به البلاط المغولي من سرف وطقوس

وسياسات بعيدة قلبًا وقالبًا عن الإسلام، كما كانت سببًا في ظهور "رد الفعل" في محاولات الخلاص التي أخذت طابعًا جهاديًا وتزعمها علماء[1] كان أولهم وأبرزهم الإمام المجاهد أحمد بن عبد الأحد الفارقي) الملقَّب بمجدد الألف الثاني للهجرة الذي عمل خلال الفترة الأخيرة من حكم أكبر، وابنه الخليع جهان كير الذي أمر بسجن العالم في حصن كواليار، وكان سجنه هذا نعمة لأن شهرته سبقته بحيث أصبح السجن وما حوله منطقة إسلامية تطبق تعاليمه. وتنبَّه المسئولون إلى ذلك وتغير مسلك الملك، واستقدمه ولي عهده الذي وُلِّيَ المُلك باسم شاه جهان ورحب به.

وبذلك استطاع العالِم المجاهد أن يوقف عجلة الانحراف التي كانت تمضي قُدمًا.

وخلف الإمام المجاهد أحمد السرهندي في قيادة الدعوة الإسلامية الشيخ عبد الحق الدهلوي [2] الذي أحيا عِلم الحديث في شمال الهند، وشرح "مشكاة المصابيح" بالعربية والفارسية..

وكانت جهود العلماء قَبْله مُنصبة على فروع الفقه الحنفي والمنطق وعلم الكلام.

---

1 [?] رجعنا في هذا القسم من استعراض تاريخ الإسلام في الهند إلى الكتيب الذي وضعه السيد مسعود الندوي باسم: "نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند" وطبعته لجنة الشباب المسلم بالحلمية الجديدة وكتب مقدمته الأستاذ محب الدين الخطيب – رحمة الله – عام 1372 هـ.

2 [?] نسبة إلى "دهلي" وهي التسمية الصحيحة، وليست "دلهي" كما حرفها الإنجليز.

ثم ظهر الإمام ولي الله الدهلوي (1114 – 1176هـ) مؤلف "حجة اللـه البالغـة"، وهـو أحـد غـــرر المراجـــع الإســـلامية، والكتـــاب المـــوجز "الإنصاف في بيان سبب الاختلاف"..

ووضـع ولي اللـــه الـــدهلوي أســاس الفكــر الســـلفي المســـتنير الـــذي يعـــود إلى القـــرآن والحديث والأئمة، وقد نفع الله به الهند كلها لمـا رزقه من قبول فكثر اتباعه وكـان أولاده الأربعـة امتدادًا له ولدعوته.

فقد أنجب أصغر أبنائه "الشـاه عبـد الغـني" الذي مات وهو شاب، ابنـه الشـهيد "إسـماعيل" الذي كان اليـد اليُمـنى للسـيد أحمـد بن عرفـان وخاض معه معارك عديدة ضـد السـيخ والهنـادك المحاربين للإسلام، وحققا انتصارات عديـــدة في النصف الأول من القرن الثـالث عشـر للهجـرة، ولكنهما هزما واستشهدا في معركة بلاكوت (مـا بين كشمير والحدود الشمالية الغربيـــة) وأوقفت هذه الهزيمة المـد الإسـلامي وحـالت دون قيـام حكم إسلامي رشيد.

الثورة الهندية وأحمد خان:

اندلعت وقتئذ الثورة الهنديـة الكـبرى.. فقـد ثـارت مجموعـات عديـدة من الشـعب، وأيـدتها فرق من الجيش الهندي (1273 هــ - 1857 م) على الإنجليز واستطاع الإنجليز قمع الثـورة بعـد عناء شديد.. وصبُّوا جام غضبهم على المسلمين الـذين كـانوا "فرسـان الهنـد" وتمثـل فيهم روح الجهـاد والقيـادة المترسـبة من ذكريـات الفتح الإســلامي والإمبراطوريـــة المغوليـــة ومقاومـــة

الإنجليز بقيادة تيبو صاحب الذي سقط شهيدًا عام 1799. فدبر الإنجليز مذابح استهدفت استئصال عناصر المقاومة من المسلمين ووصل بهم الأمر أن كانوا – على ما روى ذكاء الله الدهلوي – لا يفلتون أي مسلم عليه سمة من جمال أو بسطة في الجسم – كما اغتالوا الأسرة المالكة بعد استئمانها، فسبقوا لينين فيما فعله بأسرة القيصر نيقولا الثاني، ثم وضعوا النظم الإدارية التي تبعد المسلمين عن النشاط العام والخدمة المدنية ومجالات العمل، بقدر ما اصطنعوا السيخ وطوائف من الهندوس ليكونوا شوكة في حلق المسلمين وليسدوا الطريق أمامهم.

وقال مسعود الندوي عن الآثار التي جاءت بها الثورة على مسلمي الهند:

"وكان من جراء الفزع والخوف على مستقبلهم، واضطهاد الحكومة المتتابع لهم أن تحولت حياتهم الدينية والسياسية تحولاً كاملاً بعد الثورة الكبرى (1273 هـ - 1857 م) وكأني بهم قد أنشأوا أمة جديدة لا صلة لها بالأمة المسلمة الباسلة التي نشرت ظلال الأمن والدعة والسلام في ربوع الهند قرونًا عديدة، والتي قاتلت في صفوف المجاهدين منذ وقت قريب ورفعت لواء الحق وأرادت أن تعلي لواء الله في الخافقين".

وفي هذه الفترة المظلمة ظهر السيد أحمد خان، وبدأ أولى محاولات التجديد بعد الثورة.

وكان رجلاً مستنيرًا دؤوبًا صـاحب عزيمـة قويـة، وله بعض الدالة على الإنجليز[1]..

وكان الوسيلة التي اختارها تمثـل لنـا إحـدى نقاط الافتراق عن الوسائل الـتي وضـع أصـولها مجدد السرهندي وتقوم على: "الجهـاد" أو الـتي وضعها ولِي اللـه الـدهلوي وتقـوم على الأصـول السلفية وتنقية العقيدة.

كما أنها تكشف عن أثر التطور الـذي حـدث في أعقاب الاستعمار البريطاني وزحـف الثقافـة الأوروبية..

فقــد اختــار الســيد أحمــد خــان: "التعليم المــدني" الــذي لمس أهميتــه وشــاهد عــزوف المسلمين عنه.

وهكـــذا أســـس عـــام 1293 هـــ كليـــة "عليكـرة"[2] الـتي أصـبحت فيمـا بعـد جامعـة عليكرة كبرى الجامعات الإسلامية في الهند.

وفي البدايـة لم تتقبـل العناصـر الإسـلامية التقليدية هذه الخطوة بقبول حسن؛ خاصـة وقـد أخــذ على أحمــد خــان بعض الاجتهــادات الــتي أخطأه فيها التوفيـق، ولم تكن هـذه الاجتهـادات تمس صــلب العقيـدة، ولكن المسـلمين رأوهـا كبيرة؛ فتجرأ على إنكار:

---

1 [?] لأنه في أحرج أيام الثورة أضفى حمايته على كثير من الســيدات البريطانيــات وأنقــذهن من المــوت المؤكد.

2 [?] تبعد عن دهلى 55 ميلاً تقريبًا.

الـرق في الإسـلام.. تعـدد الزوجـات.. ولادة السيد المسـيح من غـير أب.. المعجـزات كلهـا.. الجن..

وكانت العناصر الإسـلامية قـد أسسـت قبـل تكوين عليكرة بسنوات قلائـل مدرسـة "ديوبنـد"[1] الـتي بـدأت بمـدرس وطـالب ثم نمت حـتى أصبحت أكبر مدرسة دينية في الهند..

ولعل اتجاه السيد أحمد خان جعل مؤسسي "ديوبنـد" يتشـددون، وبتعبـير السـيد مسـعود الندوي: " ... لكن هؤلاء العلماء أخطأوا من جهة أخرى، فإنهم حافظوا على منهاج التعليم القـديم العقيم الـذي ورثـوه عن شـيوخهم وشـيوخ مشايخهم منذ قرون وأجيال.

ولم يرضوا بـأدنى تغيـير في الكتب والمـواد المقـررة للتـدريس أو طـرق الإلقـاء والإملاء والدرس.

وكذلك جعلوا أنفسهم في عمى عن كـل مـا يظهر ويتجدد فيما حولهم من الأرض..

وكـأني بهم أرادوا أن يعتصـموا بـدينهم وعقائـدهم مـنزوين في جـوامعهم وزوايـاهم، وهيهـات أن ينـالوا بغيتهم، فـإن أعاصـير الإلحـاد والزندقة الـتي كـانت تهب بين جـدران الكليـات العصرية، ما كانت لتذر سكان الجوامـع والزوايـا في أمنة منها..

فـإنهم مهمـا اجتهـدوا في إغلاق أبـواب الجوامـع وإيصـاد مصـاريعها دون زوابـع التفـرنج

1 (?) تبعد عن دهلي 60 ميلاً تقريبًا.

والأفكار الأوروبية العصرية، فـإن هـذه الأعاصـير داخلة في بيوتهم وحجراتهم وزواياهم لا محالة.

فإنه ليس من قوانين الطبيعية إخماد النيران المضطرمة بالسكون والعزلة، ولا دفـع السـيول المتدفقة باللجوء إلى الحجرات والمخادع..

وكـــل من أراد ذلـــك فقـــد ارتكب الغلطـــة الكبرى وسيذوق مغبتها يومًا لا محالة"[1].

وفي عـام 1311 هــ تكـونت جمعيـة "نـدوة العلماء"، و "دار العلوم" التابعة لها، أي بعد ربـع قرن من "عليكرة" و "ديوبند".

وكانت الفكرة فيها إيجاد منهج وسـط يقـوم على الكتـــاب والســـنة دون تجاهـــل العلـــوم العصرية، واللغة الإنجليزية، وكونت "دار العلوم" لتكـــون مثـــالاً علميًـــا يقـــف بين "عليكـــرة" و "ديوبند".

وهذه تجربة حسـنة.. فـالمنهج في حـد ذاتـه هو المنهج السليم..

كمــا كــانت نــدوة العلمــاء هي الأولى الــتي تنبهت إلى أهميـــة دراســـة اللغـــة العربيـــة، واستقدمت المدرسين لذلك من الدول العربيــة، كما أرسلت إليها بعض الدارسين النابهين.

ولكن يغلب أنها في تقبلها للعلـوم العصـرية استهدفت توظيـف هـذه العلـوم لخدمـة الفكـرة الســـــلفية دون أن يكـــــون لـــــديها "الحس" الموضــوعي اللازم للمعرفــة الحقــة، والــذي لا يخالف توجيه القرآن.

---

1 (?) نظـرة إجماليـة في تـاريخ الـدعوة الإسـلامية في الهند وباكستان ص 59 - 61

وتلك نقطة كـانت – ولا تـزال – يعسـر على السلفيين – إساغتها..

وكانت التطـورات السياسـية تـدفع بالحركـة الإسلامية لأن تعلن رأيها وتحدد موقفها..

فقد نشبت الحـرب العالميـة الأولى ووقفت بريطانيا ضد تركيـا – دولـة الخلافـة – ثم ذكـرت للوعود التي أعطتها للملـك حسـين، وناصـرت – بل وأسهمت – في سياسة تقطيع أوصال العـالم الإسلامي؛ دع عنك وعد بلفور المشئوم.

وبالإضافة إلى هذه السياسة البريطانية ففي تركيا نفسها ظهر مصطفى كمال متشحًا بلبـاس "الغـازي".. ثم منقضًـا على الخلافـة.. ومتنكـرًا للإسلام.. وباطشًا بعلمائـه.. وقاضـيًا على اللغـة العربيـة كـل التقاليـد الإسـلامية.. وبادئًا عهـد العسكر العقيم.

أدَّت هذه الأحداث كلهـا إلى وجـود اتجاهـات تقاسـمت مسـلمي الهنـد؛ وحفلت الحقبـة بعـدد من الشخصيات الإسلامية البـارزة والموهبـة في مجـال القيـادة مثـل: أبي الكلام آزاد، ومحمـد إقبـال، ومولانـا محمـد علي، ومحمـد علي جِنَّه.. ومجموعـة أخـرى كبـيرة من الأطبـاء وأسـاتذة الجامعات والمحامين.

وكـانت ثقافـة معظم هـذه القيـادات، والمناصـب الـتي شـغلوها أو المهن الـتي يمتهنونها، تجعلهم يقتربون من الاتجـاه العصـري قدر ما يبتعدون عن الاتجاه السلفي التقليدي.

على أن ذلك لم يوهن من حماستهم لقضــية الإســلام، بــل زودهم بمنطــق وأســلوب كــانت الدعوة الإسلامية في أشد الحاجة إليه.

وظهرت وقتئذ القضية الرئيسية التي تملكت اهتمام المسلمين على اختلافهم في الهند؛ هــذه القضــية هي: موقــف المســلمين من اســتقلال الهند..

كـان حـزب المـؤتمر أكـبر وأقـوى الأحـزاب الهنديــة ينــادي بهنــد واحــدة ديمقراطيــة تضــم الهندوس والمسلمين وبقية طوائف الهند.

وكان الثالوث الذي يقود حزب المـؤتمر هم: غاندي، وجواهر لال نهرو، وأبو الكلام آزاد "الذي كان رئيس المؤتمر".

وكـان أبـو الكلام آزاد وقتئـذ هـو أكـبر زعيم سياســي مســلم، وقــد أيــد بقــوة فكــرة الهنــد الديمقراطية الواحدة..

ولكن مجموعات إسلامية عديدة تنبـأت بـأن الهند الديمقراطية، بأغلبية هندوسية، ذات عداوة قديمة مـع الإسـلام، لابـد أن تحيـف على حقـوق المسلمين، ولن يكون المسلمون فيها مواطــنين سـعداء أحـرار، وأن من الخـير أن تنقسـم شـبه القارة (وليست هي بالصغيرة حجمًا أو بالضــئيلة عــددًا) إلى دولــتين: دولــة للهنــدوس، ودولــة للمسلمين.

وأيد هذه الفكرة الشاعر محمد إقبال، الـذي كان روح الحركة وشعلتها المثـيرة، والـذي أبـدع كلمة "باكستان" وظهر بجانبه السياسي المحنك القــدير محمــد علي جِنَّه، وظهــرت "الرابطــة الإسلامية" كهيئة تدعو للدولة الإسلامية الجديدة.

ونعتقد أن دعاة "باكستان" كانوا أقـرب إلى الصـواب، وأن قـادتهم أيضًـا كـانوا أكـثر نبوغًـا؛ محمـد إقبـال كـان لا يجـارى كشـاعر مسـلم اسـتطاع بإيمانـه وملكاتـه أن يوظـف اللفـظ والمعنى، وأن يلهب القلوب والعواطف.

كما أثبت محمد علي جِنَّه أنه مفـاوض قـدير صـعب لم يسـتطع معـه غانـدي أن يصـنع شـيئًا، وأساء إلى منزلة أبي الكلام آزاد – وهـو الـزعيم الإسلامي الذي كان سـابقًا على هـؤلاء جميعًـا – موقفـه من مصـطفى كمـال أتـاتورك؛ فإنـه أيـد "إصـلاحاته" المزعومـة!، ورأى أنـه في إلغائـه الخلافة لم يرتكب أمرًا إدًّا!!..

وكـانت الخلافـة إحـدى مقدسـات مسـلمي الهند..

ومع أن "أبو" الكلام – باسـتثناء ذلـك – كـان أقـرب إلى الثقافـة الإسـلامية من محمـد علي جِنَّه، الذي كـان في الثقافـة والمـزاج والسـلوك سـيدا بريطانيـا لا يفـترق عن أي "باريسـتر"[1] إنجليزي..

إلا أن الذكاء والـدهاء جعلا من "جِنَّه" القائـد الأعظم الذي يخرج "باكستان" من أحشاء الهنـد بعملية قيصرية لم يكن منها بد..

وتلك نقطة تستحق وقفة قصيره..

فإن جِنَّه [2] لم يكن من العلمـاء المسـلمين، بل إن ثقافته الإسلامية كانت ضـحلة، وقيـل إنـه

---

1 [(?)] وهـو في النظـام البريطـاني أرقى مسـتوى للمحامين (1) barrister

2 [(?)] وعادة ما لا ينطق حرف الهاء .. في آخـر الكلمـة، وكتابتها – جناح نوع من التحريف Jinnah

من "الإثني عشـرية"، ولمـا إضـطر إلى الإمامـة في الصلاة تلعثم، فضلاً عن أنه بالنشأة والثقافة والمهنة كان غربيًا أوروبيًا..

ومع هـذا فإنـه كـان سياسـيًا أقـدر من "أبـو الكلام آزاد" الذي يعـد حجـة وأسـتاذًا في الآداب والثقافة الإسلامية..

وكـان جِنَّه هـو الأحـق فعلاً بـأن يصـبح رجـل باكستان الأول..

ولكن هذا لا يعـني أنـه كـان رجـل دولـة من الطراز الرفيـع؛ فقـد كـان سياسـيًا ذكيًـا مـاهرًا؛ استطاع بمهارتـه السياسـية أن يظهـر باكسـتان على الخريطــة والواقــع رغم كــل الشــكوك، والمثبطـات، والقـوى المعارضـة الـتي ترصـدت له..

ولكنـه لم يكن رجـل دولـة مـع أن الفرصـة كانت مُهيأة لو كان مؤهلاً لذلك..

ولو أنه كان رجل دولة لأقام دولـة إسـلامية؛ بمعنى استلهام القيم الإسـلامية الكـبرى، وأولهـا العـدل؛ ولاهتم باللغـة العربيـة، أو رسـم خطـة لتكون لغة باكستان على المدى البعيد.

لو فعل هذا لاغتفـر لـه قصـوره في الثقافـة السلفية، أو عـدم إحسـانه للإمامـة في الصـلاة، فهـذا لا قيمـة لـه للإمـام في دولـة إسـلامية في العصر الحديث.

على أن خصومة السياسيين: أبو الكلام آزاد، وأبو الأعلى المـودودي.. لم يكونـوا رجـال دولـة كذلك، لأن إيمانهم كان إيمانًـا سـلفيًا صـرفًا ولم

يكن الإيمـــان الســـلفي ليقيم دولـــة في العصـــر الحديث..

* * * *

مـــع هـــذه التطـــورات بـــرزت المجموعـــة "المدينة" الإسلامية، وكاد التراث الفكـري لـولي اللـــه الـــدهلوي وخلفائـــه أن ينســـى في عجيج المعركة السياسية.

وكان رد الفعل أن يظهر الرجل الذي يحـــول دون أن ينـــدثر هـــذا الفكـــر، فيبعثـــه، ويجـــدد في صياغته بحيث يصل بـــه إلى مســـتوى "النظريـــة" بعـــد أن كـــانت الأفكـــار الإســـلامية مشـــتتة في الأذهان.

هذا الرجل هو: الإمام أبو الأعلى المودودي.

المودودي: النشأة والتطور:

ولد الإمام أبو الأعلى المودودي في 3 رجب عـــام 1321 هــــ - 25 ســـبتمبر عـــام 1903 في أورنك آباد، وكان أبـــوه قـــد درس حينمـــا بجامعـــة عليكـــرة ثم تركهـــا ليشـــتغل بالمحامـــاة والتعليم وفي عـــام 1322 هــــ تـــرك العمـــل وانعـــزل عن الناس.. ثم عـــاد مـــرة ثانيـــة إلى المحامـــاة حـــتى داهمـــه المـــرض وأبقـــاه قعيـــدًا حـــتى تـــوفِّيَ عـــام 1338 هـ.

ونشأ المودودي خلال فترة انعزال وانقطـــاع والده إلى العبـــادة والزهـــد، فحـــرص والـــده على تربيته تربية إســـلامية، وألحقـــه بمـــدارس الثقافـــة الإسلامية، حيث أتقن العربية والفارسية والفقـــه والحديث، واجتاز امتحان "مولوي".

وفي عام 1918 م عمل في إحدى الصحف التي كانت تصدر ببعض المدن الهندية حتى استقر به المقام في دهلي، واشترك في حركة إحياء الخلافة.

وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الإنجليزية وطالع كتب التاريخ والفلسفة والسياسة.. إلخ، إما بحكم عمله، وإما لأنه اكتشف عدم إلمامه بها مع أهميتها..

وأقام فترة في بهو بال عكف فيها على المطالعة والبحث..

وتحدد خلال هذه الفترة العمل المهني لأبي الأعلى المودودي الذي كان مهيئًا له بحكم النشأة والتربية والمزاج وهو "الكتابة" التي يكون مجالها المنتظم هو: (الصحافة) بالمعنى القديم لهذه الكلمة[1].

وفي عام 1928م أصدر كتاب: "الجهاد في الإسلام" الذي رد به على شبهة انتشار الإسلام بالسيف، التي ادعاها غاندي في إحدى المناسبات.

وفي عام 1932 م أصدر صحيفة "ترجمان القرآن" في حيدر أباد الدكن، وكان شعارها:

"احملوا دعوة القرآن وحلقوا بها فوق العالم".

وكتب عددًا من الكتب، وانتشر اسمه ككاتب ومفكر وداعية إسلامي، وبدأت معالم دعوته تتفتح خلال كتاباته عن:

الرِّبا، والحجاب، والتنقيحات، والتفهيمات، ... الخ.

---

1 [?] أي الصحافة الثقافية الرسالية الإسلامية

وفي عام 1937م قدم المودودي إلى لاهور بناء على دعوة قدمها له العلاَّمة إقبال، ولم يكد يستقر بها حتى توفِّيَ إقبال.

وتوالت التطورات السياسية، وظهرت فكرة القومية الهندية، ووجد المودودي نفسه في خضم الصراع فأصدر كتابيه عن الصراع السياسي ومسألة القومية.

ودفعه هذا الاتجاه للتركيز على قضية الدولة الإسلامية التي ستصبح واسطة العقد في فكره.

وتصدَّى لدعاة القومية الهندية، وأوضح أن قيام جمهورية هندية يكون الحكم فيها للأغلبية ستقضي على الكيان الإسلامي، وأن المسلمين إذا قبلوا ذلك سيوقعون بأنفسهم على حكم إعدامهم.

وكانت مقالات المودودي في هذا الصدد من أكبر العوامل التي أوهنت حزب المؤتمر وحرمته من تأييد أغلبية المسلمين..

وكان السياسيون المفاوضون قد كونوا "الرابطة الإسلامية" ودعمتها مقالات المودودي بنفس القدر، ولكن العلاقة ما بين المودودي والرابطة لم تكن صفوًا، فقد إكتشف المودودي الاتجاه "المدني" لقياداتها، وأنهم يريدون دولة إسلامية بالاسم، وأن الإسلام لديهم كالقومية لدى الهنود، وأنهم إنما يريدون "قومية إسلامية" ودولة إسلامية في مواجهة القومية الهندية والدولة الهندية، فأوضح لهم أن المسلمين ليسوا أمة كالجرمان والإنجليز، ولكنهم المؤمنين بدعوة.

وتطرق إلى ناحية هامة هي أنه حتى عندما تتجمع المقاطعات ذات الأغلبية الإسلامية في دولة واحدة مستقلة، فسيظل في مقاطعات الهند العديدة أقليات إسلامية قد تزيد في مجموعها عن مجموع مسلمي الدولة الجديدة، وهؤلاء ليس لهم من مخلص إلا ما سمَّاه "شهادة الحق" القولية والعملية ولخصها في:

"إن المسلمين عندما قدموا الهند، منذ ألف سنة، لم يكن لهم فيها عدد أو عدة، وإنما رسخت أقدامهم وتغلغلت أفكارهم بفضل العلماء والصوفية الذين قالوا بفرضية شهادة الحق القولية والفعلية، ولولا تقاعس الملوك واشتغالهم بالأمور الأخرى لما كان هناك وجود لمشاكل الأقلية والأغلبية.

وأن الحل الحقيقي لمشاكل المسلمين، سواء في الهند أو باكستان؛ هو التزام الخط الإسلامي وما يمليه من خلق وتماسك واتحاد وقيم.. إلخ".

ولكن الأغلبية – لم تتفهم مغزى دعوة المودودي وآثرت العاجلة على الآجلة – المحددة على العامة وصادق مؤتمر "الرابطة الإسلامية" عام 1940م على قرار تكوين دولة إسلامية مستقلة.

وفي السادس والعشرين من أغسطس عام 1941م تكونت "الجماعة الإسلامية" من خمسة وسبعين رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بناء على دعوة وجهها عن طريق مجلته "ترجمان القرآن"، وانتخب الإمام المودودي "أميرًا" لها..

وهذا هو أول بعث للكلمة الإسلامية القديمة "أمير" بعد أن حل محلها تعبير "الرئيس" أو "الأمين العام".

ونرى هنا تجديدًا يماثل تجديد الإمام الشهيد رحمه الله عندما بعث تعبير "المرشد" من تعابير الصوفية..

عمل الجماعة:

في هذه الفترة أتم المودودي كتبه الهامة: المصطلحات الأربعة في القرآن، الإسلام والجاهلية، المسألة الاقتصادية، وبدأ كتبه: تفهيم القرآن، دين الحق، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، شهادة الحق.

وفي الثامن والعشرين من أغسطس عام 1947 م تكونت "باكستان"، وبدأت صفحة جديدة من العمل للجماعة الإسلامية..

إن تكوين باكستان كان نهاية لمخاض دموي تمثل في هجرة مئات الألوف من مسلمي شرقي البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية، بينما هاجر الهندوس من البنجاب الغربية التي اعتبرت صميم باكستان، وتعرض المهاجرون من هذه الجماعة الإسلامية مثاليًا:

فإنها قاومت بشجاعة اضطهاد الهندوس للمسلمين، وبذلت جهودها لاستقبال مئات الألوف من المهاجرين البؤساء، بينما نددت بكل شدة باضطهاد المسلمين للهندوس ورفضت فكرة المعاملة بالمثل.

ودعا هذا المسلك المثالي الحكومة لأن تفوض كثيرًا من مشاريع خدمة اللاجئين إلى

الجماعــة الإســلامية طــوال أربعــة أشــهر حــتى انقطــع ســيل اللاجــئين وبــدأ اســتقرارهم في وطنهم الجديد.

وخلال عامي 1947، 1948م قام المودودي بنشـاط سياسـي مكثـف تطلبـه تكـوين الدولـة الجديـدة وعـرض المـودودي فكرتـه في خطـاب بكلية الحقوق عام 1948م..

كما قـدم في أحـد الاجتماعـات الغفـيرة في كراتشي النقط الأربع للنظام الإسلامي وهي:

باكستان هي ملك لله فقط، وعلى الحكومـة الباكســتانية أن تقيم نظــام البلاد بمــا يرضــي الله[1].

القضاء على القوانين المخالفة للشريعة.

أن يكـون القـانون الأساسـي لباكسـتان هـو الشريعة الإسلامية.

أن تحدد الحكومة الباكستانية سلطانها طبقًا لحدود الشريعة.

وعلى غـير المنتظـر، فـإن تكـوين باكسـتان كـان إيـذانًا ببدايـة معركـة مريـرة وطويلـة بين الإمام المودودي وسلطات الدولة الجديدة..

---

1 (?) هناك ترجمة أخرى لهذا البند:
أن الحكومة في باكستان مختصة لله تعالى العلي الأحد، وليس لحكومة باكستان من الأمـر شـيء غـير إنجـاز مالكهـا الحقيقي في أرضـه. وهـذا النص مـأخوذ من كتــاب مســعود النــدوي ص 123، ونص المتن من كتـاب د. سـمير عبـد الحميـد: أبـو الأعلى المـودودي فكره ودعوته ص 223.

فـــالمودودي أصـــرَّ على أن تكـــون الدولـــة إســـلامية بـــالمعنى الـــذي قدمـــه؛ بينمـــا آثـــرت السلطات اتجاهًا آخـر، وقـامت خلال المعارضـة العنيفة باعتقال المودودي أربع مرات!!!!

الأولى: في أكتوبر عـام 1948م.

الثانيـــة: في مـــارس عـــام 1953م، وفي هـــذه المـــرة حـــوكم المـــودودي وحكم عليـــه بالإعـدام! ولكن الحكومـة تـراجعت أمـام الضـغوط الشـعبية والدوليـة فغيرتـه إلى السجن مدى الحياة! ولكنها عام 1955 م أصدرت عفوًا عنه وأطلقت سراحه.

الثالثـة: في ينـاير عـام 1964، عنـدما حظـرت الحكومـــة نشـــاط الجماعـــة الإســـلامية، واعتقلت المودودي مـع ثلاثـة وسـتين من قيـادات الجماعـة، ولكن المحكمـة العليـا حكمت بـأن هـذا الإجـراء غـير قـانوني، وأطلق سراح المودودي ورفاقـه، وعـادت الجماعة بممارسة نشاطها.

الرابعة: في يناير عـام 1967، حيث اعتقلت الحكومـة الإمـام لفتـواه عن "تقـديم يـوم عيـد الفطر"!! ولكنها أفرجت عنه بعد شـهرين بقـرار من المحكمة العليا.

وفي أول نوفمـبر عـام 1972م وبعـد واحـد وثلاثين عامًا من الكفـاح قـدم الإمـام المـودودي طلبًا إلى الجماعة الإسلامية بإعفائـه من منصـبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وعكف على البحث والقـــــراءة بحيث أكمـــــل "تفهيم القـــرآن" و "ســـيرة النـــبي ﷺ". وفي الثـــاني والعشرين من سبتمبر عام 1979 م تُوفِّيَ.

* * * *

من هـذا العـرض لنشـأة الإمـام المـودودي رحمه الله وتطوره الفكري الثقـافي وعملـه في مجـال الـدعوة الإسـلامية يتضـح لنـا أن الإمـام المودودي لم يستهدف منذ أيامه الأولى أن ينـال منصـبًا أو جاهًـا، ولم يحـاول أن يكـون محاميًـا ضـــليعًا، أو أســتاذًا في الجامعـــة، أو سياســيًا كساسة الأحزاب، أو شيخًا من الشيوخ بالطريقة التقليدية..

إنه اختار القراءة والبحث والكتابـة بالإضـافة إلى نشاطه العام والثمار الطيبة التي نتجت عن اقتران العلم بالعمل، وكان من أبرز مواهبه التي ساعدت على نجاح دعوته أنه أوتيَ أسلوبًا سهلاً سـائغًا، وأنـه لم يسـلك أبـدًا مسـلك الفقهـاء التقليـديين أو علمـاء الكلام، كمـا لم يحـاول أن يرفع مستوى حديثه عن مستوى القارئ العـادي بحيث يشق عليه فهمه.

وكان من أبرز قسمات أسلوبه أنه يلجـأ إلى الأمثال والأفكار السـاذجة لتوضـيح فكرتـه، وأنـه عنـدما ينـاقش قضـية عويصـة أو فنيـة فإنـه لا ينسـاق وراء "الفنيـة" المعقـدة، وإنمـا يبسـطها بحيث يفهمها كل واحد.

دعوة الإمام المودودي:

ككـل الأفكـار الكبـيرة، كـانت دعـوة الإمـام المـودودي تتسـم بالبسـاطة والوضـوح، وتقـوم فكرته على مبادئ أساسيات ثلاث:

المبدأ الأول: هو "الحاكمية الإلهية" المنبثقـة من أن الله تعالى هو خالق هـذا الكـون

وخالق الإنسان، ومبـدع كـل شـيء في الوجـود، وأنـه "مـا من ذرة في السـماء والأرض أو نجـوى ثلاثـة أو أقـل إلا يعلمهـا اللـه.." وبنـاء على هذا المبدأ الرئيسي يتفرع المبـدآن الثاني والثالث.

المبـدأ الثـاني: "العبوديـة للـه وحـده" فلا يجـوز للإنسـان أن يشـرك باللـه تعـالى شيئًا.

المبـدأ الثـالث: أن كـل أوضـاع المجتمـع الإنسـاني من سياسـة، واقتصـاد، واجتمـاع يجب أن تتم طبقًا لما أراده الله تعـالى لهـا وفقًـا لمـا شرَّعه في الكتاب والسنة، وأي قـانون أو تنظيم يخـالف ذلـك يعـد نوعًـا من مخالفـة "الحاكميـة الإلهية" ويقرِّب من الشرك.

وقد يبدو أن هذه المبـادئ بـديهيات وأنـه مـا من أحد يعارضها أو يشـك فيهـا، ولكن الدراسـة المتأنية للأوضاع القائمـة تثبت أن هـذه الأوضـاع تختلف بل وتتناقض مـع هـذه المبـادئ؛ فطمـوح الناس هو للشهوات والمناصب والمـال والجـاه، وهم يتقربـون إلى ملـوكهم وأمـرائهم بمـا يكـاد يشبه الشرك، والقوانين سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تعارض مبـادئ الشـريعة، بحيث يكـون الإقرار بهـذه المبادئ مجـرد إقـرار نظـري، أمـا الواقع فهو شيء آخر مختلف تمامًا.

وكـان علَى المـودودي أن يوضـح ذلـك وأن يبين فساد الأفكار والأوضـاع الـتي لا تقـوم على أساس إسلامي.

الجماعة الإسلامية خصائصها وعقيدتها:

لم تكن الجماعة الإسلامية وزملاؤه هيئة كبقية الهيئات، لأنها قامت على أساس بتوفر فيه الإيمان والشمولية..

وأراد المودودي وزملاؤه أن يوجدوا داخل المجتمع المدني الذي غلب على باكستان مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا يتوفر لأعضائه الإيمان والعمل، أو ما أطلق عليه المودودي الشهادة القولية والفعلية، ويخضع لمعايير صارمة هي التي رأى المودودي أنها تتفق مع متطلبات الإسلام.

وأقامت الجماعة في قرية عمرتها بنفسها، واستوطنها صفوة من أعضائها كما لو كانت مدرسة للكبار، وكان من واجبات كل عضو أن يأخذ نفسه بآداب الإسلام وأوامره "فلا يعامل أحدًا إلا على الصدق، ولا يعاقد قريبًا أو أجنبيًا إلا على ما جاء به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة في الشريعة، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة..

فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة – البريطانية – وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام المحاكم التي تحكم بغير ما أنزل الله، وأبوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف).

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد:

فمن الشبان – وهم الأغلبية العظمى – من طرده أبوه وأخرجه من داره وحرم عليه أرضه

ومتاعـه.. ومنهم من أبى ذوو قربـاه أن يُزوِّجـوه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبي وأعفى لحيته التي طالما تعود على حلقها من قبل.

ومن الشـيوخ من ضـربه ابنـه وأهانـه لأنـه تخلَّى عن حياة الجاهلية في شيخوخته.. إلخ! [1].

هـذه هي الشـهادة الفعليـة، أمـا الشـهادة القوليـة فهي أن يبلـغ رسـالة الجمـاع لكـل من يعرف أو يأنس فيه الخير.

وكـان الأعضـاء يـترابطون فيم بينهم بربـاط الفكـرة، فعلى أساسـها ينتخبـون الأمـير، وعلى أساسها تكون طاعة الأمير..

وقـد لا يكـون في هـذه النقطـة جديـد عن مألوف الفكر الإسلامي، ولكن الجديد فيما أشار إليه الأستاذ مسعود الندوي في نظرته الإجماليـة من حرية النقـد لكـل عضـو في نظـام الجماعـة الداخلي، ويعبر عن هذا المعـنى بقولـه: ".. فقـد جـرى العمـل في نظـام الجماعـة من يـوم تأسيسها بأنه ينتقد بعضهم عمل بعض، ويسـتمع الذي ينتقـد عملـه إلى كلام الناقـد بسـعة القلب ورحابة الصدر ويـرد عليـه بـأدب ووقـار إن كـان يرى في انتقاد أخيه ما يحتاج إلى الرد والإيضاح، وكـذلك واجب الناقـد أن لا يصـر على رأيـه أو نقده إذا أرشده المنتقد عمله إلى وجه الصـواب في المسألة، وأيضًا من واجبـات جميـع الأعضـاء أن يدلوا الأمير على مواطن الضعف أو الخلل أو الفسـاد في نظـام الجماعـة في أي فـرع من فروعها، وعلى الأمير أن يستمع إلى أمثـال تلـك

---

1 [(?)] مسعود الندوي ص 103 - 105

الشكاوي ويهتم بالتحقيق في شأنها، وقد جرى العمل بذلك في نظام الجماعة منذ أول عهدها، ولا يزال العمل به جاريًا، وإن أفضى في بعض الأحيان إلى نوع من الخلل في تسيير دولاب العمل"[1].

نقول إن هذه القسمة من قسمات الجماعة الإسلامية كانت جديدة وقتئذ في عالم الهيئات، وقد استلهمتها الجماعة بالطبع من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب النصح لعامة المسلمين وخاصتهم.

ويمكن أن تكون "صمام أمن" ضد استشراء الفساد في أوضاع الجماعة وأفرادها، ولكن يشوب تطبيقها محاذير عديدة وشبهات قد تودي بأهميتها، ويمكن في بعض الحالات استغلالها والأسلوب بعد، من الأساليب المطبقة في الأحزاب الشيوعية، ويمكن أن تسلطه بعض القيادات على المعارضين لها بحق أو بدون حق.

وعندما قامت الجماعة في السادس والعشرين من أغسطس عام 1941 م وضعت دستورها، ويغلب أن يكون المودودي هو الذي وضع بنفسه المواد الجوهرية الخاصة بالغاية والوسيلة لأنها تكاد تكون قطعة من كتاباته.

وظل الدستور الذي وضع عام 1941 ساري المفعول حتى عام 1952 أي حوالي أحد عشر عامًا تمت خلالها أحداث جسام كان منها قيام "باكستان" دارًا للإسلام، فانتخب أعضاء

---

1 [(?)] ص 108

الجماعـــة في المـــؤتمر لجنـــة لوضـــع دســـتور الجماعة.

ولكن لم يمض زمن طويــــل على وضـــــع الدســتور الجديــد حــتى شــعرت الجماعــة إزاء التطورات الحثيثة بضرورة المزيد من التعديلات، فعينت في الســادس والعشــرين من أغســطس عــام 1952م لجنــة حملت اســم "لجنــة تعــديل الدســتور"، ولكنهــا لم تتمكن من إنجــاز مهمتهــا لانصــراف الجماعــة بكليتهــا إلى القيــام بحملــة شــاملة لمطالبــة بدســتور إســلامي للباكســتان، ولاعتقـــال الإمـــام المـــودودي، وصـــدور حكم بإعدامه حتى أطلقته المحكمة العليا عام 1955 م..

وأصدر المؤتمر العـام للجماعـة (17 –ـ 21 فبراير عام 1957م) عددًا من القرارات الخاصة بتعديل الدستور كله ذات طابع إداري.

المهم أن المواد الجوهريــة الخاصــة بعقيــدة وغايـــة الجماعـــة لم تمس منـــذ وضـــعت عـــام 1941م، ونظرًا لأهميتها فمن المهم إثباتها هنا:

فتحت عنـوان "عقيـدة الجماعـة الإسـلامية" جاء:

المــادة الثالثــة: عقيــدة الجماعــة الإســلامية الأساسية هي: لا إله إلا الله محمد رســول اللــه. والمــراد من الجــزء الأول من هــذه العقيــدة أي كون الله إلهًا واحدًا دون غــيره، هــو: أن كــل مــا في السماوات والأرض فالله خالقه وربه ومالكه وهو حاكمه.

ومن مستلزمات هذه العقيدة بعد فهمها والإقرار بها:

أن لا يعتقد الإنسان فيما دون الله وليًا له ووكيلاً، وقاضيًا لحاجاته، وكاشفًا لمشكلاته، ومجيبًا لدعواته، فغير الله لا يملك بتاتًا سلطة من السلطات المطلقة.

أن لا يعتقد في غير الله أنه ينفعه أو يضره. وأن لا يتقي أحدًا غيره. ولا يخاف إلا إياه، ولا يطمع إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، فالله وحده مصدر جميع السلطات.

أن لا يدعو إلا الله، ولا يتعوَّذ إلا به[1]، ولا يستعين إلا به، ولا يعتقد في غيره أن له ضلعًا ونفوذًا في التدابير الإلهية، أو أن شفاعته تبدل قضاء الله وقدره فالجميع في مملكة الله، سواء من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، ليسوا إلا رعيته التي لا تملك شيئًا إلا بإذنه.

أن لا يطأطئ رأسه أمام غير الله, ولا يعبد إلا إياه، ولا ينذر إلا له، ولا يتعامل مع أحد غير الله ما كان يتعامله المشركون مع آلهتهم. فالله هو وحده يستحق أن يؤدي له كل أنواع العبادة.

أن لا يسلِّم لغير الله بأنه ملك، أو مالك الملك، أو مصدر السلطة العليا. ولا يعترف لأحد غير الله بحقه في الأمر والنهي بناءً على سلطته الذاتية. وكذلك لا يؤمن بغير الله شارعًا ومقننًا مستقلاً بذاته. ويرفض كل طاعة لا تتبع طاعة الله ولا تلتزم بأحكام الله. فالله وحده هو مالك

1 (?) في الأصل منه. ولعل الخطأ جاء من ترجمة الأصل الأوردي.

حقيقي لملكـه وخـالق حقيقي لمخلوقـه. وليس لغيره أبدًا حق الملكية والحاكمية بصفة مطلقة.

ويستوجب بعد قبول هذه العقيدة:

أن يتنازل الإنسان عن حريتـه وسـيادته، وأن يتخلَّى عن اتباع أهوائه، وأن يكـون عبـدًا منقـادًا مخلصًا لله الذي آمن به إليها دون منازع.

أن لا يزعم لنفسه مالكًا حقيقيًـا لأي شـيء، بـل يـؤمن بـأن كـل مـا عنـده من الأشـياء حـتى نفســه، وجوارحــه، مواهبــه الذهنيــة، وقــواه الجسدية ملك لله عز وجل ووديعة له عنده.

أن يعتبر نفسه مسؤولاً أمام اللـه، ومحاسـبًا عنده. ولا يغيبن عن باله، ولا للمحـة من البصـر، حيث اسـتخدامه قـواه ومواهبـه وعنـد سـائر تصرفاته ومعاملاته أنه سوف يحاسـب على كـل شيء من ذلك.

وأن يجعـل رضـي اللـه مقيـاس مـا يحبـه، وسخط الله مقياس ما لا يحبه.

وأن يجعل ابتغاء مرضاة الله، والتقـرب إليـه غاية جهوده ومناط حياته.

وأن يجعل ابتغـاء اللـه، والتقـرب إليـه غايـة جهودة ومناط حياته.

وأن يتخذ هدى اللـه هـو الهـدى في أخلاقـه، ومعاملاتــه، وحياتــه الاجتماعيــة، والتمدنيــة، والاقتصـادية والسياسـية حـتى في كـل أمـر من أمـور الـدنيا، وأن يـرفض كـل طريـق أو ضـابط يخالف شريعة الله.

والمراد من الجزء الثـاني من هـذه العقيـدة أي محمد رسول الله: أن محمدًا صلى الله عليه

وسلم هو آخر الأنبياء، وبواسطته أرسل الله رب العـالمين ومالـك هـذا الكـون الهدايـة الحقيقيـة والأحكام المعتمدة إلى الناس كافة، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يكـون بتطـبيق هـذه الهدايـة والأحكـام المعتمـدة في حياتـه العمليـة مثـالاً يحتذى وقدوة يُقتدى بها.

ومن مسـتلزمات الإيمـان بهـذا الجـزء من العقيدة:

أن يقبل الإنسـان، بـدون تلكـؤ، كـل مـا ثبت من محمد من تعليم أو هدى.

وأن يكون له الكفاية، بصدد الأخذ بشـيء أو الكف عنه، في أن ذلك مما أمر بـه رسـول اللـه ، ولا تستند طاعته على أي دليل آخر سواء.

وأن لا يقبـل أحـدًا سـوى الرسـول هاديًـا ومرشدًا مستقلاً بالذات. ولا تكـون طاعتـه لأحـد غـيره إلا تابعـة لكتـاب اللـه وسُـنة رسـوله، لا منفصلة عنهما.

وأن يتخذ كتاب الله وسنة رسـوله مصـدرين للاحتجـاج والاسـتناد في كـل شـأن من شـؤون الحيـاة، وكـل رأي أو عقيـدة أو طريـق يوافـق الكتاب والسنة يأخذ بـه، وكـل رأي أو عقيـدة أو طريق يخالفهما يرفضه. ويجب أن يرجـع إليهمـا في كل معضلة تتطلب الحل.

وأن يـنزع من قلبـه كـل نـوع من العصـبيات سـواء أكـانت شخصـية، أو عائليـة، أو قبليـة، أو عنصـرية، أو قوميـة، أو وطنيـة، أو طائفيـة. ولا يشـغف بأحـد حبًـا أو تقـديرًا يفـوق حب وتقـدير الحق الذي جاء به النبي ، أو يدانيه.

وأن لا يتخذ بشرًا سوى الرسول عليه الصلاة والسلام مقياسًا للحق، وكذلك لا يرى أحدًا يفوق الانتقاد والسؤال عما يفعل، وأن لا يقع في العبودية الفكرية لأحد من الأشخاص سواه . بل يضع كل شخص على ذلك المقياس الكامل الذي وضعه الله سبحانه وتعالى. ويضع كل شخص في نفس المكانة التي هي له بموجب ذلك المقياس.

وأن لا يقبل لأحد جاء بعد النبي مقامًا يكون الإقرار به أو إنكاره حاسمًا لكون المرء مؤمنًا أو كافرًا.

* * * *

وتحت عنوان "الغاية التي تستهدفها الجماعة الإسلامية بباكستان" جاء:

المادة الرابعة: أن غاية الجماعة الإسلامية ومناط جميع جهودها هو: إقامة دين الله (أو إقامة "الحكومة الإلهية" أو "إقامة النظام الإسلامي") واقعًا، وكسب مرضاة الله والنجاة في الآخرة أصلاً.

بيان ذلك: أن "الدين" و "الحكومة الإلهية" و "النظام الإسلامي للحياة" كل تلك الكلمات تعبر عن مفهوم واحد لدى الجماعة الإسلامية. فإنَّ المعنى الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بكلمة: "إقامة الدين" (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ : سورة الشورى: 13) تعبِّر الجماعة الإسلامية عن نفس المعنى بكلمات: "الحكومة الإلهية" (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ سورة يوسف: 40) أو إقامة "النظام الإسلامي للحياة" فإن مغزى تلك الكلمات الثلاث واحد وهو: أن يخضع الإنسان

للشريعة التي أنزلها الله بالوحي عن طواعية النفس في نطاق حياته الذي منح الله له فيه الحرية والخيار، على غرار ما تخضع كل ذرة في الكون للنواميس الإلهية الكونية رضيت أم أبت (أي القوانين الطبيعية التي سنها الله للكون). والخضوع للشريعة الإلهية يتمثل في منهج للحياة يعبر عنه "بالدين" وهو المراد مما يصطلح عليه "الحكومة الإلهية" أو "النظام الإسلامي للحياة".

وليس المراد من إقامة دين الله إقامة جزء معين منه، بل إقامة دين الله كاملاً غير منقوص، سواء فيما يرجع إلى الحياة الفردية، أو الحياة الاجتماعية، أو إلى الصلاة والصيام والحج والزكاة، أو إلى الاقتصاد والاجتماع والمدنية والسياسة. إذ ليس في الإسلام ولا جزء بسيط منه يعتبر غير ضروري. فالإسلام كله ضروري. وعلى المؤمن أن يبذل جهده في إقامة الإسلام كاملابدون أن يقسمه إلى أجزاء. فالجزء الذي يتعلق بحياة المؤمن الفردية يقيمه المؤمن في حياته بصفة فردية. والجزء الذي لا تتم إقامته إلا بالكفاح الاجتماعي على المؤمنين أن يكونوا لإقامته نظامًا جماعيًا ويبذلوا له جهودًا متضافرة.

وإن كان الهدف الحقيقي للمؤمن في حياته ابتغاء مرضاة الله والنجاة في الآخرة. إلا أن هذا الهدف لا يتحقق أبدًا إلا ببذل المساعي في إقامة دين الله في الأرض. وعلى هذا يكون هدف المؤمن الواقعي إقامة الدين، وهدف

المؤمن الحقيقي ابتغاءَ مرضاة الله التي لا تـأتي إلا ثمرة للجهود التي تُبذل في إقامة دين الله.

* * * *

وتحت عنـــوان المنهج الـــدائم للجماعـــة الإسلامية جاء:

المـادة الخامسـة: تتخـذ الجماعـة المبـادئ التالية منهجًا دائمًا لها:

إنهـا تنظـر، قبـل أن تقـرر أمـرًا أو تخطـو خطـوة، مـا هـو توجيـه اللـه ورسـوله في ذلـك البـاب. أمـا المصـالح الأخـرى فإنهـا تضـعها في الدرجة الثانية، وتراعيها بقدر ما يكون لها متسـع في الإسلام.

إنهـا لا تسـتخدم أبـدًا لتحقيـق غايتهـا ونيـل أهدافها الأساليب والوسائل التي تنـافي الصـدق والأمانة أو تثير الفساد في الأرض.

أنهـا تمـارس الطـرق الدسـتورية والقانونيـة للقيـام بالإصـلاح الـذي تنشـده، والانقلاب الـذي تستهدفه، وبكلمة أخرى أنهـا تركـز عنايتهـا على استصلاح الأذهـان والسـلوك بالـدعوة، والإقنـاع، ونشر المفاهيم الصحيحة عن الإسلام. كمـا أنهـا تحاول أن تكتسب تأييد الرأي العام للتغيير الذي وضعته نصب عينيها.

لا يقـوم كفاحهـا لأجـل الوصـول إلى غايتهـا على النشـــاط الســـري على غـــرار الحركـــات السرية في العالم، بل إنها تعمـل كـل مـا تعمـل علنًا وفي وضح النهار.

* * * *

مع أن العرض السابق يقدم فكـرة الجماعـة بقدر من الوضوح، فإن هذه الفكرة لا تفهم على حقيقتها، ولا تعرف الأصول والجذور التي أثمرتها إلا بالتعرف على هذه الفهم الخاص والمعين لما جاء بها من تعبيرات، وهـو مـا قدمـه المـودودي في كتابـه الشـهير: "المصـطلحات الأربعـة في القـرآن: الإلـه.. الـرب.. العبـاده.. الـدين" الـذي كتبه في السَّـنة الـتي شـاهدت تكـوين الجماعـة الإسلامية.

وقدم المودودي لكتاب المصطلحات الأربعـة بمقدمة جاء فيها:

"إذا كان الإنسان لا يعرف ما الإله وما معنى الرَّب وما العبادة وما تطلـق عليـه كلمـة الـدين، فلا جُرم أن القرآن كله سيعود في نظـره كلامًـا "مهملاً" لا يُفهم من معانيـه شـيء، فلا يقـدر أن يعــرف حقيقــة التوحيــد أو يتفطن إلى ماهيــة الشــرك، ولا يســتطيع أن يخص عبادتــه باللــه سبحانه أو يخلص دينه له، وكذلك إذا كان مفهوم تلــك المصــطلحات غامضًــا متشــابهًا في ذهن الرجل وكانت معرفته بمعانيهـا ناقصـة، فلا شـك أنه يلتبس عليه كل ما جاء به القرآن من الهـدى والرشاد، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مـع كونه مؤمنًا بالقرآن..

فإنـه لن ينفـك يلهج بكلمـة "لا إلـه إلا اللـه" ويتخذ مع ذلك آلهـة متعـددة من دون اللـه، ولن يـبرح يعلن أنـه لا رب إلا اللـه، ثم يكـون مطيعًـا لأرباب من دون الله في واقع الأمر.

إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنـه لا يعبـد إلا الله ولا يخضع إلا له، ولكنه مع ذلك يكون عاكفًـا على عبادة آلهة كثيرة من دون الله.

وكـذلك يصـرح بكـل شـدة وقـوة أنـه في حظيرة دين الله وكنفه، وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الإسلام هجم عليه وناصبه الحـرب، ولكنه يبقى مع ذلك متعلقًا بأذيال أديان متعددة، ولا شك أنـه لا يـدعو أحـدًا غـير اللـه تعـالى، ولا يسميه بالإله أو الرب بلسانه، لكن تكون له آلهة كثـيرة وأربـاب متعـددة من حيث المعـاني الـتي وضعت لها هاتان الكلمتان، والمسـكين لا يشـعر أصلاً أنه قد أشرك بالله آلهة وأربابًـا أخـرى، وإذا نبَّهته إلى أنه عابـد لغـير اللـه ومقـترف للشـرك في الدين لانقض عليـك يخمش وجهـك.. إلا أنـه يكون عابدًا لغير اللـه حقًـا وداخلاً في غـير دينـه بـــدون ريب من حيث مغـــزى (العبـــادة) و (الدين) وهو لا يـدري مـع كـل ذلـك أن الأعمـال التي يرتكبهـا هي في حقيقـة الأمـر عبـادة لغـير اللـه، وإن الحالـة الـتي قـد سـقط فيهـا هي في نفس الأمر دين ما أنزل الله به سلطان" انتهى.

وهذه الكلمات تمثل منهجين:

منهج يجهـل صـاحبه فيخطئ ولا يتعمـد هـذا الخطأ، بل إن نيَّتـه صـحيحة وسـليمة دون ريب، لأنه لا يريد شركًا، وإنما يريد إيمانًا بالله..

ومنهج آخر يتلمس الحقيقـة، ولكنـه لا يـأمن التعسف، فيقع في الخطأ ويؤدي إلى الضلال.

وهناك الكثيرون الذين يفضلون الجهـل على الضلال.

إن أحدًا من الصحابة لم يدَّعِ أنه يُلِمُّ بكل ما جاء في القرآن الكريم كلمة كلمة، وقد آثروا الجهل ببعض ما جاء به بدلاً من أن يتكلفوا البحث ويتعسفوا السبل وما قد يؤدي هذا إلى ضلال، وكلمة عمر بن الخطاب تجاه كلمة "أبا" تمثل ذلك.

وأعاد المودودي سبب هذا الفهم الخاطئ إلى سببين:

"الأول: قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة.

والثاني: أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقيَ لهم من معاني: الإله.. الرب.. العبادة.. الدين ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن".

وعرض هذين السببين هو صورة من صور التعسف التي أشرنا إليها، والاجتهاد الفائق الذي قد يقود صاحبه إلى الخطأ..

ومن أقرب الأمثلة على هذا أن المودودي ذهب إلى أن عرب الجاهلية؛ وكذلك قوم نوح، وإبراهيم، ولوط، وموسى.. إلخ كانوا يعرفون الله، ويؤمنون به، ولكنهم "أشركوا" به عندما آمنوا بآلهة أخرى تشفع.. أو: تقربنا إلى الله زُلفَى ودلل على هذا بآيات كثيرة..

هذا صحيح، ولكن آيات أُخرى صريحة في أن هناك من ينكر وجود الله كلية: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾[1].

---

[1] (?) الجاثية: 24

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾([2]).

والأمر لا يقتصر على خطأ أكاديمي يقع فيــه باحث، لكنه استنتاج تترتب عليه عواقب خطيرة، الأمـر الـذي أدَّى إلى أن يتصـدَّى لـه كاتبـان من أبرز الكتاب الإسلاميين..

أولاهما: الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الأسـبق للإخوان المسلمين:

وثانيهما: الإمـام أبـو الحسـن النـدوي علاَّمـة الهنــد الــذي يماثــل – علمًــا وكفاحًــا وفضــلاً – المودودي.

قـال الأسـتاذ الهضـيبي – رحمـه اللـه – في كتابـه المشـهور "دُعـاة لا قُضـاة" بعـد أن أورد الفقرة السابقة من المصطلحات:

- "وقد رتب البعض على ذلك الـذي قـدمناه من كلام الأسـتاذ المـودودي نتـائج وبنـوا عليهـا أحكامًا زعموا أنهـا مقتضـى شـريعة اللـه تعـالى فقالوا:

إنه لمـا كـان النـاس الآن لا يعرفـون حقيقـة معنى كلمات الإله والرب والعبادة والدين، فإنهم إذ يرددون شهادة "لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول الله" إنما يرددون كلامًا لا يدركون حقيقة معنـاه، وهم لا ينطقون بالشـهادة الـتي كـان ينطـق بهـا العربي حين البعثة؛ لأن هـذا كـان على بينـة من معـنى مـا كـان يشـهد بـه ويقـرره. ولـذا كـان الرسول ﷺ يقبل تلك الشهادة المعلـوم مضـمونها ومفهومها لمن أدَّاها. ويعتمدها حكمًـا بإسـلامه.

---

2 [(?)] الطور: 35 – 36

أمـا الآن فإننـا لا نسـتطيع أن نعتمـد إسـلام من نطـــــــــــــق بالشـــــــــــــهادتين، ما دام لا يـدرك حقيقـة مفهومهـا، وواقـع الحـال شــاهد على ذلــك، إذ أن كثــيرًا ممن ينطقــون بالشـهادتين يـأتون في نفس الـوقت أعمـالاً هي الشرك بعينه. كمـا أن واقـع حيـاة النـاس يشـهد بخـــروجهم على أحكـــام الـــدين فيمـــا يتعلـــق بأنظمتهم السياسية، والاجتماعيـة، والاقتصـادية، وسائر شئون حياتهم، مع إصرارهم على النطــق بالشهادتين، والـزعم بـأنهم مسـلمون، وخلصـوا من ذلك إلي: أن لا يعتبر مسـلمًا تجـوز معاملتـه على هذا الأسـاس والصـلاة وراءه إلا من تأكـدنا من فهمه لحقيقة معاني الشهادتين ومفهومهما.

وزاد البعض على ذلك أنه لابد بالإضــافة إلى تأكُّدنا من عِلم النـاطق بالشـهادتين بمفهومهمـا أن يقوم عمله شاهدًا على صـدق مـا نطـق بـه، ومؤيـدًا لــه حــتى يعتــبر مسـلمًا. فـإن لم تكن أعمالــه مصـدقة لشـهادته فإننـا لا نسـتطيع أن نحكم بإســلامه، فلا نعتــبره مســلمًا. واحتجــوا بـالقول المنسـوب إلى الرسـول عليـه الصـلاة والسلام: "ليس الإيمـان بـالتمنِّي ولكن مـا وقـر في القلب وصدَّقه العمل".

اعتراض علَى بعض ما قرره الأستاذ المودودي:

- ونــرد أولاً على التقريــر بــأن معــاني الألوهيــة والربوبية والعبادة والدين كانت شائعة معروفة بين العـرب من قبـل البعثـة وإنهـا قـد ضـاعت وتبدلت وانحصـرت في معـانٍ ضـيقة محـدودة غير ما كانت تتسع له من قبل.

- فنقول بعون الله: إن هذا التقرير لا يتفق مع الواقع، ذلك أنه أيًا كانت المعاني التي كانت شائعة في الجاهلية لتلكم الكلمات فإن القرآن الكريم قد جاء محددًا ما يقصده من كل منها. معرفًا المفهوم المعنِيّ من كل لفظة من ألفاظها. مبينًا ذلك غايةٍ البيان، مُجليًا المعنى المراد بما لا يدع مجالاً للبس أو غموض – وهذا البيان القرآني قد أغنى عن الرجوع إلى أصل تلك الكلمات في اللغة وما كان لها من معانٍ قبل نزوله، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والأشمل والأجل، بل هو الذي يتعين الأخذ به والتسليم بمقتضاه سواء وافق ذلك ما كان قبل نزوله أم لا.."[1].

واستطرد الكتاب في ذكر الآيات التي توضح معنى "الإله" و "الرب"، والتي تكشف كل الأبعاد – وليس بعض الأبعاد – التي عرضها القرآن الكريم لمعاني الكلمة، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لكلمتي "العبادة" و "الدين".

أما رد الإمام الندوي فقد ظهر في كتاب باسم "التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب" باللغة العربية [2] ويكاد يكون الكتاب نقدًا لفكر المودودي في المصطلحات الأربعة..

ولا يخالجنا شك في أن الدافع للندوي – كما هو بالنسبة للهضيبي إنما هو الإيمان والغيرة على الحقيقة.

---

1 (?) ص 19 – 20

2 (?) وكان أصله باللغة الأوردية يحمل عنوان "تفهيم الدين وتفسيره في العصر الحاضر في مرآة كتابات الأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب".

وقد أشار العلاَّمة النـدوي إلى نقطـة دقيقـة جدًا لم يعرض لها كتاب "دُعاة لا قُضـاة" وغمض فهمــه على ناقــد الكتــاب[3] تلــك هي "الــذوق الإســلامي" ونحن لا نعــرف أصــل الكلمــة في الأوردية، ولعل مترجمها لم يوفق تمامًــا، وأغلب الظن أن المقصود بها "الحس" الإسلامي.

فبعـد أن أشـار العلاَّمـة النـدوي إلى الحاجـة إلى عـرض الإسـلام وتفهيمـه وتفسـيره حسـب مقتضيات العصر قال:

- "لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ما هـو واجب ضـروري فيجب على الـذين يحـاولون أن يقوموا بعملية عـرض الإسـلام وتفهيمـه وتقريبـه إلى القلوب والأذهان أن يلازموا الحيطة والدقــة على طول الطريـق في تحقيـق غـايتهم وإكمـال مهمتهم حــتى لا يتكــون – على غفلــة منهم عن غــير إرادة وقصـد لهم – لـدى الجيـل الجديـد الــذي يــراد تعريفــه بحقــائق الإســلام وترســيخ عقائده في قلبه أو بقصد استخدامه لإعلاء كلمـة الله ورفع منـار الإسـلام ذوق ديـني مختلـف عن الــذوق الــديني الــذي كــان يتســم بــه الجيــل الإسلامي الأول بفضل تلقيه التربيـة في أحضـان النبوة مباشرة".

لم يفهم ناقد الكتاب ما الـذي أراده النـدوي بتعبـير "الـذوق الإسـلامي"، وبـدلاً من أن يجهـد نفســه في البحث عن معنــاه، فــإن مضــى في طريـــق المـــودودي نفســـه يثبت أن "الـــذوق

---

[3] (?) لم نقـع على كتـاب النـدوي ولكن على الـرد عليـه باسم "التفسير الحقيقي للإسلام" تأليف سـيد أحمـد القادري رئيس تحرير مجلة زندكي (الحياة).

الإسـلام" لـدى الصـحابة كـان هـو الحـذر من الشرك وتوحيد الله تعالى بالعبادة.. إلخ.

والـذي أراده العلاَّمـة النـدوي بـ: "الـذوق الإسـلامي"، أو "الحس" الإسـلامي هـو تـوفر التعرف على: "طبيعة الإسلام" من كافة أبعادها، وليس من بُعد واحد.

هذه الطبيعة التي تضع في إعتبارها الضـعف البشري ونواميس المجتمع والسُّنن التي وضـعها الله تعالى، والتي تجري المعادلة بين "المثال" و "الواقـع"، بين مـا يفـترض ومـا يمكن الوصـول إليه، وما تتفهمه من عدم تحميل النفوس بمـا لا طاقة له به، بل وما يجاوز وسعها (والوسع أخف من الطاقـة) والـتي تضـع الآيـات عن العـذاب بجانب الآيات عن الرحمة، والتي تهتدي – بمجرد الحس والـذوق – إلا أن كـل وسـيلة من وسـائل التشـدد في التكـاليف أو القسـر في مجـال الإيمان، أو التعسـف في الفهم تـؤدي إلى نتـائج مضاده.

وإن الله تعـالى – وهـذا أصـل عظيم – خص نفسه بالفصل في الخلافات يوم القيامة.

ولو توفر هذا الحس لـدى الإمـام المـودودي لمـا انتهى إلى أن كـل معـاني "المصـطلحات الأربعـة" تصـب في "السـلطة"، وأن أصـل الألوهيـة وجوهرهـا هـو "السـلطة"، وأن كلاً من الألوهيـة و "السـلطة" تسـتلزم الأخـرى؛ وأنـه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح.

فبجانب الآيـات العديـدة الـتي استشـهد بهـا المودودي، والتي تؤدي بالفعل إلى هذا المعـنى،

هناك آيات أخرى تعطي مضـمونًا مختلفًـا، فاللـه تعالى غنيٌّ عن العالمين، وهو سـبحانه لا يعامـل الناس بأعمالهم قدر مـا يعـاملهم برحمتـه، فهـو الـرحمن الـرحيم، الغفَّار التـواب وهـو تعـالي "الحق".

وإنه حتى في إطار السلطة، فإن من الخطأ أن نتصور سلطة الله بالمعنى البشري للسلطة، أو السلطة بالنسبة للقضايا الدنيوية.

وهنـاك نبـذة صـغيرة تجمـل رأي المـودودي في الإنسان بالنسبة لله تعالى:

- " قـد سـبق لي القـول من قبـل مـرة بعـد أخرى أن الإسلام يستهدف أن يدخل حياة المرء بجميع مظاهرها في عبادة الله ويصفها بصـفتها. الإنسان خلق عبدًا – والعبودية هي فطرتـه الـتي فطره الله عليها – فليس له أن يكون حرًا لا في فكره، ولا في عمله، - من هـذه العبوديـة. عليـه أن ينظر في جميع مظاهر حياتـه وجميـع أوقاتـه ما هو رضا الله؟ وما هو سـخطه ليتخـذ مـا كـان يرضي الله ويبتعد عما يسخط الله – ابتعاده عن النار – ويسلك المسلك الذي يحبـه اللـه ويجتنب الطريق الذي يبغضه. وإذا رأيت أحدًا قد صـيغت حياته في هذا القـالب صـياغة كاملـة فـاعلم أنـه أدَّى حـق عبوديتـه لسـيده ومـولاه وأتم الغـرض المنشـود لآيـة ﴿ وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (1).

---

1 (?) استشهد بها في كتاب الـرد على كتـاب.. التفسـير السياسي للإسلام للشـيخ أبي الحسـن على النـدوي. تأليف سيد أحمد القادري ص 83 " دار المنهل جـدَّة. والفقـره المستشـهد بهـا من الجـزء الثـالث من

* * * *

لقد أسهبنا شيئًا ما في عرض فكرة العلاَّمـة المـودودي عن "الحاكميـة الإلهيـة" و "عبوديـة الإنسان" وما استخلصه منهـا من أن أي مجتمـع لا يتحقق فيه هذان هو "جاهلية" لأن هذا الثالوث "الحاكمية الإلهية – عبودية الإنسان – الجاهليـة" تمثـل إضـافة العلاَّمـة المـودودي في الـدعوة الإسلامية وعنه اقتبسته كل جماعـات "الرافضـة الجديـدة" بـدرجات متفاوتـة. ولمـا كـان الرجـل أستاذًا وحجة أمضى حياته كلها لخدمة الإسـلام. ولما كان إيمانه وأخلاقـه ليس محـل شـك، فـإن هـذا الثـالوث الـذي انتهى إليـه اكتسـب جاذبيـة كبيرة لجِدَّته، ولظاهر الصدق، ولمنزلـة الداعيـة. ولما كنا نؤمن إيمانًا تامًا لا يتطرق إليك شـك أن اجتهاد المودودي في هـذا خالفـه التوفيـق. وأنـه بـني على مقـدمات خاطئـة، فإننـا أسـهبنا في عرض فكرته حتى لا يقال أننا ابتسرناها ابتسارًا، فنقلنـــا من دســـتور الجماعـــة ومن كتـــاب "المصطلحات الأربعة" ومن كتبه الأخرى..

أما تحفظاتنا على هذه الإضافة كلهـا فتقـوم على:

أولاً: أن العلاَّمة المودودي وقع في "إسـقاط" بشري على الطبيعة الإلهية وتصـور سـلطة اللـه تعالى وحاكميته كما لو كـانت سـلطة ملـك على شعبه أو قائد على جنده. أو مالك بعبيـده. وكـان من أبرز الأدلة على ذلـك الأمثلـة العديـدة الـتي أراد أن يوضـع بهـا هـذا الفهم، وأوردنـا بعضـها [أنظـر أيضًـا ص 296] ومثـل هـذا القيـاس

"خطبات".

خاطئ تمامًا لانتفاء التماثل في العلة "كما يقول الإصـوليون" إن لم يكن مسـتبعدًا أصـلاً. فاللـه تعالى غـنيٌّ عن العـالمين، لا تضـره معصـية، ولا تنفعه طاعة – وأي مالك ليس غنيًـا عن عبيـده – ولا هـو في حصـانة من معصـيتهم، أو غـنيًّ عن طاعتـه وعلم اللـه تعـالى الـذي يفصـل بـه بين العبـاد. ويحكم بـه على الأعمـال يتسـامى عن فهمنـا المحـدود المتـأثر بالعوامـل الذاتيـة ونحن يتملكنـا الغضـب لأنفسـنا وتأخـذنا العـزه عن المخالفـة – ونحـرص على ذواتنـا، وأموالنـا، ومراكزنـا وسـلطاننا.. ونحاسـب تبعًـا لقواعـد الحسـاب.. وهـذا كلـه شـيء لا يمكن أن ينسـب إلى اللـه تعـالى - فرحمـة اللـه أعظم ممـا نتصورها – وخزائنه لا تنفد. وهو يكافِئ بسبعمائة ضعف وأكثر. وعلمـه وحكمتـه تجعلـه ينظـر إلى المخالف نظـرة العـارف المتعـالِ: وهم يقولـون عن البشر "من يعرف أكـثر.. يغفـر أكـثر.." وأن معاملـة الفيلسـوف الحكيم تختلـف عن معاملـة العسكري الفـظ.. وهـذا كلـه بالنسـبة للأدمـيين، فما بالـك باللـه رب العـالمين. إنـني لأخشـي أن المودودي رحمه الله في حماسته لتدعيم وجهـة نظره كاد أن يقرب من تجسيم إن لم يكن ماديًا – فهـو فكريًـا.. وأراد أن تُمحَى كـل إثـاره من إثارات الشرك.. فكاد أن يقـع فيمـا يماثـل ذلـك عندما كيَّفَ الطبيعة الإلهية تكييفًا بشريًا.

ثانيًا: أن العبوديـة للـه لا تعـني – كمـا تصـور المـودودي – انعـدام حريـة الإنسـان في الأرض. والتصـور الـذي قدمـه المـودودي للعبوديـة الإنسانية الذي رتب عليه انعدام الحريـة يخـالف

مخالفة تامة التصور الإسلامي للحياة واستخلاف الإنسان على الأرض وإرصاد الشـياطين لغوايتـه وإرسال الأنبياء لهدايته. وما ينبـني على هـذا من وجود حرية في التصدي وعقل للتكـييف. وكلمـة حريـة وعقـل همـا من المحرمـات في كتابـات وآداب "الرافضة الجديدة" - كما يندر أن نجدهما في كتابـات المـودودي، وإغفالهمـا، مـع التركـيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الـذي أراده الإسلام، ولـو أعطت كتابـات المـودودي الحريـة الإنساني. والعقل الإنساني جزء ممـا ركزتـه في العبودية – لاختلف التكـييف – ولكـان هـذا أدعى لهداية الإنسان من تجاهلهما..

ولمـا كـانت دعـوة العمـل الإسـلامي، الـتي تشغل الباب الثاني من هذا الكتاب تعـرض بنـوع من الإسهاب والتفصيل تصـورًا - إسـلاميًا لوضـع الإنسان في الأرض يختلف عن تصور المـودودي – فإننا نحيل القارئ عليه..

ثالثًا: يختلف الطـابع العـام لإحكـام المـودودي ومنطلقاتـه من الطـابع العـام الـذي نجـده في القرآن وفي الحـديث. ففي هـذين نجـد العقيـدة وتوجيهاتهـا تعـرض "كمثـال" ونجـد الطبيعـة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها.. تعـرض كواقـع. وتتجـاوب الأحكـام مـع تلاقي المثـال بالواقع.. ومدى إخضاع الواقـع للمثـال، أو مـدى توصل الواقع إلى المثـال. ومن أجـل هـذا يقـرر القرآن لاَ يُكَلِّفُ اللـهُ نفسًـا إِلاَّ وُسْـعَهَا وكـان الرسول أيضًا عندما يبايع المؤمنين يردف" فيمـا استطعتم" وهذه اللمسـات الإلهيـة والنبويـة في معاملة الإنسان والمعرفـة بالطبيعـة البشـرية لا

نجـدها في أحكـام المـودودي الـتي تـنزع نحـو تطبيق المثال كاملاً غير منقـوص، وتميـل بصـفة عامة للتشدد. والإسلام دين اليسـر. وتريـد قيـام مجتمــع كامــل لا يتضــمن نقصًــا. في حين أن الإسلام افـترض وجـود التقصـير والضـعف أمـام الإغراء، بل إنه افـترض حـدوث الكفـر. ولم يكن هذا في حد ذاتـه ليعـني الإسـلام وقـد وجَّه اللـه تعالى نبيه إلى أن لا يحزنه الذين يسـارعون في الكفر لأنه تعالى – لا تضـره معصـية – ولا تنفعـه طاعة – فمن اهتدى فإنما يهتـدي لنفسـه.. ومن ضل فإنما يضل عليهـا ومن شـاء فليكفـر.. ومن شاء فليؤمن. وقد أراد الله تعالى لهذه الـدنيا أن تضم الكفرة – وغير المؤمنين والمعانـدين إلخ،.. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَـرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾.

رابعًا: أن الإلحاح على فكرة العبودية للـه مـع استبعاد أية إشـارة إلى حريـة أو عقـل يمكن أن يوظـف لخدمـة الحكـام والنظم ويفتح الطريـق لهمـا. لأنـه مـع اسـتبعاد العقـل والحريـة، تنبهم العبودية، ولا يمكن التفرقة بين أن تكـون للـه أو لغـير اللـه، ويمكن أن يصـبح الإنسـان عبـدًا للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل.

* * * *

بعد العرض السابق لتحفظاتنا على العقيـدة الخاصة للجماعة الإسلامية وما قدمته من إضافة في شـكل ثـالوث "الحاكميـة الإلهيـة العبوديـة الإنسانية الجاهلية" نقـول إن ممـا يثـير الدهشـة أننا لا نجد في دستور الجماعة ولا الملاحق الـتي

أضيفت إليه طوال ثلاثين عامًا تصورًا محددًا – أو شبه محدد – للدولة الإسلامية. ونحن بالطبع لا ننتظر أن يتضمن الدستور أو ملاحقة تصورًا تفصيليًا للدولة الإسلامية، فهذا بالطبع ما يضيق عنه الدستور – وما لم تجربه العادة. ولكن لما كانت قضية الدولة الإسلامية محورية في فكر الجماعة الإسلامية. وأنها هي هدفها، فكان من المفروض أن يقدم الدستور القسمات الرئيسية لهذه الدولة – لأن المذاهب الإسلامية تتفاوت في فهم هذه القضية تفاوتًا قد يصل من النقيض إلى النقيض، وكلها تعتمد على أسانيد من القرآن والسُنة. وعدم الإشارة في الدستور إلى الخطوط الأساسية للدولة الإسلامية المنشودة تدع الأعضاء في عماية عمَّا يمكن أن يصل إليه الاجتهاد، كما أنه يمكن أن يثير الخلاف داخل دوائر الجماعة نفسها – لأنه يتضمن قضايا شائكة وجدلية، كنظم الانتخابات – والأحزاب، والحريات العامة والعلاقات الدولية – والعلاقات ما بين فئات المجتمع: العمال وأصحاب الأعمال. المستأجرون والملاك إلخ..

إن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن العلاَّمة المودودي رحمه الله عالج هذه النواحي على اختلافها بالتفصيل في كتبه، بحيث يمكن القول أنه أصدر كتابًا عن كل ناحية. بل إننا نجد تحت عنوان "الدستور والقانون" أسماء عشرة كتب. وعن التعليم ثلاثة وعن الاقتصاد سبعة إلخ.. ولا جدال في أن هذا إثراء كبير للمكتبة الإسلامية. ويبقى بعد هذا استخلاص القواعد والمبادئ التي تتفق مع فكر الجماعة. وهو عمل

ضـــخم يتطلب تضـــافر القيـــادات والخـــبراء مـــع القاعدة الجماهيرية العريضة..

رؤية للديمقراطية في الثمانينيات:

ليس لدينا الكثير من الوثـائق والكتابـات عن التطـورات الأخـيرة للجماعـة الإسـلامية. وهـذه الجهالة هي جـزء من القطيعـة الفكريـة بين بلاد العالم الإسلامي، وعدم احتفال كثير من الهيئات بـالإعلام المكتـوب – أو الاتصـال خـارج أطرهـا الخاصة. ومـا تأتينـا بـه أجهـزة الأعلام الأوروبيـة والأمريكية مُتهم.

ومعــروف بــالطبع أن الحظــوظ قــد تقلبت بالجماعـــة الإســـلامية عنـــدما دخلت العمـــل السياسي. ولكن قلة ما لـدينا من مراجـع يحـول بيننا وبين إصدار الأحكام. وقد وجدنا بين أوراقنـا نشــرة مــوجزه بالإنجليزيــة أصــدرتها الجماعــة الإســلامية بعنــوان "الديمقراطيــة والتضــامن القومي: مشروع المودودي للإجماع القومي عن الأسس الفكرية بباكستان[1]. وهي بدون تاريخ – ولكنها قطعًا بعـد 1983 لأن في ظهرهـا إشـارة إلى نشرة سـابقة عليهـا تحمـل تـاريخ 83. وهي تمثل التطور الفكري الذي وصلت إليه الجماعــة وتكييفها لمفاهيمها للتوصل إلى "إجماع قومي".

وبعد مقدمة موجزة، تعرض النشرة خمســة مبادئ لازمة لتهيئة مناخ رأي عـام إيجـابي هي (1) احترام الحق والعدل (2) التسامح المشـترك

---

1 (?) Democracy and National Solidarity "Moudadis plea for national consenus on Pakiatans conceptual foundatians

(أو المتبادل) (3) تجنب المعارضــة للمعارضــة (4) تفضــيل الإقنــاع على القســر (5) المصــلحة القومية فوق المصلحة الشخصية.

وتلاحــظ النشــرة أن هــذه المبــادئ يجب أن تعزز بتحديد طبيعة ومادة القاعــدة الصــلبة الــتي يمكن أن يقــوم عليهــا الصــرح القــومي مــع الحصــول على أعظم درجــة من تأييــد وتجــاوب الأحزاب. وترى النشــرة أن أولى المحــددات في هــذا المجــال هي الاعــتراف بســيادة القــرآن والسنة. وتعتمــد النشــرة في تقــديرها لــذلك أن هــذه هي رغبــة المســلمين كافــة في باكســتان. وإن الذين يختلفون في هذه النتيجــة يقعــون في أربــع فئــات. فهنــاك المســلمون الــذين تشــبعوا بــالفكر الغــربي والحضــارة الأوربيــة – ولــذلك تقشــعرُّ جلــودهم لمجــرد التفكــير في العــودة للطريقة الإسلامية للحيــاة. والفئــة الثانيــة تضــم المسلمين الذين لا ينكرون انتمــاءهم الإســلامي، ولكن استغراقهم في الحياة الأوروبية جعــل هــذا الاتجــاه مظهــرًا فحســب. وهاتــان الفئتــان بحكم ميولهمــا ومزاجهمــا يصــران على اتخــاذ النمــط "العلماني" والفئة الثالثة لا تتنكــر لــدينها ولكنهــا تعتمد على القــرآن وحــده وتســتبعد السُــنة. أمــا الفئة الرابعة فهي الأقليات غــير المســلمة الــتي تفضــل حكمًــا "علمانيًــا" لا يقــوم على أســاس إسلامي.

وتــرى النشــرة أن هــذه الفئــات لا تمثــل إلا مجموعــة ضــئيلة ومحــدودة بالنســبة للأغلبيــة الكاســحة، وأنــه لا يمكن إقامــة الدولــة على أساس تتبناه أقلية وترفضه الأغلبية. كمــا عــنيت النشرة أنهــا إنمــا تعــني النص القــرآني نفســه – وليس التفسيرات – عندما تتحــدث عن القــرآن.

وأنها تعني بالسُنة ممارسات وتوجهات الرسـول ككـل – وأن من الممكن لكـل مـذهب من المـذاهب الإسـلامية بمـا فيهـا الشـيعة طبعًـا الاحتفاظ، بتفسيرها للقرآن والسـنة. وأنـه فيمـا يمس الدولة كلهـا، فسـيؤخذ بالتفسـير القـرآني والرواية الحديثة التي تظفر بالأغلبية، وإن سُـمح للأقلية بأن تعرض وجهة نظرها.

وثانيـة المحـددات هي إقامـة الديمقراطيـة وترى النشرة أنها تنسجم مـع توجيهـات القـرآن والسـنة. كمـا أنهـا أمـل الشـعب الباكسـتاني. والديمقراطيـة تعـني أن الدولـة لا تنتمي إلى شـخص بعينـه، أو طبقـة، أو فريـق، ولكن لكـل الناس الذين يعيشون فيهـا. ومن هُنـا يكـون لهم جميعًا الحق في انتخاب حكـامهم وتقريـر نظـام الحكومة وطريقة سيرها إلخ..

والفقرة دفاع عن الديمقراطية – وتفنيد لمـا يقدمـه أعـداؤها من مـزاعم يريـدون بهـا إقـرار صـور متفاوتـة من الـديكتاتوريات. ومثـل هـذا الدفاع قلما كنا نجده في كتابات المودودي الـتي لا تأخـذ بمبـدأ الأغلبيـة – ولا ريب أن التجربـة المرة للحكم الديكتاتوري كان لها أثر هـام فيمـا قررته النشرة.

وفي فقـرة ثالثـة تجمـل النشـرة "جـوهر الديمقراطيـة في خمسـة مبـادئ هي (1) مبـدأ توزيـع السـلطة. أي التحديـد، والتمييـز مـا بين السلطات الثلاث للدولة (التنفيذية، والتشـريعية، والقضـائية) (2) ضـمان الحريـات المدنيـة والحقوق الأساسية وصلاحية السلطة التشـريعية لحمايتهـا. (3) عقـد انتخابـات حـرة وتبـني

الإجراءات القضائية والإدارية التي تكفل عدم المساس بالانتخابات. (4) حكم القانون أي التطبيق الشامل والفعلي للقانون على الحاكم والمحكوم. وأن تمنح المحاكم السلطات التي تكفل تطبيق أحكامها القانونية دون تمييز (5) أن يمتنع موظفو الدولة سواء كانوا في الخدمة المدنية أو في القوات المسلحة عن التدخل في السياسة. وأن يخدموا الحكومة الشرعية التي تفوضها أغلبية الشعب للحكم.

وترى النشرة أن هذه المبادئ الخمسة هي عُمُد نظام الديمقراطية، وإذا فُقد أي منها تعطل عمل النظام – بل يمكن أن تستغل بقية المظاهر الديمقراطية للتمكين للديكتاتورية، فإذا سُمح لسادة الجهاز الإداري والتنفيذي بالتحكم في إدارة العملية الانتخابية؛ فإن النتيجة ستكون الأتوقراطية أو الديكتاتورية. وبالمثل، فإذا كان بسلطة الحكام كبت حريات الخطابة والتجمع دون إمكان إقامة دعوى قضائية عليهم، فإن ذلك سيؤدي إلى شل الديمقراطية لا يمكن أن تواصل البقاء إذا حرمت من حق نقد حكمها.

وتختم النشرة بالإشارة إلى الانتخابات الحرة والتطبيق الموحد لحكم القانون والظروف الديمقراطية اللازمة لنجاح الديمقراطي من إيمان رجال الدولة بالمبدأ الديمقراطي، وأن هذه البلاد إنما هي ملك لشعبها. وأن لشعبها الحق في اختيار من يحكمهم – وأن الالتزام الأدبي والشرعي على رجال الخدمة المدنية هو الامتثال لذلك والتطبيق الأمين له.

بصفة عامة – فإن النشـرة تتحـدث في هـذا القسـم عن الديمقراطيـة بلغـة ديمقراطيـة ولا تحـاول ــ كمـا كـان دأب العلاّمـة المـودودي في كتاباتــه ـــ أن تقيس كـــل التعبـــيرات الحديثـــة بالمقاييس السلفية.. وإننا لا نجد فيهـا شـيئًا عن الحاكميـة الإلهيـة وعبوديـة الإنسـان، وإن أقـل تفريط أو تهاون ينقله إلى "الجاهلية"، وإننا نجـد صراحة أن هذه البلاد "ملك شعبها" وكان التقليد المودودي يؤثر أن تكون "ملك لله".

القضية هي: هل هذا إيمان بالديمقراطيـة أو أنـــه مجـــرد نـــوع من التكنيـــك في معركـــة ديمقراطية. وماذا يكـون الموقـف عنـدما يظهـر تعارض مـا بين الأصـول الديمقراطيـة والأصـول السـلفية فهـل هنـاك تعـارض بين حريـة الفكـر المقدسة.. وحد الرده؟ ومـا هي حريـات المـرأة تجاه الرجل – وهل الإضراب محظور.. إلخ..

علَى كـل حـال فإننـا إذا أخـذنا النشـرة كمـا هي، فإنها تمثل تطورًا كبيرًا في تصـور الجماعـة الإسلامية للنظام السياسي.

* * * *

ملحق بالفصلين الأول والثاني

مقارنة بين الأخوان المسلمين والجماعة الإسلامية

الأخوان المسلمون – والجماعة الإسلامية هما الدعوتان اللتان أثّرتا عميقًا على المجتمع الإسلامي المعاصر، وعلى بقية الدعوات، حتى التي انشقت منهما. أما الدعوات الأخرى فبعضها ضئيل القيمة من ناحية التأصيل النظري أو الكيان العملي، كدعوات "الرافضة الجديدة" بتياراتها المختلفة (الجهاد القطبيون – التكفير والهجرة إلخ..) والبعض الآخر وهي الدعوات الجديدة الواعدة في الجزائر والسودان واليمن وتونس.. لا تزال حديثة العهد، تنال حظها من المحن والاختبارات – وسنتحدث عنها في فصل خاص..

وفي الوقت نفسه، فلا يفوتنا أن الدعوتين الكبيرتين – بحكم تاريخهما القديم الذي يربطهما إلى الماضي، وما يتملكهما من قصور ذاتي فإنهما يقتربان اليوم لأن يمثلاً "الكلاسيكية" في الدعوة الإسلامية، وهو لا ينفي أنهما كانا منبع النهر الطويل الذي روى تربة الإسلام فترة الجفاف، وأنهم يلقيان بظلهما – وإن لم تكن بإشعتهما – على بعض الدعوات بينما يلهمان دعوات أخرى.

في هذا السبيل، نرى أن إجراء مقارنة بينهما يمكن أن يبلور عملية استخلاص الدروس والنتائج، وقد تعرضنا لذلك عند الحديث عن كل

واحـدة على حـدة، ولكن تقابلهمـا يعكس نقـاط الائتلاف والاختلاف عندما يعـرض كـل منهمـا في مرآة الآخر.

والإســلام – إذا كــان هــو القــرآن الكــريم والصــحيح الثــابت من السُــنة – أمــر واحــد لا يختلف، ولكن رؤية هذا الإسلام هي التي تختلـف وهــذا أمــر طــبيعي – لأن قــدرة العيــون على الإبصار تختلف، وقدرة المَدارك على الاسـتيعاب تتفـاوت، ولأن زوايـا الرؤيـة تتنـوع.. وهـذه كلهـا تؤدي إلى أن تكـون الصـورة مختلفـة، ولا يضـير الإسلام هذا لأنـه يتسـع للجميـع، ويتقبـل الـرؤى داخل إطاره العريض.

وقــد تتعقــد العمليــة إذا فُهم أن الإســلام لا يقتصر على القرآن الكريم والصحيح الثـابت من السُّـنة، ولكنـه يضـم كـل الـتراث الضـخم الـذي قدمه الأئمـة والفقهـاء إلخ.. لأن مجـال التفـاوت سيزداد وسينتقل من "الكليات" إلى الجزئيات..

أضـــف إلى هـــذا كلـــه، أن الـــذي ينظـــر ويســتوعب ليس عينًــا أو ذهنًــا، مجــردًا ولكنــه شخص – وُلد في بيئة معينة، وتعـرض لمـؤثرات معينة بعضها يعود إلى وراثته الخاصة التي حملها من أبويــه وبعضــها يعــود إلى وراثتــه العامــة كمواطن في بلد معين، وأرض معينة وكذلك في وقت معين.. وهـــذه الإختلافـــات في الفـــرد، والأرض، والوقت لابد وأن تسـتتبع اختلافـات في الرؤية..

ظهرت دعوة الأخوان المسـلمين في مصـر، ومصر بلد مؤمن من أقـدم العصـور كـان الـدين فيها هو محور الحياة واتسم الإيمان فيهـا بطـابع

من الرفـق والسـماحة والمرونـة. بينمـا ظهـرت دعوة الجماعة الإسـلامية في الهنـد، والهنـد بلـد مـؤمن أيضًـا وللـدين فيـه جـذور عميقـة. ولكن الإيمان فيه يتسم بنوع من التشدد الدنيوي آونــة و "النيرفانـا" الآخرويـة آونـة أخـرى وكـان لابـد لقائــدي الــدعوتين أن يحملا بين جنبيهــا هــذه الرواسب العميقـة وأن يتـأثرا بهـا، حـتى وإن لم يشعرا. فالبَنَّا فلاح مصري يحمل في لحمه ودمه تراب مصر، وماء نيلها. والمودودي مـدني هنـدي يحمل رواسب الهند ومـاء "الجـانج" وحمـل كـل منهمـا إلى دعوتــه هــذا الأثــر، فجــاءت دعــوة الأخـوان سـهلة، مرنـة، شـعبية، وجـاءت دعـوة المودودي عميقة، شديدة نخبوبة.

ودعمت ملابسات تنشئة كلا القائـدين ذلـك. فولد البَنَّا في بيئة ريفية وتمتـع بطفولـة سـعيدة منطلقة بين الروابي والحقول، وتواترت العوامل يدفع بعضها بعضًا، لتحقق له الثقافـة الإسـلامية، والمعرفة الدينية، وليكون دائمًـا محتكًـا بالنـاس، حتى يصبح مدرسًـا في مدينـة الإسـماعيلية ومن المقهى – يتجه بدعوتـه إلى عمـال شـركة قنـاة السويس. ومن ستة من هـؤلاء تتكـون الأخـوان، ويتم هذا كله وهو في العشرين من العمر.

على حين نشـأ المـودودي في بيئـة مدنيـة، وعكف طوال حياته على القراءة والكتابـة – ولم يتخذ مهنة أخرى غير الكتابة. وأخذ يـدقق وينقب ويفك ويدرس النصوص حـتى توصـل إلى فكـرة دعوته. وعندئذ – وكـان في الثامنـة والثلاثين من العمـر - دعـا – من أعمـاق مكتبـه إلى تأسـيس

الجماعة الإسـلامية ولبَّى دعوتـه 75 شخصًـا من كل أنحاء الهند.

وحـتى الاسـم الـذي حملتـه كـل دعـوة من الدعوتين، والذي يبدو وكأنـه ابن اللحظـة وعفـو التلقائية، جاء مطابقًا كل المطابقة لمضمون كل دعـوة. ففي كلمـة الأخـوان إشـارة إلى تعدديـة تجمعهـا أُخُـوَّة وتخالطهـا عاطفـة، بينمـا كلمـة "جماعة" تعطي المعنى الجمـاعي الـذي تحكمـه ضرورات الجماعية وأبرزها الطاعة والوحدة..

وأدت العوامل السابقة كلها إلى أن يفهم البَنَّا الإسلام فهمًا تخالطه سامحة مصـرية، وأن يفهم المـودودي الإسـلام فهمًـا تشـوبه لُكنَـة هنديـة، ويبلور الأمر في النهاية إلى أن يكون المضــمون الإسـلامي للإخـوان هـو "الإسـلام للحيـاة" وأن يكون المضمون الإسلامي للجماعـة هـو "الحيـاة للإسلام" ومن هنا جاء تيسـير البَنَّا للإسـلام لكي يتعايش مع الحياة، وجاء تكييف المودودي للحياة لكي تتجـاوب مـع الإسـلام. وكـانت دعــوة البَنَّا أفقية جماهيرية ذات طبيعة عمليـة، بينمـا كـانت دعــوة المــودودي رأسـية. نخبويـة ذات عمــق نظري.

كان المودودي علاَّمة، وكان البَنَّا إمامًا

وكان لكل دعوة مميزاتهـا، وقصـورها أيضًـا. فالمودودي في سبيل المزيد من إحكام نظرتــه، اسـتعان في بعض الحـالات بأحـاديث ضـعيفة – كما حدث في كتـاب "الحجـاب" الـذي استشـهد فيه بأحاديث أكد الشيخ ناصر الألباني أن بعضــها ممـا لا يمكن الاحتجـاج بـه. وأجـل البنـا عمليـة

"الفـــرز" والتفاصـــيل ليُتم عمليـــة الحشـــد والكليات..

ولكن يمكن التمـــاس العـــذر للإخـــوان لأن مرشدها اغتيل في وقت مبكر، وفي ظروف غير منتظـره – عنـدما كـان في الأربعين من العمـر ولـولا ذلـك لقـدر لـه – بحكم حالتـه الصـحية وأسـنان أفـراد أسـرته – أن يعيش ثلاثين سـنة أخرى، كان يمكن فيها أن يستكمل هـذا النقص. لأنه كـان يعمـل بأسـلوب مـرحلي. وكـانت لديـه قدرة فائقة للخروج من مرحلة ما والـدخول في مرحلة جديدة دون وقوع خلخلة أو تنافر، ويكفي ـــ فحســب ـــ مقارنـــة لائحـــة الأخـــوان(في العشـرينيات) بلائحتهـا في الأربعينيـات ليتـبين الفرق الكبير – والانتقال بجماعة تربويـة صـوفية إلى هيئـة حياتيـة سياسـية. وكـان المفـروض أن تـأتي مرحلـــة "الفـــرز" ومعالجـــة الجزئيـــات والتفاصيل. وهذا ما حال دونه الاغتيال.

ولكن المـودودي أمضـى ضـعف مـا أمضـاه الإمـام البَنَّا في خدمـة دعوتـه، وكـان هـو الـذي طلب في نوفمـبر 1972 الاسـتعفاء من قيـادة الجماعة بعد أن جاوز السبعين فاتسع له الـوقت لأحكام التفاصيل، وفي الوقت نفسه صعب عليه العـدول عنهـا.. عنـدما يتضـح أن بعضـها لم يكن موفقًـا. وقـد يصـور هـذا تمامًـا أن العلاّمـة أبـو الحسـن النـدوي عنـدما أصـدر كتابـه "التفسـير السياسي للإسلام" الذي أشرنا إليه في الفصـل السابق وانتقد بعض مفاهيم المودودي خاصة ما جاء في كتاب "المصطلحات الأربعة" أرسل إلى

المـودودي نسـخة شـارحًا دوافعـه إلى إصـداره. فكتب إليه المودودي.

- "يطيبُ لي أن أشــــــكركم لأنكم قمتهم بالنقد والتعليق على ما اطلعتم عليـه ممـا كتبت – والــذي يــؤدي – في تصــوركم – إلى أخطــار كثيرة.. وأرجو منكم أن تقوموا بالنقد بلا تردد أو تكلف لما ترون في كتاباتي ممـا يجـر الضـرر أو الخطر على الدين وأهله، وإني لم أرَ نفسي قط فــــوق النقـــد – ولا أنكـــره. ولكن ليس من الضروري أن أرى كل نقـد صـحيحًا – أو أعـترف بصدق وصحة الأخطار والمخـاوف المشـار إليهـا من قِبَل الناقدين".

فهـذا الخطـاب الـذي ينم عن روح إسـلامية تجعـل صـاحبها لا يـرى نفسـه فـوق النقـد – ينم أيضًا عن أن صاحبه قد انتهى بالفعل من صـياغة نظريتـه بحيث لا يكـون ضـروريًا أن يسـلم بنقـد الناقدين. وبالطبع فإن هذا من حقه بعد أن سلخ أكثر من نصف قرن في التفكير والتحبير..

وقد يتصور البعض أن الصفات المميزة لكل من الدعوتين اللتين أشـرنا إليهـا يمكن أن يؤديـا إلى "تكامل" للدعوة الإسلامية ولكن مما يحـول دون ذلــك أنهمـا – على اختلافهمـا – صـدرا من مشــكاة واحــدة، والتزامًــا بإطــار واحــد هــو – "السـلفية" حـتى وإن ضـاق الإطـار في حالـة الجماعـة الإسـلامية، واتسـع في حالـة الأخـوان المسـلمين ولابـد للـدعوة الإسـلامية المثلى أن تتجاوز هذا الإطار، بل قد يكـون عليهـا أن تنظـر إلى الإسـلام من خـارج الإسـلام نفسـه لأنهـا مـا حصرت نفسها في الإسـلام نفسـه ووحـده. فلن

تدرك بعض أسـرار الإسـلام الـتي لا تُـرى إلا من أبعـاد أخـرى أو في ضـوء تطـورات حـدثت بعـد نزول الإسلام. وليست النظرة التي تكشـف كـل أبعـاد الإسـلام هي النظـرة الإسـلامية.. ولكنهـا النظرة الكونية..

* * * *

الفصل الثالث
حزب التحرير

لا يعـرف الجيـل المعاصـر شـيئًا كثـيرًا عن حزب التحرير، وربما تـرامى إلى سـمعه مـا قـد تتناقلـه الصـحف بين حين وآخـر، من إشـارات عنـه. معظمهـا، كمـا هـو العهـد بهـا فيمـا يختص بالإسلام – مشوهة، والحقيقة أن حـزب التحريـر كان محاولة جادة لوضع صيغة إسلامية شمولية، للنهضة بالأمـة. وقـد أراد أن يتعلم من الـدعوات الإسلامية السـابقة عليـه وأن يتفـادى أخطاءهـا، ويبـــدأ حيث إنتهت.. ولكن الإطـــار الســـلفي التقليـدي كـان أقـوى من الملكـات الإبداعيـة لمؤسســية، كمـــا لم يكن من الســـهل تجـــاوز الظـــروف السياســية – زمانًــا ومكانًــا – الــتي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم وكانت جـزءًا رئيسيًا من استراتيجية وضعت للمنطقة، وحمتها نظم حاكمة ومصالح مكتسبة عاتية. وعندما أراد الحــزب الفتِّي أن يشــق طريقــه. وجــد هــذه الأوضــاع كالصــخر في مواجهتــه، فحــاول أن ينطحها – وانطبق عليه البيت المشـهور (كنـاطح صــخرة يومًــا إلخ..) وكــان أســوأ مصــيرًا من الهيئات الإسلامية الـتي انتقـدها وأراد أن لا يقـع فيما وقعت فيه.

وإنما اكتسب حزب التحرير صـفاته الخاصـة نتيجة لملابسات ظهـره وشخصـيات قادتـه فقـد ظهـر بعـد نكبـة 1948 الـتي عاشـها مؤسسـوه الفلسطينيون واصطلوا بنارها ودفعوا ثمنها غاليًا

فــتركوا أرضــهم وبيــوتهم وشُــردوا في البلاد. وكانت هذه الملابسة الدامية هي الدافع المباشر لتكــوين الحــزب، ومن ناحيــة أخــرى فــإن المؤسسـين الثلاثـة الـذين أشـرفوا على تكوينـه ووضعوا فكرته، تميزوا بإحكام للفقــه الإســلامي ومن ثمَّ فـإن أثـر الفقـه كـان بـارزًا في فلسـفة وتنظــير الحــزب. وفي الــوقت نفســه فــإن متابعــاتهم للحركـات الإسـلامية، وغيرهـا الـتي شاهدتها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجــددون، فعلى سبيل المثال، لعله كان الهيئـة الإسـلامية الأولى الـتي تحمـل اسـم حـزب وتعلن أن عمله هـو النشــاط السياســي، وأنــه ليس تكتلاً خيريًـا أو ثقافيًا إلخ..

* * * *

التكوين والسنوات الأولى:

قام الحزب بفضل جهـود مشـتركة من ثلاث شخصيات فلسطينية نابهة، جمعتها وحدة الثقافة والميول والابتلاء، هم الشيخ تقي الدين النبهـاني والشيخ داود حمدان والأستاذ نمر المصري.

وقد عايش هـؤلاء الثلاثـة الأحـداث الجسـام التي تعرضت لهـا المنطقـة وقـوى التغيـير الـتي تحكمت فيها، فلمسـوا آثـار الأخـوان المسـلمين التي كانت بارزة في فلسطين خلال هذه الفـترة وألموا بنقط القوة والضعف فيها، وشاهدوا تعـثر الحــزب القــومي الــذي أسســه في الثلاثينيــات أنطــوان سـعادة للعمــل على تحقيــق "الدولــة العربيــة" في إطــار البيئــة الجغرافيــة (ســوريا الكـبرى) ومحاولتـه التلفيقيـة في إيجـاد مكـان

"للمحمديـة" – كمـا أطلـق على الإسـلام – في دولـة القوميـة – ثم شـاهدوا ميشـيل عفلـق وإخوانـه – الـذين لم يكونـوا أفضـل من أنطـون سـعادة إلا قليلاً – وهم يكونـون على أنقـاض الحـزب القـومي ومن أشـلائه حـزب البعث، من أمشـاج عربيـة واشـتراكية وإسـلامية لتحقيـق الوحـدة العربيـة، واكتشـف الثلاثـة مـا في هـذه التكوينات من ضعف أو تلفيق.

وأهم من هـذا أنهم شـاهدوا الأخطبـوط الإسـرائيلي وهـو يمـد أذرعـه ليطـوق بلـدهم المحبـوب، ورأوا أفـواح الهجـره تتـولى، والمسـتوطنات تزحـف: والمحـاولات العربيـة المتعـثرة، لصـدها. حـتى دقت السـاعة في 15 مايو سنة 48، عندما أعلن قيـام دولـة إسـرائيل وتسابقت الولايات المتحـدة والاتحـاد السـوفيتي للاعتراف بها. وما أعقب هذا مباشرة من خـروج سـبعمائة وخمسـين ألفًـا من الفلسـطينيين من دُورهم، وأرضـهم وأمـوالهم إلى سـوريا ولبنـان والأردن. وغيرها. كان منهم الثلاثـة الـذين كونـوا الحزب.

كـان الأول من هـؤلاء الشـيخ تقي الـدين النبهاني (1909 –ـ 1979) من أسـرة إسـلامية عريقة، ولد في إحـدى قـرى قضـاء حيفـا وكـان والده قاضيًا شرعيًا. بينما كـان أحـد أجـداده من الشخصـيات الإسـلامية المعروفـة في تركيـا. والعالم الإسلامي.

وبعد أن حفظ القرآن، وتلقى علومـه الأولى تحت إشراف والده، سـافر إلى القـاهرة وانتظم في الأزهر حتى حصل على إجازة العالمية، كمـا

انتســب إلى دار العلــوم أيضًــا، وحصــل على شهادتها. وعاد إلى فلسطين واشتغل بالتــدريس في حيفـا ثم انتظم في سـلك القضـاء الشـرعي حتى نكبة عـام 1948 الـتي نـزح في إثرهـا إلى بيروت..

وكـان للشــيخ تقي الــدين شخصــية قويــة. وعُرف بصلابة الإرادة، وغزارة المعرفة، وإحكـام الفقه الإسلامي.

وكان الثاني الشيخ داود حمـدان عن مواليـد مدينة اللد. ودرس في الأزهر، وبعد أن عاد عمل كمحامٍ شرعي. وكان واسع الاطلاع، وكتب عددًا من المقـالات في مجلـة "الرسـالة" المشـهورة التي كانت منبرًا لكبار الكتاب العرب وقتئذ.

أما الثالث – الأستاذ نمر المصري. فقد كـان أقل الثلاثة حرصًا على الدراسة الأكاديميـة، وفي الــوقت نفســه أكــثرهم نشــاطًا في المجــالات العامة والسياسـية فكـان عضـوًا بـارزًا في كثـير من الهيئـات والمـؤتمرات الـتي عقـدت مـا بين الثلاثينيــات والأربعينيــات – وكــان وثيــق الصــلة بالأخوان المسلمين وعندما إعتزل الحزب – كما ســيلي – نقــل نشــاطه للأخــوان وأصــبح من الشخصيات المسؤولة فيها.

وعنــدما وقعت النكبــة هــاجر الشــيخ داود والأستاذ نمر إلى سورية واستقرَّا بدمشق..

وفي دمشـــق تلاقى الثلاثـــة "وأخـــذوا يتدارسون أسـباب النكبـة. ووضـع وقتئـذ الشـيخ تقي الدين أصول كتاب "إنقاذ فلسطين".

ولم يحمل "إنقاذ فلسطين" طابعًا أيـديلوجيا ولكن مقدماته كـانت تنتهي إليـه. فالنكبـة كـانت

نتيجة قرن من التخطيط الإسـرائيلي.. والتـدهور العربي. وكان لابد لمجابهة ذلـك من إقامـة أمـة ذاك مبدأ يبلور الغاية الواحدة.

وقد وجد الثلاثة أن مبـدأ الأمـة الواحـدة هـو "الإسلام" فالمجتمع العـربي هـو "أمـة إسـلامية حياة ودستورًا حتى لغير المسلمين من العــرب" وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الإسلام للقيام بهـذه المهمـة التاريخيـة، بـل وتجاوزهـا إلى دور عالمي مؤثر في حياة العالم بأسره..

واتفقوا على أن تكون طريقـة الدراسـة هي الحلقة، فكـل واحـد يـأتي بمـا انتهى إليـه فكـره ليعرضـه على الآخـرين ويكـون موضـوع نقـاش منهم جميعًا. وكان الثلاثة يكونون الحلقة الأولى. ولكن تكونت حلقات أخرى لمعالجة جــوانب من المواضـيع لم يكن الثلاثـة يحكمونهـا، من ناحيـة، وبفضل نشـاط الشـيخ تقي الـدين، الـذي أصـبح بضغط من رفيقيه - متفرغًا، من ناحية أخرى.

وتحـدث أحـد الـذين المُّوا - إلمامًـا دقيقًـا - بنشاط هـذه الفـترة عن دور الحلقـات فقـال[1]: "فأصبح الحوار في الحلقات يتركز على مناقشة ودراسـة هـذه المسـودات وتنقيحهـا، بـل إن من الحلقات مـا كـان يـواكب عمليـة الكتابـة نفسـها لهـذه المسـودات وعلى الأخص تلـك الـتي كـان يقـوم الشـيخ تقي بكتابتهـا. فقـد كـان كثـيرًا مـا يلازم حلقة تتفرغ لهذه المواكبة، ويحاور حول ما يريد كتابته، فضلاً عن عرضه لما يكتبه عليها أولاً بــأول حيث تنــاقش مــا كتبــه، ويعــد في ضــوء المناقشــات" ويــرى الكــاتب أن بعضًــا من أهم

---

1 [?] الأستاذ سعيد خالـد الحسـن في رسـالة منسـوخة بالآلة الكاتبة عن حزب التحرير.

وثـائق الحـزب مثـل "التكتـل الحـزبي" و"نظـام الإسلام. نظام الحكم. النظام الاقتصادي النظـام الاجتماعي خضع لهذه الممارسة.

ويضيف الكاتب أن مناقضة حلقة مـا، كـانت تعرض بعـد ذلـك على الحلقـات ككـل "وهـو مـا ينطبق على كتابـات الشـيخ تقي الـدين جميعهـا، وعلى مــا كتبــه غــيره مثــل كتــابي الشخصــية الإســـلامية والدولـــة الإســـلامية اللـــذين كتب مسودتيهما الشيخ داود.

وشــيئًا فشــيئًا أخــذت الحلقــات تــزداد عــددًا، والحـوار يـزداد غـنىً، وقـد سـمح ذلـك لأفـراد الحلقــة الأولى أن يكاشـفوا آخـرين من أعضـاء الحلقات الذين "تتفاعل الدعوة معهم" أيضًـا من غـيرهم بـأنهم يـرون نشـاط الحلقـات جـزء من عمليــة إعـداد فكـري قائمــة بالفعـل. تسـتهدف تكــوين حــزب. وبــذلك أخــذ هــؤلاء "الآخــرين" يقومــون أيضًــا بالإشــراف على حلقــات حــوار مماثلة، مُكونين بـذلك "الكتلـة الـتي سـينمو بهـا الحزب، وسرعان ما تجاوزت دائرة الحوار مدينة دمشق، حيث بدء نشاط الحلقـات، وامتـدت إلى آخـــرين من المقيمين في الضـــفتين الشـــرقية والغربية".

وقد عزز امتـداد الحلقـات هـذا تنَقُّل الشـيخ تقي الـدين، رائـد الحـوار وشخصـيته الأولى، مـا بين القــدس وعمــان ودمشــق وبــيروت، فبعــد إلحاق الضفة الغربية عـام 1950 بإمـارة شـرق الأردن، ليظهر ما عرف عندئذ بالمملكة الأردنيــة الهاشـــمية – ذهب الشـــيخ تقي إلى القـــدس –

ونجح في أن يُعيَّن عضوًا في محكمة الاستئناف الشرعية – ثم انتقل من ذلك إلى عمان ليعمل مدرسًا في الكلية الإسلامية – غير أنه ما لبث أن تفرغ للمشروع بناءً على إلحاح رفاقه، فاستقال من عمله وعاد إلى دمشق حيث أقام بها مع والدته، وأخذ ينشغل انشغالاً تامًا بمشروع الحزب. متخذًا من مخصص مالي محدود وفَّر له رفاقه ما يستعين به على الإنفاق الضروري من حاجياته، وحاجات أسرته، وأصبح يقضي الجانب الأكبر من وقته في دمشق حيث نشأت "الحلقة الأولى" وحيث ظلت فيها كتلة الحزب، أما الجزء الأخير من وقته فقد كان يقضيه متنقلاً ما بين الأردن ولبنان حيث امتدت حلقات الحوار..

وهكذا نرى أن الحلقات كانت تؤدي وظائف متعددة، فهي أداة لبلورة الفكرة، كما كانت وسيلة لاجتذاب العناصر المتعاطفة، وأخيرًا فقد كانت بوتقة لصهر الشخصيات طبقًا لمقتضيات الحزب.

وفي عام 1952 نشر الحزب عددًا من الرسائل والكتب التي تمت مناقشتها دون أن تحمل اسم الحزب، لأنه لم يكن قد تقدم إلى المسئولين، وحملت هذه الكتب اسم الشيخ تقي الدين كمؤلف لها.

وفي 14/ـ 3/ـ 1953 [1] أرسـل مؤسسـو الحـــزب أخطـــارًا إلى الحكومـــة الأردنيـــة "بتأسيسهم حزبًـا سياسـيًا" وبين اسـمه ومركـز إدارته وعنوانـه ومقاصـده والمفوضـين بـالتوقيع عنه، وأرفقه بالنظام الأساسي.

وفي 22/ 3/ 53 ردَّت الحكومة بأن الحزب غير قانوني ومنعت القائمين عليه من أي عمـل، وبررت ذلـك بـأن الحـزب "يحصـر الروابـط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يـدعو للتفريـق بين أبنـاء الـوطن الواحـد ويخـالف حكم قـانون الجمعيات، ويلحق بالوطن أفدح الأضرار.."

وفي 1/ـ 6/ـ 1953 ردَّ الحـزب بأنـه يعتـبر نفسه شخصية معنوية، قـامت بالفعـل ولا تـزال قائمـــة قانونًـــا، بغض النظـــر عن عـــدم إقـــرار الحكومة لمشروعية الحزب.

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة. وسجن أعضاؤه البـارزون أكـثر من مـرة، ولكنهم أثبتـوا شـجاعة وتصـميمًا. واكتسـبوا تأييـد قطاعـات عديـدة. واسـتطاعوا أن يكسـبوا لأحـد أعضـائهم كرسي النيابة عن منطقـة طـولكرم في الضـفة الغربية.

ولكن هذه البداية المشرقة، الواعـدة بنجـاح وإنجـاز لم تسـتمر طـويلاً، ومـع السـتينيات بـدأ

---

1 [?] هنـاك من يـرى أن الحـزب قـد قـدم إخطـاره للحكومـة في 16/ـ 11/ـ 1952 باسـم خمسـة من أعضائه هم: تقي الدين النبهائي، داود حمـدان، منـير شـقير، عـادل النـابلي، غـانم عبـده، ولم تتضـمن الأسـماء اسـم الأسـتاذ نمـر المصـري لأنـه لم يكن يحمل الجنسية الأردنية.

الحـزب يتقلص. وتضـافرت العوامـل الخارجيـة، والعوامل الداخلية (أي من داخـل الحـزب) على أن يفقـد الحـزب جمـاهيره ويتقوقـع في بضـعة أفراد..

من الناحية الخارجيـة، فـإن كـل نظم الحكم في المنطقة أعلنت عليه حربًا شعواء، وهو نبتــة صغيرة، وقبـل أن يمـد جـذوره عميقًـا في أرض المنطقـــة، وكـــان الحـــزب يعلن عن هويتـــه الإسلامية بكل قوة، وعن الحل الإسلامي كالحل الوحيد. وعن الطـابع السياسـي لـه.. وكـان هـذا كلـه يهـدد النظم القائمـة، وينـذر بزعزعتهـا إذا سـمح لـه البقـاء فتضـافرت كـل القـوى عليـه، وألصقت به الاتهامات المزيفـة، وزج بقادتـه إلى السجون.

ولعل هـذه الحقيقـة المؤسـفة تـبرز الفـارق بين "تكنيـك الحـزب" و "تكنيـك الأخـوان". فقـد استطاع الإمـام الشـهيد حسـن البَنَّا رحمـه اللـه تحت مظلـة النُكـر. وبفضـل العمـل في القـرى القاصـية، وبعـدم تحـدي النظم والمصـالح تحـديًا معلنًا، أن يتوصـل إلى غـرس بـذرة الأخـوان في خمسمائة قرية على الأقل، وموالاة هـذه البـذرة حـتى نمت وأصـبح لهـا جـذور يصـعب اقتلاعهـا. وعندئذ فحسب أبدى الجـانب السياسـي لـدعوة الأخوان. ومع أنـه كـان يقـول دائمًـا أن الإسـلام دين ودولة إلا أن هذا الكلام لم يؤخذ مأخذ الجـد إلا في السنوات الخمس الأخيرة من حياة الإمام الشهيد.

أما ما تعرض له حزب التحريـر من الـداخل، وكـــان بلا ريب من العوامـــل الـــتي أدَّت إلى

تقلصه، فهو ما ظهـر من خلاف بين الشـيخ تقي الدين من ناحية وزميليـه الأسـتاذ نمـر المصـري والشيخ داود..

فمع ممارسة الحـزب لنشـاطه بـدأت تظهـر بعض الخلافـــات مـــا بين الشـــيخ تقي الـــدين والأستاذ نمـر المصـري حـول كيفيـة تحديـد دور الحـــزب في مواجهـــة التطـــورات السياســـية. فالشـيخ تقي الـدين كـان يـرى أن كـل حـدث يتطلب من الحـزب عملاً فوريًـا ويبـدو أن هـذه الفكرة ما كـان يمكن أن تطبـق عمليًـا بطريقـة "الحلقة" أو الشورى، أو أن الشـيخ وجـد أن من حقـه – بصـفته – أن يقـوم بـذلك دون الرجـوع ضرورة إلى زميليه عضوَي القيادة. ولكن هذا لم يكن رأي الأسـتاذ نمـر. وتكتم الأسـتاذ نمـر هـذا الخلاف بحيث كان محصورًا ما بينـه وبين الشـيخ تقي الـدين، ولكن الشـيخ تقي الـدين نفسـه، عنـدما لمس ضـيق الأسـتاذ نمـر بمنهجـه كتب تعميمًا إلى الحزب يشير فيه إلى أن الأستاذ نمر يعمل لإيجاد تكتل داخـل تكتـل الحـزب. ومن ثم انتقل الخلاف إلى العلن. وبُذلت جهـود لتطويـق هذا الخلاف كان منها أن تقـرر أن ينتقـل الشـيخ داود من الأردن حيث كـــان يقيم إلى دمشـــق ليكون معهما كعنصر توفيـق وتهدئـة. ولكن ذلـك لم يُجْدِ فقد نشر الشيخ تقي الدين في 15/ 10/ 1955 عقب إعلان مصر لإبـرام صـفقة السـلاح التشكية في 26/ـ 9/ـ 1955 بيانًا يتهم فيـه عبـد الناصر بالعمالة للولايات المتحدة. وحتى لو كـان التحليل الذي قدمه الشيخ تقي يؤدي لهـذا. فمـا كان يجوز إعلانه في فـترة وصـل الحمـاس فيـه

لعبد الناصر إلى قمته. وأمام هذا لم يجد الأستاذ نمر المصري بُدًا من تجميد نشاطه.

وما يلقي بضوء على مسلك الحزب إزاء هذه الأزمة أن تنقل هنا ما كتبه الأستاذ سعيد الحسن "عند ذلك بدا لقيادة الحزب أنه من الضروري أن يتم تحديد مهمة القيادة. وهل هي – في حزب يقوم على الإسلام – جماعية أو فردية. وما هو الدليل الإسلامي على ذلك، ولتحديد هذا فقد انهمك الشيخ داود في إعداد مسوَّدة دراسة يعرض فيها أدلة التشريع الإسلامي التي تتصل بالمشكلة التي أثارها الخلاف. أي كيف يجب أن تتم عملية تبني الآراء، والترجيح بينها في الحزب. وهل تفيد هذه الأدلة أن من صلاحيات الإمارة (أو الرياسة) – ونستطيع أن نضيف عمادة الحزب – أن تحدد للحزب ما يتبناه من آراء، أو أن يكون العنصر المرجح بينها أن كانت ترجح رأى الأقلية [1].

ويبدو أن دراسة الشيخ داود انتهت إلى أن الإمارة في الإسلام مهمة تنفيذية بحتة، وأن تبني جماعة معينة لحكم شرعي معين تتفق عليه مجموعة من الآراء المبنية على اجتهاد صحيح وفق علم أصول الفقه هو المقدم شرعًا على تبني هذه الجماعة لما يصل إليه الاجتهاد الفردي، أي أن تبني الحزب لما يتفق عليه اجتهاد لجنة القيادة مجتمعة يكون مقدمًا على اجتهاد فرد منها. وأن الترجي بين الآراء التي لا تتطلب اجتهادًا في فهم نص تشريعي معين أو القيام عليه إنما هو أدعى قطعًا إلى أن يؤخذ

---

1 [(?)] مرجع سابق ص 75

فيه برأي الأكثرية – وليس واحد أو ثلاثة.. أو عشرة..

على أن هذه المذكرة لسبب ما، لم تحسم الموضوع، ورفض الشيخ تقي الدين مناقشتها معتمدًا على حديث "إذا كنتم ثلاثة في سفر – فأمروا أحدكم" ومن ثم لم ير مبررًا لإثارة هذا الجدل – ثم اتبع ذلك بنشر تعميم حزبي قال فيه أن بعض الأعضاء قد سقطوا خلال مسيرة الحزب واعتزل الأستاذ نمر والشيخ داود وعدد آخر من القيادات الشابة. وظن الشيخ تقي الدين أنه استراح منهم، خاصة وأنهم لم يحاولوا إذكاء الخلاف أو متابعته في الحزب. ولكن النتيجة التي لا مراء فيها أن الحزب خسر عددًا من أفضل قياداته التي كان يمكن لو بقيت أن تثري الحزب[1].

على أن هذه الأزمة أثارت في نفس الشيخ تقي الدين وأصدقائه قضية الشورى ومدى إلزاماتها وعندما صدرت طبعات جديدة بعد اعتزال المخالفين – لكتاب نظام الإسلام. أضيف إليه في باب الحكم الشرعي نص يجيز للمجتهد أن يترك اجتهاده ويقلد غيره من المجتهدين.

---

1 (?) أصبح الأستاذ نمر من أبرز قيادات منظمة التحرير كما لعب دورًا حاسمًا في تمكين "حركة فتح" من السيطرة على المنظمة عام 1968. كما قام الأستاذ خالد الحسن. الذي كان من أقرب القيادات الشابة إلى قلب الشيخ تقي الدين، بدور رئيسي في تكوين "فتح" وفي عام 1968 أصبح رئيس الدائرة السياسية.

كمـا اسـتحدث مـادة جديـدة في دسـتور الحزب تفـرق بين الشـورى والمشـورة اعتـبرت الأولى ملزمة رئيس الدولـة – ورئيس الحـزب – بـالتعرف على الآراء المختصـة – دون إلزامـه باتباع ما ينفق عليه منها. أما الثانيـة (المشـورة) فهي ملزمـة للـرئيس – ولكنهـا لا تجب إلا في الأمور التي ليسـت من "التشـريع، ولا التعريـف، والأمـور الفكريـة، ككشـف الحقـائق وكـالأمور الفنية والعلمية".

* * * *

دعوة حزب التحرير:

كـانت الفكـرة الـتي في ذهن المؤسسـين للحزب هي كيف يمكن إنهاض الأمـة لكي تجابـه التحديات – والتحدي الإسرائيلي أحدها – وتنتصر عليهـا. وقـد انتهى المؤسسـون إلى أن ذلـك لا يمكن أن يحدث إلا بروح جديدة ترفع الأمة فـوق حاضـرها التعس ومشـاكلها وأوضـاعها، وتفجـر فيهـا قـوة الإيمـان. وبـدون ذلـك لن تسـتطيع الانتصـار على أعـداد أشـد قـوة وأكـثر عـددًا. أو اخـتزال سـنوات التخلـف أو مجـاوزة العقبـات والعراقيل.

واسـتبعد المؤسسـون كـل أفكـار الإصـلاح الجزئية (إصلاح الاقتصاد – إصـلاح التعليم إلخ).. لأن المجتمع كلٌ واحد ولن يمكن النهضة بجـانب منه على حدة.

وانتهى المؤسسون أيضًا إلى أن هذه الـروح لن تكون سوى – الإسلام فهو "مبدأ الأمة".

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات إسلامية أخرى.

ولكن ...

القضية كلها تصبح توظيف الإسلام كروح انتهاضية، روح تغيير وتطوير، روح اكتساح، كتلك التي تملكت المسلمين أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم.

كان المفروض أن يجهد المؤسسون أنفسهم ليقدموا الإسلام ثوريًا، انتهاضيًا، ولكنهم قدموا الإسلام فقهيًا سلفيًا. فالثقافة الفقهية المتغلغلة في نفوسهم والروح السلفية التي هيمنت عليهم بحكم دراساتهم في الأزهر، جعلت إرادتهم الثورية تبعًا للفهم السلفي. وبالتالي حُبست في قفص الفقه، ووجد المؤسسون أنفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه..

وعندما كانت تحدث فرجة في هذا القفص أو عندما كانوا يسمحون لأنفسهم بالتحرر من الفهم السلفي، كانوا يأتون بتجديدات تشذ عن السياق، ولكنها كانت الاستثناء..

وما من حالة تظهر فيها مأساة الفهم السلفي، وكيف يمكن أن يجهض أي محاولة انتهاضية، إذا تطرق إليها كحالة حزب التحرير. فالرغبة المحرقة في الانتهاض والتصدي لقوى القهر والطغيان تقولبت في القالب الفقهي، وفقدت كل ضرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية..

ومن خصائص حزب التحرير أنـه عُـنيَ ببحث كـــل القضـــايا من زاويتـــه – في عـــدد كبـــير من الكتب وبروح من التفصيل والمعالجة التي يغلب عليهـا الطـابع الفقهي، ممـا لأنجـده في غيرهـا. وعـدد الكتـاب الـذي نشـره الحـزب في 20 من شعبان 1405 الموافق 9/ 5/ 1985 أسماء هذه الكتب فكانت كالآتي:

كتاب نظام الإسلام.
كتاب نظام الحكم في الإسلام.
كتاب النظام الاقتصادي في الإسلام.
كتاب النظام الاجتماعي في الإسلام.
كتاب التكتل الحزبي.
كتاب مفاهيم حزب التحرير.
كتاب الدولة الإسلامية.
كتاب الشخصية الإسلامية في ثلاثة أجزاء.
كتاب مفاهيم سياسية لحزب التحرير.
كتاب نظرات سياسية لحزب التحرير.
كتاب مقدمة الدستور.
كتاب الخلافة.
كتاب كيف هدمت الخلافة.
كتاب نظام العقوبات.
كتاب أحكام البينات.
كتاب نقض الاشتراكية الماركسية.
كتاب التفكير.
كتاب سرعة البديهة.
كتاب الفكر الإسلامي.
كتـــاب نقض نظريـــة الالـــتزام في القـــوانين الغربية.
كتاب نداء حار.
السياسة الاقتصادية المثلى.
كتاب الأموال في دولة الخلافة.

كمـــا أصـــدر الحـــزب آلاف النشـــرات والمذكرات والكتيبات الفكرية والسياسية.

والنقطة الهامـة ليسـت هي عـدد الكتب، أو موضوعاتها، ولكن طريقة المعالجة. فإنها تتسـم بطابع تحليلي وفقهي وقـد حمـل الحـزب نفسـه عناء إصدار كتاب كبير عن "التفكـير" عـالج فيـه مشـــكلة المعرفـــة، والتفكـــير، والجـــوانب الفسيولوجية له – داخلاً إليها جميعًـا من مـداخل إسلامية، ومستخلصًا أحكامًا من المقدمات الـتي وضعها تتفق مع منهجـه في فهم الإسـلام. ولكن الأصالة لا تكون بتجاهل الأبحـاث الحديثـة – ومـا انتهت إليه، وإنمـا بالإفـادة منهـا فيمـا نريـد، أمـا التجاهل فخطأ جسيم، والمفـروض في المسـلم أن يكون أحرص الناس على المعرفـة والحكمـة أينما كانت، وأن يعترف لأصـحابها بالشـكر حـتى لو قام بيننا وبينهم شنآن العداوة.

* * * *

ويوضح كتاب "حزب التحرير" أن الحزب هو حزب سياسي مبدؤه الإسلام، فالسياسة عملــه، والإسـلام مبـدؤه. وهـو يعمـل بين الأمـة ومعهـا لتتخذ الإسلام قضية لها، ويقودها لإعادة الخلافـة والحكم بما أنزل الله إلى الوجود.

وحزب التحرير هـو تكتـل سياسـي، وليسـت تكتلاً روحيًـا ولا تكتلاً علميًـا، ولا تعليميًـا ولا تكتلاً خيريًـا، والفكـرة الإسـلامية هي الـروح لجسـمه وهي نواته وسر حياته..".

وهذه الفقرة الأخـيرة تمثـل موقـف الحـزب تجـــاه إحـــدى "إشـــكاليات" العمـــل السياســـي الإسلامي. وأنه وقد جاوبه بالفهم المتأصل لـــدى

الإسـلاميين عن أن السياسـة مـا هي إلا صـورة أخـرى من العبـادة فإنـه آثـر أن يجـابههم بهـذا "التصريح" القاطع.

وكمـا أشـرنا في فقـرة سـابقة، فـإن هـذا التحديــد مطلــوب، على أن يكــون مفهومًــا أن طريقة الإسلام في الإصـلاح لا تقتصـر أبـدًا على الأسلوب السياسي وإصلاح النظم: ولكنهـا تضـم إلى ذلك إصلاح النفس والقلب. وهذا هو الفــرق بين الإســلام والنظم السياســية الأخــرى. ولكن إصلاح النفس والقلب ليس هو تخصـص الحـزب ومجالــه، ويمكن اســتكماله عن طريــق هيئـات أخرى، أو بالوسائل الخاصة للعضو. وقد كان من الخــير – مــع هــذا – الإشـارة إلى أن السياســة الإسلامية تستلهم القيم الإسـلامية وأنهـا تختلـف عن السياسة "الميكيافيلية" ولعله اعتبر أن نصه على أن "الفكرة الإسـلامية هي الـروح لجسـمه وهي نواته وسر حياته" يكفي.

وعن أسباب تكـوين الحـزب عـرض الكتـاب ثلاثة أسباب أولاها هو: الاستجابة لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَــدْعُونَ إِلَى الْخَيْــرِ وَيَــأْمُرُونَ بِــالمَعْرُوفِ وَيَنْهَــوْنَ عَنِ الْمُنْكَــرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وقــد شــرح الكتــاب هــذه الآيــة بنــوع من التفصــيل وبيَّن أنهــا تــدعو لتكــوين مثــل هــذا الحزب.

ولعـل وضـع هـذا السـبب أولاً يوضـح عمـق المعنى الإسـلامي وأولويتـه في الحـزب، وبـدون ذلك لا يمكن تقديمـه على السـبب الثـاني. وهـو إنهاض الأمة الإسلامية وتحريرها من أفكار الكفر

وأنظمته وأحكامه، ومن سيطرة الـدول الكـافرة ونفوذهم، برفعها فكريًا عن طريق تغيير الأفكـار والمفــاهيم الــتي أدت إلى انحطاطهــا تغيــيرًا أساسيًا شاملاً. وإيجاد أفكـار الإسـلام ومفاهيمـه الصحيحة لديها حـتى تكيـف سـلوكها في الحيـاة وفق أفكار الإسلام، وأحكامه..

ويـرى الكتـاب أن أسـباب هـذا الانحـدار هي "عوامل التغشية" على فكرة الإسـلام، وعوامـل التغشية هذه نتجت عن أمور أبرزها.

نقــل الفلســفات الهندســة و "الفارســية" ومحاولـة التوفيـق بينهمـا والإسـلام. مـع وجـود التناقض.

دس الحاقدين على الإسلام أفكـارًا وأحكامًـا ليست من الإسلام لتشويهه.

إهمال اللغة العربية التي لا يفهم الإسـلام إلا بها.

الغـزو التبشـيري والثقـافي والسياسـي من الدول القومية الكافرة..

ويشـير الكتـاب على المحـاولات والحركـات التي أريد بها إنهاض المسلمين وإخفاقهـا، ويعيـد سبب الإخفاق إلى:

عــــدم فهم الفكـــرة الإســـلامية من قبــــل القـائمين على إنهـاض المسـلمين فهمًـا دقيقًـا لتـأثرهم بعوامـل التغشـية، وكـانوا يـدعون إلى الإسلام بشكل عام مفتـوح، دون تحديـد للأفكـار والحكومــة الــتي يريــدون إنهــاض المســلمين، ومعالجة مشاكلهم بها، وتطبيقهـا، لعـدم وضـوح هــذه الأفكــار والأحكــام في أذهــانهم، وجعلــوا

الواقـــع مصـــدرًا لتفكـــيرهم، يســـتمدون منـــه تفكيرهم، وحاولوا أن يؤولـوا الإسـلام ويفسـروه بمـا لا تحتملـه نصوصـه حـتى يتفـق مـع الواقـع القـائم، مـع أنـه منـاقض للإسـلام، ولم يجعلـوا الواقع موضع تكفيرهم، ليغيروه حسـب الإسـلام وأحكامه.

لـــذلك نـــادوا بالحريـــات والـــديمقراطيات، وبالنظام الرأسمالي والاشتراكي، واعتبروها من الإسلام، مع أنها تتناقض مع الإسلام تناقضًا كليًا.

عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم في تنفيـذ فكـرة الإسـلام وأحكامـه وضـوحًا تامًـا، فحملـوا الفكـرة الإسـلامية بوسـائل مرتجلـة، وبشـكل يكتنفه الغموض وصاروا يرون أن دعوة الإســلام تكـــون ببنـــاء المســـاجد وإصـــدار المؤلفـــات، أو بإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونيـة، أو بالتربيـة الخلقيـــة وإصـــلاح الأفـــراد، غـــافلين عن فســـاد المجتمـــع، وســـيطرة أفكـــار الكفـــر وأحكامـــه وأنظمته عليه، ظانين أن إصلاح المجتمـع يكـون بإصلاح أفراده، مع أن إصلاح المجتمع إنما يكون بإصلاح أفكـاره ومشـاعره وأنظمتـه وإصـلاحهما ســـيؤدي إلى إصـــلاح أفـــراده، فـــالمجتمع ليس أفرادًا فقط، وإنما هو أفراد وعلاقـات، أي أفـراد وأفكار ومشاعر وأنظمة، كما عمل رسول الله لتغيير المجتمع الجاهلي إلى مجتمع إســلامي، إذ أخذ يعمل تغيير العقائد الموجودة بأفكار العقيدة الإســـلامية، وعلى تغيـــير الأفكـــار والمفـــاهيم والعـادات الجاهليـة بأفكـار الإسـلام ومفاهيمـه وأحكامه، ومن تغيير مشاعر الناس من الارتباط

بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها، إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية، وأفكار الإسلام وأحكامه.

أو بالأعمال المادية، وحمل السلاح غير مفرقين بين دار الإسلام ودار الكفر، وبين كيفية حمل الدعوة وإنكار المنكر في كل دار منهما، والدار التي نعيش فيها اليوم هي دار كفر لأنها تطبق أحكام الكفر، وهي تشبه مكة أيام بعثة الرسول، ويكون حمل الدعوة فيها بالدعوة والأعمال السياسية لا بالأعمال المادية، كما حمل الرسول الدعوة في مكة، إذ اقتصر على حمل الدعوة، ولم يستعمل الأعمال المادية، لأنه ليس المراد تغيير حاكم حكم بغير ما أنزل الله في دار إسلام، بل المراد تغيير دار كفر بأفكارها وأنظمتها، وتغييرها يكون بتغيير الأفكار والمشاعر والأنظمة فيها، كما فعل رسول الله ﷺ في مكة.

أما العمل لإعادة دولة الخلافة والحكم بما أنزل الله إلى الوجود وهو السبب الثالث لتكوين الحزب، فلأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على المسلمين التقييد بجميع الأحكام الشرعية، وأوجب عليهم الحكم بما أنزل الله، ولا يتأتى ذلك إلا بوجود دولة إسلامية، وخليفة يطبق على الناس الإسلام.

وكلام الحزب هذا لا غبار عليه في حد ذاته، ولكنه، لا يلم بكل أبعاد القضية، كما أن فكرة الخلافة لابد أن يتغير مفهومها من المفهوم السلفي القديم إلى مفهوم يتجاوب مع الأوضاع الحديثة. وهو أمر نشك في استساغة حزب التحرير له.

وقـد بين الحـزب طريقتـه في تبـني الأفكـار وهي تقوم على "دراسة واقع الأمة ومـا وصـلت إليـه وبواقـع عصـر الرسـول ﷺ وعصـر الخلفـاء الراشدين وعصـر التـابعين من بعـده، وبـالرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ وكيفية حملـه الـدعوة منـذ أن بدأ في إقامة الدولة في المدينـة، ثم دراسـة كيفيـة سـيرِهِ في المدينـة، وبـالرجوع إلى كتـاب الله وسنة رسوله وإلى ما أرشد إليه من إجمـاع الصحابة والقيـاس وبالاسـتنارة بـأقوال الصـحابة والتابعين وأقوال الأئمة المجتهـدين".. وبعـد كـل ذلـك تبـني حـزب التحريـر أفكـاره وهي أفكـار "إسلامية ليس غـير، وليس فيهـا أي شـيء غـير إسلامي بل هي إسـلامية فحسـب لا تعتمـد غـير أصول الإسلام ونصوصه".

إن هذه السطور هامة لأنهـا تمثـل "سياسـة تقرير الأحكام" وأن تكون مصـادر هـذه الأحكـام إسـلامية بـالمعنى المقـرر (القـرآن. السـنة – الإجمـاع – القيـاس) وأن لا تعتمد شيئًا أحـد غيرهـا – وسـنورد شـواهد على ذلك – تحصـر فكـر الحـزب في الفكـر السـلفي وترى أن أي شيء غير ذلك "غير إسلامي".

مـع أن الإسـلام لا يمكن أن يكـون "منغلقًـا" فهو يعترف بكل الديانات ومن الفقهاء من يقول "شـرع من قبلنـا شـرع لنـا" وقـال الرسـول أن الحكمـة ضـالة المـؤمن ينشـدها أنَّى وجـدها" ووضع مبدءًا هامًا "نحن أولى به منهم" أراد "به" موسى، أما آيات القرآن الكريم التي تحض على النظـر والتـدبير في أحـوال السـابقين والتمـاس العظة والعبرة منها، فلا حدّ لها. فحصـر الإسـلام

في أحـاديث بعينهـا، أو أقـوال الأئمـة والفقهـاء والمجتهـدين تعسـف يغفـل مبـدءًا أساسـيًا في الإسلام هو أن كل ما يثبت صلاحه ونفعه – كائنًـا مـا كـان – يمكن أن يكـون إسـلاميًا فمـا يـراه المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن.

وأنه لمن المؤسف أن يـرى المـرء كيـف أن الحماسة للإسلام تدفع فريقًا من دعاته للتضييق ولإصدار أحكام جائرة. فحـزب التحريـر يـرى أن الديمقراطيـــة كفـــر (ص 56 – كتـــاب حـــزب التحرير) لأن الله وحده هو المشرع" ويقرر:

الديمقراطية الرأسمالية:

هي مبدأ الدولة الغربيـة وأمريكـا وهي مبـدأ فصـــل الـــدين عن الدولـــة، وفصـــل الـــدين عن الحياة، "دع ما لقيصر لقيصر وما لله للـه" وبنـاءً على ذلك كان الإنسان هو الذي يضع نظامـه في الحياة.

وهذا المبدأ هو مبدأ كفر يتناقض مع الإسلام لأن الله هو المشرع.

وهو وحده الذي وضع النظام للبشـر، وجعـل الدولـــة جـــزءًا من أحكـــام الإســـلام، وأوجب أن تعـالج جميـع شـؤون الحيـاة بالأحكـام الشـرعية الـتي أنزلهـا. لـذلك يحـرم على المسـلمين أن يعتنقوا المبدأ الرأسمالي أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمتـه، لأنـه مبـدأ كفـر، وأفكـاره أفكـار كفـر، وأنظمته أنظمة كفر تتناقض مع الإسلام.

رأي الإسلام في الحريات:

ومن أبـرز أفكـار المبـدأ الرأسـمالي وجـوب المحافظـــة على الحريـــات للإنســـان، وهـــذه

الحريــات هي حريــة العقيــدة، وحريــة الــرأي، وحرية الملكية، والحرية الشخصية. وقـد نتج عن حريــة التملــك النظــام الاقتصــادي الرأســمالي المبني على النفعية، الـتي أدت إلى الاحتكـارات الضخمة، والـتي دفعت الدولـة الغربيـة الكـافرة إلى استعمار الشعوب ونهب ثرواتها.

وهـذه الحريـات الأربـع العامـة تتنـاقض مـع أحكام الإسلام، فالمسلم ليس حرًا في عقيدتــه، فإنه إذا ارتد يستتاب فإن لم يرجع يقتـل، قـال "من بدَّل دينه فاقتلوه"، والمسلم ليس حرًا في رأيه، فما يراه الإسـلام يجب أن يـراه، ولا يجـوز أن يكون للمسلم رأي غير رأي الإسلام.

والمسلم ليس حرًا في الملـك، ولا يصـح لـه أن يتملــك إلا ضــمن أســباب التملــك الشــرعية، فليس حرًا أن يملك ما شاء بل هو مقيد بأسباب التملـك فلا يجـوز أن يتملـك بسـواها مطلقًـا فلا يصح أن يتملك بالربا، أو بالاحتكار أو ببيع الخمــر أو الخنزير، أو ما شاكل ذلـك من طـرق التملـك الممنوعــة شــرعًا. فإنــه لا يجــوز أن يملــك بــأي طريق منها.

والحرية الشخصية لا وجود لها في الإسلام، فالمسلم ليس حرًا حرية شخصية، بل هـو مقيـد بمـا يـراه الشـرع، فـإذا لم يقم بـأداء الصـلاة أو الصـيام مثلاً يعـاقب وإذا سـكر يعـاقب وإذا زنـا يعاقب، لـذلك فالحريـات الموجـودة في النظـام الرأســمالي الغــربي لا وجــود لهــا في الإســلام، وهي تتناقض مع أحكام الإسلام تناقضًا كليًا".

وإذا كان هذا هو حظ الديمقراطيــة، فلا ريب أن النظــام الشــيوعي أســوأ فهــو "مبــدأ كفــر

وأفكاره كفر، ونظامه نظام كفـر، وهـو يتنـاقض مـع الإسـلام تناقضًـا كليًـا وجـذريًا في كلياتـه وجزئياتــه" والنظـــام الملكي في الحكم ليس نظامًا إسلاميًا وكذلك النظـام الجمهـوري سـواء كان رئاسيًا كالولايات المتحدة. أو نظامًا برلمانيًا كمـا هـو حاصـل في ألمانيـا الغربيـة. والنظـام الإسلامي الوحيد هو "الخلافة".

ولا يخالجنا شك أن هـذه ليسـت هي أحكـام الإسـلام، ولكنهـا أحكـام الغبـاء وضـيق الأفهم وسوء الفهم، وهي تسيء إليه أشد أعدائه.

وكقاعدة عامة. فـإن الحـزب أمـا أن يتبـع – اتباعًا أعمى ودون ملاحظة للملابسات – أي نص يثبت لديه، سواء كـان حـديثًا، أو حكمًـا فقهيًـا أو أن يجتهـــد فيمـــا وراء ذلـــك واجتهـــاده يميـــل للتعسف، والتضييق، باستثناء فلتات سنشير إلى بعضها فيمـا سـيلي، وقـد وضـع عـام 63 شـرحًا لمـواد الدسـتور بعنـوان "مقدمـة الدسـتور – أو الأسباب الموجبة لـه" في 457 صـفحة (المـواد 182 مادة) نجد فيه لكل مادة سـندًا من حـديث أو سابقة من أحكام الخلفاء الراشـدين، دون أي نظــر إلى متغـيرات – دون أي احتفـال بإظهـار المـبرر الموضـوعي ومـا فيـه من دواع تقتضـيه إلخ.

ومن الفلتــات الــتي تشــذ عن هــذا الحكم مناقشـة طويلـة لتحـريم كـنز المـادة 130 ولـو أديت زكاتــه، وكــذلك تحــريم مــوآجرة الأرض المـادة 123، وفتح بـاب التعليم للجميـع "ويفتح مجال التعليم العـالي مجانًـا للجميـع بأقصـى مـا يتيسر من إمكانيات (مـادة 165). وقـد اعـترف

الدســتور بــالقرآن والســنة وإجمــاع الصــحابة واستبعد القياس من أن يكـون مصـدرًا للأحكـام ورفض إجماع المسـلمين، وجلب المصـالح ودرء المفاســد ورفض العقـــل، لأن الكلام هـــو عن الحكم الشرعي أي ما غلب على الظن أنه حكم الله، وهو لا يكون إلا مما جاء به الـوحي والعقـل لم يأت به الوحي، ولذلك لا يوجد دليـل لا ظـني، ولا منطقي، على أن العقل من الأدلـة الشـرعية على الأحكــام الشــرعية فلا يعتــبر من الأدلـــة الشرعية مطلقًا. ص 57 مقدمة الدستور وكذلك رفض الاستحسـان والمصـالح المرسـلة.. وقـد أثبت هذا كله بحرارة وقـوة وبطريقـة تـوحي أن ما ذهب إليه هو الصواب الذي لا مراء فيه!!

ورأي كتــاب "الفكــر الإســلامي" وهــو من تــأليف أســتاذ مصــري في الجامعــة المصــرية، ولكنــه من كتب الحــزب، أن الــرأي يســتنبطه المجتهــد حكم شــرعي على أســاس أن الحكم الشرعي هو الـرأي الـذي يؤخـذ من النص، وهـو الذي يعتبر خطـاب الشـارع، ومن هنـا كـان رأي المجتهــــــــــد خطابًــــــــا شــــــــــرعيًا ما دام يستند فيه إلى الكتاب والسنة، أو إلى مـا دل عليـه الكتـاب والسـنة من الأدلـة الشـرعية. وندد الكتاب بالـذين يـدعون أن الحكم الشـرعي هو نص القرآن أو الحديث فقـط. ورأى أن ذلـك سيوجد مسائل كثيرة لا يوجـد لهـا حكم شـرعي وأشفق أن "يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذي يراه والحكم الذي يوافق هواه!" مسكين. ومـرة أخرى يحذر "من أن يترك للعقل أن يقرر ما هي المصلحة، بل يجب أن يقرر ذلـك الشـرع وحـده

لأنه هو الذي يقرر المصلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقيـة" ورأى الكتـاب أنـه "لا يجـوز في حـق الرسول أن يكون مجتهدًا" ورفض كل مــا أورده الفقهـاء أو المفسـرون من اجتهـاد للرسـول أن يكون مجتهـدًا" ورفض كـل مـا أورده الفقهـاء أو المفســرون من اجتهــاد للرســول يخطئ فيــه فيصحح الوحي له ذلك.

* * * *

إن مأســاة حــزب التحريــر أن هــذا الحــزب الذي خرج من أحشاء النكبـة، وتعـرض لمخـاض عسير، وحمل صفة "التحرير"، ولم ينقص دعاته الحماسة والإخلاص، أصبح قفصًا محكمًـا تسـجن فيه الجماهير، والأفكار، والإرادات وكل مــا يمت بصــلة إلى "التحريــر" لأن دعاتــه لم يعملــوا عقولهم، ولكن اسـتخدموا نقـولهم. ولم يعمـدوا إلى روح الإســلام الحــرة الطليقــة، العادلــة السمحة "العقلانية" في كل شيء، باستثناء ذات الله – وإنما لجأوا إلى فهم عقيم كان هـو نفسـه وراء استخذاء الجماهير.. وضلال القادة..

ومــع أن الحــزب كــان من الــذكاء بحيث يستبعد فكره العمل "الإرهابي" أو "الجهادي من وسائله، قياسًا على أنـه يعمـل في "عهـد مكي" فإن هـذا لم يشـفع لـه في البقـاء. فتحللـه كـان محتومًـا، وكـان خـيرًا أيضًـا، فـإن حزبًـا يسـتبعد العقــل من تفكـيره الشــرعي، عدمــه خــير من وجوده.

ولكن يظــل مــع هــذا أن المشــكلات الــتي أثارهـا لا تـزال هي مشـكلات السـاحة والسـاعة وأن الحلول التي عرضها تراود البعض لأنها على

خطأ في معظمها، لم تعالج المعالجة الموضوعية من الآخرين. فقد انتقد كتيب [1] ما ذهب إليه حزب التحرير عندما أباح تقبيل المرأة الأجنبية ومصافحتها.. فبدلاً من أن يظهر الخطأ الموضوعي في ذلك، فإنه أورد للرد عليه كلمة لابن تيمية: "من استحل النظر فقد كفر بالإجماع!!" فعرض صورة أخرى من صور الشطط، ووجها ثانيًا للعملة نفسها.. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأ. ولكن اجتهاد ابن تيمية أسوأ ويفتح بابًا للشرور أشنع مما يمكن أن يفتحه خطأ حزب التحرير.. فما أسوأ أن تفتح أبواب محكمة التكفير على مصراعيه ولكل صغيرة وكبيرة!

* * * *

---

1 (?) نعني به كتيب "الدعوة الإسلامية. فريضة شرعية وضرورة بشرية" ص 110 [دار التوزيع والنشر الإسلامية] وفتوى ابن تيمية مقتبسة من "منار السبيل في شرح الدليل على مذهب أحمد 2/ 142. أما فتوى حزب التحرير فكان نصها "ومن قبل قادمًا من سفر رجلاً كان أو امرأة، أو صافح أحدًا رجلاً كان أو امرأة، ولم يقم بهذا العمل من أجل الوصول إلى الزنا أو اللوط فإن هذا التقبيل وهذه المصافحة ليسا حرامًا، ولذلك كانا حلالين لاشيء فيهما" وجاء في تبرير ذلك "الدخول تحت عموميات الأدلة المبيحة لأفعال الإنسان العادية"..

الفصل الرابع
دعوات الرافضة الجديدة

مقدمة

تحت هذا الاسم سندرج عـددًا من الـدعوات وضـعت بـذورها في الخمسـينيات، وأثمـرت في الستينيات، واستشرت في السبعينيات، وانتقلت من مصر إلى معظم الدولة الإسلامية.

وقـــد رأينـــا في عرضـــنا لفكـــر الجماعـــة الإسلامية أنها تقوم على "العبودية للـه"، وتـدعو إلى: "الحاكمية الإلهية"، وتصم المجتمعات الـتي لا تحكم بمـا أنــزل اللــه بوصـمة: "الجاهليـة".. وهذه هي أصول الرافضة الجديدة..

والفرق بين الرافضة الجديـدة الـتي ظهـرت في مصـــر وقـــامت على هـــذه المبـــادئ وبين الجامعـة الإسـلامية أن الجماعـة الإسـلامية لم تعتبر أن هذه المبادئ "مقدمات" تستخلص منها "الجهـاد" أو "الثـورة" ولم تـر أن ثوريـة فكرتهـا تتطلب ممارسة ثورية تقوم على عنف، أو جهاد، أو حـتى هجـرة، ولم تـر أن النتيجـة المنطقيـة لمبادئهـا هي تكفـير "أئمـة الجاهليـة".. إلخ ممـا انتهت إليه الرافضة الجديدة.

لأن الجماعـة الإسـلامية كجماعـة نظاميـة معلنة كان لابد لها أن تعمل بالطرق المشروعة، كما كان العلاّمة المودودي مفكرًا راسخًا ناضـجًا لا يتـأثر – بحكم السـن والثقافـة – بالانـدفاعات العاطفية والاتجاهات الثورية، ومن أجـل هـذا لم

تأخذ في باكستان الطابع العنيف الذي أخذته في مصر..

وجاءت نقطة التحـول لهـا في الخمسـينيات عندما ترجمت إلى العربية "كتابـات المـودودي" فساندت وتجاوبت مع فكـر كـاتب إخـواني ذائـع كان له دور في فترة "الفراغ الأيـديلوجي" الـتي أعقبت اغتيـال الإمـام الشـهيد حسـن البَنَّا، وهـو الشهيد سيد قطب رحمه الله الذي صـاغ فكرتـه في كتاب "معالم في الطريق"..

وصدر الكتاب في أوائل الخمسينيات، وطبـع في دار شبه حكوميـة!، وعنـدما قـام انقلاب 23 يوليو 1952م كـان بعض ضـباطه من المعجـبين به والمروجين له..

فكتاب "معالم في الطريق" وأفكار العلاَّمــة المـودودي الـتي تـرجمت إلى العربيـة في هـذه الفترة استقبلا وقتئذ استقبالاً "أكاديميًـا" كوجهـة نظر جديدة في الفكـر الإسـلامي دون أن يـؤدي الإلمام بها إلى رد فعل فوري.

فهـل كـان ذلـك يعـود إلى ضـرورة انقضـاء فترة من "التخمـر الثـوري" أو أنـه يعـود إلى أن أثـر فكـر مـا إنمـا يحـدث عنـدما يـأتي ظـرف مناسب؟

سواء كان هذا أو ذاك، أو هما معًا؛ فـإن أثـر المودودي الـذي استخلصـه كفقيـه إسـلامي من النصــوص، ثم جــاء ســيد قطب ككــاتب ضــليع فصـاغه في أسـلوب فـني بليـغ ينضـح بـالحرارة والحماســة والقــوة لم يصــبحا مصــدر الإلهــام وأساس الفكـر لمجموعـات من الشـباب إلا في

فترة الستينيات عندما احتدمت الخصومة بين الأخوان وعبد الناصر.

وزج عبد الناصر بالألوف من الأخوان في المعتقلات، وفتحت تلك الصفحة المقيتة الكريهة التي لم يسبق للمجتمع المصري بها عهد: تعذيب صلاح نصر والبسيوني، ومحاكمات جمال سالم والدجوي.

* * * *

أ- جماعة التفكير والهجرة

قـــدمت كتابـــات المـــودودي وســـيد قطب الأساس الفكري لتلك المجموعات الـتي أطلقنـا عليها "الرافضة الجديد".

وحدث هذا في معتقلات عبـد الناصـر ورفـع رايتها "شكري مصطفى"..

وتحدث أحد رفاقـه في السـجن عن تطـوره الفكري خلال فترة الاعتقال فقال:

..." فهذا الشاب الطالب في كليـة الزراعـة جامعــة أســيوط قــد جــاء صــدفة إلى الســجن الحربي وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعـذب مثـل الآخـرين، وكنت أراه أيـام الحـربي لمامًـا ومن بعيـد فلم نتجـاوز في زنزانـة، ولم يشملنا تحقيق واحـد، ولكنـه كـان يلفت انتبـاهي بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنًا. لم أقـترب منـــه إلا بعـــد إعـــادة التصـــنيف عقب توعيـــة، وفـــوجئت بـــه في عنـــبر الزعمـــاء وهـــو الغلام الحدث، وفوجئت أنه لا يعـرف الكثـير أو القليـل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة، أمـا الإسـلام كبعـد عقائــدي يجاهــد من أجلــه فلم يكن عنــد هــذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا في عنبر 12، وإن أردت أن أكون أيضًا دقة أقول إنــه لم يكن يبــدو كذلك. وكان يسكن في العنبر على مقربة مـني، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننـا، كنت في أغلبها المتحدث الذي يجيب على أسئلته الكثـيرة النهمــة، فهــو يريــد أن يعــرف قصــة الأخــوان المســلمين وكيــف اعتقلــوا؟ ولمــاذا؟ ومــا هــو الجهــاد في ســبيل اللــه؟ وكيــف قــامت دولــة

الإسـلام في سـالف عهـدها؟ ومـا معـنى دين ودولة؟ مصحف وسيف؟ كان يسـأل ويسـأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين، ضاحك من الضاحكين في مرح بـالغ، ولا يظهر إهتمامًا كثيرًا بشئون السياسة. وكـانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه، وتـزوج أبوه امرأة أخرى، وتزوجت أمه رجلاً آخر، وهو لا يدري أين يذهب بعد الإفراج عنه، وكان كثيرًا مـا يتندر بهذه الحالة، ويقول ضاحكًا:

هـذا الاعتقـال قـد حـل لي الكثـير من المشكلات.

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيـه احتفـالاً بـذكرى انتصـارنا في السـويس عـام 1956، وطلبنـا أن نمثـل مسـرحية، ووافقت الإدارة، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثـل فيهـا شـكري مصـطفى دور التلميذ العبيط المـدلل من أبيـه المعلم الجاهـل، وكـان اسـم المسـرحية أشـموني أفنـدي وقـد أعجب بها محمد قطب كثـيرًا وبيَّن لنـا مـا فيهـا من إسقاط سياسي، وكتبت بتشـجيعه مسـرحية "البعد الخامس" ولكن هذه قصة أخرى.

كـان شـكري مصـطفى من غـير المهتمين بالسياسـة رغم كونـه معتقلاً معنـا في قضـية سياسـية، ولم يكن أيضًـا من المهتمين بالإسـلام كبعد جهادي رسالي ينبغي التضـحية في سـبيله، وكـان يسـأل ليعـرف، ثم انتابتـه حالـة لم تلفت نظر أحد فهي كثـيرًا مـا تحـدث، ولا نفسـرها إلا بسوء الحالة النفسية، فهو يصـمت ويسـتمر في الصـمت حـتى أنـه لا يتبـادل الحـديث مـع أحـد

بـالمرة، واقـتربت منـه أيامهـا وكنت وأنـا الـذي أجيب على أسـئلته الكثـيرة أسـأله عن سـبب صـمته المـريب فلا يجيب، ويكتفي بـالقعود على بطانيتـه محـدقًا في لا شـيء، ويأكـل في موعـد الطعام، ويصـلي مـع المصـلين، وإذا خرجنـا إلى طابور الفسحة لا يخـرج معنـا ويكتفي بـالجلوس محيدًا في العنبر متأملاً محدقًا حتى يعود الناس، وتطور الأمر معه فصار يصـلي في الليـل، وكـان في العنبر كثير يفعلون هذا، وانضـم إليهم وصـار واحدًا ممن يقيمون الليل.

وكففت عن سـؤاله عن سـبب صـمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحاول أن أدرك مـا يفكر فيه بلا فائدة حـتى جـاء اليـوم الـذي رفض فيـه التوقيـع على التأييـد، وانحلت عقـدة لسـانه وصار مرحًا ثرثارًا كما كان من قبل.

وصرت انظر إليه ولا أتحـدث متـأملاً متعجبًـا أحـاول أن أفهم فينغلـق على الفهم، ورآني واقترب مني وجلس بجانبي.

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيـه – وقال لي بشوشًا:

لعلك تعجب من عدم توقيعي على التأييد[1].

في الحقيقة نعم.

تريد أن تعرف السبب.

---

1 [?] هـذه كـانت خطابـات أو تلغرافـات تطلب إدارة المعتقـل من المعتقلين إرسـالها للحكومـة تأييـد لهـا في مناسـبات مـا. ولم يكن لـيرى بعض المعتقلين ضـيرًا في هـذا. بينمـا يـرفض البعض الآخـر ذلـك ـ ومنهم شكري مصطفى ـ رفضًا قطعيًا.

قلت له ملحًا: لو سمحت.

وتنهد شكري مصطفَى تنهيـدة طويلـة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحة وبدا جادًا صارمًا.

قد رأيت ما حل بنا، وما فعلته حكومتنا معنا، اسـتباحت أبناءهـا وضـربتهم بالسـياط، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والأطفـال، قـد رأيت بنفسـك هذا هنا في هذا المكان، في السجن الحربي كنـا سويًا، وضعوني مـع الزعمـاء ولسـت كـذلك قـد عـرفت هـذا بنفسـك، لقـد سـمعت منـك قصـة الإسلام بالتفصيل، لم أسمعها من قبـل – وكلمـا ازددت معرفــة ازددت غيظًــا. وأظن أنــه إن لم تؤاتـني هـذه الفرصـة للمعارضـة وإعلانهـا لمت كمـدًا. أقـل مـا نفعلـه لحكومـة مثـل هـذه الـتي تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها. هذا أقل مــا ينبغي عليَّ فعلــه. ولــو اســتطعت أيضًــا من هــذا مــا ترددت"[1].

وبعد هذا بمدة نرى شكري مصطفى، وهو لا يقف عند هـذه الدرجـة. لأن سياسـات الحكومـة وتصرفات السجانين تدفعه نحو التطـرف، ونحـو الإصرار.. والمضي إلى آخر المدى.

وقـد يصـور ذلـك هـذا المشـهد الـذي رواه مؤلف "البوابة السوداء".

".. وجــاء حســن طلعت ببذلتــه "الموهــير" اللامعــة وســاعته الذهبيــة وقميصــه الحريــري، وبحـذاء "ساكسـون" وجـورب لعلـه إشـتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسي أنيقًـا جميلاً بهي الطلعة، كأنه مصنوع في مصنع، وبدأ حــديثًا

---

1 [(?)] أحمد رائف "البوابة السوداء". ص 399 - 401

سـقيمًا سـخيفًا، تحـدث فيـه عن عظمـة الإلـه – إلهه هو – الزعيم الذي لا يقهر، وكيف نجاه اللــه من المهالك، وكيـف تغلب عليهـا ومـا زال يحكم ويأمر وينهي ويقتل ويحيي ويميت ويفعل بالعبـاد ما يشاء.

كنـــا جلوسًـــا أمامـــه على الأرض بملابس الاعتقـــال المصـــنوعة من "الخيش" والكـــل مستغرق في أفكاره وقال:

تـآمرتم عليـه بتحـريض من الاسـتعمار عـام 1954 فلم تفلحوا فجاء غزو سنة 1956 لإنجـاح مـا فشـلتم فيـه ونجـاه اللـه وتـآمرتم عليـه في 1965 ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو 1967 لإنجاح مـا فشـلتم فيـه، ونجـاه اللـه. ألا يعطيكم هـذا العظة والعبرة بأنه خالد باقٍ لا يموت؟

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف:

- سبحان الحي الذي لا يموت.

وقال حسن طلعت الذي سمع تمتمته:

- ماذا تقول؟

وانفجر الشيخ عارف:

- ألا تسـتحي أيهـا الرجـل من هـذا الكلام الفارغ الذي تقوله؟

واستعد الحرس الـذين يحيطـون بنـا إحاطـة السـوار بالمعصـم بالفتـك بمن يتمـرد، وصـوبت الرشاشات، وكل من الجالسين أعـزل لا يحمـل سـلاحًا إلا "شبشـب" قـديم متهـرئ يضـعه في رجليه، ويصعب اسـتخدامه في الضـرب. وأشـار حسن طلعت إلى الحرس في شجاعة أن كفـوا، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه:

- ظلمتم الأخوان عـام 1954 فعـاقبكم اللـه عام 1956، وظلمتموهم في عام 1965 فمسح اللــه بكم الأرض عــام 1967، وجعلكم ســخرية العالم، ولـو كـان عنـد الـرئيس كرامـة لاسـتقال ولضــرب نفســه بالرصــاص، ولــو كــان عنــدكم إحساس ما قلتم هذا الكلام.

وقــال أبــو بكــر الصــديق وهــو شــاب من المعتقلين كلامًا شبيهًا من هذا، كل هذا وجمهـور المعتقلين سـاكنين قـد تربعـوا الأرض تحت تلـك الشجرة الضخمة بين مبـنى المستشـفى ومبـنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء، يرقبون ما يـدور ولا تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون.

ثم قام إليـه شـكري مصـطفى ووجـه الكلام إليه كلامًا سريعًا حاسـمًا قاسـيًا كطلقـات ناريـة من مدفع أتوماتيكي حديث الصنع:

- أنت كــافر. ورئيس جمهوريتــك كــافر. ولئن أحياني الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شــديدًا، ولئن مت فســوف يــأتي من بعــدنا من يقضــي عليكم ويــدين دولتكم. ولئن هــربتم من عقابنـــا في الـــدنيا فلن ينج أحـــد منكم يـــوم القيامة".

قُضيَ الأمر. ومن هذه اللحظة لم يعد هنـاك رأفة أو مهادنة، واسـتقر رأي شـكري مصـطفى وأصبح الشيء الوحيد الذي يكرره:

- "والله لئن كتب اللـه لي الخـروج من هـذا الجب لأقاتلنهم قتالاً ضروسًا بمـا أسـتطيع حـتى أغيرهم أو أموت شهيدًا.."[1].

---

1 [(?)] أحمد رائف "البوابة السوداء"، ص 573 – 574.

وقد كان ...

فعندما خرج شكري مصطفى. أسس الهيئة الرائدة فكريًا وعمليًا من هيئات "الرافضة الجديدة".

إذا كانت هذه هي المرحلة الأولى في تطور شكري مصطفى، فلابد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادئ المودودي وسيد قطب مبدأ "التكفير"، و "مجاهدة الجاهلية" أو الهجرة" كما تعلق بفكرة "الخلافة" وكتب كتابًا عنها، وفي النهاية أسس الجماعة التي أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم "جماعة التكفير والهجرة"، ومع أن "أخبار اليوم" قلما تصدق وإنما تبغي الإثارة دائمًا، إلا أنها في هذه التسمية رزقت الصدق وكيفت الهيئة تكييفًا حقيقيًا..

ولما لم يكن لهذه الهيئة، ولا أي هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية، أو فكر أصولي حقيقي فنحن لا نتابع التطور أو نتقصى التاريخ، وإنما نلم بأبرز القسمات والتطورات في كل هيئة.

ومن أبرز ما اتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكري مصطفى من واقع أقواله [1] أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم 6 لسنة 1977) والتي نشرت في الصحف يوم 21/ـ 10/ 1979م.

---

1 [(?)] من كتاب ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة): عبد الرحمن أبو الخير. دار البحوث العلمية الكويت ص 9

إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعًا.

إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كي يكون المسلم مسلمًا، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل الله، وأعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلمًا.

إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافرًا.

الإسلام الحق هو الذي تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط – وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن.

وبطلان بعض هذه المبادئ ظاهر لا يحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشرين أو ثلاثين شابًا أن جماعته هذه هي وحدها – دون كل الجماعات الإسلامية، والمسلمين عامة – هي التي تمثل الإسلام حقًا، وأن كل ما عداها ضالٌ بما في ذلك جماعة "الأخوان المسلمين" التي تعلم فيها أول ما تعلم، و"الجماعة الإسلامية" في الهند التي يتفق هو نفسه معها في كثير مما ادعاه، وجماعة "الفنية العسكرية" التي سبقتهم على الطريق.

نقول لا يـدعي هـذا إلا إذا وصـل بـه الغـرور درجة أعمته عن كل أثارة من أثارات الاتــزان أو الموضوعية.

وقد كان شكري مصطفى له شخصـية قويـة ونفوذ مؤثر على أتباعه.. وكـان يهيمن عليـه هـو نفسه مزاج عصبي جعل معاييره ذاتية خالصة.

من ناحيــة أخــرى فــإن فكــرة رفض أقــوال الأئمة (أئمة المذاهب) ورفض الإجماع والقيــاس هي أفكار معقولة وقابلة للدراسة، ولم ينفرد بها شكري مصطفى.

إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس..

ومن أئمــة المســلمين من قــال إن أول من قاس هو إبليس!..

ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع..

ولكن من يتصـــدى لهـــذا لابـــد أن يمضـــي سـنوات وفي الدراسـة والتمحيص خاصـة إذا لم يكتـف بالنقـد، بـل إذا أراد أن يضـع بـديلاً فيجب عليـه أن يتثقـف ثقافـة عميقـة فسـيحة ويعيش عمرًا طويلاً.

ونحن أنفســنا نضــع خطــوط "فقــه جديــد" يستبعد منه القياس والإجماع، ولكننـا نفعـل هـذا بعـد خمسـة وأربعين عامًـا متصـلة في الدراسـة والبحث، منذ أن ظهر أول كتاب لنا عـام 1945، وبعد أن جاوزنا السبعين من العمر.

وأفكــار التكفــير، وإقامــة الخلافــة.. كلهــا أطياف من الهوس والهذيان..

وقـد فهمت سـلطات الأمن نفسـية شـكري مصطفى ونقط الضعف فيـه والعوامـل المـؤثرة عليه، وتبينت أن المبدأيـة المزعومـة والـتي هي طـابع دعوتـه إنمـا هي دلالـة على السـطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على أتباعه.

أمـا في الحقيقـة فإنـه على نقيض شـدته وتعصـبه وشـنآن عداوتـه مسـاومٌ، لا يـرفض أي صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة.

وقد توصلت سلطات الأمن إلى هذا إمـا عن دراسة لنفسـيته أو نقلاً عن بعض أعوانهـا الـذين غرستهم في صحابته.

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعـة عنـدما سأل شكري مصطفى أحد صحابته: هل لو وجـد اليهود [الذين يسيطرون على العالم في رأيـه] مصلحة لهم في إقامـة الخلافـة فهـل يقيموهـا.. فرد عليـه: إنهم إذا وجـدوا الرجـل الـذي يحقـق لهم أغراضـهم عن طريـق الخلافـة فـإنهم يقيموها..

ومن هـذه الفكـرة نبتت فكـرة: "العمـل من خلال خطة العدو".. وتضخمت حـتى وصـلت إلى مستوى "الحسابات الدقيقة للمصالح المشـتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهليـة"، وأنـه إذا كانت هناك عمليـة يمكن أن تقـوم بهـا الجماعـة بالاشـتراك مـع العـدو بحيث تكسـب الجماعـة 54% فيها ويكسب العـدو 46% منهـا فيجب أن تؤدي!..

وعنـدما حـاول أحـد الأعضـاء الاعـتراض وإيضاح أن هذه لن تكون سوى صـفقة خاسـرة،

فضلاً عن مخالفتها لأسس الجماعة التي تــرفض التعـــاون مـــع الجاهليـــة، وأنهم في النهايـــة سيسـتثمرون قـال أحـدهم: "قبلنـا أن نسـتثمر.. قبلنا أن نستثمر!ـ"[1].

وكان الطعم الذي قدمته السلطات أنهـا في حاجة لمثل هذه الهيئـة الـتي تـدعو إلى الهجـرة وتصـرف الشـباب عن المنـاهج الانقلابيـة، وأنهـا مسـتعدة لـدفع تعـويض عمـا نـال أعضـاءها في الماضي وطلبت إليهم رفع قضية للحصـول على التعــويض المناســب، وفي مقابــل ذلــك يقــوم شـكري مصـطفى وصـحابته بالقضـاء على بقيـة "الفنية العسكرية" خاصة بعـد أن أوقعت بينهمـا فتنة.

وبهذه الطريقـة شـنت الجماعـة حملـة على عناصر معينة في المعصرة والإسكندرية.. وقبض إثر هـذه الغـارة على سـبعة عشـر من أعضـائها البــارزين؛ ولكن هــذا لم يثن الجماعــة عن أن تمضي في خطتها لتقع في الطعم الأكبر..

هــذا الطُعم هــو اختطــاف الــدكتور محمــد حسين الـذهبي وزيـر الأوقـاف الأسـبق والشـيخ العالم الجليل، ومطالبة السـلطات بمبلـغ مـائتي ألف جنيه والإفراج عن المسجونين..

وكان الشيخ الـذهبي على وجـه التعـيين هـو آخر من يجوز لهـذه الجماعـة المسـاس بـه لأنـه كـان أحـد العـاملين على إصـلاح جهـاز الـدعوة والدعاة والمنتقدين للوسائل التي تقوم عليها..

---

1 (?) المرجع السابق ص 59.

ولكن كان هناك عامـل غلب على أي عامـل آخـر لـدى شـكري مصـطفى ذلـك هـو رغبتـه المحرقة في "البلاغ".

أي توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بـأي ثمن..

ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا..

وبالفعل فإن كل أجهـزة الإعلام من صـحافة وإذاعة وتليفزيـون؛ لا في مصـر وحـدها بـل في العالم كله أذاعت النبأ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة:

ولكنهـا تحـدثت عنهـا كعصـابة مهووسـة.. مجنونة..!! خاصة بعـد أن قتلـوا الشـيخ وعـذبوه فيما قيل..

وقـد أكـد هـذه الفكـرة (فكـرة أن اختطـاف الشـيخ الـذهبي كـانت لكي يتم البلاغ!!) أحـد صحابة شكري مصطفى المقربين [1]..

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة؟!

إن شـكري مصـطفى في فعلتـه تلـك أسـوأ من مجنـون الشـهرة الـذي أحـرق المعبـد لكي يشتهر، فَقَتْل إنسان.. أسوأ من إحراق معبد.

الغريب والذي يصور مدى انفصـام شخصـية شكري مصطفى وغلبـة الهـوس على عقلـه أنـه كلف أحـد أتباعـه بكتابـة بحث عن الأخـوان جـاء فيه أن حسن البَنَّا ماسوني!..

وقـدم شـكري مصـطفى هـذا البحث بكلمـة اتهم فيهـا "بالخيانـة العظمى"! قـادة الأخـوان

---

1 (?) المرجع السابق ص 114

المسلمين الذي قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا في أعناقهم وأسلموهم لجلاديهم والمشانق والسجون.

فهل تذكر شكري ذلك عندما أودَى بنفسه وبخاصة رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشرين من مارس عام 1978م.

وطويت صفحة "جماعة المسلمين" التي رأت أنها دون بقية الهيئات هي التي تمثل "الإسلام"، ويغلب أن تكون كل هذه الهيئات أقرب منها إلى الإسلام.

* * * *

ب- القطبيون وكتاب معالم في الطريق

يمثـل "القطـبيون" كمـا أطلـق عليهم تيـارًا فكريًا نبـع في الأخـوان المسـلمين، وقـد ينسـبه البعض إليهم، كمـا قـد يـراه البعض انحرافًـا عن فكر الأخوان المسلمين كما عرضه مؤسسها..

ولكن القطبيين لا يمثلون تشـكيلاً أو تنظيمًـا له قيادة وعضوية..

وإن كان الشـهيد سـيد قطب كـان المرشـد الروحي لمجموعة من الأخوان في الستينات..

وكانت هـذه الواقعـة هي أسـاس محاكمـات عام 1965 الجائرة، التي حكم فيها على زعمـاء هذا التيار وسيد قطب نفسه بالإعدام.

ولكن عـــدم وجـــود تنظيم لا ينفي وجـــود "كتاب" يمكن أن يقدم الإلهام الفكري والنظري لتنظيم ما هو كتاب: "معالم في الطريق".

ولما كـان سـيد قطب – رحمـه اللـه – كاتبًـا محترفًا، فإن صياغة الكتاب جاءت بصـورة يمكن أن تكـــون ملهمـــة بصـــرف النظـــر عن ســـلامة المضمون..

وهذا المضمون يقوم على أركان ثلاثة كـانت الجماعة الإسلامية هي التي قدمتها وهي:

العبودية لله..

والحاكمية الإلهية..

والجاهلية..

فليس في هـــذا المضـــمون جديـــد، ولكن الجديد هو تقديمهن وصـياغته والبرهنـة عليـه. لا

بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد في مثـل هذا الكتاب..

ولكن بأدلـة "نقليـة".. أو من الإيمـان الـذي تملك المؤلف فصاغه وثيقة ملتهبة..

والنقد الرئيسي الذي يوجه لفكرة "الحاكمية الإلهيـة" – وهي واسـطة العقـد في فكـر سـيد قطب – هـو أنهـا تجريـد للعقيـدة عن مضـمونها العملي، وإعلاء لهذا التجريـد، بحيث يأخـذ معـنى آخر يختلف عن المعنى الذي تقدمه العقيـدة في مضمونها العملي.

"فالحاكمية الإلهية" دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة، وتغيير شامل..

فـإذا قلنـا: ومـاذا تعنيـه الحاكميـة الإلهيـة "عمليًـا"؟ أو: كيـف يمكن لهـا أن تحقـق ثورتهـا الكاسحة؟ لما وجدنا شيئًا في مائتي صـفحة من صفحات "معالم في الطريق" إلا هذه السطور:-

"ودين الله ليس غامضًا ومنهجه للحياة ليس مائعًا فهو محدد بشطر الشـهادة الثـاني "محمـد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول ﷺ من النصـوص في الأصـول، فـإن كـان هنـاك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مـع النص، فـإن لم يكن هنـاك نص، فهنـا يجيء دور الاجتهـاد، ومن أصـوله المقـررة في منهج اللـه ذاتـه، لا وفــق الأهـواء والرغبـات: ﴿ فَـإِن تَنَـازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء 59).

والأصـول المقــررة للاجتهـاد والاسـتنباط مقـررة كـذلك – ومعروفـة وليسـت غامضـة ولا مائعة – فليس لأحد أن يقـول لشـرع هـذا شـرع

الله.. إلا أن تكون حاكمية العليا لله، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي البشر" انتهى.

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه في الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أي تجديد.

بل من الفقهاء من عرضوا القضية بأفضل من هذا..

والنتيجة العملية: أن ليس في كل الحماسة والعاطفة والثورة أية إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامي التقليدي..

وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره؟..

السبب: أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدي إلا خلال عشرة سطور وسط مائتي صفحة، وأما الباقي كله فكلام يوحي بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البته..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هي هذه النتيجة.

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحي بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون.

وعمليًا فإن كلمة "الحاكمة الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة.. وضلال السذج: فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلي باطل معاوية على حق علي. وانخدع بها الخوارج

فخذلوا عليًا وهو أتقى التقاه ومكنوا معاويــة من الانتصـــار بحجـــة "لا حكم إلا للـــه".. "حكمت الرجال في دين الله"!!

وعنـدما بعثت هـذه القالـة تكـررت المأسـاة واسـتغلها بعض الأفـراد الأذكيـاء للسـيطرة على شراذم من السذج وتحكموا فيهم..

لأن القالة لا تتضمن حدودًا عملية تحكمها..

وإذا كان الخوارج الذين أطلق عليهم القـراء – لمــواظبتهم على قــراءة القــرآن، ومواصــلة الصلاة – انساقوا لقتل أحد الصـحابة وبقـر بطن زوجته.. في الوقت الـذي تورعـوا فيـه عن أكـل رطبة ساقطة من نخلة!!!.. بدعوى هـذه القالـة فليس من العجب أنهـا دفعت مهووسًـا بهـا لأن يطلق مسدسه في عين أحد الشيوخ الأجلاء..

فـإذا كـانت الشـعارات من نـوع "الحاكميـة الإلهية".. "العبودية للـه" تكسـب الجمـوع وتثـير الحماســة فإنهــا عمليًــا لا تعــني إلا الضــلال والانحـراف عنـدما يـأتي الأمـر للتطـبيق. ولـو إنتصرت دعوة سـيد قطب رحمـه اللـه لأوجـدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغبـاء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعًا.

وإذا كانت "الحاكمية الإلهيـة" تعـني: تحـريم ما حرم الله، وتحليل ما أحـلّ اللـه، والحكم بمـا أنزل الله.. فمن الخير أن يقال هذا.

قد قالتها أم الدعوات الإسـلامية في العصـر الحــديث "الأخــوان المســلمون" في مقدمــة شــعاراتهم "اللــه غايتنــا.. القــرآن دســتورنا.. الرسول زعيمنا".

وقـــد قالتهـــا الجماعـــة الإســـلامية بمنهجـــه وتحديد في لائحة نظامها الأساس التي أوردناهـا من قبل [انظر الصفحات من 48 إلى 53].

كمـا أنـه هـو الـذي يقـول بـه كـل الفقهـاء المسلمين بلا استثناء..

وقالة أخرى مضلة هي "العبوديـة للـه" فمـا المقصود بها عمليًا؟..

لأنها عقيديًا ليست محل خلاف..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلــون ويحرمــون.. فهــذا مــا تضــمنته دعــوة الأخوان وما أشرنا إليه.

وإذا كانت تعني ألا يكون هنـاك "شـفاعة" أو "ولاية" مـع اللـه.. فهـذا مـا قالتـه الوهابيـة ومـا أقامت عليه دعوتها..

وإذا كـانت تعـني أن تتأصـل فكـرة العبوديـة في النفوس وتتغلغـل فيهـا وتكـون دائمًـا نصـب العيون.. فهذا شيء أقـرب إلى الرجـاء ممـا هـو إلى التحقيق؛ لأن اللـه تعـالى أوجـد في نفـوس البشر مـا يشـغلها من شـهوات وغرائـز، وسـلط عليهـــا الشـــياطين، وحرمهـــا من نقـــاء وصـــفاء الملائكة..

وقد استشعر هذا المعـنى الصـحابي حنظلـه وظن أن النفــاق قــد تطــرق إليــه فــذهب إلى الرسول ، وفي طريقه قابل أبا بكر الذي سـأله عن حاله فقال: "نافق حنظله" ولم استفهم منه أبو بكر عن الحقيقـة ذكـر لـه أنهم يكونـون عنـد رســـول وقـــد تملكهم التقى ثم يئوبـــون إلى زوجـاتهم فتتملكهم الشـهوات، وعندئـذ أقـر أبـو

بكر بأن هذا ما يحدث له، فذهبا إلى رسول اللـه وعرضـا عليـه الأمـر فقـال: "لـو تكونـون عنـد أهلكم كمـا تكونـون معي لصـافحتكم الملائكـة! ولكن ساعة.. وساعة..".

وليس ما هو أيضًا دلالة من هذا الرد المعجز البليغ..

فالنفس الإنسـانية لا يمكن أن تخلص تمامًـا من شواغل الدنيا..

وحسبها أن لا تبعد عما سنَّهُ الله تعالى لها..

أو أن توجـــه مشـــاغلها لخدمـــة الأهـــداف الإسلامية..

وهذا هو مـا كـان يحـدث لعمـر بن الخطـاب عندما كان يحسب في صلاته "عطـاء البحـرين"، وقيادة الجيوش.. إلخ مما كان يهيمن على نفسه من قضايا المجتمع الإسلامي.

ولم أجـد في كتـاب "معـالم في الطريـق" بأسره إشارة واحدة إلى "العقل"!..

وهي سـمة يتسـم بهـا دعـاة "الحاكميـة الإلهية"..

أما العلم؛ فإن الإشارة التي تضمنها الكتاب: هل نحن أعلم أم الله تعالى!، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ .

أما الآية: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُـونَ؟ الـتي يحتج بهـا أنصـار العلم، فإنـه أعادهم إلى صدر الآية: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُـلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَـا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ [الزمر: 9].

فنسفت حجتهم نسفًا..

أمـا الشـعب، فقـد صـب عليـه جـام غضـبه، ورفض أن يكون له من الأمر شـيء.. لأن الأمـر كله لله..

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين:

مجتمع إسلامي.. ومجتمع جاهلي.

ولا توسط بينهما:

وكـل المجتمعـات الحديثـة – إسـلامية وغـير إسلامية – جاهلية.

لأن المجتمعات الإسـلامية لا تحقـق عمـاديّ دعوته: الحاكمية الإلهية.. والعبودية لله.

فهي جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام..

* * * *

إن هــذه الأحكــام السـاذجة: المســطحة.. المتعســفة.. ليس لهــا نصــيب من الحقيقــة والواقع. لأن المجتمعات الإسلامية.. وإن تخلفت فعلاً عن اتبــاع كثــير من التوجيهــات الإســلامية الرئيسـية – فلا يمكن الادعـاء أنهـا جاهليـة.. ولا يمكن القـول إنهـا كـافرة.. ولا يمكن أن نجردهـا من الإسلام.

أما المجتمعات الأوروبية التي ندمغها بوصمة الكفــر والجاهليــة.. فهــل أحســنَّا دعوتهــا إلى الإسلام؟! هل بلّغناها الدعوة بمثل ما بلغ محمــد ﷺ الـدعوة لعـرب مكـة وبمثـل الأسـلوب الحكيم الرصين، المثابر، المتصل، الذي اتبعه؟!..

يحضرني في هذا الصدد إجابة الإمام الشهيد حسن البَنَّا رحمه الله عندما سأله أحـد الأخـوان: "هل سيحشر كل هـؤلاء الأوروبـيين الكفـرة في جهنم".

فـرد عليـه الإمـام البَنَّا قـائلاً: "لا أدري هـل سيحشـــرون في جهنم أم سنحشـــر نحن لأننـــا قصرنا في تبليغهم دعوة الإسلام"..

ونحن أول من ينــدد بمــا اتســم بــه الحكم الأوروبي من وحشـية، ولكن عنـدما نتحـدث عن "الوقــــائع" وليس عن "المــــذاهب" فــــإن المجتمعات الإسلامية لم تخل أيضًا من كثـير من اللوثات التي نعيبها على المجتمعات الأوروبية..

وإذا كان الحكم السياسي الأوروبي قد خضع لضراوة الاستعمار أو نهم الرأسمالية، فإن بعض المثل والقيم لهذه المجتمعـات سـليمة وحسـنة. ومن الظلم أن نحكم عليهــــا ببعض صـــــور الانحراف والشذوذ التي تنقلها الصحف، والتي لا تمثل صميم هذه المجتمعات وأغلبيـة النـاس، إلا كما تمثل السينما المصرية المجتمع المصري.

وقــد خضــع المجتمــع البريطــاني في حكم الملكة فيكتوريا لصور من التزمت الخلقي تشبه ما يفرضه الوهابيون على الناس..

إن المسلم الذي تشرب روح الإسلام، الــتي تقـوم أول مـا تقـوم على العدالـة، والـتي تلـتزم بتوجيه القرآن: ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ لابد وأن يعترف بالمــآثر البـاهرة للحضـارة الأوروبيــة وعلومهــا

وفنونهـا واكتشـافاتها واختراعاتهـا والألـوف من المفكرين والعلماء والفلاسفة والأدباء..

إن النظر إلى ما يسـود العلاقـات من ضـبط ودقة وصدق وأدب واحترام وإعلاء كرامـة الفـرد يـوحي أنهم يطبقـون مبـادئ الإسـلام المفقـودة عندنا وما أخطأته معظم النظم السياسـية الـتي تدعي الإسلام.

فـالمواطنون هنـاك آمنـون من أقـل افتيـات عليهم، لا يزعجهم تـدخل السـلطة، ولا يعرفـون "زائـر الفجـر" ولا يمس أي واحـد بسـوء إلا إذا انتهك القـانون، وحـتى في هـذه الحالـة لا تسـاء معاملتـه ولا يجـرد من لقبـه، ويلقن إن كـان مـا سيقوله يمكن أن يؤخذ عليه.

ويمكن أن يقاضي الدولة إذا أساءت إليه..

وكـــل شـــخص يمكن أن يعـــارض النظـــام السياسي أو يصدر صحيفة أو يكوِّن حزبًا أو هيئة أو نقابة.

ناهيك عن خدمات الرعاية الطبيـة والصـحية الـتي تقـدم مجانًـا أو شـبه مجـان لمواطنيهـا ويحرص كثير من الشـيوخ على الاسـتفادة منهـا ويسـافرون إلى أوروبـا أو أمريكـا للعلاج على أيدي هؤلاء "الكفرة".

فهـذه كلهـا صـور من التقـدم يتعين علينـا الاعتراف لأوروبا بهـا، ويكـون علينـا أن نشـكرها لهم لأننا استفدنا منها وانتفعنا بها..

ولا يخالجنـــا أقـــل ريب في أن دعـــوى: "الحاكمية الإلهية".. "الجاهلية"..

"العبودية لله" بمثل مـا عرضـها سـيد قطب إنما هي صورة من صور الانحراف في الـدعوات الإسلامية.

إن الإسلام على نقيض ما يصورونه: فسـيح، ومـرن، ويقـوم فيمـا يقـوم عليـه على العقـل، ويستصحب فيما يستصحبه الشعب.

وأي دعوة إسلامية تتجاهل العقـل والشـعب والحرية فإنها تعمل لحسـاب الجهـل وتقـع تحت رحمة الغباء والاستغلال.

وقد حدثت المأساة لأن سيد قطب – رحمـه اللـه – كـاتب وفنـان وأديب يصـدر عن عاطفـة وخيال..

وقد كانت محنة الأخوان أيام الملـك فـاروق لا تزال ماثلة، وسياسة قادة الانقلاب العسـكري مبهمة، فلعله أراد أن يوجههم أو يحذرهم..

فأطلق قلمه السيَّال، وسخر خيالـه الجيـاش للحـديث عن مجتمـع يـبرأ من الشـرور ولمـا لم يكن رجـــل العمـــل والعلم، ولكن الأدب والفن، فقد شط بـه إلى عـالم أقـرب إلى الخيـال منـه إلى الواقع.

وقد كان خيرًا لسـيد قطب لـو أنـه كتب في الصـور القرآنيـة كمـا في: التصـوير الفـني في القرآن" و "مشاهد القيامة في القرآن" أو سخر نزوعه للمثل الأعلى لمثل ما فعلـه في "العدالـة الاجتماعية في الإسلام".

وعندئذ كان من الممكن أن يُصـدر لنـا كتابًـا عن "الديمقراطيـة في الإسـلام" لعلـه يتنـاقض تمامًا مع ما ذهب إليه في دعوى "الحاكمية".

بل لقد كان من المحتمل لو أنه دخل مجـال الدعوة الإسـلامية في غـير الظـروف المأسـاوية التي تعرض لها والتي تعرض لها والـتي فرضـت الغشـومة والجهالـة العسـكرية على البلاد أن يكـون داعيـة للجهـاد الإسـلامي بـالقلم، ورائـدًا لنشر الفكر الإسلامي بالكتابة.

إذ لن يدق عليه وهو الذي عاش مـع القـرآن لفـترة طويلـة توجيـه القـرآن للرسـول: "..وجاهدهم به" أي بالقرآن.. أي بالكلمة، والفكـر، والبرهان..

وما كان أسهل عليـه أن يكتشـف أن رسـالة الإسـلام قـامت على: "الكتـاب والمـيزان" أي العلم والعدالـة، وأن دور السـيف إنمـا جـاء في ظرف خاص فحسب.

وكان من الممكن لسيد قطب – رحمه اللـه – وهـو من رواد النقـد الأدبي أن يفعـل مثـل مـا فعل الشاعر الناقـد ت. س. إليـوت الـذي تبـنى دعوة مماثلة تمامًا لدعوة سيد قطب:

دعـوة تـرى أن المجتمـع الأوروبي مجتمـع وثـني، وأن المجتمـع المنشـود هـو المجتمـع المسيحي وهو يعني بالمسيحية: "تجسيد شريعة الله على الأرض".

ويقول بحث عنه: "إن قضية إليوت متبلـورة في فكـرة واحـدة: الـديني ضـد العلمـاني، أو المسـيحية ضـد العلمنـة، وهـو يقسـم العـالم قسـمين: عـالم مسـيحي، وعـالم وثـني.. والاشتراكية والرأسمالية لديه سـواء، وهـو يـرى أن الأدب الحـديث قـد أفسـدته العلمنـة، ويـدعو

إلى وضع معايير نقدية تختلف عن المعايير الموجودة، وتنبأ إليوت بالسقوط الحتمي للحضارة اللامسيحية، والانتصار الساحق للمسيحية.. ولا تنال منه مظاهر التقدم، لأن قوى الضبط والربط تتهاوى وبالتالي ينفسح المجال للتفسح والتحلل"[1].

* * * *

كان من الممكن لسيد قطب – رحمه الله - أن يسلك هذا المسلك، وأن يسلخ بقلم كالموسي تلك المهازل الأدبية والفنية.

وكان يمكن أن يضع معايير للنقد الأدبي والفني مستلهمة من الإسلام..

ولكن الأمر ليس بأمانينا..

وقد أراد الله لسيد قطب أن يظفر بتاج الشهادة..

وأن يرجح هذا خطأه فيما أراد به خدمة الإسلام.

* * * *

---

1 [?] مجلة أدب ونقد العدد 21 (إبريل ومايو 1986) ص 127: بحث بعنوان: "المطلق في فكر ت. س. إليوت) بقلم د. منى أبو سنه.

ج- جماعات الجهاد
وكتاب "الفريضة الغائبة"[*]

اشتهرت جماعة الجهاد عندما نجح خالد الإسلامبولي وزملاؤه في اغتيال السادات وسط حرسه وفي إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة.

وبقدر ما رزق هذا الحدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جرأة وشجاعة و "دراماتيكية"، ولما انتهى إليه من مصرع "آخر فراعنة مصر" وصاحب "الصدمات والتحولات".. إلخ .. بقدر ما ذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد.

وسالت أنهار الصحف أحاديث بعد أحاديث عن هذه الجماعة وشيخه الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض: "الفريضة الغائبة" الذي اعتبر وثيقة إعدام السادات ووضعه المهندس محمد عبد السلام فرج.

ولم يُعرف عن جماعة الجهاد أو عن الفريضة الغائية شيء يذكر قبل حادث "المنصة" كما أطلق عليه.

لأن الجماعة نفسها أحرقت نُسخ الكتاب، ولم يبق منه إلا نُسخ معدودة، ضُمت إحداها إلى أوراق التحقيق في قضية اغتيال السادات..

وتمكن بذلك المحامون من الإطلاع عليه.

(*) الحديث في هذا الفصل هو عن جماعة الجهاد في مصر، ولا ينطبق بالضرورة على هيئات أخرى تحمل الاسم نفسه.

وقدمت إلينا إحدى دور النشر صورة الكتاب المأخوذة من أوراق التحقيق.

وطلبت أن نعلق عليه، ونشرته في كتاب باسم "الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل" [1]..

وتعرض تعليقنا عندما طُبع لمضايقات، أدَّت إلى حذف الكثير منه.. وظهرت آثار ذلك في عدم انتظام السياق، وما تخلل الصفحات من بياض..

وقلنا في مقدمة الكتاب:

- "غفر الله لصاحب "الفريضة الغائبة" لقد أحاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم، ويضيق بها الحليم، وتنبهم فيها المعالم، وتنمحي المراسم.. فلا عجب إذا زلت الأقلام وطاشت الأحلام.

ومن قبل قتل لفيف من المسلمين "عثمانَ" وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وكفَّروا عليًا، وهو مَن هو، وتقربوا إلى الله بدمه!..

وقد كان العهد قريبًا بالنبي والقرآن غضًا طريًا والآلفة والمحبة أقرب إليهم وأمثل بهم..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ، ونستعرض الأحداث في القديم والحديث لا نرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة، وما انتهى إليه إلا فصلاً من مأساة التعقيد الاجتماعي عندما تتراكم الأخطاء،

---

1 (?) جهاد السيف أم جهاد العقل- جمال البنا دار ثابت القاهرة.

وتتشـابك التصـرفات من حَـلٍ سـقيم أو إرجـاء عقيم..

ولا يعد هناك إلا القطع..

ونحن نعذره، ونلتمس له المغفـرة، ولا نـرى فيمـا ذهب إليـه فكـره – على خطئـه – شـرًا محضًـا، ولا في سـبيله – على شـططه – سـوءًا خالصًا.

وإن كنا نختلف معه جملـة وتفصـيلاً، ونـؤمن أنه لو قُدر لـه ولجماعتـه النصـر لاسـتحلوا دمـاء كـل معـارض، ولأخرسـوا أصـوات كـل مخـالف، ولما رأوا فيه إلا فاجرًا كفارًا.

ولكننا نستلهم أدب الإسلام وتوجيهـه: "صِـلْ من قطعك، وأحسن إلى من أساءَ إليك".

كما نؤمن بحرية الفكر، وحق كـل كـاتب في أن يكتب ما يمليه فكره كائنًا ما كان".

وليس في كتاب الفريضـة الغائبـة إلا القليـل جدًا الذي يعد جديدًا على فكر جماعـات الـرفض فهو يضم – تقريبًا – مقدمة وثلاثة فصول..

ففي المقدمـــة يشـــير الكتـــاب إلى أهميـــة الجهاد وأنه: "السبيل الوحيد لعودة ورفـع صـرح الإسلام من جديـد" وأن: "طـواغيت هـذه الأرض لن تزول إلا بقوة السـيف" وأن الإسـلام مقبـل، وأنه سيفتح روما كما فتح القسطنطينية".

وتبدأ الفصول وهي باختصار :

الفصل الأول:

يعالج الفصل الأول "إقامة الدولة الإسلامية" وهـذه الإقامـة "فـرض أنكـره بعض المسـلمين وتغافـــل عنـــه البعض" والكتـــاب يثبت وجـــوب

إقامتها بأن الدولة الإسلامية هي أداة الحكم بما أنزل الله وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا خلاف أن الحكم بما أنزل الله واجب..

ويرى الكاتب أن إعلان الخلافة الإسلامية يعتمد على وجود النواة وهي الدولة الإسلامية. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

ويتساءل الكاتب "هل نحن نعيش في دولة إسلامية" ويرد بفتوى للإمام أبي حنيفة وبعض أصحابه حول دار الإسلام ودار الكُفر، ويجزم بأن "الأحكام التي تعلو المسلمين هي أحكام الكُفر، وضعها كفار وسيَّروا عليها المسلمين" وأن حكام المسلمين في ردة عن الإسلام "لأنهم تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وادعوا أنهم مسلمون وقد استقرت السُّنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي. وأن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق..".

ويجري الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية في هذا الصدد. بل هو يورد "مجموعة فتاوى لابن تيمية في هذا العصر" تتضمن حكم مساعدتهم، وحكم الجنود المسلمين الذين يرفضون الخدمة في جيش التتار، وحكم أموالهم، وحكم قتلهم، وأن

قتلهم ليس قتـــــــال بغي وحكم مَنْ والاهم مِنَ المسلمين، وحكم من يخـرج للقتـال في صـفهم مكرهًا إلخ..

الفصل الثاني
آراء وأهواء

يعـرض الفصـل الثـاني "آراء وأهـواء" بعض الآراء "لإزالـة هـؤلاء الحكـام وإقامـة حكم اللـه" ويفنــدها، فهنــاك من يــرى إقامـــة الجمعيــات الخيريـة، أو يفضـل الانشـغال بالطاعـة والتربيـة وكــثرة العبــادة، أو إنشــاء حــزب إســلامي، أو الاجتهــاد للحصـــول على المناصـــب بحيث تُملأ المراكز بـالطبيب المسـلم والمهنـدس المسـلم إلخ.. ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولـة هي الدعوة فقط، وإقامة قاعدة عريضة، وهنـاك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم..

والكاتب يفند هـذه المـذاهب كلهـا بمختلـف التأويلات.

الفصل الثالث:

يدلل الفصـل الثـالث على أن "أمـة الإسـلام تختلـــف عن الأمم الأخـــرى في أمـــر القتـــال" ومفتاح الفصل أن "هذه الأمة تختلــف عن الأمم الأخرى في أمر القتال. ففي الأمم السابقة كـان الله سـبحانه وتعـالى يـنزل عذابـه على الكفـار. وأعداء دينه بالسنن الكونيـة، كالخسـف والغـرق والصيحة والـريح. وهـذا الوضـع يختلـف مـع أمـةٍ محمد ﷺ. فالله سـبحانه وتعـالى يخـاطبهم قـائلاً لهم ﴿ قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمُ اللـهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَـوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده، ثم بعد ذلك يتدخل الله سبحانه وتعـالى بالســنن

الكونيــــة، وبــــذلك يتحقــــق النصــــر على أيــــدي المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى.

وبصــدد تفصــيل ذلــك. يشــير الكتــاب إلى "الخروج على الحاكم" وهـو يستشـهد بمـا ذهب إليه ابن تيمية "كـل طائفـة خـرجت عن شـريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالهــا باتفــاق أئمـــة المســـلمين وإن تكلمت بالشهادتين" ثم يناقش الفصل نقطـة هامـة هي "التفرقـة بين العـدو القـريب والعـدو البعيـد" – وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليـه الحـرب أولاً الاستعمار.. أم الذين يحكمون بغير ما أنــزل الله؟ وهـو يـرى الثـاني. ويـرد الفصـل على مَن يقول "إن الجهاد في الإسلام للدفاع فقـط" وإن الإســلام لم ينتشـر بالسـيف ويـرى أنـه "قـول باطل" ويستدل على ذلك بخطابات النــبي إلى الملوك وكذلك بآيـة السـيف الـتي نسـخت 114 آية من آيات الموادعة والصفح والسماح..

ويفند الفصل بعض الدعاوى الـتي تثبـط عن القتــال كــدعوى أننــا نعيش في مجتمــع مكي، ويرى أن "القتـال الآن فـرض على كـل مسـلم" وأن الجهـاد مـراتب وليس مراحـل. أمـا خشـية الفشل فإن الله تعالى يعدنا بالنصر وادعاء عـدم وجود القيادة يسـتدرك بـأن توكـل إلى الأحسـن إسلامًا..

وفي صــدد تعزيــز موضــوع الفصــل يــورد الكتاب فقرات عن البيعة على القتال أو المـوت والتحريض على الجهاد في سبيل الله ويرد على بعض الشبهات الفقهيـة كوجـود جنـود مسـلمين

في جيش العـدو ولـو من بـاب الاسـتكراه بمـا ذكره ابن تيمية.

وينقل الفصل فقرات عن الأساليب القتاليـة مثـل "مخادعـة الكفـار من فنـون القتـال في الإسلام" ويورد أمثلة تاريخية للمسلمين، وجـواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعـوة الإسـلام من غـير إنـذار، وجـواز تبـييت الكفـار ورميهم.. وقطـع أشـجارهم وقتـل ذراريهم إلخ.. ويُختم الفصل بنقل مختصر لأحمد والبخـاري وأبي داود عن تنظيم الجيش المسلم..

* * * *

من هذا العـرض لكتـاب "الفريضـة الغائبـة" يتضح أنه ليس فيـه جديـد عن مفهـوم جماعـات "الرافضة الجديدة"..

فهـو - مثلاً - يهيم بالخلافـة ويـرى أنهـا ركن من أركان الإسلام. "فمن مات وليس في عنقـه بيعه مات ميتة جاهلية".

والكتـاب يكفـر المجتمـع الحـديث كبقيـة جماعات الرفض..

ويـرفض صـور العمـل الإسـلامي البديلـة كإقامة الجمعيات الخيرية، أو التربية.. الخ.

وهـذا مـا انتهى إليـه قبلهم حـزب التحريـر، وأشرنا إليه..

وربما كان الجديـد في الفريضـة الغائبـة هـو تعميـق قضـية "الخـروج" على الحـاكم، وأن "الحكـام المسـلمين أولى بالقتـال من المستعمرين".

ولا يتسع المجال لتفنيد هذه الـدعاوي، فهـذا مـا قمنـا بـه في الكتـاب، وحسـبنا الإشـارة إلى النقطـــة الرئيســية في جماعـــات الجهـــاد وهي "الجهاد":

فحتى لو قصرنا التعبـير على أضـيق معانيـه وهو "القتال"..

فهل يتصـور اسـتخدام القتـال للقضـاء على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله!..

هـل سـيمكن لأي هيئـة أن تؤسـس جيشًـا كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات؟!

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات؟..

إن أي دارس لتـــاريخ الحركـــات السياســـية يتبين استحالة تكوين جيش.. ويتـبين كـذلك عقم أسلوب الاغتيالات..

"فالقتـــال" لا يجـــدي كأســـلوب في اقتلاع الحكام البغاه..

وإذا أرادوا أن يتجهـوا بقتـالهم نحـو الكفـره، وأن يفتحوا روما..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالســيف في عصر الصواريخ والطائرات.. إلخ..

إذا أرادوا حقًـا الانتصـار فعليهم أن يدرسـوا "التكنولوجيا" الحديثة، وأن يعكفوا عليها..

وأن يعلمـوا أن النصـوص وحـدها والعكـوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتيلاً، وإنما تفيـدهم علوم واكتشافات الأوروبيين والأمريكان الكفـرة وأهل الجاهلية.

* * * *

مع أن هذه الكلمات المحدودة تكفي لنسف فكـر جماعـة الجهـاد، فـإن الجماعـة واصـلت البقاء!..

واكتسب شيخها (الشيخ عمر عبـد الـرحمن) الـذي أفلت من قضـية اغتيـال السـادات شـهرة مدوية..

لأن العمليـــة عمليـــة منـــاخ يتغـــذى على الأخطاء..

ولأن فساد النظم لا يقل عن فساد الأفكار..

ومـا ظلت النظم الحاكمـة فاسـدة، تتسـلح بالإرهاب والديكتاتورية فسـتظهر أمثـال دعـوات الرفض على اختلاف صورها..

رغم ما تتسم به من بطلان..

لأنهـا رد فعـل للفسـاد، والفسـاد لا يولـد إلا فسادًا..

ملحق بالفصل الرابع
أزمة "الرافضة الجديدة"

أوقعت الرافضة الجديدة – بتياراتها الثلاثة (القطبية – التكفير والهجرة – الجهاد) نفسها في مأزق لم تجد طريقة للخروج منه. فقد رفضت النظم والأوضاع القائمة، وكفرت بها جميعًا.. الديمقراطية. الاشتراكية. البرلمانات. النقابات. الفنون الآداب إلخ.. فسدت على نفسها المنافذ وأصبح وضعها حرجًا فكيف تتصرف – عمليًا – إزاء هذا المجتمع الجاهلي – الكافر:

تتقبله؟ بالطبع لا ما دامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية.

تصلح فيه؟ هذا مستبعد. لأنها ما دامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية، ورفضته، فلا معنى للإصلاح فيه، فضلاً عن أن فكرة الإصلاح تجافي طبيعة الرافضة الباترة كالسيف، ويمكن أن تميعها وتدخلها في دوامة الإصلاح. والتدريج. والجزئيات..

تتآمر عليه؟ هذا ما فعلته بعضها. وهو سلوك ليس فحسب عقيمًا وفاشلاً ولكنه يقضي عليها وينم عن "هوسها" لأنه إذا اعتقدت مجموعة من عشرين أو مائة أنها تستطيع لو توفرت لديها أسلحة (مدافع وبنادق، وحتى طائرات) أن تسيطر

على دولة كمصـر، لهـا مؤسسـاتها، فلا ريب أن هـــذه المجموعـــة قـــد أصيبت بما يمكن أن نسميه "هوس الجماعات" وستقضـي على نفسـها بنفسها..
تهاجر منـــه؟ هـذا مـا فكـرت فيـه بعض فصـائل الرافضــــة الجديـــــدة والعجيب أن شـكري مصـطفى ارتـأى أن تكـون الهجـــــرة للســـــعودية أو اليمن! و لو أنـه اختيـار بـاريس، أو هوليـود لوجدت مجموعتـه حريـة لممارسـة عقائـدها، والـدعوة لهـا أيضًـا ممـا ســـتجد في الســـعودية أو اليمن. وســتتلقاها الســعودية لتضـعها في "الجب"ـ وعلى كل حال فهذا الحــل مسـتبعد لمجموعـات فمن الصـعب عليها أن تخرج من بلدها.. وأصـعب منـه أن تـدخل بلـدًا آخـر، ولابـد أن معظم الــدول سـتغلق أبوابهــا في وجه هؤلاء المجانين..
تتجاهلــــه؟ وهذا فعلاً ما حاولته بعضها، وما الجـأ بعض المهندسين أو الأطباء.
وتعتزلـــــــه؟ لأن يـــبيعوا "بطاطـــا" بـــدلاً من أن يعملــــوا في وظــــائفهم فيعينــــوا المجتمـع الكـافر ويتلقـوا مرتبـات ملوثة بالربا..

ولا يقتصـــر هـــذا الموقـــف على جماعـــة التكفير والهجـرة "المتشـنجة"ـ فـإن سـيد قطب يـــدعو إلى اعـــتزال هـــذا المجتمـــع "فلا يجـــوز

المشاركة في النشاطات السياسية كالانتخابـات والأحـزاب ولا يجـوز قبـول المناصـب في ظـل نظام لا يحكم بشرع الله ويـدين بالإسـلام بـل لا يجوز، مداهنتـه أو الالتقـاء معـه بـأي صـورة من الصـور (راجـع تفسـير سـورة المائـدة ويوسـف والكافرون في ظلال القرآن).

* * * *

ولا يمكن للرافضــة الجديــدة أن تخلص من مأزق "الوجود" ضمن مجتمع كافر جاهلي بالحل الذي اقترحه سيد قطب والـذي ظن أنـه طريـق الأنبيـاء.. "ذلـك الطريـق الطويـل البطيء الـذي سارت فيه دعوة الإسـلام في كـل مـرة، والـذي يبــدؤه فــرد ثم تتبعــه طليعــة ثم تتحــرك هــذه الطليعة في مواجهة الجاهليـة لتعـاني مـا تعـاني حتى يحكم الله بينهـا وبين قومهـا بـالحق ويمكن لهــا في الأرض ثم يــدخل النــاس في دين اللــه أفواجا" في ظلال القرآن – سورة يوسف.

ذلــك لأن مســلك الرســول في الــدعوة وتوجيهاته لصحابته في الأيـام الأولى للـدعوة لم يتسم بالانعزال الذي يدعو إليه سـيد قطب. ومـا يتبعه من رفض ومقاطعة، ولكنـه كـان الإيجابيـة والمشـاركة فكـان الرسـول يعـرض نفسـه على القبائل، ويدعو كل من يتوسم فيه، ويــذهب إلى ثقيف، ولم يعتزل الكعبـة بأصـنامها، ولكنـه كـان يـدخلها ويصـلي فيهـا. وكـان أصـحابه يعايشـون مجتمعهم، ويـــبيعون ويشـــترون ويعـــاملون المشركين بـالخلق الحسـن، ويحسـنون إلى من يسيء إليهم. وكـانت "العزلـة" هي لب مـؤامرة

قريش على المسلمين، عندما قاطعوهم وكتبــوا الصحيفة المشهورة وحصروهم في الشعب..

وعمليـا فكيــف سـيمكن لهـذه "النـواة" أو "الطليعـــة" أن تــــؤثر على المجتمــــع.. وهي تقاطعــه؟ فلــو أرادت أن تصــدر صـحيفة لكــان عليهــا أن تتعامــل مــع "النقابــة" و "شــركات التوزيــع" ودور الطبــع إلخ.. وإذا كــانت لن تلي مناصب ولن تدخل انتخابات إلخ.. فكيف سـتقيم جسورًا بينها وبين المجتمع – ولو لتبليغ دعوتها؟.

إذا أرادت طليعة أن تشق طريقها. فلا يكون ذلــك بــالاعتزال أو الســلبية – ولكن بالمشــاركة والإيجــاب. وقــد انتشــر الإســلام في الصــين وماليزيــا وأندونســيا والفلــبين بفضــل التجــار والصــوفيين المســلمين الــذين عايشــوا هــذه المجتمعات وقدموا المثل بـالخلق الحسـن فإمـا أن تعايش هذه الطليعة المجتمع.. وإمـا أن تقنـع بوضع الرهبان "في الأديار"..

وهنـــاك مثـــل عملي وواقعي وفي مجـــال الدعوة الإسلامية المعاصرة، على ذلك.

فــإن أفكــار "الرافضــة الجديــدة" ودعائمهــا الثلاث: الحاكمية الإلهية، العبودية للــه. الجاهليــة هي ما انتهى إليه المودودي رحمـه اللـه قبـل أن يكون الجماعة الإسـلامية سـنة 47 وسـجلها في عدد كبير من كتبه – وبوجه خـاص المصـطلحات الأربعة. وتُرجمت هذه الكتب إلى العربية وقتئـذ. وكان هنـاك مكتب صـغير في شـارع راتب باشـا في مواجهة المركز الرئيسي للإخوان المسلمين بالحلمية باسم "الشباب المسلم" تـولى ترجمــة كتب المودودي وعرف الأخـوان بهـا. وكـان هـذا

كله قبل الحل الأول للإخوان (آخر 1948) وقبل أن يدخل سـيد قطب مجـال الـدعوة الإسـلامية. ولا جدال أنه تعرف عليها وتـأثر بهـا بعـد عودتـه من أمريكا في مستهل عام 1950.

الشاهد في هـذا أن المـودودي رحمـه اللـه، بحكم كونه مفكرًا إسـلاميًا عكـف على المراجـع والكتب، وأعمل الذهن والنظر (مثل سـيد قطب تمامًا) انتهى إلى دعائم الرافضة الجديدة. وكـان لديه من الإيمان والإخلاص ما لا يقـل عن إيمـان وإخلاص سـيد قطب. ولـذلك فإنـه حـاول في الأربعينيات أن ينفذ الفكرة التي انتهى إليها سيد قطب – إمـا لتـوارد الخـواطر أو لأن المراجـع واحـدة.. وطريقـة التفكـير واحـدة فحـاول المودودي في الأربعينيات إيجاد "طليعـة" تلـتزم بـآداب الإسـلام، وتعامـل المجتمـع من هـذا المنطلـق. وقـد أوردنـا كلمـة للأسـتاذ مسـعود الندوي عن المتاعب ووجوه الحرج التي تعرضت لها هذه الطليعة بمـا فيهـا اعـتزال وظـائفهم، أو قطع تعاملهم مع البنوك إلخ [أنظر ص 45]..

ولكن:

ظهر عمليًا أن هذا الأسلوب غـير مجـد. وأن أمواج المجتمع لا تدع هذه الطليعة وشـأنها فإمـا أن تكسحها كسحًا وتطويهـا طيًـا، أو يكـون على الطليعـة أن تتعامـل مـع هـذه الأمـواج وتبـدع القـوارب الـتي تعلـو وتهبـط معهـا. ووجـدت "الطليعـة" نفسـها وهي تعيش في ثبج الأمـواج، وصـميم الأحـداث وتشـارك في حيـاة المجتمـع ووظائفه، وانتخاباته إلخ..

وانتهت تلك الصفحة التي حاولها الفكر والنظر.. وطواها الواقع والعمل. وفي آخر تطور للجماعة – الذي عرضناه عن "مشروع المودودي للإجماع القومي" لا ترى كلمة من "شنشنة الرافضة" التي سادت كتابات المودودي الأولى..

وقد شاهد المودودي نفسه، بل وتولى هو، بدايات هذا النظر. وقد كان من الفطنة والذكاء بحيث رأى أن الأفكار التي أداه إليها اجتهاده النظري عن "الحاكمية الإلهية. والعبودية لله. والجاهلية" لا تتطلب اتجاهًا انعزاليًا. وأن الهيئة كهيئة عامة لابد وأن تمارس "الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالإصلاح الذي تنشده" ثم كان من الذكاء بحيث تجاوب مع التطور الذي حول "الطليعة المنعزلة" إلى الجماعة المشاركة.. ولم تفسح لسيد قطب تكوين هيئة.. حتى يجد نفسه أمام ضرورات العمل التي وجد المودودي نفسه أمامها. ومن هنا فإن أفكاره – وحدها – ودون ملاحظة الاعتبارات العملية خاصة يمكن أن تضلل كثيرًا من الناس خاصة الشباب. وتكلفهم القيام بتجربة محكوم عليها بالفشل ما ظلت ملتزمة بأحكامه..

وقد نشأت أزمة الرافضة الجديدة بتياراتها الثلاث أصلاً لأنها كانت مغرقة في التجريد بحيث تجاهلت ضرورات العمل، بعيدة كل البعد عن العصر بحيث خفيت عليها طبيعته وواقعه، والتجريد يجب أن يحكمه العمل، وإلا شط وأصبح نوعًا من شطحات الصوفية أو هيام الشعراء أو هوس المهووسين وهذا بالفعل ما نجده في بعض كتابات الرافضة..

وسوءة التجريد أنه يقـدم شـعارات مجهلـة، إما لأن معناها غير معروف، أو لأنها تحتمل أيضًـا من معنى، كشـعار الحاكميـة الإلهيـة. والعبوديـة لله.

ومن الأيام الأولى للإسلام وقد ثار الصـحابي الجليل أبو ذر على معاوية عنـدما رآه يقـول عن المال العام "مال الله" ووجهـه لأن يقـول "مـال المسلمين" لأنه عنـدما يقـول هـذا يتعين من هم أصحاب المال وينغلـق بـاب التحايـل الـذي كـان يريده معاوية "المال مال الله ونحن عباد اللــه"، إن "نحن" هنــا هي معاويــة في حقيقــة الحــال وكأنــه اسـتحوز على "مـال اللـه" لأنـه الحـاكم ويتكرر الشيء نفسه في الحاكمية الإلهية.

وهذه الشعارات لا تأبه مطلقًـا لا لضـرورات العمل أو لطبيعة الواقع كأنهـا في عـالم سـحري من الحروف والكلمات.. وأسـوأ من هـذا أنهـا لا تأبه بالعقل، وكما أشرنا فالعقل الذي هـو بتعبـير الغـزالي "مـيزان اللـه في الأرض" يكـاد يكـون عنــدها سُــبَّة، ولا ينكــر إلا باعتبــاره مزاحمًــا للحاكمية الإلهية..

وأي دعوة تسـلك هـذا المسـلك، أعـني أنهـا تنحي العقل والواقـع جانبًـا تقضـي على نفسـها. فــإذا كــانت مخالفــة للعقــل فســيكون مآلهــا مستشفى المجانين.. وإذا تجاهلت الواقع. فإنهـا تعيش في فراغ، أو عالم وهمي وتـدخل مرحلـة انعدام الوزن..

وفي النهايــة لا نجــد إلا حــبرًا على ورق. أو دخانًـــا في الهـــواء، أو شـــطحات وتهـــاويم و "توسمات" بتعبير شكري مصطفى..

* * * *

وقد حاول بعض أنصار الرافضة الجديـدة أن ينالوا من الأخـوان المسـلمين، ورأى بعضـهم أن حسـن البَنَّا "تـوفيقي".. وحـاول آخـرون إجـراء مقارنة بين البَنَّا وقطب.

وهؤلاء كخابط ليل يهرفون، بما لا يعرفون..

فحسن البَنَّا لم يكن توفيقيًا، ولكنه نظـر إلى جانب المرونة واليسر في الإسـلام، ورأى أنهمـا أبـرز جوانبـه، ومن السـمات الـتي تمـيزه عن الشـرائع الأخـرى، فوظفهمـا في تعاملـه مـع الأحداث واتخاذه المواقف. وكـان في هـذا أفض من الذين يـؤثرون التشـدد، وأقـرب إلى مسـلك الرسـول الـذي "مـا خـير بين أمـرين إلا اختـار أيسرهما ما لم يكن حرامًا".

وأما المقارنـة بين حسـن البَنَّا وسـيد قطب، فهي المقارنة بين مؤسـس الأخـوان المسـلمين العالميـة.. ومؤلـف "معـالم في الطريـق" فقـد أسـس البَنَّا هيئـة عظيمـة عاشـت رغم مقاومـة أربعة حكام، وصمدت لكل ما وجهـه إليهـا هـؤلاء من اضـطهاد وأثبتت إخلاصـها بـدم شـهدائها في فلسـطين، وفي المعتقلات وكـل من حـاول أن يهـدَّها "هدَّتْـهُ" ثم انتقلت من مصـر إلى العـالم الإسـلامي والأوروبي والأمـريكي. فبصـمات البَنَّا على الأخـوان عميقـة، وبصـمات الأخـوان على الـدعوة الإسـلامية المعاصـرة واضـحة وضـوح الشمس. وهذا كلـه لا ينفي نقـط القصـور الـتي وقعت فيهـا الجماعـة وأشـرنا إليهـا.. ولكنهـا لا تذهب بتاريخها، ولا تهز مكانتها العامة..

ونحن لا نقلــل من أهميــة كتــاب.. يمكن أن يؤدي إلى ثورة. ولكن معالم في الطريق يعرض حلمًا في يقظة.

قد يقول البعض و "في ظلال القرآن".

أجل، وفي ظلال القرآن أيضًــا. وهــو تفســير خلال من الإسرائيليات والحشــو واللغويــات إلخ. التي حفلت بها معظم التفاسير القديمــة، ولكنــه يظــل تفســيرًا بــالرأي، ولم يكن عبثًــا أن قــال الرسول "من قـال بـالقرآن برأيـه فأصـاب فقـد أخطأ" ذلك لأنه يحمل القـرآن معـنى قـد يكـون صائبًا من ناحية. ولكنه خاطئ من ناحيـة أخـرى، أو ليس هو بالمعنى الوحيد، فالقرآن جمال، وهو لكل الشعوب.. ولكل العصور ولكل الأفهام.

* * * *

الفصل الخامس
قسمات مشتركة بين الدعوات الإسلامية

قسمات الائتلاف بين الدعوات الإسلامية أكبر من قسمات الاختلاف، لأن الأولى "أصولية" والثانية طارئة. والطابع الأعظم الذي طبع الدعوات الإسلامية وجعلها ما هي عليه أنها جميعًا سلفية. وهذا هو الأصل العظيم الذي يجمع بينها – على اختلاف أوقاتها وبلادها – ويجعل الفروق بينها ثانوية.

السلفية:

السلفية منهج وطريقة بقدر ما هي مزاج ونفسية، وهي تمثل تطور الفكر الإسلامي خلال مرحلتين:

الأولى: مرحلة الازدهار الإسلامي الأولى خلال القرون الأربعة التي تلت الهجرة وشاهدت وضع الأساس المعرفي في الحديث والتفسير والفقه. ورموز هذه المرحلة الأئمة الأربعة، ومن هم في طبقتهم.

والثانية: مرحلة الازدهار الإسلامي الثانية خلال القرنين السابع والثامن التي تلت عهد التخلف والتقهقر واحتدام الصراعات المذهبية وظهور الطرق الصوفية بانحرافاتها ودعاويها. وحاولت أن تعيد الاعتقاد إلى ما كان عليه في المرحلة الأولى ورموزها بالدرجة الأولى ابن تيمية وابن القيم. فأئمة المذاهب الأربعة "سلف" بالنسبة لابن تيمية. وابن تيمية سلف

بالنسبة لمحمد بن الوهاب الذي يعد في بعض المراجع رأس السلفية الراهنة..

وكان للسلفية دور تاريخي خاصة في مرحلتها الثانية التي أصلحت فيها من فساد وتدهور الفكر الإسلامي. ولكنها بعد أن كانت قوة تأسيس أولاً وعامل إصلاح ثانيًا – فإنها أصبحت بالنسبة للعصر الحديث عاملاً من عوامل الحفاظ وحائلاً دون الإبداع أو التكيف مع المتطلبات الجديدة والأوضاع التي استحدثها العصر.

وفي حقيقة الحال فإن التراث الضخم الذي خلفه العلماء المسلمون خلال هذه الفترة كان هرمًا لا يمكن لأي مفكر أن يتعداه، لأنه يمثل جهود آلاف العلماء النابهين المجددين الذين أرادوا القربى إلى الله بعلمهم وعملهم من كل العالم الإسلامي. من سيبيريا "جنة المحدثين" التي خرجت البخاري ومسلم والترمذي والنيسابوري والسجستاني والمروزي والطبري، والأندلس التي خرجت بن رشد وبن حزم والقرطبي حتى العراق ومدنها الثلاث المنجِّبَة كل مدينة كأنها دولة: البصرة والكوفة وبغداد ممن لا يمكن حصرهم، ومصر التي أوى إليها الشافعي وأنجبت الليث بن سعد. ومكة والمدينة مهبط الوحي ومثوى الرسول ومقر الصحابة واليمن وعلمائها الأفذاذ المجددين.

ونحن لا ننكر هذا بل نعترف ونفخر به، ونشعر نحو هؤلاء الأسلاف العظام بالتقدير والتوقير والاحترام والإعزاز ولكن وجهة النظر التي سيدور عليها نقد السلفية في هذا الفصل

هي أن فكر هـؤلاء الأسـلاف أصـبح تراثًـا ضـخمًا أطلـــق عليـــه السـلفية فــرض نفســه على المفكـرين، واعتـبر أنـه هـو التفسـير الرسـمي الوحيـــد – إذا جـــاز التعبـــير – للإســلام وأن أي مخالفة له تعـد مخالفـة للإسـلام أو خروجًـا على الجماعـــة مـــع أن هـــؤلاء الأســـلاف لم يـــدَّعوا لأنفسهم هـذا، بـل دعـوا الأجيـال التاليـة لكي لا يقلـدوهم. ولكن السـلفية غـير الأسـلاف، وقـد قَوَّلَت السلفية الأسلاف ما لم يقولوا، بـل ذهبت نقيض مـا أرادوا. فالشـافعي يقـول: "اضـربوا بقولي عرض الحائط وخـذوا بالحـديث الصـحيح" ولكن الكـرخي يقـول: "كـل آيـة تخـالف قـول أصحابنا فإنها تُحمل على النسخ أو على الترجيح والأولى أن تُحمـــل على التأويـــل من جهـــة التوفيق" والعمل هو بما قاله الكرخي وليس مـا قاله الشافعي. ولو شاهد السلف ما أحيطت بـه قبورهم من زخرف وزينـة ومـا يعلـوه من قبـاب لتـــبرأوا منهـــا ولكنهم لا يملكـــون هـــذا وتبقى قبورهم شاهدة على مخالفـة السـلفية للسـلف، وقـد مثـل هـذا عن المتـون الـتي وضـعها بعض الأسلاف فجاء الأتباع واتباع الأتباع وأضافوا إليهـا تلالاً من الحواشـــي والشـــروح عليهـــا بحجـــة إيضاحها. والله يعلم أنهـا تشـوِّش الفهم وتـدخل على المتـون مـا لم يـدر بخلـد أصـحابها. وقـد تضطر السلفية لاجتهـاد يخـالف صـريح الحـديث النبوي. فالرسول يعطي لكل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صفة المسلم الذي يعصم مالــه ودمــه ولــو قالهــا متعــوذًا، في حين أن الســفليين جميعًـــا يحكمـــون بـــالكفر على من

"يجحــد معلومًــا من الــدين بالضــرورة"، ولابن تيمية في هذا بـاعٌ طويـل ربمـا حكمت عليـه بـه ظروف الفترة التي عاشها، ومن ثم صدرت مثل هـذه الفتـاوي "من اسـتحل النظـر فقـد كفـر بالإجماع"[1] "من دعا ميتًا، ولو كان من الخلفـاء الراشدين فهو كـافر، ومن شـك في كفـره فهـو كـافر" [2]" ومن اعتقـد فيمن لا يفعـل الفـرائض ولا النوافل أنه من أولياء الله المتقين، إما لعـدم عقله أو جهله أو غير ذلـك فمن اعتقـد في مثـل هــؤلاء أنــه من أوليــاء اللــه المتقين وحزبــه المفلحين وعباده الصالحين فهو كـافر مرتـد عن دين رب العالمين. وإذا قال أنا أشهد أن لا إله إلا اللـه محمـد رسـول اللـه كـان من الكـاذبين" [3] وهناك المئات من أمثال هذه الفتاوي لابن تيمية وغيره تجعل المسلم كـافرًا "حلال الـدم" تُطَلَّق امرأتــه ويحــل مالــه ولا يــدفن في مقــابر المسلمين..إلخ.

وقد يقول قائل حسنًا، فلندع السلفية ولنأخذ بالأسـلاف وهـذا لا يسـتقيم أيضًـا لأننـا نـرفض المبدأ، وإن لم نعترض على الأسلاف فالأسـلاف يصبحون سلفية في مرحلة تالية، وهم متقدمون على من يــأتي بعــدهم متــأخرون عمن قبلهم، فلابـد أنهم – مـا دامـوا سـلفًا – متـأخرون عن قبلهم – فلماذا نأخـذ بـالتخلف ولا نأخـذ بالتقـدم بالأصل الذي ليس قبله متقدم أن السلفية يمكن

---

1 [(?)] منار السبيل في شرح الدليل على مـذاهب أحمـد 2/ 142

2 [(?)] استشهد بها الشوكاني في الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ونسبها إلى الإقناع ص 46

3 [(?)] ابن تيمية الفتاوى الكبرى – المجلد 2 ص 221

أن تكون نقيصة وليس مفخرة، لأنها شراء الـذي هو أدنى بالذي هو خـير، ولأن الأصـل الـذي بـنى عليــه القــرآن الكــريم هــذه القاعــدة هــو أن الأسلاف ليسوا معصومين والمعصوم هو القرآن والرسول فيما هو مبلغ عن ربه، ومن هنا لا يخلو الاتباع للأسلاف من خطأ وقصور والاتباع الوحيـد الذي يسلم من ذلك هو اتباع القرآن الكريم.

وقد أصبحت السلفية اليوم كالجبل الشامخ، تقف العيون في السفح محملقة فيـه، لا مطمـع لهـا أيضًـا من أن تتسـلقه وتبلـغ قمتـه. وكـان أصحابه يعايشـونه أمـا الـذين جـاءوا من بعـدهم فمـا كـان يمكن لأحـد أن يتجاهلـه أو يجـاوزه، فكيـــف يمكن أن نفهم القـــرآن دون تفســـير المفســـرين من ابن عبـــاس حـــتى الطـــبري والقرطـبي وابن كثـير، وكيـف يمكن النظـر في الحـديث دون معـايير يحـيي بن معين وأحمـد بن حنبل حتى ابن الصلاح. وكي نبدع فقهًـا بعـد أبي حنيفــة ومالــك والشــافعي فضــلاً عن حقيقــة فرضـت نفسـها على الفكـر الإسـلامي تلـك هي إغلاق باب الاجتهاد الذي أدى إليه تطور الأحداث وغـزارة هـذا الفكـر إلى درجـة هـددت وحدتـه واتســـاقه وســـمحت بظهـــور التناقضـــات والاختلافات مما لا يمكن لأي قانون (والفقه هــو أوسع صـور القـانون) أن يحتملـه وقـد بـدا لكـل العلمـاء بعـد أن بلـغ الفكـر هـذه الدرجـة من الخصوبة والإنتاج أن ليس في الإمكان إبداع مما كان فأغلقوا باب الاجتهاد.

وقد قيل لنا مرارًا وتكرارًا أن هؤلاء الســلف – السلف الصالح – من الأئمة الأعلام قد وصــلوا

من التجـــرد والـــورع ومن العلم والتمكن مـــا لا يمكن لأحــد من المعاصــرين أن يبلغــه، وهنـاك دائمًا سؤال يشهر كالسيف على المعارضين هل أنت أفقـــــه من أبي حنيفـــــة؟ هـــــل أنت أعلم بالحـديث من أحمـد بن حنبـل؟ ونحن لا يخالجنـا شــك في تجــرد وورع وتمكن هــؤلاء الأســلاف، ولكن هذا لا يعني أبـدًا أنهم معصـومون، أو أنهم وصلوا إلى ما لا يمكن لأحد أن يصل إليه أو أنهم اسـتوعبوا المعرفـة فلم يـتركوا شـيئًا لمن يـأتي بعـدهم. إن المعرفـة كـالبحر ولا يمكن لأي بحَّار ولا لمجموعــة من البحــارين الادعــاء باســتيعاب البحــر وضــمه بين جنــبيهم. وقــد وضــع العصــر الحديث في أيدي الأخلاف ما لم يضعه في أيدي الأسلاف من مطبعة وفهرسة وتصنيف يمكن بها لهم أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه أسلافهم.

* * * *

وكـــان من الصـــعوبات الـــتي حـــالت دون مجـاوزة السـلفية أنـه لا يمكن تجاوزهـا إلا بعـد إحكامها ويغلب على من أحكمها أن لا يفلت من إسارها. أو لا يجد الوقت للبدء من جديـد، وكـان هذا مأزق الشيخ محمد عبده. وعندما كـان ينقـد منـاهج الأزهـر ذكـره أحـد سـامعيه بأنـه أزهـري فلمس هـذا جرحًـا غـائرًا، واعـترف بأنـه أمضـى عشــرين عامًــا لينظــف فكــره من "وســاخات الأزهر".

لم يكن بوســع أحــد أن يتجاهــل الســلفية وتراثها الضخم، وفي الوقت نفسـه لم يكن الـرد على السـلفية ممكنًـا بالسـلفية نفسـها، كـانت السلفية أشبه بقصر ضخم له قيمة أثريـة كـبرى ولكن لا يمكن إســـتخدامه للسُّـــكنَى، فلا يمكن هدمه لقيمته الأثرية، ولا يمكن استخدامه عمليًا،

وفي الوقت نفسه فإنه يشغل المكان الوحيد لدينا.

وفي بعض الحالات يكون لدينا الشجاعة لأن نقول "الحي أبقى من الميت" ولكننا في هذه الحالة نقول الموتى أبقى.. ونفرضهم على الأحياء..

ولم يتبين السلفيون أنهم في تمسكهم بالسلفية حفاظًا على الإسلام كما ظنوا وردًا للغارات عليه أنهم يخالفون في الحقيقية توجيهات الإسلام وأنه مما لا يسقيهم أن نحمي الإسلام وأنه مما لا يستقيم أن نحمي الإسلام بما نهى عنه الإسلام، لم يتبينوا هذا لتأصل فكرة قداسة الأسلاف والإيمان بأن علمهم وصلاحهم يفوق علمنا وصلاحنا، ولأن القضية أخذت طابع المصلحة المكتسبة والوضع القائم بالفعل فأين تذهب تلك المؤسسات الإسلامية الكبرى من جامعات ومعاهد وحوزات تدرس الفقه والتفسير والحديث على الأصول السلفية هل تغلق أبوابها ويشرد علماؤها وتطوي مراجعها..

وأهم من هذا كله.. حتى لو استطعنا هذا فبماذا نأخذ.. وما هو البديل للسلفية.

هذا شيء لم توضع خطوطه.. أو ترسي أسسه.

وهكذا لم يعد هناك معدى من السلفية ومن التأثر بخصائصها.. ووقعت الدعوات الإسلامية كلها في إسار السلفية والخلاف هو في الدرجة وليس في النوع فالأخوان في حقبة البَنَّا كانت أيضًا صور السلفية مرونة واتساعًا، بينما كانت الوهابية ولا تزال أشدها ضيقًا وتزمتًا.

والحقيقــة أن الســلفية وصــلت من القــوة والتغلغل بحيث:

(1) من غير المنتظر أن يظهر من رجالها من يسـتطيع التحـرر من إسـارها أو مجـاوزة إطارها، ولو جـاز هـذا لأحـد لجـاز للشـيخ محمــد عبــده، ولا يمكن لأكــثر خــريجي الأزهر استنارة مجاوزة درجة معينة داخل الإطار السلفي.

(2) أن نفوذها والإيمـان بهـا لم يعـد مقصـورًا على أعضــاء الــدعوات الإســلامية فهم جمهورها أو قياداتهـا فهم سـدنتها، ولكنـه وصل إلى معظم فئات المجتمع (بمــا في ذلــك الفنــانين والفنانــات) بحيث لم يعــد خيــار لهــا ســوى الســليم بهــا. أو أبعــاد الإسلام من الحيـاة العامـة. وقصـره على الحيـاة الخاصـة أي العلاقـة بين الإنسـان والله. وإذا كان هناك عـذر للـذين يقعـون في هذا الخطأ الفاحش فهو أنهم لم يـروا بـديلاً عن السـلفية، ولعلهم لـو رأوا هـذا البديل لصححوا خطـأهم، وهـذه الظـاهرة توضـح لنـا ضـرورة وأهميـة معالجـة تلـك القضية. وخطأ تجاهلها.

* * * *

وكما قلنا في مستهل الفصل، فإن الســلفية منهج وطريقة قدر مــا هي مــزاج ونفســية، وقــد نقلت هـذا كلـه إلى الـدعوات الإسـلامي المنهج والطريقة والمزاج والنفسية بالتفصيل التالي:

قـــدمت الســـلفية للـــدعوات الإســـلامية المضمون الإسلامي أو التصور الإسلامي المقرر والذي اعتبر أنه هو الذي يبرأ من النحل والأهواء

والتخبط، وأنه ما عليه "الجماعة" سواء كان هذا المضمون في الفقه والأصول الـتي يقـوم عليهـا من قرآن وسنة وإجماع وقياس أو تفسير يقــول على أسباب النزول والناسـخ والمنسـوخ وعلـوم اللغة أو حديث يعتمد على معايير للرجال وجــرح وتعديل ودرجـات الأحـاديث الـتي تعـد أصـلاً في الفقه.. إلخ.

ولم تلحـظ السـلفية أن مضـمونها هـذا تـأثر بالزمان والمكان تأثرًا يمس موضوعية وصـلاحية المضمون فهي مثلاً في المجال السياسـي تـؤثر الطاعـــة على الفتنـــة، بينمـــا هي في المجـــال الاقتصادي تفضـل الحريـة على التـدخل أمـا في قضـية المـرأة فقـد سـلطت مبـدأ سـدّ الذريعـة ليشل الحريات والحقوق الـتي أعطاهـا الإسـلام للمرأة سدًا للذريعة ولعل السلفية لم تســتهدف صــراحة وقصــدًا ممــالاة الســلاطين والتجــار والرجـال. وإنهـا عنـدما وقفت في صـف هـؤلاء، وليســت في صــف المحكــومين والمســتهلكين والنسـاء إنمـا كـانت تعـبر عن روح عصـرها. ولا يخالجنـا شـك أن قاسـم أمين رحمـه اللـه كـان أقرب إلى روح الإسلام.. ولكن ما نادى بـه كـان بعيدًا كـل البعـد عن السـلفية. وكـان هـذا مـبرر الثورة عليه.

وقد أصبح المضمون السلفي هو المضــمون المقرر ولم يعد جائزًا لأحد أن يقول أن الطريــق التي انتهجتها السلفية، والنتائج التي انتهت إليهــا بحكم إعمالها لهـذه الطريقـة ليسـت بالضـرورة أفضل الطرق أو أفضل النتائج، وأن قصـارى مـا يمكن أن يحمـد لهـا أنهـا كـانت أفضـل طريقـة

وأفضـــل نتيجـــة في مكانهـــا وزمانهـــا وبحكم ملابساتها، وأنـه عنـدما ينتهي هـذا الـوقت وهـذا المكان وهـذه الملابسـات فليس هنـاك مـا يـبرر الأخذ بها أو الادعاء بأفضليتها، هذا غـير جـائز ولا يسمح به.

الأخذ بالسلفية يعني الاعتماد على النقل في التعـرف على الحقـائق والأحكـام. فـإذا عرفنـا بالضبط ما وضعه السلف الصالح فليس علينا إلا الأخذ به وفي هذه العملية لا يكـون هنـاك حاجـة لأعمال الذهن أو استخدام العقـل وشـيئًا فشـيئًا يصـدأ هـذا العقـل، ويصـبح النقـل هـو الوسـيلة المستخدمة ومن سوء الحظ أن قـدرًا كبـيرًا من الخـزعبلات والخرافـات والإسـرائيليات اقتحمت الفكر الإسـلامي في وقت مبكـر للغايـة وتقبلهـا الأئمـــة وأثبتوهـــا في كتب التفســـير والحـــديث والفقه، وأصبحت جزءًا من التراث السـلفي ولم يعد من الممكن التمييز ما بينها وما بين الحقيقة لأنها دخلت في المضمون السـلفي فتعين الأخـذ بها. ولأنه من غير المسموح إعمـال العقـل – إذا كـان قـد بقيَ منـه بقيـة – في التميـيز والغربلـة واستبعاد هذه الخرافات.

ولنضـرب المثـل بواقعـة معينـة تمثـل تمـام التمثيل عمق فكـرة النقـل عنـد السـلفيين ففي اليـوم الثـاني من رمضـان عـام 1985 نشـرت الأهرام (ص 12) لمفتي جمهوريـة مصـر الشـيخ عبـــد اللطيـــف حمـــزة وهـــو بقيـــة الســـلفيين المعروفين كلمه تحت عنـوان مفسـدات الصـوم نصها.

ما هي مفسدات الصوم؟

يفســد الصــوم بالجمــاع في أحــد الســبيلين على الفاعل والمفعول به والأكل والشرب سواء فيـه مـا يتغـذى بـه أو يتـداوى بـه. وابتلاع مطـر داخـل فمـه وأكـل اللحم النـيئ إلا إذا دوَّد وأكـل الشــحم وقديــد اللحم بالاتفــاق وأكــل الحنطــة وقضـمها، إلا أن يمضـغ قمحـة فتلاشـت، وابتلاع سمسمة أو نحوهـا من خـارج فمـه في المختـار وأكل الطين الأرمني مطلقًا والطين غير الأرمني كالطفل إن اعتاد أكله، وقيـل الملح في المختـار وابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لا غيرهما. إذا فعل الصائم شيئًا من ذلك طائعًا متعمدًا غـير مضـطر لزمه القضاء والكفارة. وكذا أكـل الصـائم عمـدًا بعد غيبة أو حجامة أو مس قبلـه بشـهوة أو بعـد مضاجعة من غـير إنـزال أو دهن شـاربه ثم أكـل متعمدًا أو طاوعت مكرهًا على وطئها لأن سـبب الكفارة جناية إفساد الصوم لا نفس الوقاع، وقد تحققت من جانبهـا بـالتمكن من الفعـل كمـا لـو علمت بطلــوع الفجــر فمكنت زوجهــا وهــو غــير عالم بـه. ومن مفسـدات الصـوم أيضًـا إذا أكـل الصائم أرزًا نيئًا أو عجينًا أو دقيقًا بدون سـكر أو ملحًا كثير دفعه أو طينًا غير أرمني لم يعتد أكلــه أو نــواة أو قطنًــا أو سَــفَرْجَلاً لم يُطبخ أو ابتلــع حصاة أو حديدًا أو ترابًا".

وأثارت هذه الكلمة ثـائرة الكتـاب، فانتقـدها بقسوة ومرارة الأستاذ جمال بدوي في "الوفـد" وعقَّب عليها الأستاذ أحمد بها الدين (2/ 6/ 85) بما هو أشد وأنكى وندَّد بمـا تكـاد تصـرح بـه من فحش وشــذوذ ممــا لم نشــأ أن نــورده رحمــة بالشيخ.

ولكن للشيخ منـأىً عن هـذا ولكنهـا العقليـة النقلية التي جعلته ينقل من الحواشي والشـروح وإنمـا فعـل هـذا لأنـه - رحمـه اللـه – كـان رمـز السلفية والبقية وقتئذ من شيوخها في مصر.

وتنســحب جريــرة هــذا المنهج النقلي على كافة مجالات الحياة وعندما يتعطل العقـل فلابـد أن تسود الخرافة، ولابد للإنسـان الـذي لا يملـك هذا العقل أو أن هذا العقل أصابه الصدأ والتآكل أن ينزل إلى مستوى الأنعام، لأن ما يميزه عنهـا هو العقل. ويصبح لدينا ملايين المواطـنين الـذين لا يعرفون الخطأ من الصواب ولا يميزون ما بين الحق والباطل. ولا يفرقـون بين الخـير والشـر.. وكلما تحل بهم مشكلة يهرعــون إلى كتبهم دون أن يطــرأ لهم التفكــير في المشــكلة وإعمــال عقولهم لحلها. فإذا لم يجدوا فيهـا حلال احتـاروا وتـاهوا و "تورعـوا" عن تقـديم الحـل أو قـدموه وهم يتعوذون من الشيطان الرجيم.

من أعمــق آثــار الســلفية على الــدعوات الإسلامية أنها نقلتها من "الموضوعية" الـتي هي طابع الإسلام إلى "الذاتيـة" الـتي هي في أصـل الوثنيـة. ولم ينسـب القـرآن الكـريم المسـلمين إلى نـبيهم فيقــول "المحمـديين" رغم أن هــذه النسبة تزيدنا تشريفًا، لأن الرسول بالنسـبة للـه تعالى – ليس إلا مبلغًا يبلـغ مـا يـوحي إليـه – ولا يأتي بشيء من نفسه وليس له من الأمر شــيء فـــالمنهج القـــرآني يركـــز على الموضـــوع - والموضوع هو الإسلام وليس على الشخص حتى لو كان النبي.. وواضح بالطبع أن السلفية نقيض ذلك لأن النسبة فيها إلى السلف. وعندما يطبــق

هذا لا تصبح الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنَّى وجدها، ولكن الانتماء إلى الأسلاف وأقل ما يقال في هذا أنه حجر على الحقيقة أما الخطر الأكبر فهو إحلال الذاتية محل الموضوعية كمنهج لأن هذا يخالف مخالف جذرية لمنهج الإسلام إذ هو يسمح بعودة الوثنية والشرك بالله والتمحور حول أشخاص. ولم يكن عبثًا، في هذا المجال بالذات، حملة القرآن الشعواء على الذين قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

ونعتقد أن هذا الأثر لم يعط ما يستحقه من الأهمية – وأنه من أكبر أسباب انحراف بعض الدعوات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية بصفة عامة.

من أبرز قسمات "السلفية" التركيز على العبادة وهذا يعود إلى سبب تاريخي، وليس إلى سبب موضوعي. وقد لا يتسع المجال لشرحه هنا – خاصة وأننا عالجناه بالتفصيل في كتاب نرجو أن يصدر قريبًا – وما يمكن أن يقال هنا هو أن العبادة هي الوسيلة التي تنفرد بها الأديان لتهذيب النفس وللقربى إلى الله، ومن هنا فإن لها أهمية وخصوصية لا تنكر ويمكن القول أن دينًا لا عبادة فيه لا يمكن أن يكون دينًا وإنما يكون مذهبًا فلسفيًا ومن هنا وجدت في الأديان كلها صنوف مختلفة للعبادة.

وجاء الإسلام أيضًا بعباداته. ولكن عبقرية الإسلام أنه لم يقتصر – كبعض الأديان – على هذا الجانب الخاص جدًا والهام جدًا إلا وهو إصلاح نفس الفرد وروحه بالصلاة والصيام والقربى إلى الله، ولكنه جاء أيضًا بعدد من

الخطــوط والضــوابط في الاقتصــاد والسياســة والاجتمـاع. وأنـه جعـل العمـل مصـداقًا للإيمـان ومعيارًا للحساب من ثواب أو عقاب في الآخرة. بل كاد أن يحقق تجديدًا ثوريًـا في عـالم الأديـان عندما جعل المسلم يـدرك بحسـن خلقـه وطيب معاملته درجة الصائم القائم بـل وفضـل العمـل الصـالح على العبـادة. ولكن التطـور السياسـي للإسلام جعل الملك العضـوض بعـد أربعين سـنة من الهجــرة يقــاوم هــذا الجــانب من جــوانب الإســلام: العدالــة في الاقتصــاد. والحريــة في الفكــر والشــورى في الحكم وتعــرض الأئمــة الأربعـة لاضـطهاد الخلفـاء وفي النهايـة لم يجـد الفقهـاء مجـالاً حـرًا لعملهم إلا الجـانب العبـادي الذي لم يجـرؤ الخلفـاء على المسـاس بـه ولأن المســاس بــه لا يحقــق لهم مصــلحة.. فتوســع الفقهاء في العبادات توسعًا جعل "الصــلاة" مثلاً تسـتغرق عـددًا من المجلـدات في موسـوعات الحديث والفقه.

ونقلت السـلفية هـذا التركـيز إلى الـدعوات الإسـلامية بحيث أصـبحت أولاً وقبـل كـل شـيء هيئات عبادية العبادة فيها هي مفتاحهـا، وهي مـا يميزهــا عن غيرهــا، ولا يقتصــر على العبــادة نفسها. ولكن ما اصـطحب بهـا في الأذهـان. من زي أو هيئــة – وحركــات وســكنات والــتزام بالنوافل بعد الفرائض والأدعية والأذكار والأوراد، وقـد كـانت الوصـية الأولى من الوصـايا العشـر للإخوان المسلمين "قم إلى الصلاة متى سمعت النداء"..

وكان هذا الأثر من القوة بحيث إن الـدعوات الإسلامية التي استكشفت حقيقـة الإسـلام وأنـه دين ودنيا مصحف وسيف.. إلخ لم تفهم من هذا إلا فرض الجانب العبادي على الجانب الحياتي.

ونشـــأ في كثـــير من الـــدعوات الإســـلامية ازدواجية بين الدين والـدنيا، العبـادة والسياسـة، الجـــانب الـــتربوي الـــروحي والجـــانب العملي الحياتي.. ويمكن القول إنهـا ركـزت على الأول، وأن هذا حال دون إحكامهـا للثـاني. وحـدث هـذا في بعض الهيئات بحيث جـاز التسـاؤل: ألم يكن من الأفضل لو وجدت هيئات إسلامية متخصصـة فبعضها يعني بالجانب الروحي النفسـي الفـردي والعبادي وينفض يديـه تمامًـا بين النشـاط العـام والخـارجي؟ ويوجـد بجانبهـا هيئـات أخـرى في مجالات النشاط العـام ، تعـني بجـانب معين من هذا النشاط (اقتصاد – عمل – سياسة – صـناعة – تجـارة.. إلخ) تاركـة الجـانب العبـادي لمن هم أقدر عليه منها فلا تحاسب عليه، كما لا تحاسـب جمعيـة للمعلمين على أنهـا لا تحكم الهندسـة أو اتحاد للأطباء أنه لا يفهم في المحاسبة..إلخ.

إن العامل الـذي لا يجعلنـا نأخـذ بهـذا الحـل باعتبـاره حلاً محيـدًا هـو أنـه يحـول دون وجـود الهيئة ذات الدعوة الإسلامية العامـة الـتي تـدعو لإصلاح المجتمع. ولكن مثل هذه الهيئة لن توجـد مـا ظـل الطـابع العبـادي مسـيطرًا على الهيئـة العامة. والحل الأمثل أن توجد مثـل هـذه الهيئـة على أن تضـع نصـب أعينهـا الحـديث النبـوي "الدواوين عند الله ثلاثـة: ديـوان لا يعبـأ اللـه بـه شيئًا وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الـذي لا يغفره الله فالشرك بالله، وأما الـديوان الـذي لا

يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها – فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا: القصاص لا محالة"[1] فإذا طبقنا هذا لوجدنا أن محل عناية الهيئات الإسلامية الأول يجب أن يتركز في الحيلولة دون ظلم العباد بعضهم بعضًا.. أي القضية العامة والاجتماعية لأن هذا الظلم يعم الحاكم والمحكومين الأغنياء والفقراء الأقوياء والضعفاء ورأس البلاء في القضية الاجتماعية هو الظلم. ومحور الإصلاح هو العدل.

الدعوات الإسلامية – على اختلافها من إنشاء السنة ذلك لأنها تأثرت بالفقه الذي يقوم بالدرجة الأولى على السنة والفقه مبوب تبويبًا دقيقًا، ويكاد يكون واحدًا في المذاهب المختلفة وهو يتناول الأقوال والأفعال والحركات والسكنات. فضلاً عن الأحكام. فوجدت فيه الدعوات الإسلامية بغيتها. وكان هذا هو أحد أسرار "سلفية" الدعوات الإسلامية.

والسنة هي الأصل الثاني للإسلام بعد القرآن وهذا أمر لا خلاف فيه. ولكن الخلاف إنما يكون في قضايا عديدة أوردتها كتب الحديث والفقه. منها ما يتعلق بالسنة. وقد وضعت مجلدات عديدة عن علم الرواية وأحوال الرجال

---

1 [?] الحديث رواه أحمد في مسنده وأخرجه الحاكم وصححه وفيه مقال ولكن له شواهد تعضده والمقصود بالدواوين صحائف الأعمال أنظر (الفتح الرباني في مسند الأمام أحمد بن حنبل الشيباني ص 288 ج 19)

ودرجاتهم والجرح والتعديل. ومع هذا – أو بمعنى آخر لهذا، حدث نوع من الاجتهاد في إصدار الأحكام فقد يحكم بعض علماء الحديث على راوٍ بأنه ثقة، في حين يراه الآخرون واهيًا أو ضعيفاً، لأن العملية أصبحت لها ضوابط عديدة ومختلفة، وبالتالي فإن الأحكام تختلف. وقد يمكن الارتقاء بهذا إلى مثل عمر بن الخطاب وعائشة (وليس إلى المستشرقين أو الذين يريدون هدم السنة) في نقدهما لأبي هريره وإكثاره وسرده.

ومن قضايا السنة ما يتعلق بالمتن ويدخل فيه النسخ والرواية بالمعنى – كما يدخل فيه تحقيق ملابسة صدور النص لأن هذه الملابسة قد يكون لها أثر في الحكم وهو أمر عُني بتحقيقه علماء أصول الفقه. فعندما يقول الرسول – على سبيل المثال – "في الغنم السائمة زكاة" فإن هذا القول إذا كان قد صدر من الرسول إجابة لسائل سأل الرسول: "هل في الغنم السائمة زكاة" فإنه يكون قد خصص الوصف بالذكر لأنه المسئول عنه ليكون الجواب مطابقًا للسؤال. وقد يدل هذا على نفي الحكم عن الذات عند انتفاء الصفة "السائمة" وقد يدفع لعدم إعمال – مفهوم المخالفة إلخ.. وقد يروي الراوي عَجُزًا من حديث فاته صَدْرُهُ، ويؤدي هذا إلى خلل في المعنى.

ومن قضايا السُّنة أن الفقهاء يميزون ما يعد ملزمًا من أقوال أو تصرفات الرسول وما لا يعد، فالقرافي وهو من أئمة المالكية يميز بين تصرفات الرسول بالفتيا والتبليغ وبين تصرفه بالقضاء وبين تصرفه بالإمامه، وإن آثار هذه

التصــرفات ومــدى إلزامهــا مختلــف. فتصــرفه بالفتيا هو إخباره عن اللــه تعـالى بمـا يجـده في الأدلة من حكم الله تبارك وتعالى. وتصرفه عليه السلام بالتبليغ هـو مقتضـى الرسـالة. والرسـالة هي أمر الله له بذلك التبليـغ. فهـو عليـه الصـلاة والسـلام في مقـام الرسـالة ينقـل عن الحــق للخلق ما وصل إليه من الله تعالى. فهو في هذا المقام مُبلِّغ وناقل عن الله تعالى. أما تصــرفه بالحكم أي بالقضاء – فهو مغاير للرسالة والفتيـا لأن الفتيـا والرسـالة تبليـغ محض واتبـاع صـرف والحكم إنشـاء وإلـزام من قبلـه بحسـب مـا يسنح من الأسباب والحجاج، ولهذا قـال "إنكم تختصــمون إلىَّ ولعــل بعضــكم أن يكــون ألْحَنَ بحجته من بعض. فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه إنما أقتطـعُ لـه قطعـة من النـار" دل ذلــك على أن القضــاء يتبــع الحجــاج وقــوة اللحن بها" وأمـا تصـرفه عليـه الصـلاة والسـلام بالإمامة. فهو وصف زائـد على النبـوة والرسـالة والفتيا والقضاء – لأن الإمـام هـو الـذي فوضـت إليه السياسة العامة في الخلائق وضـبط معاقـد المصالح ودَرْء المفاسد"[1].

ويذهب ابن قتيبة في تأويل مختلف الحـديث "والسُنن عندنا ثلاث: سنة أتاه بهـا جبريـل عليـه السلام عن الله تعـالى كقولـه "لا تنكح المـرأة على عمتهـا وخالتهـا" و "يحـرم من الرضـاع مـا يحــرم من النســب" و "لا تحــرَّم المصَّــه ولا المصَّـتان" و "الديَّة على العاقلـة" وأشـباه هـذه

---

1 (?) استشهد بها كتاب السنة تشريع لازم ودائم دكتــور فتحي عبد الكريم ص 70 (مكتبة وهبة).

الأصول، وسُـنة أبـاح الله فيهـا لنبيـه أن يسـنها، وأمَرَهُ باستعمال رأيه فيها فلـه أن يـرخص فيهـا لمن شـاء حسـب العِلَّة والعُـذر، ومن ذلـك إذنـه في لبس الحريـر لعبـد الـرحمن بن عـوف لعلَّةٍ كانت به واستثنائه الأذخر من شجر مكة وأمثـال هذه الأمور، والسُنة الثالثة ما سَنَّهُ رسول اللـه تأديبًا لنا فإن نحن فعلناه كانت لنـا الفضـيلة في ذلـك وإن نحن تركنـاه فلا جنـاح علينـا إن شـاء الله".

وقـال الشـيخ محمـود شـلتوت في كتابـه المشهور "الإسلام عقيدة وشريعة"."كل مـا ورد عن النـبي ودُوِّنَ في كتب الحـديث من أقوالـه وأفعاله وتقريراته على أقسام.

أحـدهما: مـا سـبيله الحاجـة البشـرية كالأكـل والشرب والنوم والنوم والمشي والتزاور والمصـالحة بين شخصـين بـالطرق العرفية والشفاعة والمسـاومة في الـبيع والشراء.

ثانيهما: ما سبيله التجارب والعادة الشخصـية أو الاجتماعيـة كالـذي ورد في شـئون الصناعة والطب وطول اللباس وقصره.

ثالثهمـا: مـا سـبيله التـدبير الإنسـاني أخـذًا من الظروف الخاصـة كتوزيـع الجيـوش على المواقـع الحربيـة وتنظيم الصـفوف في الموقعة الواحدة والكمـون والكـر والفـر واختيار أماكن النزول وما إلى ذلـك ممـا يعتمـد على وحي الظـروف والدربـة الخاصة.

وكـل مـا نقـل من هـذه الأنـواع الثلاثـة ليس شرعًا يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنمـا هـو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسـول فيها تشريعًا، ولا مصدر تشريع"[1].

ولولا أن المقام لا يتسـع لمزيـد من الشـرح لعرضنا ما قاله الدهلوي في حجـة اللـه البالغـة، وما أشـار إليـه بعض المحـدثين كالـدكتور سـليم العَـوَّا. وقـد عالجنـا هـذا الموضـوع في كتابينـا "الأصلان العظيمان" و "العودة إلى القرآن".

المهم أن الدعوات الإسلامية لم تسلك مسلك المحققين. ولكنها أخـذت السُـنَّة كلهـا بـل لعلهـا ركـزت على مـا يتعلـق بالأكـل والشـرب والـزي والعادات إلخ..

وقد أراد الله تعالى الكمـال للإسـلام عنـدما أوجد قرآنًا وسنة ليحقق تكاملاً. ولابد لكي يلحظ هذا التكامـل من وضـع القـرآن والسُـنَّة كـل في موضعه. وهو ما يقضي جعل القرآن الأصل قائما يعود الإلزام بالسـنة إلى القـرآن نفسـه، ووجـود قرآن وسنة يعني اختلافـا في الطبيعـة. كمـا قـد يلحظ الاختلاف في الأسلوب والقرآن ينحـو نحـو الإطلاق والانتهـــاض ويمثـــل القيم والكليـــات والأصـول العامـة، بينمـا تعـني السُـنَّة بـالتطبيق وتلحظ الحفاظ وتتناول الجزئيات كما قـد تلحـظ اعتبارات آنية تتعلق بالمجتمع العربي، ومـا كـان عليه وقت الرسول وأنه "حديث عهد بجاهلية".

وكمـا أشـرنا – فـإن الـدعوات الإسـلامية اعتبرت أن كمال الإسلام هو الأخذ بالسُـنَّة كلهـا

---

1 [(?)] الإسـلام عقيـدة وشـريعة ص 427 طبعـة الإدارة العامة للثقافة العامة بالأزهر.

– حتى ما كان منها ضعيفًا في الرواية. غير ملزم في الموضوع، وليس هذا هو الحماس للإسلام أو تحقيق الكمال فيه. كما سبق إلى ذهنها.

من القسمات المشتركة في الدعوات الإسلامية أنها بدرجات متفاوتة – وقعت في يد الطبقة الوسطى التي يطلقون عليها "البورجوازية" صغيرة أو كبيرة فقاعدتها الجماهيرية تضم صغار الفلاحين والتجار والحرفيين والطلبة – بينما تضم قمتها نسبة من كبار التجار ورجال الأعمال والاقتصاد الإسلامي.

ونحن لا نتفق مع الشيوعيين في اهتمامهم المسرف بالتأثير الطبقي. ونرى أنهم في معظم ما يُورِدُونَهُ في هذا الصدد، إنما يزجون به بحكم الشعارات المعلنة. فلم يكن أحد أفراد الطبقة العاملة من مُنظِّري الاشتراكية، ولا أحد منظري الاشتراكية من العمال. وكل إشارته إلى "أدب الطبقة العاملة" "وكفاح الطبقة العاملة إنما" يقحم إقحامًا عليها فالكفاح الحقيقي للطبقة العاملة هو الحركة النقابية التي تضيق بها الاشتراكية.

وقد أثبت التاريخ وجود أفراد من الطبقة المميزة كفروا بشرعة التميز الطبقي ومنحوا ولاءهم للدعوات الشعبية سواء كانت اشتراكية أو إسلامية كما ظهر أفراد من الطبقات القاعدية خانوا طبقتهم لكي يحققوا مطامعهم.

مع هذا – فإن تأثير الوضع الطبقي هو أمر يقرره علم الاجتماع وطبقًا له – فإن وعي الطبقة الوسطى وعي فردي. بمعنى أن الفرد

النمطي في الطبقة الوسطى يستهدف رفع مستواه المعيشي بوسائله الخاصة – وطبقًا لما ينتهي إليه اجتهاده وعادة ما يسمح المجتمع البورجوازي للنابغين والأذكياء بتحقيق طموحهم، وهذا هو سر المبادءات العديدة التي يحفل بها هذا المجتمع – وهناك خيط دقيق يربط ما بينه وبين الحرية والطموح والمنافسة والقوة إلخ.. ويكون هذا إثراء للمجتمع. ولكن يغلب أن يتم هذا على حساب الآخرين – أو دون ملاحظة الآخرين. وقد أوجد الإسلام معادلة ما بين حرية الأفراد وعدل المجتمع. وعندما تضع الدعوات الإسلامية هذه المعادلة نصب أعينها. فإن غلبة الطبقة الوسطى عليها لا تثمر أثرًا سيئًا، ولكنها إذا غفلت عنها فسيغلب الوعي الفردي عليها ويمزقها. أو يجعلها تسير في أذيال المصالح الفردية لمجموعة القمة.

وهذا أحد المخاطر التي يكون على الدعوات الإسلامية التنبه إليها. خاصة وأنها مستهدفة لهذا الخطر بحكم نزعة السلفية نحو الذاتية التي أشرنا إليها آنفًا.

وقد يكون من الخير لها أن تجتذب العمال وتجعل الحركة النقابية من قواعدها، ونحن نعالج هذه النقطة من ناحية الوعي لا من ناحية كسب جمهور فعال للحركة، وتأمينها من غدر الحكام، فتلك نقطة أخرى تنبهت إليها الجهة الإسلامية في السودان وكان تأمينها من انقلاب نميري عليها. كما أن إغفال الأخوان المسلمين لها أدّى إلى ادعاء عبد الناصر تأييد العمال له فيما سُمي إضراب مارس 1954، رغم أنه كان ضراب مفتعلاً، نحن هنا نشير إلى أن ضم التكتلات

العمالية سيوجد توازنًا طبقيًـا في بنيـان الـدعوة الإسلامية، وبهذا يؤمنهـا من النزعـات الفرديـة – فضــلاً عن أن العمــال هم جمــاهير أصــيلة في الــدعوة الإســلامية لأنهم "المستضــعفون" في الأرض الــذين ينصــرون الإســلام.. وينصــرهم الإسلام.

والـدعوات الإسـلامية "ماضـوية الـروح" ولا غبــار بــالطبع على الإعجـاب بالماضــي العظيم للإســلام أو اســتلهام ثوابتــه. ولكن الــدعوات الإسـلامية تريـد أن تعيش هـذا الماضـي. وهـذه مغالطة تاريخية فهي – عمليًـا – لا تعيش القـرن الأول الهجــري ولكن القــرن الخــامس عشــر، وعليهـا أن تعـايش هـذا القـرن، وإلا فإنهـا تلغي وجودهــا. كمــا أن عليهــا أن تفهم أن الإعجــاب بالماضــي لا يتنــافى مــع الإعجـاب بالحاضــر أو العمل للمستقبل.

فمـا أعظم مـا يحفـل بـه هـذا الحاضـر من منجزات رائعة للتقدم في مجالات الحياة.

وعلى كلٍّ... فإن الله تعالى يحكم بالأعمـال لا بالأزمـان. وإذا كـان هنـاك حـديث يفضـل "قـرن الرســول" ثم الــذي يليــه، فالــذي يليــه فهنــاك أحاديث عديدة في تمجيد الذين آمنـوا بالرسـول دون أن يروه. ويصلحون عند فساد الزمن. ولابد للــــدعوات الإســــلامية أن تتأكـــد أن حماســــها للماضــــي لن يكســــبها الماضــــي. وسيخســــرها المستقبل.

وهنـاك مفارقـة أورثت الـدعوات الإسـلامية إحـدى سـماتها المشـتركة. فالإيمـان بالسـلفية وحصر مداركها وثقافتها في السلفية من ناحيــة،

وعجز هذه السلفية عن معايشة الحاضر، وهو أمر لا يتطلب برهنة فيما نرى – جعل فكرها وثقافتها وأحاديثها في وادٍ.. وعملها وممارساتها واهتمامها في وادٍ آخر. وقبلت الدعوات الإسلامية هذا الوضع الشاذ كأمر مقرر لا غرابة فيه، وتحدث الإمام الشهيد حسن البَنَّا رحمه الله عن طلبه بعض المعاهد الأزهرية يدرسون أحكام الصلاة ثم تقام الصلاة فلا يصلون. وإنما يستمرون في قراءتهم!! ويدرس كثير من الدعاه الإسلاميين أحكام الطهارة والرقيق والغنائم كما كانت عليها منذ خمسة عشر قرنًا، وبعدها مباشرة يركبون العربات الفارهة وكل ما يفعله الواحد منهم هو أن يقول ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وينسى أنه يركب عربة لا دابة، وقد تمر به عربته على النساء العجائز والمرضى الذين ينتظرون الأتوبيس المزدحم الذي لا موطأ فيه لقدم فلا يذكر الحديث: "من كان عنده فضل ظهر فليركب أخاه" وقد يدعو إلى الزكاة – وهو لا يدفعها ـ ويستحث الناس على الإنفاق وهو من أبخل خلق الله.. وقد يرى في الشارع من يلبس الأسمال المهلهة في الشتاء فلا يثير في نفسه شيئًا، وهذا المنظر جعل وجه الرسول يحمر "كأنما فُقئ فيه حَب الرمان" ولكن "سيدنا الشيخ" لا يتصور أن منظر فقراء في أسمال أمر يدفع بحمرة الخجل إلى الوجه.

إن الشقة الواسعة ما بين العلم والعمل في الدعوات الإسلامية تخالف نهج الصحابة الذين كانوا لا يجاوزون حفظ عشر آيات حتى يعلموا

ما فيها من العمل. وعندئذ فحسب، وبعد إن يروا أثر هذه الآيات التي حفظوها على سلوكهم ينتقلون لحفظ غيرها.

ومن السمات المشتركة في الدعوات الإسلامية أنها تضيق بحرية الفكر – ولا تؤمن بها وإذا كان دُعاتها يقولون غير ذلك – فإنهم يخادعون أنفسهم والناس. فما يقصدونه بالحرية التي يؤمنون بها حريتهم أنفسهم، أو مفهومهم الخاص لحرية الفكر، وآية ذلك أنها ترى من البديهات مصادرة كل كتاب يخالف ما يعتقدون و "تعزيز" كل من يذهب غير مذهبهم، وإقامة الحد على المرتد – وعلى كل من يجحد معلومًا من الدين بالضرورة، وهذه كلها قيود وأصفاد وأغلال على حرية الفكر فأية حرية يؤمنون بها بعد.

وهم يلصقون بحرية الفكر كل نقيصة أو تدهور أو تحلل. ولا يفهمون أن الحرية أن فتحت بابًا لآراء شاذة فإنها تفتح أبوابًا تدعو إلى الحقيقة، وإن أدت إلى فساد واحد معلن، فإنها تقضي على عشرات من المفاسد غير المعلنة..

وقد قرأت مقالاً يصور هذه النزعة في صحيفة تصدرها باللغة الإنجليزية جمعية إسلامية باكستانية في إنجلترا. يدور المقال حول دهشة سكان الكواكب الأخرى من كُفر أهل الأرض وعدم إيمانهم بالإسلام. وأن هذا دفعهم ليرسلوا رائد فضاء ليرى ماذا يعبد أهل الأرض. وعاد هذا الرائد بعد أن قام بمهمته وقال لهم إن أهل الأرض يعبدون أوثانًا. منه وثن يُسمى "الديمقراطية" وهناك وثن يُسمى "الاشتراكية"

ولكن أقبح الأوثان جميعًا التي يعبدها أهل الأرض هو وثن يُدعى "الحرية"[1]!!

يعسـر على الـدعوات الإسـلامية أن تتقبـل إعـادة المـرأة إلى المجتمـع بعـد أن اسـتطاعت السلفية أن تعزلها وأن تحقـق نوعًـا من الفصـل العنصري يأبـاه الإسـلام. وأن تجعـل من النقـاب جزءًا من الشعائر الإسـلامية. وقـد وضـعته حينًـا إحدى حركات المقاومـة الأفغانيـة في شـعاراتها الـتي اقتبسـتها عن الأخـوان كمـا كـانت هـذه القضية من أسباب انفصال مجموعة من أعضـاء الأخـوان وتأسيسـهم "شـباب محمـد" وكـانت مجلتهم "النذير" حافلة بمقالات الحجاب وجاعلة من كلمتي "وليضربن بخمرهن" شعارًا لها.

وحقيقة الحال أن ليس هناك فرق كبـير بين زي الرجل وزي المرأة في الإسلام، فما من زي "رجـالي" يكشـف عن الصـدر أو الظهـر أو "يشـف" أو "يصـف" والـزي الرجـالي التقليـدي الذي يلبسه كل الرجال في العـالم إنمـا يكشـف عن "الوجه والكفين" والمفروض أن يوجد غطاء للـرأس يغطي بـه الشـعر هي القبعـة عنـد الأوروبيين والعمامة عند الشرقيين، وهذا هو مـا يطبقـه الإسـلام على النسـاء مثلهن في هـذا كالرجال سواء بسـواء، أمـا مـا يجـاوز هـذا فإنـه يعود إلى عادات وأعراف خاصة.

وقـد شـاع الحجـاب في الفـترة الأخـيرة، واعتـبر ذلـك انتصـارًا للاتجـاه الإسـلامي كمـا اعـتزلت النشـاط بعض الفنانـات من المغنيـات

---

1 [?] قـد تكـون هنـاك اسـتثناءات سنشـير إليهـا في أماكنها، ولكنها تظل استثناءات.

والممثلات والراقصــات. ولا جــدال في الدلالــة الإسلامية لهـذا. كمـا أن من المحتمـل أن يكـون من أسباب نجاح هذا أن الحجاب زي عملي وأنه يريح المرأة من عملية تصفيف الشـعر المكلفـة والمتعبة.. ولا تزال القضية تنتظر حلاً يفصل بين قضـية "التـبرج" الـتي نهى عنهـا القـرآن، وبين قضية الزي والاختلاط الـتي تخضـع للمبـادئ من ناحية، وضرورات العصر من ناحية أخـرى ومثـل هذا الحل لابد أن يأتي من "ما بعد السلفية..".

وكـل واحـد درس مكانـة المـرأة في العهـد النبوي يعلم حـق العلم أن المـرأة كـانت تحضـر الصلوات وتخرج أيام العيد إلى الصلوات. وعليها أن تحج كما على الرجل، ويعلم أن المرأة كـانت تحارب مع الرسول وإن الرسـول منح بعضـهم من الغنيمة. وتعلم طبعًا أن أول من أسـلم كـان من النساء، وأول من استشهد كـان من النسـاء، ويعلم أن من النساء من كان يجير غير مسلمين فيجـيز الرسـول فعلهن، ويعلم أن الرسـول أمـر بأن لا تمنع النساء من الصـلاة بالمسـاجد، ويعلم نبأ تلك المـرأة الـتي تصـدت لعمـر بن الخطـاب في المسجد وعارضته، وأخذ هو بقولها.

كل من يدرس الإسـلام يعلم هـذا، ويعلم مـا هو أكثر، ولكن القضية لم تكن – أوانها لم تعـد – قضية إسلام. إنها قضية تقليد أو فهم معين. وقد أصـبحت قضـية المـرأة أكـبر مثـال لعـدم تميـيز الـدعوات الإسـلامية مـا بين الإسـلام.. ومـا بين التقليـد وتفضـيلها التقليـد على الإسـلام. وكـاد التعصـب لهـا أن يجعلهـا "عقـدة" في الهيئـات الإسـلامية. وقــد دعينــا إلى نــدوات ولقــاءات

إسلامية في الولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا وإنجلترا وألمانيا. وفي كل هذه الاجتماعات أبعدت النساء في مكان قصي غير مرئي أو غير معروف، وقيل إن دائرة تليفزيونية مغلقة تربط النساء بما يدور في الجلسة. وفي إحدى هذه المؤتمرات في مدينة مانشستر كان من بين المدعوات شخصيات عامة في مناصب العمل السياسي أو العمل الجامعي، ولكن هذا لم يشفع لهن. فقد أبعدن مع المبعدات. وحرم المؤتمر من آرائهن وإضافتهن.

ويماثل هذا موقف الدعوات الإسلامية من الفنون، ففي الوقت الذي يمكن أن يكون بعضها دور إسلامي يعزز، أو يثري، الفكر الإسلامي. فلا مناص من النظر إلى بعض الآخر منها على أساس أنها من "حرث الدنيا" أو هي "لهو الحديث" التي لا تلتزم ضرورة بالمقاييس الصارمة، لأنها إنما تمثل الساعة الأخرى في حديث الرسول "ساعة.. ساعة" وليس معنى هذا أن تشجع الدعوات الإسلامية ذلك، لكن أن تنظر إليه كجزء من ضرورات الابتلاء والاختبار في الحياة، أو "اللمم" الذي سلم بالنفس الإنسانية ساعة ضعفها.. وتكفر عنه الحسنات وأنه بالنسبة لبعض الفئات – كالشباب يقوم بامتصاص جزء كبير من زخم الغريزة والشهوة التي يفرزها الجسم في هذه الفترة، وبدون هذا البديل يمكن أن يقعوا فيما هو أسوأ.

فلا معنى للضيق به أو محاولة استبعاده، لأن له دورًا في المجتمع، فضلاً عن أن محاولات استبعاده ستؤدي إلى مفاسد أكبر من المفاسد

المظنون ترتبها عليه.

* * * *

لابـد من الإشـارة في نهايـة هـذا الحـديث عن القسمات المشتركة في الدعوات الإسلامية إلى ظاهرة جديدة تلـك هي تسـرب نفـوذ السـعودية ودعوتهـا الوهابيـة إلى الـدعوات الإسـلامية – واختراقهـا لبعضـها. وتعـود هـذه الظـاهرة على نفـوذ ودعم رابطـة العـالم الإسـلامي، ووجـود فائض من خـريجي الجامعـات السـعودية وجهـوا إلى الـدول الأوربيـة والأمريكيـة والأسـيوية إلخ.. لنشر الدعوة الإسلامية. ومن الطبيعي أن يكـون لهذا الاختراق أثر سـيء وفي كثـير من الحـالات أدى هذا التدخل إلى تمييع الدعوة أو تقوقعها. أو دخولهـا في متاهـات، أو غلبـة العناصـر الذاتيـة والعوامل المادية عليها. ولو أحسـنت السـعودية وأرادت بمعوناتها وجـه اللـه لقـدمت مسـاعدتها دون تـدخل في إدارة أو سياسـة الـدعوة، ولوجَّهتها نحـو إقامـة المبـاني أو تـدعيم النشـء والترجمة. وقـد يكـون هـذا عسـيرًا، ولكنـه على الأقل حدث في حالة نعلمها قدمت فيهـا رابطـة العـالم الإسـلامي مسـاعدتها لهيئـة إسـلامية، وانتهت علاقتها دون أي تدخل أو متابعـة لنشـاط الهيئة.

* * * *

في ختـام هـذا الفصـل عن جريـرة السـلفية الـتي هي القاسـم المشـترك الأعظم على الدعوات الإسلامية..

قـد يتسـاءل قـارئ "لمـاذا هـذه المـرارة أو الحدة في نقد السلفية..؟؟

والرد أولاً: إنه لحساب الحقيقة. وهي بعد أقل من النـــبرة الـــتي يســـتخدمونها تجـــاه من يخـــالفونهم، إن لم يحكمـــوا عليهم بـــالردة ويستحلُّوا دماءهم..

وثانيًا: لأنه لحساب الفكر والعقل، فمن الغباء أن نكون سلفيين نسير وراء ابن تيمية، في حين أن من الممكن أن نكــون قرآنــيين، محمــديين نسـتلهم القـرآن ونأخـذ الأسـوة عن الرسـول، والغباء يجب أن لا يدلل ويتسامح معه..

وأخـيرًا فلأني تـابعت بنفسـي انتشـار وشـيوع الدمامة والغفلة والاستخذاء والعقلية النقلية جنبًا إلى جنب انتشار وشيوع السلفية.

ونحن نؤمن أنه حيث يكـون الإسـلام، يكـون العقــل والحريــة، والجمــال والإقــدام، والخــير والسلام.

* * * *

الفصل السادس
دعوات إسلامية صاعدة

تمهيد

شهدت الثمانينيات ظهور دعوات إسلامية وثَّابة تتسم بقدر من الحيوية والفعالية، ويقف بعضها ما بين الدعوات الإسلامية الكلاسيكية (الأخوان والجماعة الإسلامية)، وما بين الصورة المنشودة للدعوة الإسلامية، وقد يبدأ بعضها حيث إنتهى الأخوان..

وقد لا نُعدم خيوطًا من التأثير بأفكار "الرافضة الجديدة" أو بقايا أدعياء السلفية تجري بين أنسجة بعضها.

ومعظم هذه الدعوات تخوض معركة مريرة مع الدعوات الأخرى أو مع النظم الحاكمة..

وسنعرض هنا لخمس دعوات منها اخترناها لأنها أبرز الدعوات على الساحة، ولأن لنا معرفة ببعضها يُخوَّل لنا الحديث عنها بحكم اللمس والخبرة، وهذه الدعوات الخمس هي:

الجبهة الإسلامية في السودان.

جبهة الإنقاذ في الجزائر.

دعوة الشوريين التعاونيين في اليمن.

دعوة النهضة الإسلامية بتونس.

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

أ- الجبهة الإسلامية القومية في السودان

تعد الحركة الإسلامية في السودان التي تقودها الجبهة الإسلامية من أهم وأرجح الحركات الإسلامية المعاصرة، فضلاً عن الأهمية

الخاصة للسودان بصفته الدولة التي تحمل الإسلام والعربية إلى أعماق القارة الأفريقية.

وقد تضافرت عوامل عديدة لأن تنجح الحركة، ولأن تقطع شوطاً لما تقطعه معظم الحركات الإسلامية الأخرى..

من هذه العوامل ما يتعلق بالسودان نفسه، ومنها ما يتعلق بظروف الدعوة، ومنها ما يتعلق بقيادتها.. فالسودان بلد مسلم.. ظهر إلى الوجود كدولة مستقلة بفضل ثورة المهدي وتحت رايات تحمل شعار: "لا إله إلا الله" وهو نفسه الشعار الذي دوَّى بعد ذلك بمائة عام تقريبًا، عندما أراد السودان أن يعلن هويته الإسلامية في المسيرة "المليونية" كما أطلق عليها ابتهاجًا بتطبيق الشريعة[1].. وعلى أعلام المهدية – كما في هتافات المسيرة – لم يكتب أو يرتفع سوى: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".. رأينا ذلك بأعيينا وسمعناه بأذاننا([2]).

وكان من حسن حظ السودان أنه لم يعرف "البيروقراطية " والمركزية التي تمثلت في جارته الشمالية..

فقد حال دون ذلك انفساح الأرض، والاعتماد على الأمطار، وأن الرعي كان أغلب من الزراعة..

فلم تظهر النظم المركزية، أو طغيان السلطة وإنما: العرف، والعفو، والتلقائية.

---

1 (?) وهي المسيرة التي نظمها النميري احتفالاً بمرور عام على تطبيق الشريعة، وأطلقت عليها الصحف السودانية هذا اللقب. بعد أن قيل أنها ضمت مليونًا من السودانيين.

2 (?) رأيناه على رايات المهدية المحفوظة في المتحف، وسمعناه خلال حضورنا للمسيرة.

كما لم توجد في السودان "المؤسسة الدينية" التي تبسط نفوذها على الإيمان، كالأزهر في مصر، والمراجع والحوزات في إيران، وإدارة الفتوى في السعودية.. إلخ.

وإن كانت قد رزقت أسرتين اكتسبتا قداسة دينية وطاعة صوفية..

وكان يمكن أن يقفا في طريق الدعوة الإسلامية الناشئة، ولكنها - بكياسة - حيَّدتْهُما كما يقولون..

أو أن الأسرتين لم يريا من الحكمة أن يناطحا الحركة أو يدعاها تنطحهما.

ومن الظروف الخاصة بالحركة الإسلامية في السودان أنها وإن تخلفت شيئًا عن الحركة في مصر، إلا أنها رزقت وجودًا متصلاً ونشطًا من الخمسينيات حتى الآن.

وكانت في فترات المحن "تكمن" وتعمل تحت الأرض ولا تسمح للسلطة بضربها، وكانت في هذا تشبه الشيوعيين الذين يعملون تحت الأرض أكثر مما يعملون فوقها، ولعلها تعلم هذا الدرس منهم.

وكان وجود حركة شيوعية نشطة في السودان من العوامل المؤثرة على الحركة الإسلامية السودانية، ولم يكن هذا الأثر سيئًا كله.

وتميزت الحركة الإسلامية في السودان بأنها وهبت قائدًا عمل منذ أن كان طالبًا في الصفوف حتى دفعته مواهبه لأن يكون "الربان" الذي يمسك بدفتها ويديرها بحكنة واقتدار،

وتوفرت فيه الثقافة المدنية والفقهية، فضلاً عن التجارب الطويلة والمريرة مع الأحزاب والحكام والشيوعيين والهيئات الإسلامية الأخرى.

وندعو الله أن يوفقه في مهمته بحيث يخلص من (الموج)، و (السراب) وهما اللذان يوقعان بكل ربان لم يرزق الحنكة والتوفيق.

وقد سجل مسيرة الجبهة في كتابه "الحركة الإسلامية في السودان" الذي استعنا به في بعض ما جاء في هذا الفصل.

* * * *

ظهرت بداية الحركة في الخمسينيات – كثمرة من ثمرات الأخوان المسلمين – على أيدي طلبة كانوا يدرسون بالقاهر، وبفضل الدعاة الذين أرسلهم الأخوان المسلمون إلى السودان، وحملت الحركة اسم "الأخوان المسلمين" وكان هذا نوعًا من التوفيق، إذ قدم نواة سليمة (وكان يمكن أن تتخبط الحركة الوليدة قبل أن تصل إليها) وأضفت عليها بعض صفاتها: كالمرونة، والاعتماد على الطلبة، والتأثر بعاطفة "الحب في الله"..

وأدى ذلك إلى ألاَّ تتأثر الدعوة الناشئة بهواجس الاستقلال، ولا بنوازع الاستتباع فهذه لم تكن واردة.

ولكن الوارد كان تكييف هذه النواة بما يتطابق مع أوضاع السودان لأنه هاجس موضوعي يتطلبه الوضع.

وقد أدى الاختلاف في الاجتهادات لظهور مجموعتين:

أقلية: تمسكت بالصورة والمضمون الأخواني.

أغلبية: سارت بالنواة والبدايــة بحيث حققت قـدرًا من الحفـاظ على الثـوابت والتجـاوب مـع المتغيرات، وانتهت بعد تجارب عديدة لأن تحمل اسم "الجبهة الإسلامية" مما قد نعرض لـه فيمـا سيلي.

وكانت المراجع الفكرية للدعوة الناشـئة هي كتابـات "حسـن البَنَّا"، و "المـودودي". وعنـدما وصـل فكـر "سـيد قطب" لم تستسـغه الحركـة السـودانية واكتشـفت – بتلقائيتهـا - مـا فيـه من تعسف في تكييف الدعوة، وفي أسـلوب حملهـا فلم يرزق شيوعًا.

وعندما ابتليَ السودان بـأول حكم عسـكري [1] تداعت إلى ذهن الحركة السودانية انعكاسات الحكم العسكري في مصر رغم الاختلاف الكبـير بينهمـا: فـالفريق عبــود (دُعيَ) تقريبًـا للقيـام بانقلابه من السلطات الدستورية الحاكمة.

وأدَّى هذا إلى أن: (تكمن الحركة كمونًا حادًا لأول عهد حتى كادت تجمد نفسها)..

ولكن الانقلاب لم يكن ضاريًا؛ فترك الحركـة في كمونهـا، وسـمح للطلاب بقـدر من الحركـة والعمل بحكم الحصـانة الجامعيـة، وكـان روادهـا من طلاب الخمسـينات قــد تخرجــوا وأصــبحوا يشــــغلون المناصــــب في الحكومــــة والإدارة والجامعات فتولوا قيادتها.

---

1 (?) الفريق عبود عام 59 - 1964

وكـانت قيـادة شـبه جماعيـة بحكم تسـاوي القدرات، وعدم وجود "شيخ" كبير يفـوقهم سـنًا وتجربة.

وتبـدت أمـام الحركـة للمـرة الأولى قضـايا مثل: جدوى الأسلوب الـتربوي – ماهيـة الحركـة وهل هي هيئة للضغط السياسي أم حزبًـا يطلب السلطان؟ العلاقة بالسياسة وبالقوى السياسية.

وانتهت هذه القضايا المختلفة إلى مراجعات دستورية فصلت فيها القضايا المختلفة[1].

وفي عهد ثورة أكتـوبر (64 –ـ 69) وعـودة الحكم الحـــزبي انطلقت الحركـــة من كمونهـــا وجاءت الانطلاقة من الطلاب، وطمحت الحركـة لأن تصبح محورًا لولاء شعبي منتظم لأول مــرة: فأقامت "جبهة الميثاق الإسلامي" مؤسسة على منهـاج مكتـوب وضـعته الجماعـة وجمعت حولـه الجماعات الإسلامية والأفراد في حركة سياسـية موحدة، كما أقامت تنظيمات للشـباب والنسـاء، واحتفظت في الوقت نفسه بقدر من الاستقلال.

وحــدث في هــذه الفـترة مــا أراح الحركـة الإسلامية – مؤقتًا – من عـدوها اللـدود (الحـزب الشيوعي): ففي ندوة أقيمت لمناقشة موضــوع البغاء توقح أحد الشيوعيين فقال: إن البغاء كان يمارس في بيت الرسول!!

فانــدلعت ثــورة الجمــاهير، ولم تهــدأ حــتى اقتلعت الحزب الشيوعي وتوصلت إلى حله.

---

1 (?) "الحركة الإسلامية في السـودان" للـدكتور حسـن الترابي ص 28 وما بعدها.

"وفي أخريات هذا العهـد اسـتفحلت الثنائيـة في الحركة بين التنظيم الـداخلي وبعض جبهاتـه الخارجية، ولاسيما بين ما في الجبهـة من معـانٍ تربويـــة وسياســـية متقابلـــة، أو من قيـــاداتٍ مشهورة وأخرى مغمورة، وأدت هذه الثنائية إلى خلافات حادة اتخـذت صـورًا تنظيميـة وشخصـية هزت كيان الجماعة هزًا شديدًا، وانتهت بهــا إلى الجمـود في الحركـة العامـة في أواخـر العهـد، ولكنهـا على الأقـل أثـارت قضـايا القيـادة مـرة أخرى بين قيادة جماعية أو فردية، وأثارت قضية التوازن بين التركيز التربوي لقاعدة جماهيريـة – وكيفهـا والانتشـار الـدعوي والسياسـي لصـفها وولائها وكمِّهـا – وأثـارت قضـية الاجتهـاد الـذاتي للحركة وعلاقاتهـا بالحركـة الإسـلامية العالميـة، وقد استقرت الأمـور في النهايـة إلى مراجعـات في الدسـتور في آخـر هـذا العهـد توحـدت بهـا الجماعة وحسمت خلافاتها".

واتسـمت الفـترة من 69 –ـ 77 بقـدر من المجاهدة مع حكم نميري (أو نظام "مـايو" كمـا يقول السودانيون) الذي جاء على أسـنة الرمـاح وبدعم شيوعي.

وتحـالف هـذان على الإسـلام وظنَّا أنهمـا سيقضـيان على الحركـة! وهيهـات فقـد أبـدت الحركـة معارضـة قويـة تجلت في اعتصـامات جامعة الخرطوم والتعاون مع الأنصار عندما أغار عليهم "نمـيري" وسـلط عليهم الطـيران في مجزرة "جزيرة أبا"..

وأعقب هذه العـداوة مصـالحة خلال الفـترة من 77– 84:

فقـد كـاد نمـيري أن يفشـل وانقلب عليـه الشيوعيون وكادوا أن يودوا بـه؛ فتـذكر الحركـة الإسلامية التي أراد أن ينكـل بهـا ومـا أبدتـه من صلابة، فأقام معها نوعًـا من المصـالحة – كـانت مصـالحة على دخن – فالجبهـة لم تنس ماضـية، وهو – أيضًا – لم يبتغ بها وجه الله.

فأصبح كل واحد حليفًـا لـدودًا للآخـر يـتربص به.

وإن كان كل واحد قد كسب منها: فاسـتبقى نميري نظامه المنهـار لفـترة مـا، بينمـا انتهـزت الحركـة الإسـلامية الفرصـة فمكنت لنفسـها، وأحسـنت اسـتغلال الـوقت والإمكانيـات، وكـان أبرز ذلك: إقامة اقتصـاد إسـلامي سـاند الحركـة دون ريب، وترسيخ الحركة وتـدعيمها بقطاعـات من التنظيمات الطلابية والنسوية والعمالية.

"وأعـدت نظم لا مركزيـة، ورتبت سياسـات التطبيق وأولياتها، ودربت العناصر لتولي تبعاتها، سوى أن الخطة لم تنفذ إلا في هـذا العهـد لأنهـا كـانت تحتـاج لبعض حريـة ولتهيئـة القاعـدة وتوسيعها لاحتمالات اللامركزية"[1].

وكـان الفصـل الأخـير والحاسـم في هـذه الفترة هو: "تطبيق الشريعة الإسلامية".

وقد انساق نميري إليهـا نتيجـة لازديـاد المـد الإسـلامي، فـأراد أن يكسـب الشـعبية ويجـرد حلفاءه (الجبهة الإسلامية) من ورقتهم الرابحة.

وكـان النكث بحلفائـه من خصـائص حكم نميري: فأعلن تطبيق الشريعة وسكب في النيل زجاجات الويسكي الثمينة وأقام محاكم الشريعة الناجزة، ولم يشرك حلفاءه في هذه المبادءات.

---

1 [(?)] المرجع السابق ص 304

ولم يكن حلفــاؤه (الجبهــة) حريصــيين على الظهور، لأن التجربة – وإن كـانت من المطـالب الرئيســية لهم وحققت بالفعــل بعض أهــدافها فاستتب الأمن وأغلقت تلك المحال الـتي كـانت تــبيع الخمــور الرخيصــة الضــارة وكـانت تكتــظ بروادها – إلا أن تطبيقها اتسم بشيء من العجلة فَوَّتَ بعض مقاصد الشريعة التي يعلمهـا الفقيـه ويجهلها الحاكم.

وبعد مـرور عـام على التجربـة أقـام نمـيري مؤتمرًا دوليًا دعا إليه ممثلي الدعوات الإسـلامية في العـالم ليشـهدوا شـعبيته فيمـا أطلـق عليـه "المسيرة المليونية".

وكانت دليلاً لا يـدحض على تمسـك الشـعب بتطبيق الشريعة وحماسه لها..

ولعل نميري قد تطـرق إلى نفســه شــيء إذ لم يسمع هتافًا واحـدًا لـه، أو كتابـة على يافطـة سوى:

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله"

وتبين بعد هذا أن هـذه المسـيرة الرائعـة لم تكن من تنظيم اتحـــاده الاشـــتراكي، ولكن من الإسلاميين.

فجن جنونه، وانقلب على الجبهة الإسـلامية، وأشــبعها تنديــدًا وتقريعًــا، أعــاد إلى الأذهــان تعبيرات عبد الناصر وحاشيته على الأخوان..

ثم انقض على قـــادة الجبهـــة وزجَّ بهم في السـجون، متصـورًا أن يفعـل في السـودان مـا فعله عبد الناصر بالأخوان في مصر!

ويأبى الله، ويأبى شعب السودان..

فقد كانت الحركة قـد دعَّمت قواهـا بقواعـد شـــعبية منظمـــة تحـــركت فـــورًا وتفـــاقمت المظاهرات والإضرابات.

وقادتها نقابة الأطباء ذات التوجه الإسلامي.

وكان نميري قد عين المشـير عبـد الـرحمن سوار الذهب قائدًا عامًا للجيش قبـل أن يمضـي لإحـدى جولاتـه الخارجيـة، ولمـا جُوبِـهَ المشـير سوار الذهب بالجماهير الهادرة وأريد منه قمعها رفض أن يأمر الجيش السـوداني بضـرب شـعب السودان.

وكانت تلك نهاية نميري:

فقد أعلن سوار الذهب فـترة انتقاليـة لمـدة سـنة يشـرف فيهـا الجيش على السـلطة حـتى ينتخب الشعب ممثلين له.

وأجـريت بالفعـل انتخابـات عامـة حـرة في الميعـاد المحـدد، وسـلم المشـير سـوار الـذهب السلطة للممثلين الشعبيين في سابقة لم تُعهـد في العسكريين..

ومن سـوء الحـظ أن رأس هـذا العهـد زعيم حزبي اشتهر بالمناورة والسياسـة الحزبيـة، ولم يكن الوقت هو وقت المناورة الحزبية..

فسـاءت الأمـور حـتى اضـطر الجيش فيمـا سُمي "ثورة الإنقـاذ الوطـني" بعـد أن تـدهورت الأمور تدهورًا لا يمكن السكوت عليه.

وقد عرض الدكتور حسن الـترابي لبعض مـا تعرضـت لـه الحركـة الإسـلامية بالسـودان من مآزق، وكيف خلصت منها فقال:

".. من بعـــد الوقـــوف عنـــد المطلقـــات والمجردات والعموميـات والعالميـات في دعـوة الحركة وفكرها، تطور بهـا الأمـر نحـو الواقعيـة، فـالتطور المضـطرد في وظـائف الحركـة نحـو التحامها بشـأن المجتمـع تطـور بهـا من الهمـوم الخاصـة إلى همـوم المجتمـع وإلى التفاعـل مـع قـواه الفاعلـة فتطـور خطابهـا من الإلقـاء بـه مجردًا عامًـا من بعيـد إلى تصـويبه على حاجـات المجتمع وأوضاعه وقطاعاته.

ومن بعــد التعويــل على الفكــر الــوارد من الأدب الإسلامي العالمي، اضـطرت الحركـة إلى التفاعل الفكري مع الواقع المعين، فغـدا فكرهـا من ثم موصولاً بالمكان والزمـان، أي بالسـودان وبقضــاياه المحليــة أو بالقضــايا العالميــة كمــا تنعكس أصداؤها فيه. ومن ثم غدا فقههـا للـدين علمويًـا واسـتقرائيًا يتبصـر الواقـع ويرسـم في ضـوئه الخطـط والتـدابير العمليـة، بـل يعتمـد التجـريب ليتـبين مـا هـو أوفـق في سـياق ذلـك الواقع.

وبدأ الفقه لديها – من بعـد التنطـع النظـري والتحكم القطعي والعموم – ما هـو ميسـور في طرح قواعـد الـدين الكليـة، يتجـه نحـو المرونـة ويتصوب نحو الأوضاع الراهنة والقضايا الحادثـة، ويتكيف حسب وجوه تطوراتهـا ووقـائع تقلباتهـا، ويتنزل على دقائقها مفصـلاً تفصـيلاً. وإذ لم يعـد كله خطاب دعوة وجدل يـورث الإقنـاع أو وعـظ يجيش عاطفــة الإيمــان – اكتســب صــفة من الموضـوعية ومن خطـاب البيـان الـذي يشـرح ليهدي العمل وليمهد لتطبيق الأحكام.

فمن القضــايا العمليــة الــتي أثارهــا تــاريخ السودان وتناولها فكـر الحركـة متفـاعلاً بتوجهـه ومنهجــه مــع الواقــع: تصــور دســتور إســلامي للسودان [1956 –ـ 1965 م]، وكيفية تحريـر المرأة المسلمة ونهضتها بالســودان [1974م] ومشروع نظام للمعاملات الاقتصـادية الإسـلامية [1977 م]، وسياسة تطبيق القوانين الشرعية [1983 م]، واقــــتراح لعلاقــــات الجنــــوب الســوداني وأوضــاع أهلــه من غـير المسـلمين [1986 م]، والتصــــور الــــديني لتعــــاطي الفن الحديث [1982م]، وفقــه السياســة الشــرعية في العلاقــــات الخارجيــــة وفي شــــئون الأمن والدفاع فيما يخص السودان [1987 م].

ولعــل من آثــار اتجــاه فكــر الحركــة نحــو الواقعية والفعلية أنه أصبح فكرًا حركيًـا لا يعـني كثيرًا بالمنـاظرات. فمهمـا ظـل محتاجًـا للحـوار النظري مع اليسـاريين والليبرالـيين في القطـاع الحديث من الحياة، وأصبح بعد أن اتصل بســواد المجتمع مواجهًا بشيء من الإنكـار والجـدال من التقليديين – إلا أنه عـزف تمامًـا عن الـدفاعيات والتـبريرات والاعتـذاريات الأولى حـتى أن بعض المراقــبين لاحظــوا أن الحركــة في الســودان اشــــتطت زهــــدًا في الحــــوار النظــــري مــــع الأطروحات التي تشاركها السـاحة العامـة. ومن تفهموا اجتناب المراء مع السـلفيين والصـوفيين والعلمــاء في ســبيل تــأليف الجبهــة المســلمة الحساســة للنقــد لهم، لم يفهمــوا كيــف تكــف الحركة عن التيارات المتجهة للمروق من الملــة كالشيوعيين المنكـرين للـدين وبعض العلمـانيين

المنكـرين للشـريعة، واتبـاع محمـود محمـد طـه المتنبئ برسالة ثانية ناسخة لشريعة الرسـول ﷺ. ولكن الحركـة اسـتخفت بهـذه التحـديات مهمـا كانت مثيرة في ذاتها – تقديرًا لكونها في الواقـع لا تمثـل كبـير خطـر ولا ضـرر ولا تسـتحق أن تنصرف إليها الحركة بالجدل وتنشغل عما يجدي من تجاوزها بالحركة العملية في واقع المجتمع.

ومن صور المنحى الواقعي في فكر الحركة أنهـا آثـرت التفكـر على التفيهـق، والمشـاورات على المجادلات. فهي لا تجنح للتشقيق النظـري للقضـايا الخلافيـة، ولا لإلقـاء الفتـاوى الفقهيـة الحاسمة، بل تطرح أحكام الشرع كأنها خيـارات موازيـة متراجحـة، ثم تبسـط حقـائق الواقـع بتقديرات استقرائية مرنة ثم تدير الشورى حول ماهر مقتضى الدين في الموقف الراهن أو الأمر الحادث.

وقد سلِمَتْ الحركة الإسلامية بالسـودان من علة التنظيرية المفرطـة الـتي أصـيبت بهـا بعض الحركـات الـتي تقـل مفعولاتهـا وتكـثر مقولاتهـا فتكـاد تعيش إسـلامها كلـه نظـرًا وفكـرًا. وقـد تعرضت الحركة ثم سـلمت من اتجاهـات كثـيرة راودتها نحو الإيغال في التفيقـة والولـع بتعـاطي الفقيهات التقليدية لأكـثر ممـا يسـتدعي العمـل. ومن أمثلـة ذلـك أنـه عنـدما كُبت النشـاط السياسـي والتنظيمي في عهـد "مـايو" فـرغت عناصـر من طلبـة الحركـة للتتلمـذ على آخـرين فرغـوا للعكـوف على كتب الفقـه والتبحـر في اختصاصـها، حـتى زيَّن لهم أن الـدين كلـه في احتمال الفقه المكتوب وتناقله، وأن تدبير شـأن

الحركة جميعًا يرجع إلى فتاوى من نصوص ذلـك الفقه، وأن ما خـرج[1] من المتن والشـارح ليس يُرجى منه صالح، وأن مـا ليس في حـرف النص الظـاهر ليس وراءه طائـل، فنشـأت مدرسـة فقهيـة تقليديـة بمشـيختها وتلمـذتها وأنماطهـا وآدابهـا المعهـودة، وبلـغ بهـا العجب بأمرهـا أن تمثلت نفسها السلطة الدينية الحقة الـتي يمكن أن تتحدى مختلف الأطر التنظيمية في الجماعـة وأن تزدهر سائر المهـام الحركيـة الراتبـة، ولكن أمرها تلاشي بعد سنوات الكبت.

وفي تقييمه العام للحركة قال:

ويمكن أن يحاسـب المـرء الحركـة بعمرهـا الممتد لنحو أربعـة عقـود، فيحكم بأنهـا قصـرت عن بلـوغ مـا كـان يمكن من التمكن. ويمكن أن يتعزى عما فاتها بما أدركته من كسب يقدر حين يقاس إلى مبلغ القوى المنافسة لها في الساحة الوطنية، أو إلى نيل القوى الإسلامية المثيلة في الساحة الإسلامية العالمية.

فقد عمرت الحركة أصول التدين ومدتها في السـودان فصـوبت ونشـرت المفهومـات والمعلومـات الدينيـة، وأحيت شـأن القـرآن والسـنة، وعمـرت المسـاجد وأقـامت الشـعائر، وقومت الأخلاق وأشـاعت الالـتزام في السـمت والسلوك، ونشرت الدعوة إلى ملة الإسـلام. ولا يضـارع وقـع الحركـة في ذلـك بـالطبع رصـيد حركـات العلم والتصـوف والجهـاد السـالفة في المجتمـع التقليـدي، ولكن مغـزى الحركـة كـان كبيرًا جدًا في حفظ التدين في القطـاع الحـديث المتعرض للفتنة والرائد لنمط النهضة. فقد ثابَتْ

---

1 (?) كذا بالأصل ولعلها عن.

الحركـة بغـالب طلاب العلم الحـديث إلى الـدين وصرفَتْهُم عن مصير المسخ والاستلاب والفسق والإلتهاء إلى الأصالة والاستقامة والجد والعطاء. كما آبتْ بالنساء إلى الدين بعد الغفلة، وعتقتهن من أسـر الأعـراف وألهمتهن اسـتقامة ورسـالة إيجابية في الحياة بعد خطر الفتنة والضياع. وقد هيأت الحركـة عامـة المجتمـع لوجـوه من حيـاة التدين في الإطار الحـديث. فقـومت من أصـول الولاء الـديني الـتي أفسـدته الطائفيـة، ووحـدت بالإسـلام شـيئًا مـا بين العامـة والمثقفين الـذين كادوا أن يغتربوا عن مجتمعهم ويغـادروه شـقين متجانسـين. وطـورت الحركـة صـورًا جماعيـة منهجية حديثة تجسد التقاليـد السـابقة في فعـل الخـير وعمـل الصـالحات على صـعيد الفـرد والإطـار المحـدود، ووجوهًـا حضـرية متطـورة لأنماط التدين وأعرافه السـاذجة القديمـة. وقـد بسـطت الحركـة ثقافـة عامـة بعلـوم الإسـلام، وطرحت فكرًا توحيديًا تجديديًا واجتهادات نظرية وعملية مؤصلة ولكنه ما انفكت عاجزة أن تقاوم عقابيل الموروثات الجامدة والمجلوبات الفاتنـة، ولم تبلـغ من آثـار تعميـق فكرهـا وتعميمـه مثـل شأن المذاهب الفقهية في ماضي المسـلمين أو المـذاهب الوضـعية في حاضـر العـالم. بـل إن مستوى النظر التجريدي والتطـبيقي في فكرهـا ما زال قاصـرًا، ومـدى التحريـر والنشـر مـا زال حاسرًا، بالنسبة إلى المنافسة الفكرية والحاجـة العملية القائمة، وقد سبقت الحركة في الاهتمام بشئون الاقتصـاد بينمـا انحبسـت غـالب حركـات الإسلام في الثقافة والتربيـة السياسـية وزهـدت وفرطت لغيرها من القـوى في تصـريف العامـل المـادي في التـاريخ لكن الحركـة لمـا تولـد من

همومها الاقتصادية فقهًا واقعيًا وافيًا لمسائل التنمية والعدالة، ولا قوة كافية للاستصلاح والاستغناء والاستقلال الوطني. وربما عُد كسب الحركة السياسي جليلاً بما طورت من أساليب الدعوة والتعبئة والمناصحة والمنافسة والمشاركة والمعارضة والمصالحة والمجاهدة والتدبير الأمني والتخطي السياسي بل يمكن أن يدَّعي لها المرء أنها كسبت من الخبرات وبسطت من السياسات وبلغت من النضج والنفوذ ما لم تقاربه حركة إسلامية أخرى. ويمكن أن نذكر بعض ما تحقق بذلك الجهد السياسي الفعَّال. فأول تصدياتها السياسية كانت للحركة الشيوعية واليسارية التي كانت تستشري بقوة مخوفة أن تتمكن من قيادة السودان كما تمكنت من بلاد مثله. ولكن الحركة الإسلامية استخلصت ناشئة السودان من الشيوعية واستنقذت البلاد من غائلة التسلط الشيوعي. ثم تصدت الحركة للنظام اللاديني الموضوع على السودان فزلزلت أصول اللادينية السياسية التي يستصحبها وفرضت شعار الإسلام في الدستور والقانون والنظام العام مهما أعياها إلى الآن أن تجعل الشريعة الإسلامية هي فعلاً أساس السلطان الحياة العامة. وقد قامت الحركة في أواخر عهدها تحاول إرساء أساس جديد للوحدة الوطنية في وطن مزقته العصبيات العرقية والطائفية والجهوية، وتحاول حماية هويته الدينية والثقافية وحرمته الإقليمية من هجمة شرسة تستهدف ملته ولغته وقوته ووحدته واجتياح أطرافه واستلاب سيادته. ولم ينحسم بعد مصير السودان توحدًا واستقلالاً، ولكن الحركة لم

تــركن كغيرهــا للغفلــة والعجــز، بــل قــدمت مشروعها لإنقاذ البلاد بمدِّ قاعدة للولاء القــومي الجـامع، واقـتراح معادلـة للتوفيـق بين الوحـدة والتعدد واتخاذ مواقف للعز والدفاع الوطني.

ولم يحتبس أثـر الحركـة في أفقهـا المحلي، بل تعـداه إلى آفـاق العـالم. فقـد كـانت تقتـدي بنماذج الدعوة والتربية والتعبئة والفكر والتنظيم والجهـاد في صـحوة الإسـلام العالميـة وتعتـبر بتجاربها، فأصبحت بعد الاجتهاد مثالاً مستقلاً بين الحركــات الإســلامية في العــالم ينكــر منهــا ويرضى، ثم انقلبت بعـد الاسـتواء قـدوة مقـدرة صلاتها عامرة وتأثيراتها ظاهرة في كـل السـاحة الإسلامية. ولئن لم تصبح بعد دولة كاملة تضـارع الدولة، فإن تفاعلاتهـا العالميـة ميزتهـا عن كثـير من الحركات وجعلت لها وزنًـا وحسـابًا محسـوبًا لدى الدول" انتهى.

هذا تقييم عادل يذكر الإيجابيات والسلبيات.. ومقارنـة موقفهـا من الفقـه الإسـلامي بموقـف حزب التحرير يوضح الفرق الشاسع بين موقــف "يتفهم" روح الفقـه ويحسـن توظيفـه، وموقـف يلتزم بنص الفقه، ويسمح له بتقييده.

ونرى أن الحركة الإسلامية في السودان قـد وصلت – بقيادة الجبهة الإسلامية – إلى آخـر مـا تسمح بـه السـلفية الأصـولية، ولـو جـاوزت هـذا المدى لما ظفرت بالتفهم.

والتنظير المجرد الذي يستهدف المستقبل لا الحاضـر هـو الـذي يضـع المعـالم للحركـة لتبـدأ مرحلـة جديـدة لا يكتفي فيهـا "بإصـلاح" أصـول الفقه، ولكن بالبحث عن فقه جديد للواقع الــذي

تعيشه أمتنا كما عاش الأئمة والصحابة ظـروف وواقع أزمانهم..

وهذا كلـه لا يسـمح بـه الفهم السـائد الآن.. .[1]

مقارنة:

ومقارنـــة عمـــل "الجبهـــة الإســـلامية" في الســـودان بعمـــل المدرســـة الأم "الأخـــوان المسـلمين" في مصـر توضـح لنـا كيـف أنقـذت الجبهة الإسـلامية بإيجابياتهـا وفعاليتهـا المجتمـع السوداني من التدني إلى درك الفساد والتحلـل، بينما سمحت سلبية واستخذاء الأخوان في مصر بازدهار الفساد وسيادة الإدعاءات والزيـوف من كل نوع وفي كل ناحية، وظهور "مافيا" تحميهـا، وهيئـــات ضـــغط، ومنتفعين كلهم يعملـــون لمصـــلحتهم الخاصـــة بحيث تقطب المجتمـــع المصـري بين قاعـدة شـعبية مطحونـة لا تبلـغ أجهــزة الإعلام ولا تســمع صــوتها وليس لهــا قواعدها المنظمة التي تتحرك..!

---

1 [?] نعتقـد أن من الأمـور الهامـة أن تنشـر الجبهـة الإسـلامية في دراسـات مسـتقلة معالجاتهـا للقضـايا التي تعـرض لكـل الـدعوات الإسـلامية حـتى تفيـدها بثمرات تجربتهـا وخبراتهـا، خاصـة وأن معظمهمـا لم يحسم، كقضية التربيـة ودورهـا في الـدعوة، وقضـية هل الحركـة الإسـلامية هيئـة ضـغط أو حـزب حكم؟، وقضية العلاقات فيما بينها وبين الأحزاب الأخـرى، أو الحكم وهل تـدخل في تحـالف ومصـالحة أو تـرفض، ثم أخيرًا قضـية تطـبيق الشـريعة ومـا أسـفرت عنـه التجربة السودانية ..

هذه كلهـا قضـايا خاضـتها الحركـة الإسـلامية في السودان وعانتها وتصـدت لهـا بـأكبر ممـا حـدث في معظم الحركات الإسلامية الأخرى.

وبين "شللية" المصالح المكتسبة التي وضعت أيديها على مراكز النفوذ في المجتمع وترفع زيوفها في جرأة وصفاقة!..

صحيح أن مصر ليست كالسودان؛ فمصر في وسط العالم وملتقى ثقافاته، وقد ابتليت بالناصرية التي أفسدت كل شيء، وخلفت ذيولاً وقلبت المعايير والمقاييس.. إلخ.

مع تقديرنا لهذا فإن الأخوان كانوا يستطيعون على الأقل كبح جماح الفساد المستشري والمفتري..

الجبهة ونظام الحكم القائم:

لا يمكن إنهاء الحديث عن الجبهة الإسلامية دون الإشارة إلى علاقتها بنظام الحكم القائم..

ولا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الجبهة وبين ضباط "ثورة الإنقاذ الوطني".

وقد كان لدى الجبهة الحنكة التي أوجدت هذه العلاقة قبل الانقلاب، واحتفظت بها، وتسترت عليها بعده ولمدة عامين تقريبًا من قيامه.

وبالتالي فإن نظام ثورة الإنقاذ الوطني محسوب عليها إلى حد كبير..

فهل يمكن اعتبار هذا الحكم إسلاميًا؟

وقد يقال قبل الحكم عليه بمعيار إسلامي: هل كان من الضروري أن تأتي "الثورة" في صورة انقلاب عسكري يقوم به ضباط؟.. رغم المَثُلات السيئة التي مر بها المجتمع الإسلامي من حكم الضباط.

هـــذه ناحيـــة لا نعالجهـــا لأنهـــا أقـــرب إلى الأكاديمية التي لا يتسع لها المجال..

وقد يكون هناك من الظروف ما ألجأ الجبهة إلى هذا الخيار الصعب..

والمهم - في الملاذ الأخـــير – هـــو سياســـة الحكم، وليس زي الحكم: وهـــل هـــو "عبـــاءة فضفاضة" أو "بدلة كاكي"!..

وفي نظام الحكم السوداني القائم إيجابيات كثيرة، وقـد أنقـذ السـودان من حكم المنـاورات الحزبيـــة الـــتي لا تســـتفيد منهـــا ســـوى "شـــلة الحزب" على حساب مصلحة البلاد.

ومع هذا يثور التساؤل:

هـــل أغـــرقت ضـــرورات الحكم مثاليـــات الفكرة؟..

هل طغَى الواقع على المثال؟..

إننـا في الـوقت الـذي نقـدر فيـه الموقـف الصـعب الـذي تقفـه الحكومـة إزاء المـؤامرات الدولية، والظروف السيئة التي تكتنف السودان، فليس من السـهل على السياسـي المسـلم أن يتقبل تقييد الحريات خاصة حرية الصحافة الـتي يمكن أن تحـل محـل "التكتلات" وتقـوم بـدورها في عرض وجهات النظر دون السوءات العمليـة لقيام التكتلات[1].

---

1 (?) كان يمكن للنظام السوداني الحـاكم أن يتعلم من تجربة مصر، ففيهـا حريـة صـحافة أصـبحت متنفسًـا، ولعلها حالت دون الانفجار ولعل النظـام كسـب منهـا أكثر مما خسر.

كما أن تجربة النظام الاقتصادي تستحق وقفات عديدة:

فمع أن الضباط القائمين بالسلطة فعلاً على جانب من التقشف والتجرد، فإن النظام احتفظ بمجموعة كبيرة من أصحاب الأموال والأعمال من تجار أو مصريين ولم يمسهم بفكرة أنهم يمثلون الاقتصاد الإسلامي..

ولم نر فيهم "عثمانًا"! أو "عبد الرحمن بن عوف"! دع عنك "أبا بكر"!! الذي تبرع بماله كله..

وقد اضطرت الحكومة إلى اللواذ بصور من الإجراءات التي تكاد تصل إلى المصادرة..!!

وكان يمكن "بالإيمان" الوصول إلى النتائج المطلوبة..

ولعل التحدي الأكبر أمام النظام والجبهة هو إبداع إقتصاد إسلامي له "الوجه الإنساني" الذي يجب أن يميز الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاد المادي في الرأسمالية، والاقتصاد الصارم في الاشتراكية (الذي ثبت فشله رغم كل الادعاءات).

أما قضية تطبيق الشريعة فقد كان لدى الجبهة من الحنكة والنضج ما تعلم معه أنها ليست بالقضية المستعجلة، على نقيض نميري الذي أراد المزايدة بها وكسب الشعبية..

وقد كان رأينا – الذي عبرنا عنه لبعض الأخوة السودانيين – أنه: إذا كانت قضية تطبيق الشريعة ستؤدي فعلاً إلى انقسام السودان فمن الخير تأجيلها.

* * * *

ب- الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر

إذا لم تستطع الجزائر أن تفخر بماض إسلامي عريق مثل جارتيها (المغرب وتونس)ً، فإنها تستطيع أن تفخر أنها اليوم تقود أكبر وأكثر الحركات الإسلامية طموحًا، وأن شعبها – الذي احتله عدو أوروبي/ صليبي لأكثر من مائة وخمسين عامًا ظن أنه قد قضى بعدها على مقومات الشعب – يعبر اليوم أكثر من أي شعب من شعوب الشمال الإفريقي عن تمسكه الوثيق بالإسلام والعربية.

تلك هي معجزة الجزائر، وقد عودتنا الجزائر أن تقوم بالمعجزات..

فلندع الله تعالى أن يبارك مسيرتها وأن يكلل غايتها بالنجاح والتوفيق.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر بتعلَّةٍ كاذبة وبكيدٍ يهودي/ صليبي عام 1830 م فإنها لم تخف منذ البداية أن هدفها هو القضاء على الجزائر كأمة إسلامية وتحويل شعبها إلى المسيحية ولغتها إلى الفرنسية!.. وحضارتها إلى الحضارة الأوربية!..

وأنها لما كانت أرضًا مفتوحة فلم يعد لشعبها فيها شيء! وعليها أن تكون مستعمرة يحكم فيها سادة فرنسيون!.. ويخدمهم فلاحون وعمال جزائريون جهلة!!.. ولكنهم يتكلمون الفرنسية ويدينون بالمسيحية ويكون وضعهم كوضع السود في الولايات المتحدة قبل حرب التحرير!!!..

وبهـذا تسـتحوز فرنسـا على كـل الحسـنات والمزايا.. وتأمن المتـاعب والقلاقـل.. لقـد كـان من الممكن أن تنجح المــــؤامرة الفرنســـية الصـليبية لـو لم يقـف في وجههـا سـدان همـا: الإسلام والعربية:

فحـاولت فرنسـا أن تهـدم أضـعف السـدين وهو العربية، وكادت أن تصل إلى ذلـك فعلاً لـولا أن اللغة العربية نفسها مرتبطة بالإسلام.

فاللغة العربية لا تساوي شيئًا لولا القرآن.

بل إنها ما كانت لتوجـد اليـوم لـولا القـرآن.. ولحلت محلهـا لهجـات إقليميـة كـان يمكن أن تصبح لغات كما حدث بالنسبة للاتينية..

ولو انقطعت العلاقة ما بين العربية والإسلام لمـا اسـتطاعت صـمودًا أمـام إغـراء اللغـات الأوربية الحية.

فاللغة الفرنسية تتيح للجزائري أن يتكلم مع الفاتحين، ومع أوروبا بأسرها وما يعنيـه هـذا من مكاسب أدبية ومادية عديدة.

ومن هنـا فـإن فرنسـا – وإن اسـتطاعت أن تجعـل اللغـة الفرنسـية هي اللغـة الرسـمية في التعامـــل والتخـــاطب – فإنهـــا لم تســـتطع أن تستأصل العربيـة الـتي لاذت بجيـوب حصـينة لم تكن يد فرنسا لتطولها..

تلـــك هي الزوايـــا والمســـاجد والمـــدارس القرآنية..

فهـذه الجيـوب، أو قـل الحصـون، حـافظت على نـور الشـمعة، وحمتهـا من ريـاح التغـرب العاصفة..

ومن هذه الجذوة المقدسة اشتعلت حرب التحرير..

ذلك أن مؤامرة فرنسا في القضاء على مقومي الشخصية الجزائرية – ألا وهما: العربية والإسلامية وبالتالي إذابة الجزائريين وجعلهم فرنسيين من درجة ثانية أو ثالثة لم تخف على ذوي الوعي الإسلامي من الجزائريين فحرصوا على إبقاء هذين المقومين..

لأن في ظلهما وبفضلهما يمكن أن يظهر الوعي السياسي، ويمكن أن تزدهر دعوة المقاومة.. ولكنهما إذا فُقدا فلن يكون هناك نضال.. ولكن الاستسلام..

هكذا كان يفكر الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما أسس جمعية العلماء، وعندما جعل هدفه حراسة: الإسلام والعربية.

* * * *

عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس في الرابع من ديسمبر عام 1889 م في قسنطينة من أصول تعود إلى المعز بن باديس كبير قبيلة صنهاجة البربرية.

وهكذا أراد الله لداعي العربية والإسلام أن يكون من أبناء الأمازيع، وأن يمهر مقالاته بلقب الصنهاجي.

وأتم حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة، وأَمَّ المصلين في صلاة التراويح في شهر رمضان لثلاث سنوات متوالية في المسجد الكبير.

وبعد أن تلقي العلم على يدي الشيخ حمدان الونيسـي سـافر إلى تـونس، والتحـق بجـامع الزيتونة، وكـان من أسـاتذته الشـيخ الطـاهر بن عاشور زميل وتلميذ الشيخ محمد عبده.

ونال شهادة العالمية عام 1913 م بعد أربـع سنوات وكان سـنه ثلاثـة وعشـرين عامًـا. وعـاد إلى قسنطينة، ولكنه غادرها ليؤدي فريضة الحج حيث التقى هناك بشيخه القـديم الشـيخ حمـدان الونيسي الذي عـرض عليـه الاسـتقرار بالمدينـة المنـورة، والتفـرغ للعلم والأمن من مضـايقات الفرنسيين فرد بكلمته المأثورة:

نحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية في هذا الوطن:

وتعـرف هنـاك أيضًـا على صـديق سيصـبح زميـل كفاحـه، وخليفتـه هـو الشـيخ البشـير الإبراهيمي.

وخلال لقاءاتهمـا العديـدة من بعـد صـلاة العشـاء حـتى صـلاة الفجـر طـوال ثلاثـة أشـهر اختمرت الخطوط الأولى لكفاح الشيخ.

وزار عنـد عودتـه مصـر وسـوريا ولبنـان.. ويغلب أن يكون قد تأثر بأفكار الشيخ رشيد رضا ومجلة "المنار" الـتي كـانت قـد بـدأت مسـيرتها الطويلـة في نشـر علم وتفسـير الشـيخ محمـد عبده.

عاد إلى الجزائر فوجـد الاسـتعمار قـد عـاث فيها فسادًا: فأغلق المدارس، وهدم العربية..

والهيئة الوحيدة التي شجعها كـانت: الطـرق الصوفية التي ركنت إليه.

فوجد قرابة ثلاثمائة وخمسين زاوية يؤمّها مائتان وخمسة وتسعون ألف مريد شعارهم جميعًا:

"من ليس له شيخ فالشيطان شيخه!!؟!"

بدأ ابن باريس بالدراسة في المسجد الأخضر، وتفرع للصبيان مساءً يعلمهم في سرية تامة اللغة العربية والعقيدة الإسلامية..

كان ابن باريس يريد موطأ قد ينطلق منه إلى هدف..

وكان تدريس الإسلام هو أفضل المنطلقات فهو الغاية وهو الوسيلة في ذات الوقت، وقد كفل له قدرًا – ولو محدودًا – من حرية العمل..

فالإسلام بطبيعته يتضمن أساسيات العمل السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي.. وكذلك يتضمن: مبادئ الحرية، والعدالة، والكرامة..

وبهذا يمكن أن يقوم بدور سياسي مؤصل إسلاميًا دون أن يقع تحت حظر وتحريم العمل السياسي..

وفي إحدى المناسبات قال:

- "إننا اخترنا الخطة الدينية عن علم وبصيرة على غيرها، وتمسكنا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا، من النصح والإرشاد وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير على خط مستقيم، ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهرًا، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكننا اخترنا ما اخترناه لما ذكرناه وبيَّنا"..

وهو منطق يدل على سلام التفكير، فهو يأخذ بما يتفق مع فطرة الشعب، ولو نادى بغير الإسلام لما وجد تجاوبًا فطريًا..

ثم إن العمل العام - سياسيًا كان أو غير سياسي – لابد أن يقوم على أساس إيماني لا يتأتى إلا بدراسة العقيدة.

وإذا أرسينا العقيدة فقد أرسينا أسس العمل السياسي، حتى وإن كانت هناك مراحل عديدة يسلم بعضها لبعض: "فطور للتمهيد، وطور لإزالة الأنقاض، وطور في البناء والتشييد". وكدليل على مقدرة الشيخ ابن باديس على ترجمة نص في موطأ مالك ترجمة سياسية رفيعة شرحه لخطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أول خلافته:

"إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق..إلخ"

فإنه استخرج منها ثلاثة عشر أصلاً من أصول الولاية هي:

الأصل الأول: لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة. وهذا مأخوذ من قوله: "وليت عليكم" أي ولاني غيري وهو أنتم.

الأصل الثاني: الذي يتولى أمور الأمة هو أكفؤها لا خيرها (في سلوك الشخص وتقواه) وهذا مأخوذ من قوله: ولست بخيركم: ويعززه قبول أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة إمارة عمرو بن العاص في سرية (ذات السلاسل)؛ وكذلك قبولهم إمارة

أسامة.. وهم جميعًا خير من أسامة وعمرو.

الأصل الثالث: لا يكون أحد بمجرد ولايته خيرًا من الأمة، وإنما يكفل له ذلك أعماله. وهو مأخوذ من قوله أيضًا: "ولست بخيركم".

الأصل الرابع: حق الأمة في مراقبة أولي الأمر لأنها مصدر سلطتهم.

الأصل الخامس: تأييد الأمة الحاكم عند السداد مأخوذ من قوله "إذا رأيتموني على حق فأعينوني".

الأصل السادس: توجيه الأمة للوالي ونصحه وتقويمه إذا زاغ في سلوكه. "وإن رأيتموني على باطل فسددوني.

الأصل السابع: حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم مأخوذ من قوله أيضًا: "وإن رأيتموني على باطل فسددوني".

الأصل الثامن: على مَن تولى أمرًا من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيرة، ويكون سائرًا في تلك الخطة عن رضا.

من قوله: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم" فخطته طاعة الله، وهم قد عرفوا ما هي طاعة الله في الإسلام.

الأصل التاسع: لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها. وهذا أيضًا مأخوذ من قوله "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي

عليكم" فلا يطيعونـه لذاتـه، وإنمـا لاتباعه الشرع.
الأصل العاشر: الناس كلهم أمام القـانون سـواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم.
الأصل الحادي عشر: صون الحقوق.
الأصل الثاني عشر: حفظ التوازن بين الطبقات.
وهـذه الأصـول الثلاثـة مـأخوذة من قوله "ألا إن أقـواكم لضـعيف حـتى آخـذ الحـق منـه وأضـعفكم عنـدي لقوي حتى آخذ الحق له".
الأصـل الثـالث عشـر: شـعور الـراعي والرعيـة بالمســئولية المشـــتركة بينهمـــا وشعورهما دائمًا بالتقصير ليسـتمرا على العمل بجد واجتهاد، فيتوجهان بطلب المغفـرة من اللــه الـرقيب عليهما وهو مأخوذ من قوله: أقــول قولي هذا وأستغر الله لي ولكم".

* * * *

وقرر ابن باديس أن يدخل مجـال الصـحافة فأصدر في عـام 1925 م (1343 هــ) مجلـة "المنتقد" تحمل شعار: [الحق فوق كل أحد، والوطن فوق كـل شـيء]، ولكن السـلطات الفرنسـية أوقفتهـا بعـد ثمانيـة عشـر عـددًا.. فأصدر بعدها "الشهاب".

وفي عـــــام 1930م اختفلت الســــلطات الفرنسية بمرور مائة عـام على احتلال الجزائـر، وأصدر ابن باديس بيانًا باسم لفيـف من العلمـاء يوجه الشعب إلى مقاطعة هذه الاحتفالات (بكل

هدوء) واستجاب الناس فقاطعوها دون شغب يؤاخذون عليه، وإنما بكل هدوء.

وفي العام الثاني أسس عبد الحميد بن باديس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وعقد الاجتماع التأسيسي لها في الخامس من مايو عام 1931، وانتخب رئيسًا لها.

وفي الجمعية كما في دروسه كان الاستعمار يحرم عليه الاشتغال بالسياسة، ولكن لم يكن لهذا التحريم معنى بالنسبة لابن باديس الذي مضى بكل همة يقضي على ضلالات "الطرقية" ويجلي الإسلام الحقيقي، ويهاجم الظلم والطغيان والقمع والتسلط، ويحي العزائم والهمم. حتى نجحت الجمعية نجاحًا باهرًا وانتشرت مدارسها، وتعرضت خلال ذلك لكثير من صور الاضطهاد..

وفي عام 1938م خاطب الشيخ ابن باديس الاجتماع العام للجمعية قائلاً:"سلام عليكم يا أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين أجمعين، سلام على مساجينكم في المساجين، وسلام على متهميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين: سجون، واتهامات، ونكبات.. ثلاث لا تُبنى الحياة إلا عليها؛ ولا تُشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أساسها..؛ فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث، أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها" ويتضح من هذه الخطبة أن الجمعية لم تكن جمعية وعظ وإرشاد؛ وإنما إيقاظ وإنهاض، ومعالجة لروح وجوهر السياسة والتغلغل فيها.. لا من باب الحزب، ولكن من

بــاب المســجد. وجعــل ذلــك لجمعيــة العلمــاء صلاحيات الحزب دون ملاحقاته..

لأن جـوهر السياسـة الفرنسـية في الجزائـر كان إذابة الإسلام، وقـد تصـدت جمعيـة العلمـاء المســلمين لهــذا بحكم أنهــا جمعيـــة علمـــاء مسلمين.

ومع هدوء ابن باديس وحكمته، فإنـه لم يكن هيابًا ولم يخش الدخول في صراع..

غاية ما في الأمر أنه كان يقدم معارضته في قالب إسلامي موضوعي يفـوت على السـلطات أن تجد عليـه مأخـذًا أو فيـه منفـذًا بحيث يظهـر مدافعًا عن الإسلام وليس متحديًا للحكومة.

وعنـــدما ســـافر إلى بـــاريس عـــام 1936م وقابل مع أعضـاء المـؤتمر الجزائـري الإسـلامي العام – الوزير دلادية، قال هذا لهم: "إن لفرنسا مدافع طويلة".

فرد ابن باديس: "إن لدى الجزائريين مـدافع أطول". فلما تساءل عنها دلادية قال ابن باديس "إنها مدافع الله".

ورد ردًا خشنًا صـريحًا على مراسـل جريـدة "التامب" "Le Tempe " قائلاً له: "اسمعوا إننا لن نرضيكم أبدًا، ولن نعمل على إرضائكم.. إننــا لا نخشـاكم أبـدًا، ولن نعمـل عمـل يوقعنـا تحت طائلة أيديكم.. نحن سـائرون على منهاجنـا وفي طريقنا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنـا سـكوتكم، فقولوا ما شئتم.. وإنما ننصحكم نصـيحة خالصـة أن لا تعـــودوا لمثـــل هـــذا العمـــل الممقـــوت، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبًا بفقد الشعب

لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه، وإننا لنسد في أوجهكم هـذا البـاب. إلا أن كسـرتموه، والأمـر بعدئذ لله".

وشيئًا فشيئًا مع رسوخ قدمه وتطور الأحوال كـان يصـرح بهدفـه الحقيقي وهـو الثـورة على فرنسا وتحقيق الاستقلال.

وبعد قيام الحرب العالمية الثانية قـال لبعض إخوانه:

"واللـه لـو وجـدت عشـرة من عقلاء الأمـة الجزائرية يوافقونني على الثورة لأعلنتها" وأخـذ العهود على الجنود الجزائريين.. "سأعلن الثـورة على فرنسـا مـتى أعلنت إيطاليـا الحـرب على فرنسـا" وكـان يـرى في جبـال الأوراس معقلاً منيعًا يمكن أن تعلن منه الثورة.

ولكن المـــرض الـــذي أصـــابه ولم يفـــرغ لمعالجته تسـبب في وفاتـه في السـادس عشـر من إبريل عام 1940م.

ويعـــود نجـــاح ابن بـــاديس بالإضـــافة إلى شخصيته، وإيمانه، وذكائه، وعقلـه المـرتب: إلى إحكامه للقرآن..

إن القرآن كان نصب عينيه دائمًا..

وكان قد حفظه من طفولته الأولى.. وشـرع في تفسيره..

ونلمس في الكثـــير من خطاباتـــه المعـــاني القرآنية واضحة..

وفضـلاً عن هـذا كلـه فقـد كـان رجلاً حركيًـا ميدانيًا نشطًا لا يكل ولا يمل.

وروى أخوه (عبد المجيد) أنه كـان يلقى في اليوم ثلاثة عشر درسًا بين فقه وتفسير، وكان لا ينام إلا ساعة أو ساعتين على الأكثر..

فحتى لو اعتبرنا أن هـذا الكلام فيـه مبالغـة، فإنه ينم عن همة قوية، وعزيمة ماضـية، وإقبـال على العمل.

لقد كانت الروح المتقدة للشـيخ ابن بـاديس هي "الأتون" الذي صـقل سـيوف الثـورة وصـنع بنادقهـا، ومـا هـو أهم: حفـظ لقادتهـا وجنودهـا الإيمان"[1].

وقد ذبلت الأحزاب التي قامت بينما أصـابت جبهة التحرير سـكرة السـلطة، والـذي بقي وملأ المسـرح، وفجـر طاقـات الشـعب هـو الـروح الإسلامية التي عمل لها ابن باديس.

* * * *

من جمعية العلماء إلى جبهة الإنقاذ:

ليس من شـأن هـذا الفصـل أن يسـتعرض الثلاثين عامًا التي أعقبت ظهور جمعية العلمـاء، وكللت بنيل الاستقلال في الستينات، ولا الثلاثين عامًا التالية التي بدأت بالاستقلال عنـدما كـانت الناصـرية في أوجهـا فجـرًا كاذبًـا يكـاد يكسـف بأضـوائه المفتعلـة الفجـر الصـادق حـتى التسـعينيات الـتي نعايشـها، فهـذا شـأن كتب التاريخ.

وحسـبنا أن نقـول إن الجزائـر انـتزعت استقلالها من براثن وأنياب الاستعماريين العتـاه خلال رب استمرت قرابـة سـت سـنوات ضـحت فيها الجزائر بأكثر من مليون شهيد.

---

1 [(?)] رجعنا في هذه الفقر ة عن ابن باديس إلى عـددي مجلة – المنقذ في 14/ 12/ 89 و 28 / 12 / 89 بقلم ل. س . سيفوس

وأن هذا الاستقلال – أمنية الأجيال السابقة – لم يكد يتحقق حتى أصبحت الجزائر حقل تجارب مجموعة من الشباب الأغرار الذين لم تتوافر فيهم الحنكة، والتجربة، والنضج، والعمق الإيماني، فوقعوا تحت تأثير عبد الناصر الذي كان قد ساعدهم في معركة الاستقلال مساعدات جسيمة، وانساقوا في "موضة" هذه الفترة: اليسارية والشيوعية والاشتراكية العربية.. إلخ.

فذبلت الورود التي تفتحت غداة الاستقلال، وأُنسيت العهود التي أعطيت خلال المعركة، وتهاوت الآمال التي علقت على النصر، وتملك الأمر "بن بيلاّ" حتى ثار عليه "هواري بومدين" الذي لم تغنه دراسته السريعة القديمة في الأزهر شيئًا، فلم يستبن الطريق، واختلطت عليه المعالم حتى مات مخلفًا تركة ثقيلة.

وجاء خلفاؤه فزادوا الطين بلة حتى أصبح سجل المرحلة هو بتعبير كاتب إسلامي: "سِجل الفشل الكبير"[1].

وتفشت خلال تلك الفترة كل السنوات التي عرفتها المنطقة نتيجة لسياسات الطغمة الحاكمة سواء كانت جندًا بالأصل، أو ساسة بالاحتراف.

فظهر الفساد، واستغلال النفوذ والرشاوي، والديون، والعمولات، والتدهور والتبعية للاقتصاد الخارجي، والبطالة والأزمات..

---

1 [(?)] الأستاذ فهمي هويدي – الأهرام العدد الصادر في 16/ 7/ 91 – ص 7.

وإلهاء الجماهير بما يشغلها ويستهلك فراغها من تشجيع للفنون والسينما الهابطة ورياضة كرة القدم على حساب العلم والمعرفة والبناء..

واستخدام أجهزة الإعلام – وفي مقدمتها التليفزيون – في ذلك بالإضافة إلى استخدامها في تضليل وخداع الشعب.

ومحاربة الاتجاه الإسلامي الذي وقع عليه عبء المعارضة وإعلاء صوت الشارع.

ولئن ساد هذا في دول عربية أخرى دون انبعاثه مدوية، فإن الوعي الإسلامي الجهادي الذي كان يتململ في أعماق الشعب الجزائري انفجر مرة واحدة في انتفاضة أودت بالعهد وقضت على البناء الذي شادته جبهة التحرير خلال ثلاثين سنة من الحكم، ودفعت بالتيار الإسلامي إلى الصدارة وبوَّأته – مرة أخرى – المكانة التي كان يشغلها عندما كان رمز الصمود في مواجهة الاستعمار الفرنسي.

الشعب الجزائري عام 1988 م وأعلن الرئيس الشاذلي بِن جَديد (وهو بمقاييس الواقع يعد سياسيًا معقولاً ويتسم بقدر من الحكمة والاعتدال) التخلي عن سياسة الانغلاق والديكتاتورية وحك الحزب الواحد، وأطلق حرية الصحافة، وأباح التعددية الحزبية..

وتأسس ما يقرب من خمسين حزبًا..

ونحن نرى أن هذا أمر طبيعي – بعد طول الكبت – وعلى كل حال فلا يضير وجود هذا العدد، لأن ما يحدث هو أن تتقطب الأغلبية في

عدد محدود (أربعة أو خمسة أحزاب)، ولا يكــون للأحزاب الأخرى خطورة على استقرار النظام.

وكانت الأحــزاب والجماعـات الإسـلامية هي أبرز الجديد التي كشفت عنه الحرية..

فــالأخوان المســلمون الــذين لم يكن لهم وجود محسـوس تبلـوروا في هيئـة قويـة أخـذت أخيرًا اسـم "حمـاس" وظهـر على رأسـها زعيم قـدير هـو الشـيخ "محفـوظ نحنـاح: اسـتطاع أن يجمع ستين ألف سيدة ليسمعن خطابًـا للسـيدة زينب الغزالي.

ونفض الـتراب عن تـراث "مالـك بن نـبي" المفكــر الجزائــري المظلــوم الــذي تعــذب في القاهرة، وتعذب في باريس، وتعذب في الجزائر وأرخيت على أعماله أستار النسيان..

ولكن أبرز الهيئات الإسلامية وأكثرها شــهرة هي "جبهــة الإنقــاذ الإســلامية" الــتي أعلن عن قيامها في مسجد ابن باديس بالقبـة بعـد صـدور دستور الثالث والعشرين من فبراير عـام 1989 م نتيجة لجهـود سـابقة اسـتهدفت جمـع الجهـود الإسـلامية المشـتتة وكللت في النهايــة بتكــوين الجبهة وانتخبت الـدكتور "عبـاس مـدني" رئيسًـا لها، والشيخ "على بلحاج" نائبًا للرئيس. وجمعت الجبهة أشـتاتًا من الإسـلاميين، وتيـارات سـلفية وجهادية ومتعاطفة..

وقــد كــان الــدكتور "عبــاس مــدني" عضــوًا بجبهة التحرير عـام 1969م، وعضـوًا بـالمجلس الولائي، وسافر عام 1976 م إلى لندن وحصــل

هنــاك على دكتــوراة في التربيــة، وعــاد عــام 1979..

وأخـــذ يلقي المحاضـــرات في مســـجد ابن بــاديس بالقبــة وفي عــام 1982 م اعتقــل إثــر الاضطراب الذي حدث في الحي الجــامعي "ابن عكنون" بين الإسلاميين واليساريين.

والعنصــر الســلفي هــو العنصــر البــارز في مجموعة الجبهة، ولا نعدم عناصر جهاديــة تــؤمن بكثير من أفكار "الرافضة الجديدة"ـ وبوجه أخص أفكـار الشـهيد "سـيد قطب" وكتبـه وكتب أخيـه "محمـد قطب" من الكتب الذائعـة وذات التـأثير في الجزائر.

وجاءت المفاجـأة عنـدما أجـريت الانتخابـات البلديـة في يونيـو 1990م، إذ اكتسـحت الجبهـة الأحــزاب الأخــرى وظفــرت بأغلبيــة كــبرى في معظم الولايات (32 من 48 مجلسًا).

وقامت قيامة جبهة التحرير التي كانت تنفــر بــالحكم، كمـــا قـــامت قيامـــة بقيـــة الأحـــزاب والمتفرنسين واليساريين.. إلخ.

كمــا ضـخمت الصـحف الأوروبيــة – وبوجــه أخص الفرنسية – أنباء هذا الانتصــار، وذهبت مــا شاء لهــا الخيــال أو العــداوة في التكهن بمعاينــة وما تحمله للجزائر..

وكما نقـول دائمًـا إن النجـاح تجربـة صـعبة، وقد يكون نعمة كما يكون نقمة..

"ويــوم حــنين إذ أعجبتكم كــثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئًا".

ويبـدو أن هـذا الانتصـار أثَّر عميقًـا على كـل الأطراف:

أثر على قيادة الجبهـة، كمـا أثـر على قيـادة المعسكرات المضادة لها..

وأخذت الحكومة تضع الخطط للحيلولة دون اكتساب الجبهة مثل هذا الانتصار في الانتخابـات النيابية السياسية التي كـانت ستُجرى في يونيـو 1991م.

وكـانت وسـيلة الحكومـة إلى ذلـك تعـديل نظام الانتخابات – في ضوء نجـاح الجبهـة – بمـا يحول دون تكرار مثل هذا النجاح..

وقيل إن خبراء فرنسيين اشـتركوا في ذلـك بحيث وضـعت تعـديلات جذريـة وقـدمت حجج وتعللات لتبريرها.

ورأت الجبهة أن هذه التعـديلات إنمـا تهـدف في الحقيقة إلى استبعادها ووضع العراقيل أمام نجاحهـا. فتحـركت ونظمت مسـيرات عديـدة احتجاجًا.. كما أعلنت الإضراب العام..

وكـانت الجبهـة قـد دخلت في أعقـاب انتصارها في يونيو عام 1990 م المجال النقابي وأسسد "النقابة الإسلامية للعمـل" الـتي انثـالت عليها جماهير العمال، حتى ظن أنها ستحل محل "الاتحاد العام للعمال الجزائريين"..

المهم أن الجبهـة اسـتُدرجت إلى معركـة لم تكن قد تهيأت لها..

لا من ناحية الزمن: فلم يكن قد مضـى على قيامها أكثر من عامين..

ولا من ناحيـة "الهيكلـة" أو التنظيم وغربلـة العناصر ووضـع النظم الـتي تحـول دون حـدوث تنافر أو انشقاق..

وبحجة هذا الصدام ألقت الحكومة القبض على الدكتور عباس مدني، وقيادات الجبهة، والعناصر النشطة فيها.

ونحن وإن كنا نتابع مشفقين هذه الأحداث فإننا لم نعش في أعماقها، ويكون من العسير إصدار الأحكام وقد يمكن القول أن الجبهة تسرعت وكان عليها أن تدرس البدائل، فإذ لم تجد إلا العمل الجماهيري من مسيرات، ومظاهرات، وإضرابات، فقد كان عليها أن تضع الخطط الدقيقة لهذه المعركة.

ولكن من الظلم لها أن يلصق بها أنها خالفت الشرعية، فالحرية التي سمحت بها التعددية الحزبية الجزائرية تسمح بما قامت به الجبهة التي تملك الشارع.

ولئن لم تفعل الأحزاب مثلها فذلك لأنها ببساطة لا تقدر على ذلك.. لأنها لا تملك الشارع. ولكنها تفعل ما هو أسوأ: فحزب العمال التروتسكي كان يضع صورة الشاذلي على الأرض ويطؤونها بالأحذية ويبصقون عليها ولو كان هذا الحزب يملك ربع ما تملكه الجبهة لما تردد في تنظيم المسيرات وإعلان الإضرابات.

فالخطوة التي أخذتها الجبهة تحاسب عليها بمعيار الفشل أو النجاح.. التريث أو التعجل.. التشاور بدلاً من الانفراد؛ ولكن ليس بمعيار الشرعية لأنها لا تخالف الشرعية.

وما قيل في هذا الصدد إنما أريد به تلويث الجبهة، أو تبرير الإجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة وكأنها ندمت على ما منحته من حرية، وحنت إلى العهد القديم.

واستطاعت الحكومة أن تلعب لعبتها بمهارة، وأن تستغل التكوين "التراكمي" للجبهة في استخلاص بعض العناصر لإيجاد قدر من البلبلة.

كما "حيدت" الأحزاب الإسلامية الأخرى التي كانت قد انتقدت سياسة الجبهة والحق أن مستقبل الاتجاه الإسلامي يتعرض اليوم لامتحان عسير سيكون له ما بعده، لأن انتصارات العام الماضي 1990م قد أصبحت مهددة بعد أن نجحت الحكومة والأحزاب اليسارية والمتفرنسة.. إلخ، ومن ورائها الرأي العام الأوروبي في استنفار كل القوى المعارضة للاتجاه الإسلامي وهي لا تزال قوية خاصة في المدن – وقد شاهدنا دلائل ذلك بأنفسنا – ولاحظ مراسل الشعب [1] أنه لم يجد "فتاة واحدة من اللائي يلبسن البنطلون والزي الأوروبي تتحدث باللغة العربية، فكلهن يتحدثن الفرنسية: في العمل، وفي الطريق، وفي التاكسي"!

وروى واقعة لها دلالتها:

ففي لقاء الحكومة والأحزاب هناك العديد من رؤساء الأحزاب ممن تحدثوا باللغة الفرنسية فقط، وبعضهم تحدث بالعربية والفرنسية معًا، وبعضهم عندما كان يتحدث بالعربية كان يقول كلمات بمعان تختلف عن المضمون الذي يريده، وكان من أبرز الطرق في هذا الشأن ما قاله السيد "علالو" رئيس أحد

1 [?] مجلة الشعب: عدد 2 سبتمبر 1991 ص 7 مقال "المصير الذي ينتظر الديمقراطية في الجزائر للأستاذ أحمد السيوفي.

الأحزاب: أن الأديان سوف تخـرب البلاد!! فهـاج عليـه كـل من في القاعـة.. ثم تـبين أنـه يقصـد "الـــديون" وليس "الأديـــان"! وفي الحقيقـــة الوحيدون الذين تكلموا بالعربية فقـط وبفصـاحة هم زعمــاء الأحــزاب الإســلامية وعلى رأســهم الشيخ محفوظ نحناح ثم الشـيخ عبـد اللـه جـاب الله"[1]).

* * * *

فهذا الوضـع يـدل على أن القـوى المعارضـة للاتجاه الإسلامي تتجمع للقضـاء على الجبهـة ولو استطاعت ذلك – لا قدر اللـه – فسـيأتي دور الأخوان وبقية الأحزاب الإسـلامية.. فهـل فكروا في هذا..؟

البرنامج السياسي للجبهة

وضعت الجبهة مشروعًا لبرنامجها السياسي نشر بمجلتها "المنقذ" في العدد الذي صــدر في النصف الأول من ربيع الأول عام 1410هــ، وإن كان يحمل تاريخًا أقدم هو التاسع والعشرين من رجب 1409هــ الموافــق الســابع من مــارس 1989م.

كمـا طبعتـه الجبهـة في كـتيب مسـتقل في قرابةٍ أربعين صفحة، ولا يسمح المجـال لعرضـه كاملاً، ولكننا سنعرض معظمه حرصًا على إيضاح وجهة نظر الجبهة كاملة، وفيما يلي هذا العرض:

---

1 (?) المرجع السابق.

مدخل

من أهم خصائص العمـل الإسـلامي الهـادف الجديـة ولتحقيقهـا فهـو منضـبط شـرعًا وعقلاً ومصلحة وواقعًا مراعاته للفطرة البشـرية الـتي يتعامل معها وحتى لا تقع في الضـلال والزيـغ أو الشطط في الإفراط والتفريط عولجت المحاور الرئيسـية للعمـل السياسـي للجبهـة الإسـلامية للإنقاذ على أساس الضوابط التالية:

الالـتزام بالشـرع الإسـلامي ومنهجـه في العدل والاعتدال والكفاية والشمول حتى يتسنَّى لنـا معالجـة جميـع القضـايا المطروحـة وعلى اختلاف أهميتها لقوله تعـالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

توظيف العلم ومعارفـه واسـتخدام منهجيتـه في ضبط المسائل وتحديد المشـكلات وتحليلهـا وكشف الحلـول لهـا وطـرق إنجازهـا واسـتخدام التقنيات وفنياتهـا لتتـوفر لـدى المحـاور شـروط الخـبرة والكفـاءة من حيث هي شـروط لازمـة لكل عمل قويم صالح هـادف، وكـل هـذا تحقيقًـا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثـيرًا ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

ضرورة إعـادة الاعتبـار إلى طمـوح الشـعب الجزائري المسلم التـائق للمعـالي، الـراغب في الخـروج من ورطـة الاسـتعمار للتخلص من التخلف بكل أشكاله بفضل إيمانه وقـوة قناعتـه بإسـلامه وثقتـه في ربـه عـز وجـل ذلـك الـذي يساعده على القفز خارج دائرة التبعية وأشـكال

الاستعمار الحديث، فلا تكون المحاور إلا مجالات لإرادته ومهدًا لعبقريته ومحكًا لتجربته واستمرارًا لرسالته..

وحتَّى لا تثبط عزيمته تنبسط المراحل ضبطًا منهجيًا مراعيًا نفسية الشعب كي يستعيد ثقته بنفسه في أشواط تاريخية تحدد مراحلها حسب شروط أو حيثيات القدرة والواقعية والفعالية، وباختصار فإننا ننطلق بعون الله وحده من احترام مشاعر شعبنا وطموحاته.

حفاظًا على مشروعنا السياسي من أن يبقى حبرًا على ورق، لابد من استحضار الشروط المنهجية لتطبيق النماذج أو البدائل والحلول باعتبارها خطة عملية سياسية تبقى حافزًا لعمل الجبهة الإسلامية للإنقاذ باعتباره عملاً سياسيًا وإعيًا وجهدًا للإرادة الكلية للشعب الجزائري عبر أجياله إلى أن يتحقق المراد بعون الله وتوفيقه.

إن الجبهة الإسلامية للإنقاذ من خصائص منهجيتها أنها لا تعمل في معزل عن الشعب، بل تنطلق دومًا من مبدأ العمل معه في كل خطوة إجرائية تاريخية، فتكون المنجزات ثمرة لجهده، وهو منهج الصحابة – رضي الله عنهم عندما قالوا له:- لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ولا يتخلى منا أحد.

التزامًا من الجبهة الإسلامية للإنقاذ بروابطها السابقة تحدد علاقاتها، ومواقفها بكل ما بالساحة من الهيئات والجمعيات والمؤسسات في ضوء الوضوح المنهجي لرؤياها العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

والحضارية في النطاق الإسلامي الشامل والمصالح الكبرى للشعب الجزائري وثوابته، وذلك حسمًا للمواقف الارتجالية ومنعًا للتصرفات الشخصية وتلافيًا للمواقف غير المدروسة الفاقدة للوعي السياسي المطلوب والالتزام بالمنهجية والشرعية من ضوابط الجبهة.

بناءً على ذلك يتم ضمان العدل والاعتدال والدقة والشمول لمحاور العمل السياسي للجبهة الإسلامية للإنقاذ حسب الترتيب التالي:

أ- الإطار العقائدي:

إن الشعب الجزائري شعب مسلم عريق في إسلامه ويمثل رسالته التاريخية الحضارية وبناء على ذلك فإن الإسلام هو النطاق العقائدي والضابط الأيديولوجي للعمل السياسي في جميع مجالات الحياة. وإذا كانت الأزمة التي تجتاح العالم وتهز الحضارة من أقوى الأدلة على القصور الأيديولوجي الذي آلت إليه النظم والأمم، فإن الإسلام هو النطاق العقائدي الأقوم للمشروع السياسي الذي يقوى على مواجهة الأزمة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

ب- المحور السياسي:

السياسة في مفهوم الجبهة الإسلامية للإنقاذ هي السياسة الشرعية والتي تتمثل في حكمة التدبير وجودة التنسيق وأحكام التوقع ومرونة الحوار للوصول إلى الحق والحقيقة وعدل الإلزام، واعتدال في المواقف بمنهج الصدق لأنها تقوم على الإقناع بدلاً من القهر ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ وتتبنى بالاختيار دون الإجبار لقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْض كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وتلتزم الشورى تفاديًا للاستبداد لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ ولتجاوُز تناقضات سياسية الإيديولوجيات المستوردة يعمل البرنامج السياسي للجبهة الإسلامية للإنقاذ على تحقيق ما يلي:

أولاً: للقضاء على الاستبداد تتبنَّى الشورى، ولإزالة الاحتكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي تتبنَّى المساواة ومبدأ تكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولتفادي قمع الحريات العامة تعمل الجبهة على إفساح مجالها للعبقرية والإرادة الكلية للأمة في جميع مجالات الحياة وإكفالها للناس على السواء، وللتخلص من سياسة الحضوة والحرمان تعمل على وضع معايير للمسؤوليات وضمان الأمانات وأداء المهام في تشجيع روح العمل الجماعي، والقضاء على الأنانية والمحسوبية والنزعات

الفردانيــة وكي لا تقــع الجبهــة في ذلــك تضــمن حرية التعبير، وتشجع على النقــد الــذاتي وتحــدد طرق المحاسبة الإدارية والسياسية والاقتصــادية في كــل المؤسســات والنظم وتوعيــة الشــعب وإشعاره بالمسؤولية حيــال ذلــك، وتحــيي نظــام الحسبة الإسلامي، وتطبق مبدأ من أين لــك هــذا في حدود الشرع.

ثانيًا: ولتحقيق ذلــك يصــير لزامًــا أو مطلوبًــا من الجبهة الإسلامية للإنقاذ العمل على تصــحيح النظام السياسي ابتداءً من الميادين التالية:

جعل التشريعات السياســية خاضــعة لأحكــام الشريعة لقولــه تعــالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُــرَكَاءُ شَــرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله تعــالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُــونَ وَمَنْ أَحْسَــنُ مِنَ اللَّــهِ حُكْمًــا لِّقَــوْمٍ يُوقِنُــونَ﴾ مــع مراعــاة مســتجدات مرحلة التعددية الحزبية ليساهم كل طرف بحقه في الإصلاح ابتداءً من المجلس الوطــني وســائر المجالس الولائية والبلديــة، حــتى يصــبح جميعهــا قائمًــا على الشــرعية الــتي يتبناهــا الشــعب الجزائري المسلم من خلال قناعاته.

إصلاح الجهاز التنفيذي في الرئاسة والوزارة والولاية والدائرة والبلدية.

إصلاح المنظومة العسكرية قصد الرقي بهــا إلى حمايــة البلاد والعبــاد من أي خطــر يمس بالســيادة، أو الحريــات والحقــوق والواجبــات ومصالح الأمة الكبرى.

إصلاح السياسة الأمنية، حــتى تخلــو من كــل قهر أو تعسف، وتؤمم لمصــلحة الأمــة في ضــوء رسالتها وفي نطاق حرياتها. التي أقرهــا الشــرع

وتحديد مهام كل المصالح والمؤسسات، لضمان العدل والاستقرار والسلام.

إصـــلاح المنظومـــة الإعلاميـــة فتوظـــف المؤسسـات بمـا تقتضـيه رسـالتها الثقافيـة والتربويـة وشـروط نهضـتها الحضـارية، بـوعي سياسـي ثقـافي حضـاري يجنب البلاد التبعيـة الثقافية، ويحفظها من الغـزو الثقـافي الـذي مـا زالت هدفًا له.

إصلاح المنظومة الاقتصـادية توزيعًـا وظيفيًـا سياسـيًا واقتصـاديًا وحضـاريًا لإعـادة النظـر في سياسة الطاقة والمحروقـات، وتصـدير المعـادن وسائر الثروات.

إصـــلاح السياســـة التجاريـــة الداخليـــة والخارجية، لوضع حـد للاحتكـار والرِّبـا والرشـوة والتبذير والضياع.

إصـلاح المنظومـة الإداريـة لتسـيير المهـام وضمان سير المصـالح، وكفالـة الحقـوق وإزالـة عقبة البيروقراطية كما يقال.

إعادة النظر في السياسـة الزراعيـة بكفالـة الدعم الفلاحي وضـمان العلاقـة الوظيفيـة بينهـا وبين الصناعة التحويلية، لضمان الاكتفـاء الـذاتي والتصدير المناسـبين لكـل من السـوق الداخليـة والخارجية.

إصلاح المنظومة التربوية لوضـع حـد للفاقـد التربوي واستيعاب جميع الأعمـار، وكفالـة حقهم في الحد الأعلى من جودة التحصيل، أو النوعيـة التربوية التي يطمحون إليها، لتجعلهم بحق ورثـة حضارة ومساهمين في حمل الرسالة، وعـاملين على الاستمرارية نحو الأفضل.

وهكــذا بإصــلاح جميــع النظم وهياكلهــا ومؤسســاتها يتم الإصــلاح الشــامل للنظــام السياسي في نطـاق الحـل الـذي يمثـل سياسـة التغيير كما تحدده الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

إصلاح المنظومـة القضـائية بإعـادة الاعتبـار إلى اسـتقلالية القضـاء وحصـانة القاضـي كمـا حددته الشريعة الإسـلامية، لتوفـير منـاخ العـدل الرباني الذي لا تشـوبه شـائبة الظلم، ولا تشـينه شــائبة الجــور من حيث العــدل هــو أســاس السياسية الشرعية ومـبرر الحكم وغايـة النظـام السياسي.

ضمانًا لحرية الأمة وحق التعبـير عن إرادتهـا بأصـح الطـرق وأسـلمها شـرعًا وشـرعية يعـاد النظــر في قــانون الانتخابــات، فلا توكــل لغــير الراشــد كالســفية والصــغير وفاقــد العدالــة الشرعية، ولا يجبر أحد على الانتخاب سـواء في خدمة عسكرية، أو في وظيفة أمنية أو إدارية أو غيرها؛ فينتخب جميع الناس بمحض الحرية.

وتحفــظ الصــناديق بــالطرق الشــرعية القضائية، ولا توضع إلا أمام شهود عـدول يجمـع الناس على أمانتهم، وتنظم طرق عـد الأصـوات وجمعهــا ونقلهــا إلى الــرأي العــام الوطــني والعالمي، مما يضمن شرعيتها، ولا يـترك سـبيلاً إلى الشك في صحتها، وعـدم تزييفهـا بحـال من الأحــوال، وحضــور مراقــبين ممثلين للهيئــات المعنية مع حق الطعن بواسطة القضاء.

بالإضافة إلى تحديد طـرق الترشـيح للعـادل الممثل للأمة والمناسـب للتعبـير عن المشـاركة الفعالة في تسـيير أمـور البلاد بـإخراج الممثلين

الشــرعيين في مختلــف المجــالس، والهيئــات التشريعية والتنفيذية والسياسية وغيرها.

ج- منظور السياسة الاقتصادية

تقوم السياسة الاقتصادية للجبهـة الإسـلامية للإنقــاذ على مفهــوم يكــون بمقتضــاه ضــمان التجـاوب بين الحاجـات الاسـتهلاكية الضـرورية، وشروط الإنتاج والتكامـل بين النوعيـة والكميـة، ومراعــاة نمــو الحاجــة إليهمــا في ضــوء النمــو الســكاني والتطــور الحضــاري، والعمــل على تحقيــق الاســتقلال الاقتصــادي، بالإضــافة إلى التوازن بين الصـادرات والـواردات لحمايـة البلاد من التضـخم والمديونيـة اللـتين أمسـتا تشـكلان أخطر التناقضات التي تواجهنا أمام العمل الجـاد من أجــل تحقيــق العيش الكــريم، ووضــع حــد للتبعية الاقتصادية والسياسـية والحضـارية، ولمـا تعرضت البلاد لفـترة طويلـة من النهب لثرواتهـا لمـدة قـرن وربـع من الاسـتعمار، كمـا تعرضـت للضـياع في فـترة النظم السـابقة الـتي أوقعت البلاد في أزمة اقتصادية تعـذر فيهـا التـوازن بين الاستهلاك والإنتاج، حتى في أكثر الأمور ضـرورة كالـدواء والسـكن فـزاد الاسـتهلاك وقـل الإنتـاج وزادت الحاجة إلى اسـتيراد المـواد الاسـتهلاكية والإمعان في التبعية الاقتصادية.

ولتعـرض البلاد إلى سياســة خنــق الحريـات والقضـاء على روح المبـادرة بـدعوى التخطيـط وتــأخر الخطــط الإنمائيــة وتخلــف المنظومــة التربوية، تعرضت لفاقد همش الطاقات البشرية ولانخفاض مستوى التحصيل وسـذاجة الخـبرات

وتعطيل المشاريع الإنتاجية، ومنع المؤسسات الصناعية الصغرى، فقلت وظائف الشغل وكثرت البطالة، ونمت العطالة مما زاد التضخم استفحالاً والتناقضات الاقتصادية تفاقمًا، وجعل النظام الحالي يفقد القدرة على السيطرة على أوضاع اقتصاد متدهور.

إن سياسة التصنيع التي انطلقت من المركبات الصناعية الكبرى والمصانع التي تعتمد على مواد أولية واصطناعية مستوردة، وخبرات عالية مستعارة وإنتاج غير كاف في جودته وفي وفرته، جعل هذه السياسة تؤول بالبلاد إلى إفلاس اقتصادي خطير، فإذا لم تكن الصناعة مبنية على الاكتفاء الذاتي سواء في التشغيل أو الاستهلاك أو التصنيع، فإن هذه الصناعة لن تزيدنا إلا فقرًا وإمعانًا في التبعية، وهو ما جعل الصناعة عندنا عالة على الاقتصاد بعدما كان مبررها كفاية البلاد، وتشغيل الطاقات من الشباب والخبرات، بالإضافة إلى ما سبق سوء التسيير وضياع التسويق.

إن الاستثمار من أهم الوسائل العملية لتطبيق الخطة السياسية الإنمائية الشاملة خاصة في شعب يعيش طفرة سكانية جعلت ثلثي السكان شبابًا – أقل من ثلاثين سنة – فإذا لم تكن السياسة الاقتصادية قادرة على التكريس المالي في ميزانية الدولة، مما يجعل الاستثمار في مستوى الحاجات المستقبلية لإعداد شروط الاستقبال في مختلف مستويات مناصب التشغيل، والوظائف يصبح الأمر من الخطورة ما يجعل أجيال الأمة تخشى من

المستقبل الذي يتهدَّدها بالبطالة والفقر المفضيين إلى الهامشية الحضارية.

لهذه الأسباب كلها تتخلص الجهود السياسية الاقتصادية في المحاور التالية:

وضع سياسة رشيدة للزراعة.

إعادة النظر في سياسة التصنيع الحالية، كي تصبح ذات مردودية مناسبة للمطلوب.

إعادة النظر في التجارة وهياكلها وسياستها الاستهلاكية، ونظام التسويق ووسائل التوزيع إلى غير ذلك.

إعادة النظر في السياسة المالية والنقدية لضمان استقلال القرار السياسي سواء في الداخل أو في الخارج.

أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي تنطلق من منطلق إسلامي لإنقاذ الإنسان والحضارة تعتبر الاقتصاد سواء في إنتاجه أو استهلاكه، وسواء في استثماره الاستهلاكي أو الحضاري الأشمل، ما هي إلا عامل من عوامل خدمة الإنسان والرقي به إلى ما يطمح إليه من سعادة في الدارين ومكانة وظيفية تاريخية وحضارية، من هذا المنطلق العقائدي والأيديولوجي الاقتصادي تعالج المحاور التالية في نموذج اقتصادي إسلامي في جميع مجالات الحياة كالزراعة والصناعة والتجارة والسياسة المالية، والخطة الإنمائية الشاملة.

1- الزراعة:

الزراعــة من أهم مــوارد البلاد وذلــك لمــا منحها الله من سعة في المساحة، واعتــدال في المناخ وتنـوع في التضـاريس.. بالإضـافة إلى أن الجزائري بطبعـة مرتبـط بأرضـه ارتباطـا نفسـيًا وعضـويًا جعلــه من أنجح الفلاحين إنتاجًـا نوعًــا، وكمـا ممـا در على البلاد أرزاقًـا طائلـة وجعلهـا تعــرف بالتصــدير لأشــهر الأســواق العالميــة استهلاكًا. هذا بالنسبة لما تم إصـلاحه واسـتغلاله في الشــريط الشــمالي، وفي عمــق الهضــاب العليا من الأراضي الخصـبة. أمـا الهضـاب العليـا والأراضي الصحراوية الصالحة للزراعـة الـتي لم تستصلح بعد لافتقارها إلى سياسة واعية للــري، جعل البلاد لا تستغل كميات الأمطار الـتي أدرَّهـا اللــه على البلاد، ممـا جعـل الميـاه الجوفيـة لم تســتخرج والأوديــة، والأنهــار تهــدر فتكب في الشـطوط في عمـق الصـحراء، وفي البحـر من الناحية الشمالية.

أن السياسة الزراعيـة الـتي أخلت الأراضـي من فلاحيهـا وضـيعت الـوقت على الأمـة والبلاد بعدم إنجاز السدود وتحويـل الـثروة المائيـة إلى الأراضــي الــتي تطلبهــا، ورط البلاد في تخلــف زراعي لم تعرفه في تاريخها القديم والحديث.

إن المعطيات الطبيعية المذكورة آنفًا تتوقف ثروتهــا على سياســة رشــيدة، تعــد المشــاريع الكبرى لأحسن استفادة بالمياه وأجـود اسـتغلال للأراضي، وذلك بإصلاحها حسب الطرق العلميــة والتقنيـات ذات الكفـاءات والفعاليـات الـتي قـد تجعل الصحراء ترتوي بأمطـار الشـمال، وتجعـل أســواق الشــمال تغــني بغلال الصــحراء. فــإذا

تكـاملت الطبيعـة في تنوعهـا، كيـف لا تتكامـل السياسة في إنتاجها وفق الحاجـات الاسـتهلاكية والأسواق العالمية، فعندما تتوفر الجودة للمنتوج الزراعي تقـوي الحظـوظ للتفـوق في الأسـواق العالمية للمنتوج الزراعي.

وتتلخص الجهود السياسية الزراعيـة للجبهـة الإسلامية للإنقاذ في الإجراءات التالية بعون الله وتوفيقه:

تصـــاغ السياســـة الزراعيـــة في السياســـة الشرعية العادلة لوضع حد لأخذ الأرض غصبًا من أصـحابها، وعمليـة توزيعهـا بـالطرق الإقطاعيـة لقوله عليه الصلاة والسلام: "من ظلم شبرًا من الأرض طوَّقَـــهُ اللـــه من ســـبع أراضـــين" رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

جديـة استصـلاح الأراضـي بـالطرق الفنيـة التكنولوجيـــة وتوزيعهـــا على ذوي الاســـتحقاق بشرعية خلية من المحسوبية والحظـوة، وسـائر حـالات التعسـف والظلم، أي أن يكـون توزيـع الأراضي عادلاً وفق المعايير التي تُحـدد بعـد في نطاق الشرع.

العناية بتربية المواشـي حيث تسـتغني البلاد في أقـــرب وقت ممكن عن اســـتيراد اللحـــوم والألبان ومشتقاتها.

إعادة النظر في سياسـة التوزيـع والتسـويق في الداخل والخارج.

تدعيم الزراعة والصناعة التحويليـة وتشـجيع المركبات الإنتاجية الصغرى والمتوسطة، حسـب

حاجات الزراعة كي لا يتعرض منتوجها إلى إتلاف.

إنشاء المخازن الكبرى لخزن المنتوجات الزراعية احتياطًا وتحسبًا للأزمات والحروب والعاهات.

وضع خطة زراعية ضامنة للمصالح حتى لا تكون الحاجات الآجلة على حساب العاجلة ولا العكس.

إن السياسة التي لا تأخذ بعين الاعتبار سنين القحط في سنين الرخاء سياسة عمياء ليس لها من الحكمة شيء قال تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

إنشاء مراكز للبحوث العلمية الزراعية في مزارع نموذجية لتطوير علم الزراعة وتقنياتها.

إرجاعًا لثقة الجزائري بنفسه، ومساعدة له على رفع مستواها في الخبرة تصلح المؤسسات التربوية الزراعية وفق حاجات البلاد إلى أرقى الخبرات التقنية والزراعية، وفي حالة ما إذا كانت وسائل الاستقبال غير كافية تدعم وتثري وتساند بما يكون محققًا للمراد.

وضع خطة صناعية زراعية لتطوير العتاد الزراعي حتى تكون الزراعة في بلادنا في مستوى التطور العلمي والتكنولوجي للبلدان التي تنافسنا في الأسواق العالمية، باعتبار أن نوعية الإنتاج مرتبطة بنوعية الإنتاج مرتبطة بنوعية التقنية ومستوى تفوقها، مع ضرورة تلبية

الحاجات الوطنية المحلية بـدلاً من تسـويقها في الخارج فلا تكون التجارة على حساب الزراعية.

هذا وإنَّ للجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ أنْ تحـدد العوامل الأساسية المؤثرة في الميدان الزراعي سـلبًا أو إيجابًـا، فـذلكم فقـط في مجـال عـالم الأسباب، وهي تدرك أن توبة الشـعب الجزائـري الــتي تجســدها هــذه الــروح الــتي انطلقت من أعماق ضـميره في شـوق إلى العـودة للإسـلام، فإن الله سبحانه وتعالى قادر بذلك أن يدرَّ علينـا خيراته وأنعمـه وأفضـاله لقولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيـدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَـا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِينُ﴾ على أن ذلـك لا يـبرر الاتكاليـة، وعــدم الجـد في توفـير الأسـباب لقولـه عليـه الصـلاة والسلام: "اعقلها ثم توكل".

2-الصناعة:

في بلـد يطمح شـعبه إلى وضـع حـد للتبعيـة ويـأمن دينـه بإعـداد العـدة من القـوة المطلوبـة على مستوى الفعاليـة الحضـارية الكونيـة لقولـه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ تعتبر الصــناعة من الشــروط الضــرورية للنهضــة الحضارية.

غــير أن الصــناعة في منظــور الجبهــة الإسـلامية للإنقـاذ على أهميتهـا لا تكـون على حسـاب الزراعـة كمـا حصـل بالماضـي، بـل بالعكس تعمل على مساندتها والتكامل معهـا، لا تكون على حساب الإنسـان المسـلم في قيمتـه

وقيمة نفسيته ومكانته كالذي يحدث في البلـدان الرأسـمالية في أمريكـا وغيرهـا أو الـذي يحـدث في البلـــدان الشـــيوعية كروســـيا ومَنْ على شاكلتها، وإنما هي صناعة للإنسان الصانع أداتيـة حضـــارية كونيـــة ذات فعاليـــة ســـواء أكـــانت للمجـالات السـليمة أو للضـروريات العسـكرية، لحمايـة حمى أمـة لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول الله، وحماية الحق والحريات في العالم.

وتتلخص السياســة الصــناعية في المحــاور التالية:

جعل الصناعة في الجزائر تتكامل فيها قـوى الإنتاج الصناعية وغيرها.

لمواجهة مشـكلات البطالـة ضـرورة الإكثـار من مناصب الشغل، عن طريق تشجيع المعامـل الصــغرى والمتوســطة، على أن توظــف هــذه المراكز في ضوء حاجات البلاد الاسـتهلاكية، إلى حـد الكفايـة دون أن تفتقـر إلى المـواد الأوليـة الأجنبيـة، الـتي تتعـارض مـع مبـدأ الاسـتقلالية الاقتصادية، أو بمعنى آخر تكوين صناعة متكاملة في إنتاجهـــا وتصـــنيعها، على أن لا تكـــون على حساب النوعية.

تشجيع التنـوع الـوظيفي للهياكـل الصـناعية والمؤسسات لجعل الصـناعة عنـدنا قـادرة على الاكتفاء الذاتي فيشغل بعضها بعضًا في سلسـلة محكمـــة حلقاتهـــا، منســـقة وظائفهـــا متوازنـــة إنتاجياتهـا متجاوبـة أدواتهـا بالقـدر الـذي يكفي البلاد مؤونة الحاجة إلى الخارج.

إنماء الخبرات التكنولوجيـة يرفـع مسـتويات المؤسســـات التربويـــة الصـــناعية من معاهـــد

وجامعات ومراكز بحوث، حتى تلبي حاجـــة البلاد إلى النهضة الصناعية.

مراعــاة حاجــة ثــروات البلاد الطبيعيــة إلى صناعة مصـنعة متكيفـة مـع مسـتجدات التطـور الصـناعي والتكنولـوجي الـذي تشـهده الحضـارة على مستوى السـباق سـواء في التسـلح أو في التسويق أو في الاستهلاك.

إنشــاء معامــل نموذجيــة للبحــوث العلميــة والتكنولوجيـة تعمـل على إعـداد ذوي الكفـاءات العليا والعبقريات المتفوقة من العلماء والتقنيين وذوي التخصصـات الدقيقـة، سـواء في العلم أو في التكنولوجيــا خاصــة في علــوم الصــناعة، أو مالها علاقة بها، كالفيزياء والرياضيات والكيميــاء ومختلف أشكال الهندسات المعمارية والفضـائية وتشـجيع الـذكاء والعبقريـة والميـول والقـدرات على التفوق والإبداع.

وإذا كان تسيير المؤسسات من أهم عوامل ازدهار الصناعة؛ فإن منهجيتـه الإسـلامية تقضـي بأن تسـوده روح الجماعــة عن طريــق الشــوري والاحــترام المتبــادل، والشـعور بالمسـؤولية من طرف جميع العاملين في المؤسسة وفقًا لقولــه عليه الصلاة والسلام: كلكم راعٍ وكلكم مســؤول عن رعتيه.

ضرورة إعادة الاعتبار إلى العامــل ومراعــاة نفسيته وكفالة حقوقه، وتوفير الشروط النفسية الصـحية والاجتماعيـة والأمنيـة والنقـل والترقيـة والتعويضـــات والتشـــجيعات والســـكن، وســـائر متطلبـات الحيـاة الكريمـة لقولـه عليـه الصـلاة والسـلام: "اعطـوا الأجـير حقـه قبـل أن يجـف

عرقه" وكذلك قوله: "من أمسى كـالاًّ من عملـه أمسى مغفورًا له".

إعادة النظر في سياسة الجمـارك في ضـوء تحقيق وحدة المغـرب العـربي، وتشـجيع إنشـاء سـوق عربيـة وإسـلامية مشـتركة لنخـرج من الحصـار الجمـركي التقليـدي الـذي صـار عائقًـا لضـرورة التبـادل الـوظيفي للمنتـوج الـزراعي والصـناعي، وتبـادل المصـالح وتكامـل الـثروات والإمكانات والطاقـات البشـرية والطبيعيـة على مسـتوى أوسـع عـبر البلاد الإسـلامية، وللتخلص من المضـايقات الـتي تفرضـها علينـا الـدول المنتجة الثرية كالذي حدث لليبيا بسبب الموقف الأمريكي، والذي حدث لقبرص التركية وللبترول الإيـراني، وهـو مـا يثبت ضـرورة التكامـل الاقتصـادي سـواء في الإنتـاج أو في الاسـتهلاك على مستوى أوسـع مغـاربي وعـربي وإسـلامي، دون أن نغفـل التفتح على جيراننـا الأفارقـة لتعميق سياسة الوحدة الأفريقية.

إنشـاء مؤسسـات إداريـة ذات الاعتمـادات الماليـة لرعايـة المبـادرات الصـناعية للبحث والاكتشـاف والتجديـد والتطـوير في مختلـف ميادين الصناعة والتكنولوجيا، مع تسهيل التعامل سـواء في الـداخل أو الخـارج، وذلـك برفـع الحواجز الجمركية أمام هذه المبادرات وتخفيـف أو إعفاء المشاريع من هـذا النـوع من الضـرائب غير المباشر.

إعـادة النظـر في سياسـة الملكيـة العامـة للحفـاظ عليهـا من الوقـوع في يـد الأجنـبي، أو

ذوي الحظوة لقوله تعالى في شأن المـال: "كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم".

وضع معايير تحدد مجالات تدخل الدولــة في الملكيــة الصــناعية وحمايــة مبــادرات القطــاع الخاص على أن لا يتحول هذا الأخير إلى محتكر، أو يتعدى حدود المصلحة العامـة فيصـير طفيليًـا اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا.

وضع معايير لحماية الجودة، وحق المستهلك هذا وأن الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ضوء هـذه السياسة، ستعمل دومًا بعون الله وتوفيقــه على مراقبة وتجديد هذه السياسة وفـق المسـتجدات ومطــالب الصــيرورة الإنتاجيــة والاســتهلاكية، لمعرفة مدى ما تحقـق من الأهـداف والمقاصـد والحاجات، ضمن سياسـتها الإسـلامية الشـرعية الشاملة، حتى تكون الصناعة متجاوبة مع غيرهـا من المحـــاور المكونـــة للبرنـــامج السياســـي المتكامل، واكتشـاف المعوقـات والموانـع الـتي تظهر في الميدان عند التطـبيق قصـد معالجتهـا وتحقيــق الخطــة الإنمائيــة الشــاملة في أوانهـا ومكانها بالدقة العلمية السياسية الشرعية الــتي تنتهجها الجبهة.

3- التجارة:

التجارة كما تتصورها الجبهة الإسلامية للإنقــاذ هي شرايين الاقتصـاد فيهـا يوظـف الإنتـاج وعن طـــري توجـــه الـــثروات، وبواســـطتها تتكامـــل المصالح، وبفضلها يكـون التـوازن المفضـي إلى تحديـــد القيم الماديـــة في نطـــاق الشـــرعية الإسلامية والمصالح المتبادلة؛ فلا تكون مصـلحة

المنتج على حساب المستهلك، كما لا يكون العكس، ويكون ربح البائع على الزبون، ولا يصح العكس أيضًا لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: لا ضرر ولا ضرار، ولتحقيق هذه المقاصد تنضبط التجارة حسب سياسةٍ للإنقاذ وفق الطرق التالية:

أولاً: إصلاح المنظومة التجارية، بإزالة الاحتكار والربا والوسطاء، وجميع أشكال الطفيليات الاقتصادية كالغش وإخسار الميزان وبيع الغرر.. لقوله عليه الصلاة والسلام: " من غشنا فليس منا".

ثانيًا: إعادة تنظيم التوزيع والعمل على تحقيق لا مركزية المؤسسات.

ثالثًا: تغيير سياسة التسويق لتحقيق اللامركزية، وإزالة السوق السوداء وتشجيع التنافس والوفرة. وتيسير أو توفير حاجات الطلب الضرورية، وإعطاء الأولوية للسوق الداخلية عن الأسواق الخارجية في توزيع المنتجات الوطنية.

رابعًا: إعادة النظر في سياسة التسعير بمقارنة الغلاء والتضخم وفقًا للقاعدة – لا ضر ولا ضرار.

خامسًا: التوفيق بين البيع والشراء، ويتم حسب ما تنص عليه الشريعة الإسلامية، لضمان المصالح وصيانة القيم.

سادسًا: إعادة الاعتبار إلى نظام المساهمة، وتشجيع ظهور الشركات التجارية الحرة

لتنشيط الاقتصاد، وتيسـير طـرق التوزيـع وتحقيق الوفرة.

سـابعًا: إعـادة الاعتبـار إلى الضـوابط الشـرعية والمنهجيـــة الفقهيـــة في إبـــرام العقـــود التجاريـــة، وتنظيم الشـــركات وضـــبط المعاملات في كـل المسـتويات، للحفـاظ على المصـالح وتـأمين الحقـوق المـبررة للواجبات.

ثامنًـا: إيجـاد المؤسسـات الإعلاميـة الاقتصـادية والتجاريــة لمســاعدة التجــارة والمنتجين والمستهلكين على التعـرف على البضـائع والمـــواد الاســـتهلاكية ومراكـــز توزيعهـــا وطــرق الحصــول عليهــا، قصــد تســهيل التبـادل التجـاري بين المسـتهلك والمنتج؛ حـتى يجـد كـل إنسـان حاجتـه على قـدر مستواه وكفايته.

تاسعًا: وضع جهاز استقبال إداري تقني اقتصادي للإشراف على هذه المؤسسات.

عاشرًا: وضع سياسة التجارة الخارجيـة بنـاءً على متطلبـات اسـتقلالية الاقتصـادية وحمايتـه بالشروط التالية:

ضــبط التعامــل التجــاري الخــارجي وفــق الحاجــة والــوفرة في الــداخل؛ حــتى لا يكــون التسويق الخارجي على حساب السوق الـداخلي أو المنتج أو المستهلك.

منع احتكار التجارة، إلا في حـالات اسـتثنائية تكـون الدولـة ملزمـة بـذلك؛ لضـمان المصـالح الكبرى السياسية والاقتصادية وغيرها.

ضـرورة مراعـاة التـدرج في تحقيـق حريـة التبـــادل التجـــاري، للمحافظـــة على المـــيزان الاقتصـــادي الضـــروري الـــذي يكـــون بين حجم الصـادرات والمسـتوردات، وأن تعطي الأولويـة في المراحـل المبكـرة من هـذه السياسـة إلى المواد المصنعة والضرورية صحيًا ومعرفيًـا لفـك الحصار عن عبقريـة الأمـة، وإرادتهـا للمسـاهمة في الحظـوظ الحضـارية، والجهـود الرسـالية لتـؤدي مهتمتهـا حيـال الإنسـانية، والعمـل على إقـرار السـلم بـالمفهوم الإسـلامي والعـدل، ومناصـرة الشـعوب الضـعيفة والأمم المتضـررة بالسياسـة الاسـتعمارية، والتخفيـف من وطـأة التبعيـة والتخلـف والفقـر والجـوع والمـرض والجهـل والضـلال، وإن اسـتلزم ذلكم سياسـة الكفاف.

يخضـع مـيزان الصـادرات والـواردات إلى معيار الخطة الإنمائية الحضارية البعيـدة المـدى؛ كي لا تحوّل المـواد الأوليـة الصـناعية الحضـارية كالطاقة والمعادن إلى مواد استهلاكية آنية، ممـا يجعل سياسـة الجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ تنصـف الأحفـاد وتـراعي حـاجتهم لزمـانهم، ممـا يجعـل النهضـــة الاقتصـــادية والحضـــارية ذات النفس الطويل عبر الأجيال في المستقبل.

وضـع مـيزان بين الصـادرات والـواردات من نفس النوع لحماية المنتوج الوطني، مع مراعـاة ضـــمان الجـــودة، وأن يـــؤدي إلى دعم الدولـــة للمنتوج المحلي.

يعتـــبر المنتـــوج المصـــدر للخـــارج من أهم الميـــادين الـــتي تتبلـــور فيهـــا إرادة الشـــعب الجزائري لفرض وجوده بجهده واجتهاده لكسب

الثقـة بـالجودة، مـع الاعتـدال في الأسـعار حب مقتضيات السوق العالمية المبنية على التنافس.

ضــرورة إعــادة النظــر في العلاقــات مــع الصندوق النقدي الدولي، وسائر الهيئات الماليـة والتجارية المتورطـة في الأزمـة الحاليـة، وإثـارة مشــكلة المديونيــة في ضــوء المســتجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تطرحها سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

ومن ثمَّ فالسياســة التِجاريــة للجبهــة الإسـلامية للإنقـاذ تكـون مكملـة ومتكاملـة مـع سياستها الزراعية والصناعية في نطـاق اقتصـاد محقق للاستقلال والوفرة والنماء والتجـاوب مـع متطلبات النمو الاجتماعي والثقافي والحضاري.

4- المالية:

تشكل السياسة النقدية أخطر العوامل التي تساعد على التحكم المنهجي في الاقتصاد قصـد حمايــة الــثروات من الضــياع؛ لضــمان النمــو والازدهــار كمقصــدين من مقاصــد السياســة الاقتصـادية للجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ، ولـذلك تنضبط السياسة النقدية للجبهة الإسـلامية سـب الطرق التالية:

إعـادة النظـر في القيمـة النقديـة لإعطائهـا قيمتها الحقيقية الموحـدة، سـواء في الخـارج أو الداخل حسب الشروط المالية، وحيثيات التبادل التجاري بين الصادرات والـواردات، ممـا يشـكل الحوافز الحقيقيـة للإنتـاج، على أن ذلـك يخضـع إلى التحـديات الشـرعية الإسـلامية للسياسـة النقدية.

إعــادة النظــر في تســعير العملــة داخليًــا وخارجيًا لحماية القدرة الشرائية لـدى المـواطن في الداخل والخارج أو تقوية الحافز لجهد المنتج وحماية القيم الاقتصادية.

ولضمان القرار السياسي سواء في الـداخل أو الخـارج تعتمـد ميزانيـة الدولـة على المصـادر التالية:

الثروات الطبيعية.

المنتــوج الــزراعي والصــناعي والتجــاري، والاعتمـاد على توفـير شـروط الاكتفـاء الـذاتي، وعدم الاتكاليـة على الغـير، مـع ضـرورة ضـمان العدل.

وبناءً على ذلك يعاد النظر فيما يلي:

سياسة الضرائب الجمركية.

اعتبار الزكاة والأوقاف من الموارد الشرعية للدولة ما التزمت الدولة بالسياسة الشرعية.

وفي حالات التأزم الاقتصـادي أو الاجتمـاعي يكــون صــندوق التكافــل الاجتمــاعي والقــرض الشرعي. إن الدول الـتي تسـتلف من مواطنيهـا لعدلها، خير من تلـك الـتي تغتصـب أمـوالهم، أو تعتمــد على أســلوب التضــخم أو المديونيــة الخارجية.

تشـجيع الجزائـريين وسـائر المسـلمين من ذوي الـــثروة في الخـــارج، بمــــا في ذلكم المهاجرين، على وضع أموالهم في صالح تحريك الاقتصاد الوطني ليحقق الكفاية المطلوبة، وهــو من ضــروب الجهـاد بالمـال، وذلـك سـواء عن طريـــق القـــرض، أو عن طريـــق التـــبرع أو

الاستثمار، على أن الدولة تلتزم بجميع الضمانات للحفاظ على أرزاق الناس.

إعادة النظر في سياسة البنوك قصد ضمان ثروات الدولة وأرزاق المواطنين، وسائر المساهمين في إثراء البلاد عن طريق الاستثمار؛ لضمان حرية القرار السياسي سواء في الداخل أو في الخارج.

إنشاء بنوك إسلامية وصناديق للقرض والتوفير الخالية من الربا بكل أشكاله الضامنة للمصالح العاملة على ضمان روح التكافل، والتعاون والرقي الاجتماعي والنمو الاقتصادي. وبناءً على ذلك تحدد في كل سنة ميزانية الدولة حسب الحاجات العاجلة والآجلة. بميزان يضمن التحسن التدريجي والنمو الاقتصادي بالسرعة المطلوبة حسب حيثيات المستجدات السياسية والأحداث التاريخية، سواء في الداخل أو في الخارج، على أن سياسة الميزانية تلتزم بأن تصرف المالية حسب سلم الأولويات الذي يحدد حسب المستجدات، باستثناء الزكاة التي تصرف لما حدَّده الشارع الحكيم لها.

تعديل وسيلة الجباية التي صارت فوق مستوى طاقة المواطنين وصارت عاملاً من عوامل الغلاء الفاحش والتضخم، وسياسة نهب المواطن، واغتصاب ماله باسم القانون والمصلحة العامة، وكأن المصلحة العامة في أضرار الموطن، وتكليفه ما لا يطيق، فلابد من وضع حد من هذا التعسف لدفع عجلة النماء العادل.

السياسة الاجتماعية:

تنطلق السياسة الاجتماعية للجبهة الإسلامية للإنقاذ من مبدأ تكريم الإنسان الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾، وذلك بدءًا بكفالة الحقوق والحريات التي كفلها الشارع الحكيم، المحققة لنموذج "خير أمة أخرجت للناس" بالتساوي لجميع الناس، باعتباره النموذج القائم على التكافل الاجتماع المانع صراع الطبقي والطائفي.

ومن ثمَّ فإن السياسة الاجتماعية للجبهة الإسلامية للإنقاذ تتمحور في العناصر التالية:

أ- حق الوجود:

من أبعاد التكريم الرباني للإنسان أن جعل وجوده نعمة، واتَّخذ مهمته مبررًا لوجوده، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ فبرر الله الوجود بالعبادة، ولم يبرره بالكسب الذي اعتبرته النظريات الحديثة ابتداءً من مالتوس إلى ماركس عالة على الاقتصاد وطفيليًا في الكون. كما أبرز التكريم في علاقته بربه أيضًا من علاقته بالأكوان التي سخرها له فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

وإذا كان الإنسان – بحكم التكريم – هو محور الكون بفضل فعاليته؛ فإن هذه الفعالية ليست بالفعالية الحيوانية التي لا تتجاوز حدود

الاستهلاك؛ بل هي فعالية كونية تتجاوز الحاجات الفردية والجماعية الآتية إلى الأبعاد الحضارية من حيث هو – أي الإنسان – يصير صانعًا للحضارة وليس أبدًا عالة عليها. ولذلك فإن ما رفع من شعارات لتحديد النسل ما هو إلا مسٌّ بكرامة الإنسان، وهدر لقيمته واستلاب لاستحقاقه للمكانة الأولية في الكون. يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أولادكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ على أن الأمة مطالبة بكفالة الرعاية والعناية لجميع المواليد بالتساوي في حظوظها، ويعد الحرمان من ذلك مسًّا بقيمة الوجود.

ب- حق الرعاية والعناية:

إن حق الرعاية والعناية في جميع مراحل النمو من النطفة إلى آخر مراحل الرشد والاكتمال وأرقى مستويات التحصيل مرتبط بقيمة الوجود، باعتباره وجود رسالي تاريخي حضاري. ومن ثمَّ فإن الحق في التربية حث شرعي يتضمن الواجب الذي يخوِّل المسؤولية التربوية لكل من الأم والطفل المعنى بالتربية؛ ولذلك فهي حق وواجب في أن واحد لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فربط النص الشرعي بين حق الإيجاد وحق التعلم لمضمون الرسالة إشارة إلى أن الرسالة من مبررات الخلق، وأن التعلم المحقق لجدارة حمل الرسالة واجب بحكم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولذلك فإن سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ تقوم على مبدأ كفالة هذا الحق للجميع، بمقتضى مبدأ المساواة في الإسلام وهو ما يتطلب الشروط الإصلاحية التالية للمنظومة التربوية ابتداء من السياسة التعليمية السائدة الآن المتورطة في كل أوضاع الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية..

1- السياسة التعليمية:

1- إذا كانت السياسة التعليمية جزءًا من سياسة الدولة عامة؛ وإذا كانت السياسة التي تنتهجها الجبهة الإسلامية هي السياسية الشرعية فإن السياسة التربوية ملزمة بكل ما أزمتها مقاصد الشرعية الإسلامية، من ضرورة كفالة حق التربية لجميع من في الوطن دون تمييز عنصري، أو طائفي أو عرقي أو ديني أو نوعي..
2- اعتبار التربية كما هي حق للفرد، هي حق للأمة بضرورة مراعاة جميع مصالحها..
3- تحدد ميزانية التربية في نطاق ضمان العدل والنوعية معًا..

2- ميزانية الدولة للتربية:

تحدد لتحقيق التوازن بين الحاجة التربوية وبين التمويل، باعتبار التربية من أهم ميادين الاستثمار..

3- التوجيه التربوي:

يتقيد بالقيم التالية:

الميـــول والخـــبرات للحصـــول على أرقى الكفاءات..

القيم الإســـلامية كعـــدم الاختلاط ونظـــام الآداب والمعـاملات الاجتماعيــة الــتي ينبغي أن تكون وفق الضوابط الشرعية.

مراعـاة التوظيـف على مسـتوى الكسـب، وعلى مسـتوى المهمـة الرأسـالية والحضـارية، كمجال لمساهمة الجيل المعـد لـذلك، ومواجهـة البطالة وتغطية الوظائف المختلفـة المسـتويات في التعقيد التكنولوجي الوظيفي.

ضـــبط سياســـة الامتحانـــات حســـب هـــذه المعـــايير كلهـــا للتخفيـــف من الفاقـــد الـــتربوي وعطالـة الخـريجين، بعـد إنهـاء مرحلـة التربيـة والتكوين. ولتلافي ما حصـل تمنح فـرص جديـدة للمتواجـــدين في الشـــارع والـــذين طـــردوا من المعاهـــد التربويـــة، إنْ بواســـطة الامتحـــان وإنْ بغـــيره، قصـــد كســـبهم للمشـــروع الاقتصـــادي والرأســـالى الحضـــاري الـــذي أعـــد لهم، وذلـــك بإعـــداد مؤسســـات خاصـــة لهم من ثانويـــات وجامعـــات شـــعبية اســـتدراكية، قصـــد ضـــمان ترقيتهم الاجتماعية.

4- المحتوى التربوي أو المنهج:

يعـــاد النظـــر في المحتويـــات التربويـــة في نطاق حاجـة البلاد إلى النهضـة الشـاملة، وذلـك عن طريق ضمان التوعية التربوية المطلوبة في كل المستويات وجميع التخصصات.

إعادة النظر في المحتوى التربوي؛ من أجـل تصـفيته من الأيـديولوجيات الغازيـة والمفـاهيم التي تحمل قيمًا تتعارض وقيم الأمـة الإسـلامية،

وذلك لصيانة الشخصية وتحقيق الأصالة وتشجيع روح الإبداع.

إعادة النظـر في الطـرق التربويـة الشـائعة عنـدنا، والـتي تعمـق هـوة التقليـد الأعمى، ممـا جعـل جامعاتنـا تسـتهلك المعـارف، بـدلاً من أن تنتجها، وصارت تكوِّن المتعلمين بدلاً من العلماء العارفين. وإعطاء الصبغة الإسلامية للتخصصـات التكنولوجية مع ضمان أعلى المستويات التربوية للخـبرة التكنولوجيـة، لتجـنيب البلاد الحاجـة إلى الخبرات الأجنبية.

5- إعداد المعلمين:

إعادة النظر في وضع المؤسسـات التربويـة بإعداد المعلمين لمختلف المسـتويات التعليميـة، وذلــك لضــمان أعلى المســتويات في الخــبرة، وأرقى النمــاذج في المســلكية، باعتبــار المعلم والمربي قدوة، ليس فقـط لتلاميـذه، بـل للأمـة بأكملها، وذلك يعـني إعـادة الاعتبـار إلى رسـالة المــربي وقيمتــه ومكانتــه في الأمــة الإســلامية اقتـداءً برسـول اللـه ﷺ مـع ضـرورة رد الاعتبـار المادي، ليتكافأ مع الواجبات الجسـام المطلوبـة منه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمــة، باعتبــار أن الــواجب يكمن مــبرره في الحقــوق. فكلمـا زاد الطلب الـنزعي في المهمـة زاد حـق مردودها المادي والمعنوي على صاحبها.

6- النظام الاجتماعي في المؤسسات التربوية:

يعــد النظــام الاجتمــاعي في المؤسســة التربويــة من أهم الشــروط التربويــة لتكــوين شخصية التلميذ والطالب، بحيث يكون المجتمــع التربوي نموذجًا سليمًا ممثلاً للأمة.

ضـرورة توفـير الشـروط النفسـية والماديـة والاجتماعية في الحياة التربوية داخل المؤسسة،

مما يجعل الشخصية الإسلامية تنمو في شكل متكامل شامل، صحيًا ونفسيًا وعقليًا وثقافيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا.

7- السلم التعليمي من الحضانة إلى ما بعد الجامعة:

إعادة النظر في السلم التعليمي من المدرسة إلى الجامعة في ضوء المستجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وجعل الانتقال من مرحلة إلى أخرى خاضعًا إلى الشروط التربوية لا غير. مع تعريب كل المراحل الجماعية التي لم يتم بعد تعريبها.

8- مرحلة الإلزام:

رفع مرحلة الإلزام إلى التعليم الثانوي.

9- الوسائل التعليمية:

إعادة النظر في الكتب المدرسية بناءً على مقاصد الشريعة، ومتطلبات التربية الإسلامية.

10- المنظومة التربوية الرياضية:

إعادة النظر في السياسة التربوية الرياضية، بحيث تصير وسيلة لنمو الجسم والرعاية النفسية والأخلاقية، مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية.

11- التربية الإعلامية:

إعادة النظر في جميع برامجها ومقاصدها، كي تتحول من وسيلة غزو فكر ثقافي إلى وسيلة مناعة ثقافية وقناعة إيمانية وجدارة فنية،

تتبلور فيها عبقرية الأجيال، وقدرتها على الإبـداع والتفوق.

12- سياسة المنح في الداخل والخارج:

تضبط سياسـة المنح، بحيث تكـون لمن هـو أيضًـا اسـتحقاقًا، سـواء في الجـدارة أو في الحاجة.

13- النظام الإداري لسياسة تسيير المؤسسـات في كل المستويات:

يعـاد النظـر في سياسـة التسـيير الإداري؛ بحيث يكـون ثمـة اعتـدال في المركزيـة واللامركزيـة، على أن تعتمـد الـروح الجماعيـة، ويجمع بين المعاهد التربوية والإدارية، مما ييسـر مهمة المعلم والمتعلم معًا ويخدم مصلحة البلاد.

14- سياسـة التوظيـف في الميـدان والتسـيير والبحث:

يعاد النظر في سياسة التوظيف في الحقـل الـتربوي سـواء في التسـيير، أو الممارسـة الميدانيـة للعمليـة التربويـة والبحث لتحقيـق النوعية.

ج- حـق الانتخـاب والترشـيح والمشـاركة في التسيير:

إن الإسلام دين الحرية، باعتبار هذه الأخـيرة تقـوم على المسـئولية من حيث هي تعبـير على الإرادة الخـيرة الواعيـة، القائمـة على القناعـة الإيمانية والمناعة الأخلاقيـة الوجدانيـة من ذلكم قولـه تعـالى: فِطْـرَتَ اللـهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللـهِ وقولـه : كـل مولـود يولـد على الفطـرة، وقـول عمـر بن الخطـاب

رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. فالإنسان بناءً على هذا المنظور العميق الإسلامي للإنسان، يجعل هذا الأخير مسؤولاً، وبمقتضى هذه المسؤولية يستحق الحقوق التالية:

حقه في الانتخاب أو اختيار القيادة.

إن حقه في الانتخاب يخوِّله حقًا للترشيح، ما دام قد توفرت فيه الشروط التالية: الإسلام – العدالة – القدوة – الكفاءة أو الجدارة – الميول الشخصية والاستعداد النفسي والحيثيات الموضوعية التي تتطلبها المستجدات.

حقه في التسيير وهو تولي المسؤوليات الإدارية والمهنية، وهي تقوم على التقوى والجدارة والمسلكية لا غير؛ فبموجب ذلك يكون الموظف أو المعين للمسؤوليات مسؤولاً أمام الله، ومسؤولاً أمام الأمة، ومسؤولاً أمام المصلحة التي يشرف عليها، أو يكون عنصرًا مسيرًا منها، وذلك حتى لا تضيع الأمانات بضياع المسؤولية قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته".

4- توفر الثقة بموجب اشتمال الشخصية المسؤولة على الصفات السابقة الذكر. والثقة هنا بمعناها الشرعي والأخلاقي المهني والسياسي.

د- إفساح المجال للمبادرة:

لتكــــون الأمــــة في مســــتوى مواجهــــة المســتجدات السياســية والاقتصــادية، الثقافيــة والحضارية، لابد من فك القيود التي قضـت على روح المبـادرة في شـعبنا العصـامي، الـذي كـاد يحال إلى اتكالية خطيرة، لابد من الحريات التي تفسح المجال أمام المبادرات الإنتاجية الإبداعية في جميـع مجـالات الحيـاة، وهـو شـرط نفسـي تفرضه طبيعة المرحلـة لتأهيـل الأجيـال المقبلـة للمهـام الكـبرى الـتي تنتظرهـا، على مسـتوى الرسالة والحضارة والتاريخ.

هـــ - ضـــمان الأمن على الـــدين وعلى النفس والعقل والعرض والمال:

إن الإســلام من مقاصـــد شـــريعته ضـــمان المصـــالح ومن ضــــرورياتها كفــــل الإســــلام الضــروروات الخمس، والــتي لا يكــون الإنســان إنسانًا إلا بها وهي:

كفالة الدين.

النفس.

العقل.

العرض.

المال.

فكفالة هذه الضرورات توفر شرطًا نفسيًا لا يكون الاستقرار إلا به.

و-إصلاح الأسرة الجزائريـة في نطـاق الشـريعة الإسلامية:

اعتنى الإسلام بالأسرة عناية لم يعرفهـا دين ولا فلسفة ولا نظـام، لا قـديمًا ولا حـديثًا، وذلكم

لخطورة وظيفتها في الأمة ونجمل هـذه العنايـة فيما يلي:

الرعاية والعناية بالطفل إلى سن الرشد.

ضمان التكافل الاجتماعي إلى حد الإيثار.

ضـــمان التماســـك الاجتمـــاعي بواســـطة التماسـك الأسـري، وإذ اشـتملت الأسـرة على هذه الخصـائص وأدت هـذه المهـام في مختلـف العهود والعصور منذ عهد الرسـول إلى اليـوم، فإن ذلك ليعد من أهم نتائج اهتمام الشـرع بهـا، ولئن تعرضــت الأســرة إلى التضــرر من جــراء ظـروف الاسـتعمار بشـكلَيْه القـديم والحـديث؛ فإنها لم تستسـلم لسياسـته، وبفضـلها اسـتطاع الشعب الجزائـري أن يواجـه في غيـاب الدولـة، وأن يثور في وجه الأعداء. ونتيجـة لمـا تعرضـت له الأسرة من سياسة التعذيب والانحلال والفقر والجهـل؛ فـإن إصـلاحها ليُعـد من أوسـع ميـادين سياسـة الجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ، ولـذلك فهي تقترح إزالة العقبات التالية:

توفـــير الشـــغل لأصـــحاب الأُســـر، لإيقـــاف الهجرة التي اتخذت سبيلاً لتفكك الأسرة.

إعـادة النظـر في سياسـة الإسـكان لتوفـير المسكن لتوفير المسكن الكريم لبيت الزوجيـــة، منعًا للتشرد وسـائر آفـات غيـاب السـكن، الـتي عرفته البلاد بحظر البنـاء وتعطيـل المجتمـع من تشييد عمرانه وفـق حاجاتـه الآنيـة والمسـتقبلية التي تمليها ضـرورة نمـوه السـكاني في مرحلـة النمو الشامل.

العنايـــة بالمهــاجرين وتيســـير عـــودتهم إلى بلادهم، وذلـــك بتوفـــير مـــا جعلهم يلجـــأون إلى الغربة ويتجرعون مرارتها وغصة آلامها، ووحشـة البعد عن الوطن.

العناية بـالأم، خاصـة الـتي تـرعى الأطفـال، تُسعف - في حالة الضرورة – بمساعدة توظّــف لذلك وتعطِي منحة للأمومـة، حيث يعتـبر عملهـا البيتي وظيفة اجتماعيـة وتربويـة تتقاضـى عليهـا جراية بنفس المستوى الذي يتقاضاه العامل في المعمـل أو في الحقـل أو غيرهمـا، مـع مراعـاة مستوى الخبرة والكفاءة والجـدارة بالنسـبة إلى التربية البيتية. ويقوم بمهمة التوظيف والإشراف والتوزيـــع للموظفـــات، جهـــاز من التكافـــل الاجتمــاعي، يضــمن جميــع الشــروط الأمنيــة والأخلاقية والنفسية..

العنايـــة بـــالمرأة: نظـــرًا لســـمعة المـــرأة المسلمة التي اكتسبتها في عهد الرسول وبمــا توصلت إليه في نموذج أمهات المؤمــنين ومنهن عائشة رضي الله عنها بعلمها – حتى كانت رواية لأكثر من ألفي حديث – ومشاركتهن مع الرسول في غزواته وموقـف أم سـلمة بالحديبيـة – ممـا دل على وعيها السياسي – وفي عصـور النهضـة العلمية والفكريـة، مشـاركتها بعبقريـة النابغـات في الفكـــر والأدب والفقـــه والسياســـة والطب، وفي عهود كثيرة كانت استماتتهن في المواقــف الجهاديـــة في المغـــرب والأنـــدلس، وفي عهـــد احتلال الجزائر، وثورة نوفمبر الـتي بـرزت فيهـا مجاهدات مؤمنات أحيت أمجاد المرأة المسلمة، فإن مهمتهـا في هـذه المرحلـة – وقـد أصـبحت

تمثل أكثر من ثلثي نسبة الطلبة الجامعيين وتلامذة الثانويات – فإن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تعتبر هذه الطاقة من العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية الجديرة بالاهتمام، قصد توجيهها الحكيم، وتوظيفها الرشيد في الخطة الإنمائية الحضارية الشاملة، وذلك بتخصيص المرأة بالعناية التالية:

رفع مستواها العقائدي وجودة تكوينها المسلكي.

رفع مستوى وعيها السياسي والتربوي والحضاري.

إعادة الاعتبار إلى مكانتها الإسلامية بحفظها من التعسف والانحلال وآفة التقليد الأعمى.

توعية المجتمع كي يدرك أهمية طاقتها وعظيم رسالتها.

من أجل ذلك كان الإسلام وما يزال الدين الذي لم يميز المرأة عن أخيها الرجل، بكل ما كرم به الإنسان وشرفه وفضله، لقوله عليه الصلاة والسلام: النساء شقائق الرجال وقوله: " استوصوا بالنساء خيرًا".

إعادة النظر في سياسة المنح العائلية خاصة للعمال، أو الذين مستوى دخلهم لا يكفي لضمان الضروري من الغذاء.

رفع مستوى جراية المتقاعدين الذين جمدت جراياتهم وصارت لا تكفي – أمام التضخم الذي آلت إليه البلاد – وأرامل الشهداء وذوي الحقوق.

العناية بالعجزة والمعـوقين بتحديـد جرايـات تكـون في مسـتوى كفـالتهم الاجتماعيـة، الـتي تحفــظ لهم كــرامتهم، وتجعلهم في مــأمن من الضــياع أو الإهمــال أو التفريــط، ممــا يجعلهم يشـعرون بـدفء احتضـان أمتهم لهم. والجـدير بالملاحظـة أن هـذه العنايـة لجميـع المسـتحقين بدون تميز نوعي أو عنصري أو طائفي أو ديني..

إعـادة النظـر في سياسـة السـجون وطـرق معاملـة المسـاجين لضـمان كـرامتهم ورعـايتهم جســميًا ونفســيًا واجتماعيًــا وتربويًــا: إســلاميًا ومعرفيًا ومهنيًا وإعدادهم للإدمـاج الـوظيفي في الحيـاة الاجتماعيــة والاقتصـادية والثقافيــة بعــد خروجهم.

وضـع مـيزان بين الجرايـة المناسـبة للجهـد والخـبرة وبين القـدرة الشـرائية الـتي تسـتجيب للحاجات الاستهلاكية عمومًا.

الإصلاح الاجتماعي الشامل:

يعــد نظــام الحســبة في الإســلام من أحكم الطرق الشرعية لضبط العلاقات بين الناس في الميادين التالية:

الشارع.

السوق.

المحور الثقافي والحضاري..

إن السياسة الثقافية والحضارية من منظـور الجبهة الإسلامية للإنقاذ، تتلخص في حماية الأمة من الغزو الثقافي والقهر الحضاري، ممــا يجعــل

الأمـــة على أتم اســـتعداد للنهضـــة بثقافتهـــا الإسلامية وحضارتها خاصة فيما يلي:

الدين وشريعته.

الأخلاق الإسلامية وقيمها.

الفكر الإسلامي وعبقريته.

حريـة المبـادرة الذكيـة العمليـة والشـرعية وإشراقاتها.

وهي ثقافـة تكامـل فيهـا العقـل مـع الشـرع والأخلاق مـع الفن والعلم نظـرًا وتطبيقًـا، إنهـا ثقافة خبرة أمة وإرهاصة تاريخه وفعاليتهـا. إنهـا مجموعـة الشـروط النفسـية والكنـوز التاريخيـة والآفاق المسـتقبلية؛ حيث تصـبح مجـالاً تـترعرع فيهـا أجيـال من العبقريـة، إنهـا سـر اسـتمرارية ومبرر الوجود الكلي لخير أمـة أخـرجت للنـاس، أمة الرسالة أمة الحضارة.

وخلاصة القول فإن هـذه المقاصـد النفسـية والتاريخية تتحقق بضمان الشروط التالية:

ضرورة مراعـاة نفسـية الأمـة من حيث هي أمة ذات استحقاق لحياة العزة، حياة المشــاركة الفعالة في الجهـد الحضـاري على أوسـع مـدى، وذلـك بإفسـاح مجـال الحريـة أمـام المبـادرات العبقرية.

ضرورة الاعتبار إلى الدين الإسلامي، كنظام حياة ضامن لسـعادة الـدارين، ومحقـق لمقاصـد ومبررات التكريم الذي سبق ذكره.

إعادة الاعتبار إلى العلم وتقنيته، حـتى يعـود إلى مكانته في الأمة تلك التي أعطاها له القرآن الكـريم والسـنة، بـرد الاعتبـار إلى العلمـاء، من

حيث هم أهـل إلـذكر، وهم أولـوا الأمـر فلا يبث أمر عظيم من أمـور الأمـة إلا بعـد استشـارتهم، وفي ضـوء حكمتهم وفي نطـاق توجيهـاتهم، مـا أطاعوا الله ورسوله وأجادوا وأصلحوا وبينوا.

تشـجيع تعميم اسـتعمال اللغـة الوطنيـة في سائر أنحاء القطر بدون استثناء؛ لضمان التفاهم بين الجزائـريين وحفاظًـا على وحـدة القطـر، ولأنها لغة القرآن والسـنة وهـذا لا يعـني نبـذ مـا سواها مما يسـاعد على تيسـير التجـاوب وإثـراء العلاقات الثقافية، وبهذا تصير الثقافـة مانعًـا من موانـع التصـدع لوحـدتنا، وحـامي حمى الأمـة الثقـافي والحضـاري من الغـزو الفكـري والحضاري، ومصدرًا من مصادر الثروة الإيمانيـة والأخلاقية والفنيـة والعلميـة والتكنولوجيـة، ممـا يجعـل البلاد تضـمن لأجيالهـا مسـتقبلاً زاهـرًا تطورت فيه أصالته، وتفوقت بالتجديـد عبقريتـه، ليكون من ورثة الرسالة وبناة الحضارة، وتحقيقًا لذلك يعاد النظر فيما يلي:

البرمجة الإذاعية والتلفزة، ونظام المكتبـات وقاعات العرض، والمراكز الثقافية والمسرح.

المركبات الرياضية والفنية ودور السينما.

تشـجيع المجلات العلميـة المتخصصـة والعامة.

توفـير الكتـاب الإسـلامي والعلمي والتقـني، مما يجعل المكتبات في مستوى حاجـة المعاهـد والجامعـات ومراكـز البحـوث، إن السياسـة الإعلامية للجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ هي الميـدان الذي تتجسد فيه حريـة التعبـير، وحـق الأمـة في

استنشاق الهواء النقي من حيث هي نافـذة على العالم، ناقلة لأخبـاره، معرفـة بأحداثـه، موصـلة لعلومـه ومعارفـه وتقنياتـه وفنياتـه في أحـدث أطواره. على أن الخناق الذي عـانت منـه الأمـة في البلاد حرمهـا من حقهـا في حريـة التعبـير والاتصـال الحـر بالعـالم؛ كي تعيش ظروفـه وتستغل علومه وتقنياته، وتوظف أجـود فعاليتـه، وتسـتفيد من أرقى خبراتـه وثمـرات عبقريتـه وتـواكب تطـور اكتشـافاته، وتـدرك أرقى مسـتويات وعيـه الحضـاري والـتربوي، ممـا يسـاعدها على التجـاوب المثمـر ويؤهلهـا للمشـاركة الفعالـة في حـل مشـكلات الإنسـان الحـديث ومعالجـة قضـايا مسـتجدات العصـر، ووضـع حـد لتشـويه الإسـلام، وقمـع المسـلمين ومنعهم من توصيل بيان الإسـلام والـدفاع عنـه، والذود عن كل المسلمين شعوبًا وأمة.

ولذلك فـإن الجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ تعتـبر المرحلة الراهنة مرحلة من أغلى مكاسبها حرية التعبير عن ذاتيتهـا الحضـارية الرسـالية، ومن ثَمَّ يُعد الإعلام شرايين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، الذي فتح على العالم لكي تصبح علاقتنا به ثرية فعالة، لا تعطي إلا من جيد إنتاجها في نطـاق رسـالتها الربانيـة، ولا تأخـذ إلا ملامح من علوم وتقنيـة، ولا تسـتورد إلا مـا جـدَّ، ممـا يصـلح لمواجهـة مـا تسـجد من الحاجـات المناسـبة للصـراع الثقـافي والحضـاري المعـزز للإرهاصات الـتي تجعـل عبقريـة أجيالنـا محققـة للمراد من الاستقلالية الثقافية والحضـارية، ومن ثمَّ فـالأجهزة الإعلاميـة هي مصـفاة الخـبرات ومعيـار للمعلومـات، وتمحيص للأخبـار وإلـزام للمعرفة الإعلامية وتبليغ لكلمة الله.

ولتحقيق ذلك تعمل الجبهة الإسلامية للإنقـاذ على إصلاح ما يلي:

الصحف على اختلافها من يوميـة وأسـبوعية إلى شـــهرية أو دوريـــة، تشـــجع على كشـــف الحقـائق والبحث عنهـا وعرضـها للموضـوعية، تســاعد على معرفـــة واقـــع البلاد في مختلـــف المجالات، وحتى على مستوى العالم، بل تـذهب سياسة الجبهة إلى أبعد من ذلـك فتشـجعها (أي الصحافة) على التخلص من عقـدة النقص حيـال وسائل الإعلام الأجنبية؛ كي يستعيد ثقة الشـعب بها على اختلاف مستويات الثقافة، وذلك لضمان حصانة الصحافي، وإعادة الاعتبار إليـه بنـاءً على أهمية رسالته المذكورة آنفًا.

تشـجيع التخصـص في الصـحافة في جميـع مجـــالات الحيـــاة السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية والحضارية، سواء في الداخل أو في الخـــارج. إن المعلوميـــات الـــتي تطفي على الأسلوب الصحفي في بلادنـا أمسـى من أخطـر عوامـل سـيطرة العموميـات والمسـتوى الـردئ الثقافي، والذهاب بالوعي السياسي والحضاري. إن تجهيل الشعب الجزائري في إسلامه وعمليـة تشـويهه قصـد تنفـيره وتحريفـه لمن أخطـر السياسات الاستعمارية التي سنت على الإسـلام أيام الاستعمار وما تزال إلى اليوم. ولذلك تلفت الجبهة نظر الشعب الجزائري الغيـور على دينـه إلى ضـرورة إنشـاء جرائـد وصـحف تكـون في مسـتوى وظيفـة الـدعوة الإسـلامية المعطلـة، وترشيد صحوته المظفرة وإجلاء

لتضليلهم وتزويدهم، وتحـذير الـرأي العـام تأليبـه على الإسـلام والمسـلمين، إن غيـاب الصحافة الإسلامية الحرة ترك ثغرة خطيرة نفـذ منهـا الغـزو الثقـافي لعرقلـة سـير النهضـة الإسـلامية الـتي هبت الشـعوب لحمـل لوائهـا، وانطلقت الأمة بجدية لتحقيـق آمالها بعـد إزالـة آلامهـا لتضـع حـدًا لسياسـة اسـتعمارية، تركتهـا ضحية لخططها الماكرة وأغراضها الحاقدة.

إن من يريـد الغنـاء في كـل وقت سـيجده، ومن يريد الأفلام يلقَها، وأمـا من يريـد أن يبحث عن دينـه كي يفقـه أو ينشـد علمًـا كي يتعلمـه وينتفـع بـه لا يجـده، لأن وسـائل الإعلام ضـاقت وأوصدت نوافذها أمـام طلاب حريتـه، والحقيقـة والراغبين في الإسلام والشرعية، والبـاحثين عن العلم والتقنية.

ولتفادي هذه الأوضاع المتردية ترى سياسـة الجبهة الإسـلامية للإنقـاذ ضـرورة إصـلاحها؛ كي تصبح صالحة تربوية ومصلحة اجتماعيـة ومقنعـة عقائديًا وفكريًـا ومشـوقة أدبيًـا وفنيًـا، فلا يكـون الجمـال على حسـاب الخـير، ولا تكـون الأخبـار على حسـاب الحقيقـة، ولا يكـون التوجيـه على حساب الأمانة.

في ضـرورة إثـراء وتـدعيم وكالـة الأنبـاء الجزائريـة بالكفـاءات، وأعلى الخـبرات وأرقى التقنيات كي تكون في المستوى المحقق للمراد من الحرية الإعلامية.

هـذا برنـامج طمـوح يعـبر عن رؤيـة شـاملة لمختلف مجالات المجتمع.

لا يتسع المجال بالطبع لمناقشة كل ما جـاء في هذا البرنـامج – وفيـه الكثـير الطيب – لكننـا سـنعرض نقطـة أو نقطـتين يمثلان معالجـة البرنـامج لبقيـة القضـايا، ومـا ينطبـق من حكم عليهمـا يمكن أن يسـري أيضًـا على النقـط الأخرى. فعندما أشار البرنامج إلى العمال قـال: ".. ضرورة إعادة الاعتبـار إلى العامـل ومراعـاة نفسيته وكفالة حقوقه، وتوفير الشروط النفسية والصحية والاجتماعية والأمنيـة والنقـل والترقيـة والتعويضـات والتشـجيعات والسـكن، وسـائر متطلبـات الحيـاة الكريمـة لقولـه عليـه الصـلاة والسـلام: "اعطـوا الأجـير حقـه قبـل أن يجـف عرقه"، وكذلك قوله: "من أمسى كالاًّ من عمله أمسى مغفورًا له" فهذه الفقـرة تنم عن نفسـية الجبهة وفهمها السلفي لقضية العمل والعمـال – وهو فهم لا يكفي مطلقًـا لتعقـد المشـكلة، ومـا اسـتجد من علاقـات لم يكن للمجتمـع الإنسـاني عهد بها قبل الثورة الصناعية – ويبدو أنـه مـا لم يكن هناك حديث نبوي فليس هناك حاجة لإيجـاد حل!

وصياغة الفقرة توضح أنها من وضـع عناصـر بعيـدة عن العمـال أنفسـهم، وأنهـا إنمـا تتـوخَّى اكتسـاب العمـال ــ كمـا تفعـل كـل الأحـزاب ـ بإزجاء الوعود، ورص الكلمـات دون التـورط في تقريرات محددة. ومن غير المعقول أو المقبـول أن لا ترد كلمة "نقابة" في فقرة عن العمال!

فبأي صفة تقيم الجبهة نقابة وتـدعو العمـال للانضمام إليهـا إذا لم يكن في برنامجهـا إشـارة واحدة إلى النقابية.

وكيف تدعو العمال للإضراب دون الاعـتراف بشرعيته!..

لقد كان المفروض والجبهة تعيش في خضم المعركـة أن يهـديها ذلـك إلى النص على حريـة تكـوين النقابـات، وحريـة ممارسـة الإضـراب كوسيلة للانتصاف.

وتشـجيع المفاوضـة الجماعيـة كوسـيلة من وسائل الشورى في الإدارة.

ولكن لما لم يكن هناك حديث نبوي مباشرة أو إشـارة سـلفية منطبقـة؛ فلم تكلـف الجبهـة نفسها عناء التفكير.

وفي الفـترة الخاصـة بالصـحافة ثنـاءٌ جميـل على الصـحافة ودورهـا و.. إلخ، دون إشـارة إلى حريـة إصـدار الصـحف دون تـرخيص من السـلطات، وحريـة إبـداء الآراء دون خضـوع للرقابة، مهما خالفت هـذه الآراء سياسـة النظم الحاكمة..

فهذا هو مـا يهم الصـحافة والصـحفيين، ومـا يمكن الصحافة من أداء دورها..

فيبدو أن الجبهة تزجي الكلمـات المعسـولة، والثناء الجميل والوعود المشرقة، دون أن تشير إلى الطرق العملية للتطـبيق، ودون أن تترجمهـا إلى إجـراءات عمليـة، ودون أن تلـتزم بحلـول معينة محددة وواضحة، وليست إنشائية وعامة.

كمـا أنـه ليس لـديها الحس بـأن كثـيرًا من القضـايا يجب أن تعـالج في ضـوء المسـتجدات، وليس في ضوء المأثورات.

إننا نأمل أن يكون في المحنة التي تعرضـت لها الجبهة ما يدفعها لإعادة النظـر في برامجهـا؛ فتسـتكمل مـا فاتهـا وتعـدل في "التكتيـك" و "الاسـتراتيجية" معًـا في ضـوء مـا تلقتـه من دروس.

* * * *

من المهم الإشـــارة إلى أن الأضـــواء وإن تركزت على الجبهة – فإنها ليسـت الوحيـدة في مجال العمل الإسلامي:

وقد قال الشيخ عبـد اللـه جـاب اللـه رئيس هيئـة "النهضـة الإسـلامية" في حـديث لـه: "... وجمعيتا النهضة، والإرشاد والإصلاح أسستا قبـل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بسنوات عديدة، وقادتهـا يعرفون ذلـك، كمـا يعرفـون أنفسـهم وأبنـاءهم، والجبهـة الإسـلامية تريـد أن تكـرس الفكـر الاستبدادي، وتنظر نظرة أحادية للأشياء، وتجعل المسلمين تحت مظلة واحدة!، وهذا الطرح فيـه تـأثر برواسـب الفكـر الاسـتبدادي لـدى المسـلمين في عهـد الانحطـاط!، ومن واجب المسـلمين أن يحـرروا الفكـر الإسـلامي من الاستبداد!"[1].

وتعد هيئـة الأخـوان المسـلمين في الجزائـر من أقـوى التكتلات الإسـلامية وأكثرهـا تنظيمًـا وانضباطًا، وقد حملت أولاً اسم "جمعية الإرشـاد والإصلاح الوطنية".

ولمناسـبة الـذكرى الثالثـة للانتفاضـة الفلسـطينية في 11/ـ 12/ـ 1990 م (وهي

---

1 [(?)] مجلة الواحـة 15 جمـادي الثـاني 1411 هـ - 13/ 1/ 1991 م ص 3.

توافـــق الـــذكرى الثلاثين لانتفاضـــة الشـــعب الجزائـــري في 11/ــ 12/ــ 1960م) عقـــدت الجمعية اجتماعًا كبيرًا في هذا اليـوم، أعلن فيـه الشـيخ محفـوظ نحنـاح رئيسـها ميلاد جمعيـة سياسية تحمل اسم "حركة المجتمع الإسـلامية" ويرمز لها بالحروف الأولى منهـا (حمـاس) تيمنًـا باسم حركة حماس الإسلامية الفلسطينية.

وفي هذا الاجتماع الذي حضره مندوبون من هيئات إسلامية أخرى استعرض الشيخ محمد أبو سليماني ناشب رئيس الجمعية الخطـوات الـتي اتخـذت للتوصـل إلى "تحـالف" مـا بين التكتلات الإسـلامية الرئيسـية الثلاث (الجبهـة – حمـاس – النهضة) والتي أشرف عليها الشيخ سحنون.

ويبدو للأسف الشديد أن هذه المحـاولات لم تكلل بالنجاح، رغم أن التحالف هـام، بـل حيـوي للجميع.

فهم جميعًا في خنـدق واحـد، ومـا يـوهن أي واحـد منهم سـينعكس على الآخـر، وهي معـانٍ يفترض ألا تغيب عنهم.

فضلاً عن أن جمـع الشـمل مقصـد إسـلامي بالطبيعة، طالبت به الجماهير، وتولته قيـادة هي امتداد جمعية العلماء، وشخصية تتمتع بـالاحترام والتقدير، لأنها تربـط هـذا الحاضـر بالشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس والبشـير الإبـراهيمي هي شخصية الشيخ أحمد سحنون.

وفي زيارتنا للجزائر في يناير 1991 م كـان من أول ما قمنا به زيارة الشـيخ والإلحـاح عليـه في جمـع الشـمل، ولم الصـف.. فقـال الرجـل

مخلصًا: إنه ليس له من عمل سوى هذا، وأنه يعمل له ليل نهار..

ونحن نناشد الأخوة: في الإسلام متسع للجميع، ولن يضيق بأحد، ولا أقل من أن نتبع المبدأ الذي كان يكرره الإمام الشهيد حسن البَنَّا "نتعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا فيما نختلف فيه".

* * * *

ج- دعوة النهضة في تونس

ليس لدينا للأسف الشديد مادة مفصلة وموثقة عن الدعوة الإسلامية الحديثة في الشمال الإفريقي. إن الاستعمار الفرنسي نجح في قطع وشائج الأخوة التي كانت تربط مسلمي المغرب بمسلمي المشرق، ثم جاءت النظم العسكرية أو الاشتراكية ... إلخ فلم تحاول أن تعيد الجسور.

فظل الأمر كما كان تقريبًا، رغم أن الدعوة الإسلامية في الجزائر وتونس تمثل نجمًا صاعدًا في سماء الدعوات الإسلامية.

حركة النهضة في تونس: كان لتونس وضع إسلامي يميزها عن جارتيها: ليبيا والجزائر فقد كانت القيروان مركزًا مرموقًا للعلم الإسلامي في القديم، خلفتها بعد عهد طويل جامعة الزيتونة التي أشبهت إلى حد ما الأزهر.

وظهر من تونس رجالاًت لهم ذكر في العصر الحديث مثل: خير الدين التونسي الذي وُلِّيَ "الصدارة" في الدولة العثمانية، وحاول أن يحيي رميمها، ومثل: الشيخ الخضر حسين الذي

ولي مشيخة الأزهر في مصر. ومثـل الطـاهر بن عاشور.

ولكن من سـوء حـظ تـونس أن ولي أمرهـا في الحقبة الحديثة رجل لا يؤمن بالإسلام وقيمه وشـــريعته، وإنمـــا يـــؤمن بفرنســـا وقانونهـــا وحضارتها..

وهذا "الحبيب بورقيبـة" كـان نموذجًـا هـزيلاً للبرجوازيــة الأوروبيــة، وأصــبح في آخــر عمــره معتوهًا حقيقيًا، وكان مجردًا من الموهبة بالمرة.

ومع هذا حكم تونس قرابـة ثلاثين عامًـا أراد أن يستأصـل منهـا النفـوذ الإسـلامي الـذي كـان يقف ضد ما يريد من تجديد..

وإلى حـد مـا نجح في ذلـك بحيث صـدق مـا قاله عالم الاجتماع التونسي الدكتور عبد البـاقي الهرماسي: "من دون كل البلدان العربيـة كـانت تونس البلـد العـربي الوحيـد الـذي هـاجمت فيـه النخبـــة المغتربـــة بشـــكل مفتـــوح الإســـلام المؤسسـي، وحطمت قاعدتـه الأساسـية باسـم برنامج الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

فتحت اسـم هـذا الإصـلاح سـجل: اجتثـاث الزيتونة، والقضـاء على نظـام الأحبـاس، وإلغـاء قـــوانين الأحـــوال الشخصـــية، وتعطيـــل دور المجالس الشرعية..".

ولكن تجربـة التـاريخ في المنطقـة تثبت أن الإسلام أقوى من كل الطغاة، ولهذا فقد أخــذت بدايات وَهْنَانة، تظهر في مستهل السبعينات في بعض الدروس في جامع الزيتونة.. وظهر عندئــذ عدد من الأشـخاص قُـدر لهم أن يقـودوا التوجـه

الإسلامي أمثال الشيخ عبد الفتاح مـورو الأسـتاذ أحمد نـدَّه، وغـيرهم.. وكـان من أبـرزهم الشـيخ راشد غنوشي الـذي كـان قـد تلقَّى دراسـته في سوريا في أواخر السـتينات، وتعـرف هنـاك على "الفكــرة الإســلامية" الــتي كــانت أحــد روافــد الأخوان المسلمين.

وعاد إلى تونس ممتلئًا بالحماسة، فبدأ عملاً منظمًا مع مجموعة صغيرة في جمعيات تحفيـظ القـرآن.. ولكن السـلطات اكتشـفهم وطـردتهم منها!!..

فبدأوا دعايـة في الجامعـة جـذبت عـددًا من الطلاب..

وتعـرض النظـام وقتئـذ لهـزَّةٍ نتيجـة تحـدي الاتحـاد التونسـي للشـغل – وهـو أعـرق وأقـوى هيئة جماهيرية ذات ماضٍ في الكفاح الوطــني – للنظام.

ولم يستطع بورقيبه أن يسيطر على الأمــور إلا بصعوبة، وبعد أن تدخل الجيش لسحق حركة الاتحاد، وبعد فترة أعلن النظـام قبولـه للتعدديـة الحزبية، وانتهز الإسلاميون الفرصة وأعلنوا قيام حركة "الاتجاه الإسلامي" في السادس من يونيو عام 1981، وشكلوا مكتبًا سياسيًا رأسه الأستاذ راشد الغنوشي، وأعلنوا البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الإسلامي.

البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الإسلامي.

توطئة:

يشهد العالم الإسلامي – وبلادنا جـزءٌ منـه – أبشع أنواع الاستلاب والغربة عن ذاته ومصالحه؛ فمنذ التاريخ الوسيط وأسـباب الانحطـاط تفعـل فعلها في كيان أمتنا، وتـدفع بهـا إلى التخلي عن مهمـة الريـادة والإشـعاع، طـورًا لفائـدة غـرب مستعمر وآخـر لصـالح أقليـات داخليـة متحكمـة انفصلت عن أصولها وصادمت مطامح شعوبها.

وكان المستهدف الأول طوال هـذه الأطـوار كلهـا هـو الإسـلام، محـور شخصـيتنا الحضـارية وعصـب ضـميرنا الجمعي، فقـد عـزل بصـورة تدريجية بطيئـة وأحيانًـا بشـكل جـرئ سـافر عن مواقـع التوجيـه والتسـيير الفعلي لواقعنـا، فهـو رغم بـروزه عـاملاً محـددًا في صـنع الجـوانب المشـرقة من حضـارتنا وفي جهـاد بلادنـا لطـرد المسـتعمر، قـد بـات اليـوم أو كـاد مجـرد رمـز تحدق به المخاطر ثقافيًا وأخلاقيًا وسياسيًا نتيجة ما تعرض لـه في المرحلـة المعاصـرة والأخـيرة خاصـة من إهمـال واعتـداء على قيمـه، وعلى مؤسساته ورجاله.

وإضـافة إلى هـذه المعطيـات الـتي تشـترك فيها بلادنا مع سائر بلاد العالم الإسـلامي عـرفت تونس في أواخـر الخمسـينات وطيلـة عشـريَّتي السـتينيات والسـبعينيات – رغم حصـولها على وثيقـة الاسـتقلال – أوضـاعًا خصوصـية اتسـمت بالتأزم واحتداد الصراع الاجتماعي، وتعطل سبل النمو الشـامل. وقـد تكـرس هـذا الوضـع نتيجـة أحاديـة الاتجـاه السياسـي المتحكم (الحـزب الدستوري) وتدرجه المتصاعد نحـو الهيمنـة على السلطة والمؤسسـات والمنظمـات الجماهيريـة

من ناحية، ونتيجة ارتجالية الاختيارات الاقتصادية والاجتماعيـة، وتقلبهـا وارتباطهـا بمصـالح دوليـة تتعـارض مـع مصـالح شـعبنا الوطنيـة من ناحيـة أخرى.

في هــذا المنــاخ ظهــر الاتجــاه الإســلامي بتونس في بداية السبعينيات بعد أن تـوفرت لـه كل أسباب الوجود، وتأكدت ضرورته، وقد ساهم هــذا الاتجــاه من مواقعــه في إعــادة الاعتبــار للإسلام فكـرًا وثقافـة وسـلوكًا، وإعـادة الاعتبـار للمسجد، كما ساهم في تنشيط الحيـاة الثقافيـة والسياسي فأدخل عليها لأول مـرة نفسًـا جديـدًا في اتجـاه تأصـيل الهويـة والـوعي بالمصـلحة، وتأكيد التعدد بتجسيمه واقعيًا.

وقد عبر الاتجاه الإسلامي من خلال نشـاطه ومواقفــه العديــدة عن التحامــه بــذات أمتــه وتجسيده آمال شـعبه وتطلعاتـه، فـالتفت حولـه قطاعــات عريضــة من المحــرومين والشــباب والمثقفين. وكان نمـوه السـريع مجلبـة لاهتمـام الملاحظين وترصُّـد القـوَى والأنظمـة السياسـية في الــداخل والخــارج. ورغم ســعيه الرَّصــين المتعقِّل لتلمُّس أنجح سبل التطور والتغيير؛ فقد تعرض هذا الاتجاه إلى سلسلة من التهم الباطلة والحملات الدعائيــة المغرضــة نظمتهــا ضــده السلطة الحاكمة ووسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية بلغت هذه الحملات حد الاعتداء تعسـفًا على وسائل إعلامه قصـد منعـه من إبلاغ صـوته وتطـورت بعــد ذلــك إلى أشــكال أشــد قهــرًا؛ فقدمت عناصره إلى المحاكمـات، وتكثفت ضـد أفراده التتبعات والتحقيقات، وفتحت أمام شبابه

الســجون والمعتقلات حيث الضــرب والتعــذيب والإهانة.

إن استمرار أسباب تخلف الوضع السياســي والاقتصادي والثقـافي في مجتمعنـا يرسـخ لـدى الإســلاميين شــعورهم المشــروع بمســئوليتهم الربانيـــة، والوطنيـــة والإنســانية في ضــــرورة مواصـلة مسـاعيهم، وتطويرهـا من أجـل تحـرر البلاد الفعلي، وتقـــدمها على أســـس الإســـلام العادلة، وفي ظل نهجه القويم.

وقد يذهب البعض إلى أن هذا العمل هو من باب إقحام الدين في دنيا السياسة، وأنـه مـدخل إلى احتكار الصفة الإسـلامية ونفيهـا بالتـالي عن الآخرين، إن هذا الفهم فضلاً عن كونـه يعـبر عن تصور كنسي دخيل على ثقافتنا الأصـلية يكـرس استمرارية (حديثه) لواقع الضياع التاريخي الـذي عاشته أمتنا.

على أن حركــة الاتجــاه الإســلامي لا تقــدم نفسها ناطقًا رسـميًا باسـم الإسـلام في تـونس، ولا تطمح يومًـا في أن ينسـب هـذا اللقب إليهـا. فهي مــع إقرارهــا حــق جميــع التونســيين في التعامل الصادق المسؤول مـع الـدين، تـرى من حقها تبـني تصـور للإسـلام يكـون من الشـمول؛ بحيث يشكل الأرضية العقائدية التي منهـا تنبثـق مختلف الـرؤى الفكريـة والاختيـارات السياسـية والاقتصادية، والاجتماعية الـتي تحـدد هويـة هـذه الحركة، وتضبط توجهاتها الاستراتيجية ومواقفهـا الظرفيـة. وبهـذا المعـنى تكـون "حركـة الاتجـاه الإسلامي" واضحة الحدود المسئولية غير ملزمة بكل صنوف التحركات، والمواقف التي قـد تـبرز

هنا وهناك – إلا ما يقع تبَنِّيه منها بصورة رسـمية – مهما أضفى أصحاب هذه التحركات على أنفسهم من براقع التديُّن ورفعوا رايات الإسلام.

وتأكيدًا لهذا الوضع من ناحية، وتكافؤًا مع جسامة المهمة ومقتضيات المرحلة من ناحية أخرى، فإنه يتعين على الإسلاميين دخول طور جديد من العمل والتنظيم، يسمح لهم بتجميع الطاقات وتوعيتها وتوظيفها في خدمة قضايا شعبنا وأمتنا. ولابد لهذا العمل أن يكون ضمن حركة مبلورة الأهداف مضبوطة الوسائل ذات هياكل واضحة وقيادات ممثلة.

إن "حركة الاتجاه الإسلامي" التي حالت بينها وبين جماهيرها المسلمة العريضة ظروف القهر والإرهاب، لتأمل أن تكون مساهمة جماهيرها أعمق وأشمل في مستقبل الأيام.

المهام:

تعمل هذه الحركة على تحقيق المهام التالية:-

بعث الشخصية الإسلامية لتونس حتى تستعيد مهمتها كقاعدة كبرى للحضارة الإسلامية بأفريقيا، ووضع حد لحالة التبعية والاغتراب والضلال.

تجديد الفكر الإسلامي على ضوء أصول الإسلام الثابتة، ومقتضيات الحياة المتطورة، وتنقيته من رواسب عصور الانحطاط وآثار التغريب.

أن تستعيد الجماهير حقها المشروع في تقرير مصيرها، بعيدًا عن كل وصاية داخلية أو هيمنة خارجية.

إعادة بناء الحياة الاقتصادية على أسس إنسانية، وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعًا عادلاً على ضوء المبدأ الإسلامي (الرجل وبلاؤه، الرجل وحاجته) أي (من حق كل فرد أن يتمتع بثمار جهده في حدود مصلحة الجماعة وأن يحصل على حاجته في كل الأحول) حتى تتمكن الجماهير من حقها الشرعي المسلوب في العيش الكريم بعيدًا عن كل ضروب الاستغلال، والدوران في فلك القوى الاقتصادية الدولية.

المساهمة في بعث الكيان السياسي والحضاري للإسلام على المستوى المحلي والمغربي والعربي والعالم، حتى يتم إنقاذ شعوبنا والبشرية جمعاء مما تردَّت فيه من ضياع نفسي وحيف اجتماعي وتسلط دولي.

الوسائل:

لتحقيق هذه المهام تعتمد الحركة الوسائل التالية: -

إعادة الحياة إلى المسجد كمركز للتعبد والتعبئة الجماهيرية الشاملة، أسوة بالمسجد في العهد النبوي، وامتدادًا لما كان يقوم به الجامع الأعظم جامع الزيتونة من صيانةً للشخصية الإسلامية، ودعمًا لمكانه بلادنا كمركز عالمي للإشعاع الحضاري.

تنشيط الحركة الفكرية والثقافية من ذلك: إقامة الندوات، تشجيع حركة التأليف والنشر،

تجـذير وبلـورة المفـاهيم والقيم الإسـلامية في مجـالات الأدب والثقافـة عامـة، وتشـجيع البحث العلمي، ودعم الإعلام الملتزم حتى يكـون بـديلاً عن إعلام الميوعة والنفاق.

دعم التعريب في مجال التعليم والإدارة مـع التفتح على اللغات الأجنبية.

رفض العنف كأداة للتغيـير، وتركـيز الصـراع على أسس شورية، تكـون هي أسـلوب الحسـم في مجالات الفكر والثقافة والسياسة.

رفض مبدأ الانفراد بالسلطة (الأحادية)، لمـا يتضـمنه من إعـدام لإرادة الإنسـان، وتعطيـل لطاقات الشعب ودفـع البلاد في طريـق العنـف، وفي المقابل إقرار حق كل القـوى الشـعبية في ممارسة حرية التعبـير والتجمـع وسـائر الحقـوق الشـرعية والتعـاون في ذلـك مـع كـل القـوى الوطنية..

بلورة مفاهيم الإسـلام الاجتماعيـة في صـيغ معاصـرة، وتحليـل الواقـع الاقتصـادي التونسـي؛ حـتى يتم تحديـد مظـاهر الحيـف، وأسـبابه والوصول إلى بلورة الحلول البديلة.

الانحيـاز إلى صـفوف المستضـعفين من العمـال والفلاحين، وسـائر المحـرومين في صراعهم من المستكبرين والمترفين..

دعم العمـل الثقـافي بمـا يضـمن اسـتقلاله، وقدرتـه على تحقيـق التحـرر الوطـني بجميـع أبعاده الاجتماعية والسياسية والثقافية.

اعتماد التصـور الشـمولي للإسـلام، والـتزام العمل السياسي بعيدًا عن اللائكية والانتهازية.

تحريـــر الضـــمير المســـلم من الانهـــزام الحضاري إزاء الغرب.

بلـورة وتجسـيم الصـورة المعاصـرة لنظـام الحكم الإسـلامي، بمـا يضـمن طـرح القضـايا الوطنيـــة في إطارهـــا التـــاريخي والعقائـــدي والموضـوعي مغربيًـا وعربيًـا وإسـلاميًا، وضـمن عالم المستضعفين عامة.

توثيـــق علاقـــات الأخـــوة والتعـــاون مـــع المســـلمين كافـــة: في تـــونس وعلى صـــعيد المغرب، والعالم الإسلامي كله.

دعم ومناصرة حركات التحرر في العالم.

وبعد فترة شن النظام حملة من الاعتقـالات ضمت الآلاف من الإسلاميين خلال شـهر مـارس عـام 1987 وقـدم قـادة الحركـة الإسـلامية إلى محكمة أمن الدولـة الـتي رأسـها قاضـي يُـدعى "الهاشـمي الـذمال" من نـوع "جمـال سـالم" و "والدجوى" في مصر و"المهداوي" في العــراق، وغيرهم من قضاة السياسة الفجار.

ومورسـت خلال الاعتقـال صـور مَقيتـة من التعذيب أشبهت ما مارسه عبد الناصر في مصر وحافظ الأسد في سوريا.

وأصـدرت المحكمـة أحكامهـا بإعـدام اثـنين أُتهما في أحداث انفجارات وعنف، وسُجن قـادة الحركـة، واشـتدت حملات البحث عن المحكـوم عليهم غيابيًا.

واهـتزت السـلطة، وتبـدت رعونـة بورقيبـه وتخريفـه، وأقـال بعـد ذلـك وزيـره الأول وعُيِّن خلفًـا لـه وزيـر الداخليـة زين العابـدين بن علي،

الذي كان أول ما فعله أن قبض على بورقيبه وأودعه في مكان بعيد، أراح تونس من نزواته.. وطويت صفحته كأن لم يكن بالأمس، وأنزلت تماثيله ولم تسكب عليه دمعة واحدة، على أن زين العابدين نفسه لم يكن أقل عداوة للإسلاميين من بورقيبه فبعد أن أفرج عن الإسلاميين غداة توليه الحكم، وبعد أن قدم شيئًا من معسول القول والوعود، حاول أن يبطش بهم، ولكن بعضهم كان خارج تونس – ومنهم راشد الغنوشي- الذي أصبح يقوم بدوره السياسي من السودان أو فرنسا أو غيرها من الأقطار.

والحرب سجال!.. فقد أباح للشيوعيين تكوين حزب..

وحرَّم على الإسلاميين ذلك!.. بحجة إن التونسيين مسلمون، ولا يجوز لحزب واحد أن يكون مسلمًا!!..

وبناءً على هذا القياس لا يجوز في أية دولة تأخذ بالنظام الديمقراطي أنْ يظهر فيها حزب ديمقراطي حتى لا "يحتكر" الديمقراطية!!!..

* * * *

إن الظاهرة اللافتة في حركة الاتجاه الإسلامي – أو النهضة كما أصبحت تُسمى – هي تركيزها على الحرية..

فهل هي قسمة "تونسية" في حركة إسلامية؟..

إن من النادر أن نجد حركة إسلامية تقول:

".. لــذا نحن دخلنــا الحيــاة السياســية في تــونس من أجــل تحقيــق الحريــات في تــونس، وليس من أجل إقامة حكم إسلامي.

يجب أن نحـترم إرادة الجمـاهير إذا اختـارت منهجًا غـير منهجنـا، فنحن لا نشـكل وصـايا على المجتمع.

فإذا اختار مجتمعنا أن يكـون يومًـا ملحـدًا أو شيوعيتا فما نملك نحن"[1].

هــذه نــبرة غــير مألوفــة في الــدعوات الإسلامية، ونحن بالطبع نتمنى أن تكون صـادقة، ولا يجوز لنا أن نأخذها على غير محملها، وتكـون عندئذ تطورًا هامًا في الفكر الدَّعوة الإسلامية.

* * * *

---

1 (?) مقتطـف من حـوار للأسـتاذ الغنوشـي مـع مجلـة "المجتمـع الكويتيـة يونيـو 1981، استشـهد بهـا في مجلة الفرقان (الـدار البيضـاء – المغـرب) العـدد 12 جمادي الأولى/ جمادي الآخرة 1408 هـ ص 16.

د- الشوريون التعاونيون في اليمن

اليمن: حتى ثورة 48

تتمتــع اليمن بمنزلــة فريــدة في العــالم الإسلامي، فمنـذ عهـد سـحيق وجـد بهـا مجتمـع مدني ينظم سياسيًا على أساس قـومي ويتمتـع باسـتقرار، وحضـارة تقـوم على الزراعـة بصـفة أساسية.

وتظهر فيها ملكة مثل "بلقيس" يتحدث عنها القــرآن حــديثًا يســتحق أن يجعلهــا من رواد الديمقراطيـة، إذ يُـروى على لسـانها: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أمرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾: ناهيك بأنها سيدة تجلس على عــرش الملك..

وهي صفات لا نجـدها إلا في مصـر القديمـة وحضارتها العريقة..

ولمـا كـانت اليمن مرتفعـة – وجبليـة – فـإن مناخهـا معتـدل والأمطـار تسـقط عليهـا فتقـاوم الجفــاف في المنطقــة، وبهــذه الأمطــار تــروي اليمن زراعة مزدهرة، وتختزن الباقي في سدود مثل سد مأرب المشهور.

ولليمن طــراز فريــد في العمــارة وطريــق البناء وطلاء الجدران عرضيًا، بـألوان زاهيـة، تنم عن حاسة فنية كامنة في الشعب اليمين.

وكما تميزت اليمن في تاريخها القديم، فإنها تميزت أيضًا في تاريخها الحديث:

فهذه هي الدولة الوحيدة التي يعتنــق معظم علماؤهـا – أو أبـرزهم – المـذهب الزيـدي الـذي

يُنسب إلى الإمام زيد بن على (زين العابدين) بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طال كرَّم الله وجهه.

ويمكن القول إننا نجد فيه أفضل ما في السنة والشيعة على السواء.

ويكفي في التدليل على ذلك أمران: الأول: فتح باب الاجتهاد من العهود الأولى حتى الآن والثاني: وجوب الثورة على الأئمة الظَّلَمَة، واعتبار السكوت عليهم نوعًا من الاستخذاء. ولهذا نجد في سادات اليمن وقادتها دماء الشهداء ممتزجة بمداد العلماء.

وقد انطبق هذا تمام الانطباق على أسرة عريقة عرفت بالعلم والكفاح لستة قرون متوالية هي أسرة "آل الوزير"، وهي الأسرة التي أرادت أن تضع اليمن على مشارف العصر، وأن ترسم مكانًا لليمن على خريطة الدول الحديثة.

ذلك أن اليمن كانت قد ابتُليت بظروف معينة أدَّت لأن يحكمها الإمام يحيي حميد الدين، الذي كان يؤمن بالانغلاق والبعد عن عالم العصر.

والوجه الحسن لمثل هذه السياسة وقتئذٍ أنها حالت دون تغلغل نفوذ أجنبي، أو هيمنة استعمارية كم حدث لمصر أيام (الخديوي) إسماعيل باشا الذي فتح الأبواب على مصراعيها للأجانب، أو لدويلات الخليج التي اكتسبت كيانها الخاص بمعاهدات مع بريطانيا.

ولكن الجانب السيئ أنه أغلق على اليمن الأبواب، وأمسك بيده المفاتيح!

وظلت اليمن تتعامل بعملة "ريال ماريا تريزا"!! وتعيش حياة القرون الوسطى؛ حتى اضطر الإمام يحيي لإرسال بعض البعثات إلى مصر والعراق وسوريا؛ فدخل بصيص من نور العصر اليمن..

وتلاقت رغبة هذه النواة التي تعرفت على عالم العصر مع رغبة بعض العلماء الذين ضاقوا بسياسة الإمام يحيي الديكتاتورية، المخالفة لأصول المذهب الزيدي الذي ينص على الشورى، ويوجب الثورة على البغاه.

ورزق الاثنان تأييدًا من الأخوان المسلمين في مصر، وبهذا بدأت خيوط حركة جديدة تظهر، وأمسك السيد "علي بن الوزير" – وهو شخصية إدارية وسياسية وعلمية بارزة – المجتمع اليمني، وإن كان قد دفع إلى الصدارة بأخيه الإمام عبد الله الوزير.

وأدَّت ظروف المعركة إلى أن يقتل الإمام يحيي وأن يهرب ابنه الإمام أحمد.. بينما أقام الثوار لأول مرة في العصر الحديث في اليمن ثورة الميثاق أو الدستور"، ووضعوا دستورًا لحكم اليمن يتفق مع الأصول الإسلامية الشورية.

كانت ثورة 48 أصدق تعبير عن إرادة شعب اليمن الواعي، لأنها تنبعث من أصول وجذور الشعب ممثلاً بعقيدته وموروثاته وحضارته، وقادته الطبيعيين من علماء أو طلبة.

وفي الحقيقة فإن ثورة 1948 م لم تكن أمل اليمن فحسب، بل إنها كانت أمل المنطقة

كلهـا في قيـام حكم شـورى إسـلامي، يحقـق أفضل ما في العصر الحـديث، دون أن يشـذ عن أصول وجذور الشعب.

ولعـل هـذا نفسـه هـو الـذي حفـز العـروش العربيـة، ونظم الحكم والقـوى المسـتفيدة من الأوضـاع القائمـة للتـآمر على الثـورة، وإعـادة الحكم الفردي مرة أخرى، وتمكين الإمـام أحمـد من ضـرب الثـورة، وإعـادة الحكم الفـردي والتنكيل بقـادة وزعمـاء ثـورة 1948 م، فأعـدم خـيرة علمـاء اليمن وأخلص رجالهـا، وأكـثرهم مـروءة وغـيره، وبـالرغم من حملـة الإعـدام والتنكيـل اسـتطاع قلـة من أبنـاء قـادة الثـورة الهرب من السجون وحمل الفكرة.

لم يكن من السـهل علي الإمـام أحمـد أن يعيد عقارب السـاعة إلى الـوراء، ولم يكن اللـه سبحانه وتعالى ليضيع دماء شهداء حكم الشورى هباءً، فاضطربت الأمور، ثم دخلت المنطقة كلها في دوامة الحكم العسكري والنظـام الشـمولي، وعمدت النظم القائمة إلى خداع الشـعب برفـع الشـعارات المدويـة، وتقـديم الوعـود المغريـة والزائفـة، واصـطناع قيـادات التنظيمـات من نقابـات أو اتحـادات طلبـة.. الخ، وبـذلك هيمنت على الأمور واستبدت بالسلطات، فإذا وجه إليها نقـد رفعت شـعاراتها وكـرَّرت دعاويهـا.. كـأن الشـعارات والـدعاوي تغـني عن الحـق والواقـع شـيئًا. وقـامت ثـورة 26 سـبتمبر 1962 م ضـد طغيـان بيت حميـد الـدين، وتـولّى العسـكر كـل شـيء، وبـذلك انتقلت عـدوى الحكم العسـكري إلى اليمن، وظهـرت كـل سـوءات هـذا الحكم، فاضـطربت الأمـور، وأدَّى هـذا إلى التـدخلات

الأجنبية، التي جعلت أرض اليمن مسرحًا لصراع القوى الطامعة في السيادة، وزعامة المنطقة.

ظهور اتحاد الشوريين التعاونيين:

عقب فشل ثورة 1948، خيم على البلاد جو كئيب مثبط من الهزيمـة واليـأس والقهـر، وبقي من نجـا من السـجن حـائرًا تائهًـا لا يـدري مـاذا يعمل، لكن بصيصًا من الأقل شرَعَ يأخـذ طريقـةً في تبديد ذلك الجو، تمثل في أمرين:

أوَّلهمـا: تشـكيل "عُصـبة الحـق والعدالـة"، وهي أول تنظيم سياسي ثوري عقب فشل ثورة 1948، أسسها إبراهيم بن علي الوزير، ومحمــد عبد الواسـع الواسـعي، والعقيـد طـه مصـطفى، والعقيد أحمد الجرموزي – معلم الجيش آنذاك – وأحمــد الحــافي – أحــد أبــرز ضــباط الكليــة العسكرية الذين تخرجوا على يد الـرئيس جمـال جميل – وأحمد أبو طالب وعبد الكريم الغسالي، وعلى أبو الرجال، وعلي محمد مفضـل، ويحـيي الوزير، ومحمد أحمد مفضل، ومن المشايخ على سبيل المثـال لا الحصـر: الشـيخ المنصـوري من بني جبر، وحسين قائد سراج، والنقيب حمود أبو راس وغيرهم كثير.

ثانيهما: صدور جريدة "السلام" من كـارديف ببريطانيا الـتي أصـدرها المجاهـد الكبـير الشـيخ عبد الله علي الحكيمي رحمه اللــه، فكـانت أول صــوت يشــق ظلام الليــل الــرهيب؛ فيبعث في الأمة روح الأمل، ويثبت العزيمة.

وكــان كلا الأمــرين اســتمرارًا لثــورة 48 مضمونًا وجهادًا.

وقد قامت بين تنظيم عصبة الحق والعدالة وبين الشيخ الحكيمي علاقة مباشرة وسريعة، أصبح أحد أهم مهام التنظيم هو توزيع الجريدة في اليمن، وموافاتها بالأخبار عبر مركز أقيم في منطقة البيضاء لهذا الغرض.

أما التنسيق والتعاون السياسي فعبر المناضل المجاهد البارز المرحوم محمد الواسعي الذي كان – بحكم كونه تاجرًا – يتردد على عدن.

أزعج هذا التحرك السلطة إزعاجًا شديدًا، فما لبثت أن اعتقلت إبراهيم بن علي الوزير ومحمد الواسعي، وبذلك انتقل النشاط إلى السجن نفسه، وفيما بعد تم اعتقال كثير من أعضاء العصبة وعُذبوا..

بعد هذه الفترة، كان الاتحاد اليمني قد أنشئ في مصر عقب وصول الشهيد محمد محمود الزبيري إلى القاهرة بعد قيام ثورة يوليو 1952، من مجموعة من الشباب الذين كانوا يدرسون في القاهرة، بالإضافة إلى أشخاص من الأحرار الأوائل الذين كانوا في مصر، كالأستاذ يحيي أحمد زبارة والدكتور حسين فيض الله الهمداني، كما ضم أيضًا بعض الشخصيات الرسمية مثل عبد الرحمن أبو طالب، ويحيي المضواحي وغيرهما..

ثم التحق به كل من عباس بن علي الوزير وإبراهيم بن علي الوزير، بعد التمكن من الفرار من داخل السجن في رحلة مشهورة، ثم ما لبث أن لحق بالقافلة أحمد محمد نعمان عقب حركة 1955.

لم يكن هذا الخليط ليشكل في الواقـع بنـاءً متماسكًا، وقـد ضـاعف من أسـباب ذلـك تـدخل المخابرات المصرية في شـئون الاتحـاد اليمـني الذي ما لبث أن أصبح تجمعًـا لفئـات متناقضـة.. أضف إلى ذلك أن البناء الإداري كان صــورة من الأوضاع نفسـها، حيث سـادت الارتجاليـة وعـدم التنظيم، وأصــبحت القــرارات السياســية تتخــذ بشكل فـردي دون مشـورة ولا مشـاركة، الأمـر الــذي أدَّى إلى نشــوء معارضــة داخــل الاتحــاد، تطـــالب بإعـــادة التنظيم بحيث يكـــون صـــورة للمستقبل المنشود من ناحية، وقادرًا على قيادة السفينة من ناحية أخـرى، وقـد تـزعم المطالبـة بالتصــحيح كــل من: إبــراهيم الــوزير وعبــاس الــوزير، ومحمـد الربـاعي، ومحمـد أنعم غـالب، واسكندر ثابت وعلي عاصم.. إلخ.

ولما رفضت قيادة الاتحاد اليمني ذلـك، قـرر المعارضــون لسياســة الاتحــاد اليمــني الفرديــة تنظيم أنفسهم؛ فعمـد البعض منهم إلى تشـكيل حزب جديد على الأسـس التنظيميـة الـتي كـانوا يطالبون بها الاتحاد اليمني، وقد مر هـذا التنظيم بمرحلتين:

الأولى: حــزب الشــعب، ثم وضــع القــانون الأساسي لاتحاد الشورويين التعاونيين الذي أقــر من قبل أعضاء حـزب الشـعب، وتقـرر أن يعلن في القاهرة وعدن، ولكن السلطات الاستعمارية البريطانية رفضت إعطاء التصريح، بيد أن الشيخ أحمـد عبـد الـرقيب حسـان كـان لديـه تـرخيص بحزب أطلق عليـه حـزب "الشـورى"، فمـا لبث الشورويون التعاونيون في عـدن، وعلى رأسـهم

الأستاذ على عبد العزيز نصر أن اتفقوا معه على استخدام الاسم المرخص به ليشتغل تحت اسمه "الشورويون التعاونيون" ونتيجة لهذا الاتفاق، وصل عدن كل من: عباس بن علي الوزير، ومحمد الرباعي من القاهرة، وتم إعلان حزب الشورى الذي اختار الأستاذ على عبد العزيز نصر أمينًا عامًا له. وقد كان هذا التنظيم نقلة نوعية منم التنظيمات السياسية، ولقيَ نجاحًا طيبًا في المهجر اليمني، وتمكّن أن يقيم خلايا في الداخل (في الشمال) تحت إشراف قيادة الداخل المشكلة من: أحمد العماد – رحمه الله – وعلي عبد الله الواسعي – وطه مصطفى وزيد الوزير وقاسم الوزير، وقد ضم كثيرًا من العناصر الوصية كالأستاذ علي أبو الرجال وأحمد ضيف الله وآخرين.

استخدم حزب الشورى جريدة "الزمان" متخذًا إياها منبرًا للتعبير عن أفكاره، كما أصدر نشرة داخلية خاصة بمشاكل ومظالم المواطنين، وكانت توزع على نحو جيد.

غير أن إعلان السلطات الاستعمارية عزمها على إنشاء ما سُمي باتحاد الجنوب العربي قد عجل الصدام بين هذه السلطات وبين الحزب الذي كانت "الوحدة اليمنية" أحد أهدافه.. وعليه فقد طلبت السلطات من الحزب إعلان بيان بتأييد قيام اتحاد الجنوب. وقد رفض الحزب ذلك بصراحة، فكانت النتيجة أن هجمت السلطات على مقر الحزب وأغلقته وصادرت ممتلكاته، ولاحقت أعضاءه لإلقاء القبض عليهم، حيث فر عباس والرباعي، واختفى الأستاذ علي، وتفرق

الأعضـاء الآخـرون، منهم من عـاد إلى الشـمال، ومنهم من بقيَ في عدن..

إذا كانت الضـربة الموجهـة لحـزب الشـورى قد أصابته في عدن، فإن هيكله في الداخل ظل سـليمًا نتيجـة لأنـه كـان سـريًّا، فلم يتـأثر من الناحيـة التنظيميـة بالضـربة، وإن كـان قـد تـأثر نشـاطه وفعاليتـه نتيجـة لـذلك، كمـا أن وجـود "إبراهيم الوزير" في القاهرة هو ومن معـه، قـد كتب أيضًـا الاسـتمرار للفكـرة، (للشـورويين التعاونيين) وإن لم يكن لحزب الشورى.

وانصرف الشورويون التعاونيون في الـداخل والخـارج إلى التركـيز على تفجـير الثـورة، والانهمـاك في الإعـداد لهـا، وف تصـور شـامل وواضـح تتضـمنه وثائقـه، وحين شـعر بـالاقتراب من سـاعة الحسـم رأى أنـه من الضـروري، أن تتوحد القوى السياسية في جبهة وطنية واحـدة، تحقق للثورة عمقها السياسي..

من ناحية أخرى كـانت القـوى الوطنيـة على اختلاف مشـاربها، تمـر بمرحلـة من التشـرذم وغياب القواسم المشـتركة الـتي يمكن أن تُلقى عليها جميعًا من أجل إنجاز مشروع الثورة..

بـدأت المبـادرة من القـاهرة حيث طـرح إبـراهيم بن علي الـوزير مشـروع التقـاء القـوى الوطنيـة في جبهـة متحـدة، وكنـواة لـذلك فقـد طرح مشروع اتحاد القوى الشعبية اليمنية، وقـد بدأ الإعداد لـه عـام 1959 م بعـد فـترة قصـيرة من إغلاق حزب الشورى، وقـد طُـرح المشـروع على بعض القـوى بالقـاهرة وعـدن والـداخل، ووضـع في نفس الـوقت مشـروع البيـان الأول

الذي وافق عليه الذين وافقوا على فكرة الاتحاد في القاهرة، بالإضافة إلى الشوريين التعـاونيين، منهم: المرحـوم أحمـد المطـري، وعبـد القـوى العبسي، وأحمد محمد الشـجني وعبـده عثمـان، كما طرحه الأسـتاذ علي عبـد العزيـز نصـر على المجموعة في عدن، فوقَّع عليه سبعون شخصًـا من العـاملين في الحقـل الوطـني منهم: أحمـد دهمش (رئيس نقابـة الصـحفيين) وعبـد اللـه الوصـابي وحسـن بلكم الـذي حمـل البيـان إلى القاهرة، وأمين هاشم.. إلخ.

في سـنة 1960، بعـد أن اسـتكملت التوقيعات على البيـان الأول، شـكلت لجنـة من: أحمـد الشـجني، أحمـد المطـري، وعبـد القـوى العبسي، وغـيرهم، لصـياغة القـانون الأساسـي، اقتباسًا واختصارًا من القـانون الأساسـي لاتحـاد الشوريين التعاونيين.

ثم صـدر القـانون الأساسـي لاتخـاذ القـوى الشـعبية اليمنيـة، وهـو يتضـمن أهـداف الاتحـاد ووسائله وهياكله التنظيميـة، وأعلن البيـان الأول في 11/ـ 7/ـ 62 وطـرح في كـتيب ووزع في الداخل والخارج.

وهكذا فإن اتحاد القوى الشـعبية اليمنيـة، هـو من ناحيـة، اسـتمرار لنضـال طويـل، وخلاصـة لتجـارب غنيـة تـراكمت، وصـقلت عـبر هـذه المسـيرة الجهاديـة الثوريـة؛ حيث تبلـورت عناصـرها الديمقراطيـة والشـوروية والعدالـة الاجتماعية بشكلٍ واضح في غايات ووسائل، من هنـا يمكن، علميـا أن ترجـع نشـأته من حيث الاستمرارية إلى أعقـاب فشـل ثـورة 1948، إلا أنه من الناحية العملية فإن اتحاد القوى الشعبية اليمنيـة بشـكله الـراهن قـد أعلن عنـه في عـام 1960م.

ومن ذلك اليوم والاتحاد بقيادته أو أعضائه أو مؤسساته، على اختلاف الظروف يواصل نضاله الثوري التقدمي من أجل تحقيق أهدافه المعلنة، على أنه يجب الإشارة هنا إلى خاصية تميز الاتحاد عن غيره من التنظيمات، هي أنه لا يجعل الوصول إلى الحكم هدفاً من أهدافه، بل إن هدفه هو أن تصل أفكاره ومبادؤه للناس، وأن يحكم الشعب نفسه([1]).

دعوة ومبادئ الشوريين التعاونيين

اتحاد القوى الشعبية اليمنية (الشوريون التعاونيون) حزب إسلامي، يعتبر نفسه جزءاً من حركة اليقظة الإسلامية العالمية ويمثل مصالح وتطلعات شعبنا اليمني العظمي، وأمتنا الإسلامية المجيدة.

والاتحاد تجمعٌ طوعيٌّ لعدد من المجاهدين في سبيل الله والعقيدة الإسلامية الخالدة، الملتزمين بكتاب الله وسنة نبينا محمد ..

والقاعدة التي يرتكز عليها جهاد الاتحاد هي القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، بوصفهما السبيل الأوحد للعودة كما كنا خير أمة أخرجت للناس، نؤمن بالله واليوم الآخر، وندعو إلى الخير، ونأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ففي هذه القاعدة الربانية خير أداة لفهم الحياة ونواميسها، ولتحرر الإنسانية جمعاء من العوز والمرض، ومن الخوف وتسلط الطواغيت، وأحسن منهج عمل وأفضل دليل سلوك للمستغلين والمحرومين والمستضعفين.

---

1 (?) الحركة الإسلامية في اليمن لاتحاد القوى الشعبي اليمنية، تأليف الدكتورة عبده سعيد المغلس من ص (35 – 45) (بتصرف)

وفيها الحلول المثالية لقضايا القهر والتخلف والجهالـــة، وعلاج واستئصـــال بـــواعث التجزئـــة والاستغلال المالي والطبقي والعرقي.

والاتحـــــاد بقيامــــه على أســـــاس العقيــــدة الإسلامية السمحاء، وعلى سنة الرسول ﷺ فإنمــا هو يعمل باستمرار على تطبيقهما تطبيقًا صحيحًا حقًـا، وعلى تحقيـق الالتقـاء والتفاعـل الـدائمين بين الفكر الإسلامي الحر، وبين مختلـف العلــوم والمعارف المتجددة والمتطورة.

والاتحـــــاد يتعلم ويســــتفيد من التجــــارب الإنسانية والجهادية لجميع الأمم، والبلـدان الـتي كـــافحت، ولا تـــزال تكـــافح من أجـــل تحررهـــا الأخلاقي والاجتماعي، وذلك طبقًا للتوجيه النبوي "الحكمة ضالة المـؤمن أينمـا وجـدها فهـو أحـق بها" وذلك فيما لا يتعارض مع الثوابت الإسلامية.

الهدف دولة القرآن:

الهدف الأساسـي للاتحـاد، هـو تحقيـق دولـة القرآن، من حيث تطبيق أحكام كتاب الله وسـنة الرســـول ﷺ، والشـــورى في الأمـــر الشـــورى الملزمة، والعدالـة الإسـلامية في المـال والحكم والأهلية للحكم، واستهداف الخير في كل شيء، وبخاصـة القضـاء على إسـتغلال الإنسـان لأخيـه الإنسـان، وعلى كافـة أشـكال القهـر والتميـيز، والعصبية، والمذهبية البغيضة الجاهلية.

الوسائل:

(ا) الحرية للجميع:

حرية جميع أبناء الشعب في تنظيم أنفسهم والتعبير عن أفكارهم وتأطير قواهم في أي شكل يريدون (جمعيات – أحزاب – نقابات – اتحادات – هيئات.. إلخ) ضمانة لحقوقهم السياسية والاجتماعية باختلاف وجوهها.. ذلك لأن كل حضارة، أو تقدم هي في النهاية مجموعة الشروط والضمانات التي يقدمها مجتمع ما لأبنائه؛ حتى يتمكن الإنسان من تحقيق نفسه.

(2) الدعوة والحوار:

امتثالاً لقوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

(3) بناء الإنسان اليمني:

وفق منهج الإسلام، وتربية المجتمع على حماية حقوقه وحماية المؤسسات الديمقراطية، وجعل ذلك جزءًا من سلوكه وحياته اليومية.

(4) إرساء السلوك الديمقراطي:

وذلك من خلال:

ترسيخ الثوابت الديمقراطية واحترام الرأي والرأي الآخر، وتجنب التعصب الفكري والإساءة إلى الأحزاب الأخرى.

احترام الشرعية الدستورية، وانتقال السلطة سلميًا عبر صناديق الانتخاب، وفق الضمانات التي تحمي عملية الانتخاب من أي انحراف.

العمل على بناء دولة المؤسسات، والفصل بين السلطات، واستقلالية القضاء.

الحفاظ على الوحدة الوطنية، وتماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الطائفية، والعنصرية والمناطقية.

تحييد القوات المسلحة والأمن، واعتبارهما مؤسستان وطنيتان مهمتهما حماية الشرعية الدستورية، والديمقراطية ومكاسب الشعب.

الفصل بين أموال الحزب الحاكم والمال العام، وكذلك بين ممتلكاته وممتلكات الدولة.

عدم تحيز وسائل إعلام الدولة لصالح الحزب، بتحويلها إلى وسائل إعلام قومية تعبر عن مصلحة الأمة، لا مصلحة الحزب الحاكم.

عدم استخدام العنف أو التلويح به أو الإكراه[1].

* * * *

وقد حال الحكم العسكري دون أن يتحرك "الشوريون التعاونيون" بصورة فعالة وملموسة.. فقد حرم عليهم العمل في الداخل وطوردوا في الخارج.

ولم يكن العمل السري أو التآمري من الممارسات المقبولة منهم، وظلوا كذلك حتى الفترة المعاصرة عندما أعلنت الوحدة، وظفرت البلاد بقسط من الحرية، فأعلنوا دعوتهم داخل اليمن، وقاموا بنشر مجلة باسم "الشورى".

ومن واقع لمسنا الخاص، يمكن القول إن قادة "الشوريين التعاونيين" هم أشد الدعاة الإسلاميين إيمانًا بالحرية مع الحفاظ على

---

1 (?) انظر الحركة الإسلامية في اليمن – مرجع سابق من ص 31 – 54 بتصرف.

السمت الإسلامي، وروح وجـوهر الإسـلام. وهي الصـفات الـتي يتطلبهـا اليمن كقطـر إسـلامي عريق يتوق للحرية..

هـ- الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل هيئـة قريبـة العهد فريدة الطبيعية، تعد وحيدة من نوعهـا بين الهيئـــات الإســـلامية، وهي تضـــم المنظمـــات النقابيـة، وتسـتهدف إصـلاح هـذه المنظمـات؛ بحيث يمكنها القيام بالـدور الـذي يمثـل التحـدي في المجتمعات الإسلامية اليـوم، وهـو "التنميـة" والسباق الصناعي والإنتاجي الذي ينتظم العالم، وقيام العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمـال على سلام اجتماعي، والطريق إلى تحقيق ذلــك هو أن تستلهم هذه المنظمـات القيم الإسـلامية. وفي الوقت نفسه فـإن الاتحـاد يقـوم بـدور في إصـلاح الفكـر الإسـلامي. لأنـه يـدفع بالطبيعـة العملية للإسلام جنبًـا إلى جنب النزعـة النظريـة التي تقوم على مقولات، وبهـذا يحقـق نوعًـا من التوازن في الفكر الإسلامي ويجعلـه أقـرب إلى الكمال.

لماذا يجب أن نهتم بالحركة النقابية:

يغلب على الدعوات الإسـلامية العـزوف عن النقابـات، وقـد قـال أحـد الأخـوان "السـودانيين مرة " كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجسًا من عمـل الشـيطان"، وهـو الموقـف التقليـدي للـــدعوات الإســـلامية بحكم فهمهـــا للإســـلام. وقيامها على جمهور البورجوازية الصغيرة.

وهو موقف خاطئ موضوعيًا وإسلاميًا.

فمن الناحية الموضوعية فإن النقابات هي أكبر التكتلات الجماهيرية في معظم – إن لم يكن في كل – الشعوب لأنها تضم الشعب العامل: رجالاً ونساءً تبعًا لأعمالهم ومهنهم، وهي القوامة على العمل والإنتاج. فهي الأكبر عددًا والأهم نوعًا بين كل الهيئات.. ومن أجل هذا كانت قبلة أنظار الشيوعيين والحكام. فدخلها الشيوعيون وجعلوها تسير في اتجاهاتهم، واصطنعها الحكام فأمَّنوا ثورة الجماهير عليهم بل ضمنوا جمهورًا مؤيدًا بأهون الأسباب. وقد حدث هذا وذاك لعزوف الهيئات الإسلامية مما أدَّى إلى وجود فراغ أيديلوجي استغله الشيوعيون والحكام كلٌ بوسائله الخاصة.

وقد نذكر هنا كيف أن المؤتمر النقابي في عدن كان هو الهيئة التي أسلمت هذا البلد للشيوعية، وكيف أن إضراب عمال النقل بالقاهرة في مارس 1954 كان التعِلَّة الرسمية لعودة جمال عبد الناصر وانقلابه على الأخوان. وكاد السودان أن يقع في قبضة الشيوعية الحمراء عندما اعتنق اتحاد العمال الشيوعية وساق البلاد حتى كاد أن يوقعها فيها – لولا رحمة الله بالسودان..

فانظر إلى جريرة عزوف وسلبية الدعوات الإسلامية نحو الحركة النقابية، وكيف أدَّت إلى هذه النتائج الحاسمة في مصير الدول..

ومن الناحية الإسلامية فإن النقابات هي أقرب الهيئات إلى الإسلام..

إن جمهورهـــا هـــو "العمـــال" والفقـــراء والمستضـعفون في الأرض، وأمثـال هـؤلاء هم الذين آمنوا بالإسلام؛ عندما تجهم له أثرياء مكـة وتجار قريش.

وأســـلوب النقابـــات في العمـــل وهـــو "الاتفاقيات الجماعيـة" مـا هـو إلا تطـبيق عملي حديث للآية 282 من سورة البقرة[1].

ومطلبها في أن يكـون لهـا صـوت في إدارة الصـناعة ليس إلا الشـورى الـتي حض عليهـا القرآن.

وهدفها وهـو العـدل والإنصـاف، هـو الهـدف الـذي يـدعو إليـه الإسـلام والمحـور الـذي يـدور عليه.

لقد أثبتت كتابات الاتحـاد الإسـلامي الـدولي للعمـل وبوجـه خـاص كتـاب "الإسـلام والحركـة النقابيـــة" هـــذا كلـــه فقلب رأسًـــا على عقب المفـــاهيم والاتجاهـــات التقليديـــة للـــدعوات الإسلامية نحو الحركة النقابية.

ومن الناحيـــة التاريخيـــة والواقعيـــة، فـــإن أسـلاف النقابـات وهي "الأصـناف" كـانت ذائعـة ومزدهرة طوال الحكم العباسي، وكان لها صـلة بالمحتسب كما كان لكل صنف أحـد الأوليـاء من الصـحابة أو شـيوخ الصـوفية كشـفيع للصـنف.. وذهب أحـد الكتـاب إلى أن أوروبـا نقلت هـذا النظـام عن المسـلمين؛ عنـدما شـاهدوه خلال الحروب الصليبية.

---

1 [?] انظـر تفصـيل ذلـك في كتابنـا "الإسـلام والحركـة النقابية ص 75 – 80.

فليس هناك ما كان يدعو الهيئات الإسلامية للعزوف عن النقابات، أو التجهم لها لا من ناحية الطبيعة، ولا من ناحية الإسلام ومبادئه، وكان الموقف السليم هو العكس، أي كان واجبًا على الدعوات الإسلامية مناصره النقابات، ودعمها لتحقيق أهدافها الإنسانية الشعبية.

تأسيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل:

آمن بهذه الأفكار كاتب إسلامي ومحاضر عمالي هو الأستاذ جمال البنا، الذي كان في أوائل السبعينات خبيرًا استشاريًا بمنظمة العمل العربية بالقاهرة.

وبحكم اتصالاته السابقة ووظيفته أيضًا؛ فإنه اتصل بعدد من القيادات العمالية في دول إسلامية، تجاوب معه بعضهم، بحيث تهيأت أسباب عقد مؤتمر تأسيسي في مدينة جنيف في يونيو سنة 1981.

وإنما اختيرت جنيف واختير هذا الميعاد لأنه مكان وميعاد المؤتمر السنوي لمنظمة العمل الدولية بجنيف، والذي يحضره مندوبو العمال في 150 دولة. ويعقد خلال شهر يونيو من كل عام. وبهذا الحل تخلص الاتحاد من معظم صعوبات تمويل مؤتمره التأسيسي.

وخلال المدة من 6 إلى 1 شعبان سنة 1401 هـ (8 إلى 12 يونيو 1981م) اجتمع في جنيف ممثلون لمنظمات نقابية في السودان والباكستان وبنجلاديش والمغرب والأردن بهيئة مؤتمر تأسيسي للاتحاد الإسلامي الدولي، للعمل بناء على دعوة وجهها إليهم الأستاذ جمال البنا،

داعية هذا الاتحاد والأمين العام للهيئة التأسيسية له.

وتضمن جدول الأعمال:

مناقشة مشروع دستور الاتحاد.

انتخاب قيادات الاتحاد.

تعيين المقر الرئيسي للاتحاد.

إعلان التكوين الرسمي للاتحاد.

وخلال عدد من الجلسات التي عقد بعضها في أبهاء وصالات وكافيتريا "قصر الأمم المتحدة" بجنيف؛ حيث كانت تُعقد اجتماعات مؤتمر العمل الدولي، أو قاعة البلدية التي استؤجرت لذلك خاصة، عقد المندوبون عددًا من الجلسات ناقشوا فيها مشروع الدستور، الذي كان قد أعد سلفًا باللغة العربية والإنجليزية، ودارت المناقشات بالعربية والإنجليزية وأدخل عدد من التعديلات.

وفي الجلسة الأخيرة للمؤتمر – يوم الجمعة 10 شعبان سنة 1401 (12 يونيو سنة 1981) أنهى المؤتمر أعماله بإعلان تكوين "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل".

وبهذا تحقق – في جو هادئ بعيد عن الدعايات واللافتات والمظاهر التقليدية التي ترتبط عادة بمثل هذه المناسبة – هذا الإنجاز العظيم، وهذا الأمل الذي طالما بدا بعيدًا.

وقد تم المؤتمر التأسيسي بسهولة ويُسر، ولولا توفيق الله ما تهيأ هذا لأن داعية الاتحاد لم يكن لديه الإمكانيات المالية ولا هو قاطن في جنيف. فقد قبض الله للمؤتمر موظفًا كبيرًا بمكتب العمل الدولي سوري الجنسية تعاطف

مـع فكـرة المـؤتمر، واكتسـب بحكم اتصـالاته استضافة "المؤسسة الثقافيـة" للمنـدوبين. كمـا قام هو نفسـه بـالإجراءات التمهيديـة، والاتصـال بالسـلطات المختصـة في جـنيف. ولمـا كـان لا يستطيع القيام بذلك باسمه (لأنه موظـف دولي) فقد تمت كل الاتصالات باسـم كريمتـه! وعنـدما وصل الأستاذ جمال البنا جنيف قبل عشـرة أيـام عن ميعـاد المـؤتمر؛ لم يحتج إلا لإجـراء اتصـال تليفوني مع أحد رجـالات الأمن بـوزارة الداخليـة السويسرية، للتأكد من أن الاتحاد ليس له طـابع سياسي معين.

وفتح الاتحـاد لـه حسـابًا في بنـك كريـدت سـويس، وهـو أحـد أكـبر بنـوك سويسـرا بمبلـغ خمسـين دولارًا، قُيـد لـه من هـذا المبلـغ 45 دولارًا!!

المفاهيم – الوسائل – الغايات:

للاتحـاد الإسـلامي الـدولي للعمـل فهمـه الخاص بالنسبة لعدد كبير من القضايا الإسلامية، ولم يكن ليُعقـل أن يكتـل العمـال ليضـعهم في قبضـة فهم ضـيق للإسـلام، يجـني عليهم أو يجعلهم أداة في يد الحكـام. من هنـا فإنـه عُـنيَ في دستوره بتخصيص الفصل الثـاني للمفـاهيم، والفصل الثالث للغايات والوسائل.

فتحت عنوان المفاهيم جاء:

المادة (4)

ليقوم هذا الاتحاد على أساس تلاقي وتفاعل الإسلام والعمل طبقًا للمفاهيم التالية:

المادة (5)

1-الإسلام هو نهاية مسيرة البشرية للتعرف على الله وخاتم الأديان السماوية وبلورتها، وهــو لا يستشـعر حساسـية نحـو الأديـان الأخـرى، ولا يفـرق بينهـا، لأنـه يـرى أنهـا كلهـا من اللـه، وأن أنبياءها رسل مُكرَّمُون. وقد تحدث نبي الإســلام عن بقيـــة الأنبيـــاء كـــأخوة، وعن الـــدين كبنـــاء متكامل إلا ثغرة جاء الإسلام ليسدها.

وإنمـا حـدث الخلاف، نتيجـة لتحريـف رجـال الــدين، ورغبتهم في احتكــار الــدين واســتغلاله لمآربهم.

والإســـلام يـــؤمن تمامًـــا بحريـــة الاعتقـــاد للمسلمين ولغـير المسـلمين، ويحـترم حـق كـل واحد فيما يعتقده – ويرفض أي تدخل في مجال العقيدة، ما لم يؤد ذلك إلى إســاءة محققـة إلى المجتمـع، ويكـون التـدخل منصـبًا على العمـل وليس على الفكر.

ولا يقــر الإســلام أيــة وصــاية بين الإنســان والله، ولا يعترف بأية صورة من صور الكهنوت.

الإســلام في مفهــوم الاتحــاد – هــو القــرآن الكــريم والصـحيح الثـابت من السـنة النبويـة – وفهمهما فهما سليمًا. دون تعسُّـف أو تـرخُّص أو تقيُّد بمذهب دون آخر.

المقوم الذي يعني به الاتحاد بوجه خاص من بين المقومـــات الإســـلامية الأخـــرى، ويتطلب الإيمـــان بـــه كشـــرط للعضـــوية هـــو "العـــدل الإســلامي" لأنــه الأســاس والمعيــار في تحديــد

العلاقـات وتعـيين الحقـوق والواجبـات؛ بحيث يستبعد التحكم والاستغلال.

والعـدل – فيمـا يـرى الاتحـاد - هـو الطـابع الرئيسي للإسلام والقيمة الاجتماعية لـه، ومهمـا اختلفت الاجتهادات أو تفاوتت الأفهام؛ فسـيظل هو العدل الذي لا يمكن الخلط بينـه وبين الظلم والاستغلال الكريه.

ويتمـيز العـدل الإسـلامي بموضـوعيته وقداسـته الناشـئتين من أنـه مُـنزَّل من اللـه، وليس من الدولـة أو الأفـراد. وبهـذا يستعصـي على التلاعب والتحايـل، ويصـبح ملزمًـا للدولـة والأفراد على سواء.

المادة (6)

(أ) المقصـود بالعمـل في هـذا الاتحـاد هـو العمل بالمعنى القـرآني، وليس العمـل بـالمعنى التقليـدي الضـيق، أو الاصـطلاحي الشـائع الـذي يحصـر العمـل في العمـل المـأجور أو العمـل الاقتصادي. وقد جـاءت كلمـة العمـل ومشـتقاته في القـرآن مقرونـة في معظم الحـالات بالصـالحات، أو كمـبرر للثـواب والعقـاب في الحيـاة الـدنيا وفي الآخـرة – ممـا يـدل على شموله، وعمومه لكل صور العمل، وطبقًـا لهـذا فيمكن من ناحيـة المبـدأ لكـل الـذين يعملـون سـواء كـان عملهم يـدويًا أو ذهنيًـا لقـاء أجـر أو كسـب أو غـير ذلـك، أن يمثلـوا عن طريـق منظماتهم في الاتحاد.

ومع هذا فستظل النقابات باعتبارها الهيئـات الـتي تضـم بالفعـل معظم العـاملين هي عمـاد

الاتحـاد دون تفرقـة بين عمـال يـدويين وذهـنين، يعملـون في قطـاع عـام أو خـاص أو حكومـة أو خدمات.

وبجـانب العضـوية العاملـة للنقابـات. يعمـل الاتحـــاد لتوثيـــق علاقاتـــه باتحـــادات الطلاب وجمعيـات ربـات الـبيوت والجمعيـات التعاونيـة والروابـــط الفلاحيـــة والمنظمـــات الإســـلامية الأخرى.

إن هذا التجديـد في بنيـان الاتحـاد وتنظيمـه سـيكفل لــه الخــروج من قوقعــة البلوريتاريــا، وعقـدتها الـتي كـادت أن تصـبح إحـدى حفريـات القــرن التاســع عشــر، وتنــاقض تطــور حركــة العمالــة في المجتمــع الحــديث، وســينفي عنــه بعض الحساسيات تجـاه فئـات الشـعب العاملـة الأخرى، وانعزال الحركة النقابية عنها، وسيضمن له مشاركة العناصر الشابة المثقفة المؤَمَّنَة في تحقيق المصلحة الواحدة.

(ب) ينبني أيضًا على الأخذ بالمعنى القــرآني لكلمــة العمــل أن يكــون للعمــل إخلاقياتــه في المضمون والأداء؛ بحيث يكــون العمــل أداة بنــاء وخدمة ورعاية، وإشباعًا للاحتياجات المشــروعة، ويستبعد منه كل صور الإفساد والهدم والتخريب والاستغلال، كما يجب أن يؤدي بمــا توجبــه القيم الإسلامية والضمير الإسلامي من إخلاص وأمانة.

إن اليد العاملـة المسـلمة يـد بنـاءة طـاهرة أمينة.

المادة (7)

الأبعاد الرئيسية للعمل هي:

العمل هـو المـورد الرئيسـي – ويكـاد يكـون الوحيد – لإعاشة العامل، ولهذا فيجب أن يكفــل الأجر مستوى معيشيًا معقولاً للعامل، فـإذا كـان مستوى المهارة لا يسمح بـذلك فإنهـا لمسـئولية الدولــة الإســلامية تــدريب العمــال – وإعــادة التدريب لبلـوغ هـذا المسـتوى. وحـتى يتم ذلـك تكمـل الأجـور من الزكـاة أو غيرهـا من مـوارد الدولة تحقيقًا للتكافل الاجتماعي.

لا يقل عن ذلك أهمية أن العمل أداة إشــباع الشخصية، وإثبات وجودهـا وطريقهـا للمسـاهمة في حياة المجتمـع، وتقـديمها لإضـافتها الخاصـة ولتحقيـق ذلـك يجب أن تتخـذ الإجـراءات الـتي تحقــق قــدر المطلــوب التلاؤم مــا بين العمــل والقابليــة بوســائل التوجيــه المهــني وإعــادة التدريب.

وتقدم الحركة النقابية المشـورة للجهـات المسئولة، وتقوم بمسئولياتها تجاه ذلك.

العمل هو الإطار الـذي ينظم العـاملين على أساس المهنة أو الصناعة أو الخدمة أو غير ذلك؛ ليمكن تسـوية علاقـات العمـل تسـوية جماعيـة تتــوفر فيهــا الشــورى بالصــورة الكاملــة؛ أي الشـورى مـا بين العمـال وقيـادتهم – ومـا بين قياداتهم وأصحاب الأعمـال وتقـوم على أسـاس العدل الإسلامي؛ بحيث يمكن أن تؤدي الواجبات بالأمانة، وتحدد الحقوق بالعدالة.

العمـل هـو وسـيلة المجتمـع الفعليـة للبنـاء، ولتوفير الاحتياجات في مجالات الإسكان والغذاء والكســاء والخــدمات والرعايــة والثقافــة، ولاسـتدراك تخلفـه كمـا هـو وسـيلة تزويـد هـذا

المجتمع بالقوة التي تحميه وتكسبه المنعة، وتحول دون الافتيات عليه.

المادة (8)

يؤمن الاتحاد بوجوب رابطة وثيقة تربط بين الإسلام والحركة النقابية، وتحقق نوعًا من التكامل السعيد المنشود – ذلك لأن الحركة النقابية ستجد في الإسلام العقيدة المثلى، التي تقوم على الإيمان بالله، أصل القيم والمثل الموضوعية – وأن العدل - وليس الرغبات الذاتية هو أساس العلاقات والحقوق والواجبات. وسيجد الإسلام في الحركة النقابية الهيئة التي تؤمن به وتنصره؛ عندما يتجهم له الأغنياء والفئات المميزة.

ويؤمن الاتحاد أن من أكبر أسباب تدهور المجتمعات الإسلامية الحديثة أن الإسلام فقد هذه العلاقة، وأن جمهوره اقتصر على مثقفين نظريين أو فلاحين مشتتين أو طبقة وسطى، عنيت بالطقوس والجوانب الفردية؛ إذ أدى ذلك لأن يفقد الإسلام جمهوره الطبيعي، وأن تطمس الجوانب الاجتماعية والتحررية فيه.

وتحت عنوان الأهداف والوسائل جاء:

الأهداف والوسائل

المادة (9)

يعمل هذا الاتجاه للأهداف الآتية:

تمثيل قوة العمل المسلمة على الصعيد الدولي، وفي المحافل الدولية، والعمل لتحقيق مطالبها.

ويدخل في ذلك العمال المسلمون المهاجرون الذين يعملون في دول أخرى، أو يعملون في بلادهم تحت سيطرة غيرهم، ويتعرضون لاضطهاد عنصر أو ديني.

مساندة المنظمات المنضمة في الدفاع عن حقوقها، وتحسين ظروف العمل، ورفع المستوى المادي والاجتماعي والفكري لأعضائها، وتأمين حاضرهم ومستقبلهم.

الدفاع عن الحرية النقابية، وحماية قيادات العمل النقابي، وتمكينهم من مواصلة القيام بواجباتهم.

مقاومة كل صور التحكم، والاستغلال في أوضاع العمل، والدعوة لاستلهام القيم والمثل والممارسات الإسلامية عند تحديد المبادئ التي تحكم قضية العمل ووضع تشريعاته، وإقامة علاقات العمل على أساس العدل الإسلامي، وشعار الواجبات بالأمانة والحقوق بالعدالة.

نشر وإذاعة العلم والمعرفة، وتشجيع القيام بمختلف مناشط تعليم الكبار والثقافة العمالية، والتدريب المهني؛ حيث إنها السبيل لترشيد العمل النقابي، وتنمية شخصية الفرد ومهارته، وحسن تعرفه على الحقوق والواجبات "إن المعرفة قوة والجهل مهانة والعلم مفضل على العبادة في الإسلام".

الدعوة لمحو الأميـة والإشـراف على تنظيم حملات لذلك، تحت شعار الآيـة الكريمـة "اقـرأ" والاستعانة في ذلك بكافة الجهود.

تشـجيع نشـر اللغـة العربيـة، وتعليمهـا بين الشـعوب الإسـلامية حيث إنهـا لغـة القـرآن والحديث وهي اللغة الأم للمسلمين جميعًا.

مناصـرة قضـايا التحـرر في العـالم، وتعزيـز الأخوة الإسلامية.

المادة (10)

يعمل الاتحاد لتحقيق الأهداف المشـار إليهـا في المادة السابقة بالوسائل الآتية:

الحكمـة والإقنـاع والموعظـة الحسـنة، كأسـلوب عـام ودائم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ويدخل في هذا استخدام مختلـف وسـائل الاتصال والنشر والإعلام، وإصدار الصحف والنشـرات، واسـتخدام وسـائل الاتصـال الجماهيريـة، وعقـد النـدوات والحلقـات.. إلخ.

في المرحلة الانتقالية – أي مـا بين الأوضـاع القائمة والأوضاع الإسـلامية المنشـودة، يمـارس الاتحاد الطـرق الفنيـة التقليديـة، أي الاتفاقيـات الجماعية والتوفيق والتعديل التشريعي.. إلخ.

ولا يسـتبعد الاتحـاد من نطـاق العمـل النقابي المشروع مختلف وسائل الضغط، على أن لا يلجأ إليهـا إلا بعـد اسـتنفاد كـل الوسائل الأخرى، واتخاذ الإجـراءات الـتي

تقلــل قــدر الطاقــة آثارهــا الســيئة على الجمهور.

عند انتهـاء المرحلـة الانتقاليـة يصـبح العـدل الإسلامي أي المستمد رأسًا من القرآن الكـريم، والصـحيح الثـابت من السـنة. هـو الحكم الـذي يلــتزم بــه الجميــع حكومــات وأصــحاب عمــال وعمال.

يرفض الاتحاد تمامًا الـدخول في المهـاترات السياسـية والحزبيـة الخاصـة بسياسـات الدولـة الأعضاء أو حكوماتها؛ حيث قد ثبت أن هذا النوع من النشـاط يفـرق الوحـدة، ويسـتهدف هيمنـة مجموعــة من المنظمــات على الاتحــاد تحقيقًــا لمآرب سياسية، أو تنفيذًا لمخططات حكوميـة – بعيدة عن اختصـاص الاتحـاد والمهـام الـتي قـام من أجلها.

كما يرفض الاتحاد الـدخول في مناقشـات مذهبيــة إســلامية، أو يحــاول تغليب أحــد المذاهب القائمة على المذاهب الأخرى.

مــع أن الاتحــاد لا يــرفض التعــاون مــع الحكومات والهيئات، لتحقيق أهدافه إلا أنه يظل مســتقلاً تمــام الاســتقلال عن كــل الحكومــات والهيئات، وسياساتها الخاصة، ويرفض أن يكــون لمثل هذا التعاون أثر على حريته واستقلاله.

عناصر الإبداع في الاتحاد[1]:

---

1 [(?)] ما جاء في هذه الفقرة مأخوذ عن رسـالة الاتحـاد بعنــوان "الاتحــاد الإســلامي الــدولي للعمــل يبــدأ المسيرة" من ص 7 إلى ص 15.

أولاً: إن ربط الحركة النقابية بالإسلام يعني ربطها برسالة حضارية عُظمى أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية وقدمت نظامًا اجتماعيًا واقتصاديًا متكاملاً، وصنعت أرفع النماذج الإنسانية بدءًا من الرسول العظمى؛ حتى الخلفاء الراشدين.. والصحابة المهديين ثم من تبعوهم بإحسان. ولم يخل منهم مِصرٌ من الأمصار وزمن من الأزمان.

ثانيًا: إن هذا الربط سيقضي على الخواء الروحي، والفراغ النفسي الذي تستشعره العضوية النقابية؛ لما تقتصر علي النقابية التقليدية من طابع مادي – مهني- ويجعل بعض العناصر النقابية النابهة تنحاز للنظرية الماركسية التي تقدم تأصيلاً للتطور الاجتماعي يرتبط بالعمل، كما سيحصن الحركة النقابية من تسلل الشيوعيين إليها، واستخدامهم لها أداة لتحقيق السياسات والمخططات الشيوعية، وإثارة القلق والاضطراب في المجتمع. وفي الوقت نفسه فإنه سيعصم القيادات النقابية من الاستخذاء أمام الحكومات، والاستسلام لما يمكن أن يلوح به الحاكم من ترغيب أو ترهيب، بحيث لا تكون الحركة النقابية ما هي عليه الآن في كثير من الدول ألعوبة الحكومة وأداتها، لتحقيق السياسية التي تراها، بصرف النظر عن اتفاق ذلك مع إرادات العمال. أو مقتضيات العدالة.

ثالثًا: إن هذا الإتحاد يقدم أساسًا للسلام الاجتماعي وفيصلاً في علاقات العمل تتقبله النقابات، ولا يستطيع أصحاب الأعمال أو

الحكومات رفضه. ذلك هو العدل الإسلامي. وبهذا تتحول "المطلبية" و "الفئوية" إلى "موضوعية" و "مبدئية" وينتفي الصراع الطبقي.

وللمتخرصين أن يقولوا أن العدل الإسلامي ليس إلا كلمة أو شعارًا. إن الحرية ليست إلا كلمة.. والمساواة ليست إلا كلمة وإنصاف العمل. وديكتاتورية البلوريتاريا.. ليست إلا كلمات وقد وضع الإسلام الضوابط العريضة، والمحكمة للعدل في وضوح وتمييز؛ فبعد أن عمق حاسة العدالة بالآيات والأحاديث التي لا تُحصى لتكون حامية للعدالة وكاشفة لإساءة التطبيق حرم الاكتناز والربا وكافة صور الاستغلال، وأوجب الزكاة والإنفاق، وأقام المجتمع الإسلامي على أساس التكافل الاجتماعي، ووضع الخلفاء الراشدون الأمثلة والسوابق عند التطبيق، ولو طبق هذا كله، أو حتى بعضه لتحققت العدالة ولانتفَى الاستغلال – فلا يلومنَّ أحد الإسلام، وإنما يلوم الذين لا يريدون تطبيق الإسلام، أو أخذ توجيهاته مأخذ الجد.

إن استكشاف "العدل الإسلامي" وتأصيله باعتباره الطابع الرئيسي للإسلام والمحور الأساسي للعلاقات عامة، وعلاقات العمل خاصة، يمثل تجديدًا حاسمًا وجذريًا في مجالي الفكر العمالي والإسلامي، فهو في مجال الفكر العمالي يحل الموضوعية المبدأية محل المطلبية الذاتية. وهو في مجال الفكر الإسلامي ينقل مركز الثقل من الدائرة التقليدية المقررة. دائرة العبادة أو الفضيلة إلى دائرة العدالة.

رابعًا: إن استلهام الإسلام سيعيد إلى العمل أخلاقياته التي أهـدرها العصـر الحـديث، وضحَّى بها عندما تعارضت مـع الأسـاس المـادي، الـذي قام عليـه المجتمـع الليـبرالي والاشـتراكي على سواء. وستنسحب هذه الأخلاقيـة على مضـمون العمل؛ بحيث لا يكون إلا طيبًا حلالاً تُستبعد منـه كل الممارسات الشائنة أو الضارة أو التي تقـوم على اسـتغلال أو غـدر أو سـرف أو قسـوة إلخ.. كما ستنسحب على الأداء بحيث يتسم بالإخلاص والإتقـان وأداء العمـل حقـه.. وعلى مـا يوجـده العمـل من علاقـات؛ بحيث لا تكـون لحمتـه أو سُداه الحقد من العمال على أصـحاب الأعمـال، أو الاستغلال من أصحاب الأعمـال للعمـال.. لأن الإسـلام يحـرم هـذا وذاك، ويجعـل حقـوق أحـد الفريقين واجبات الفريق الآخر. فـإذا لم يتحقـق هذا تمامًا، فإن التحقيق الجزئي يحسم أسوأ مـا في الموضـــوع، أو يمكِّن من أداء الواجبـــات بالأمانة.. ونيل الحقوق بالعدالة.

وأخيرًا فإنه سينسحب على العمـل النقـابي، فيقضي على الانتهازية المتفشية فيه.

خامسًا – إن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل – على نقيض الاتحادات العمالية التقليدية، يفسر كلمة العمـل تفسـيرًا واسـعًا، ويأخـذها بـالمعنى القرآني؛ بحيث تضـم كـل الـذين يعملـون سـواءً لقاء أجر أو كسب أو غير ذلـك؛ فيمكن للفلاحين وللجمعيات التعاونية ولجمعيات ربات الـبيوت أن تنضـم إلى الاتحـاد، كمـا أنـه لا يفـرق بين عمـل يـدوي وعمـل ذهـني. واتحادنـا في هـذا لا يلـتزم فحسب بتوجيهات القرآن، بل هو أيضًا يتفق مــع

سير حركة العمالة واتجاهاتها الحديثة الـتي تزيـد من عمالة الخدمات والياقـات البيضـاء والتوزيـع إلخ.. قدر ما يبعد عن الشعارات أو الممارســات التي كـانت ذائعـة في القـرن التاسـع عشـر، ولا مكان لهـا في هـذا العصـر.. ونحن اليـوم نسـمع عن أحدث حركات التجديد النقابية ـ الـتي يقـوم بها عمـال بولنـدا ــ أنهـا تسـتهدف تكـوين نقابـة للفلاحين. فالاتحــاد الإســلامي كــان في اتباعــه للتوجيه القرآني أصدق حسًا وتمشيًا مـع العصـر من التنظيمـات النقابيـة التقليديـة الـتي تقتصـر عضويتها على الإجراء فحسب.

ثامنًا: إن هذا الاتحاد رغم حداثة العهد وصغر الحجم، فإنه قد خدم فكريًا ونظريًا بما لم تخـدم به اتحادات أخرى أعرق عهدًا وأكبر حجمًا وأيضًا مــالاً. فحتَّى قبــل أن يُعلن التكــوين الرســمي للاتحــاد كـان أمـام المنـدوبين ثلاث كتب تشـرح فكرة الاتحاد، وتعالجهـا من مختلـف المنطلقـات والزوايـا. الأول الكـتيب التعـريفي الـذي يعـرض الفكــرة العامـــة للاتحـــاد ومـــبررات تكوينـــه، والوســائل والغايــات والعضــوية إلخ، والكتــاب الثاني هو "أزمة النقابيـة" وهـو يسـتعرض أزمـة النقابيـــة في المجتمـــع الرأســـمالي، باعتبارهـــا النقيض الجدلي للرأسمالية، الـذي يـوجب عليهـا أن تعايشها، وأن تقاومهـا في الـوقت نفسـه. أن تكون "دكتور جيكل" و "مستر هايد" ومـا ينشـئه هـذا الـدور المـزدوج والمتعـارض من مفارقـة، وفي المجتمـع الشـيوعي الـذي يجعـل النقابـات "السـير ناقـل القـوى" وهـو التشـبيه الرسـمي والمقـــرر للنقابـــات في التنظـــير الماركســـي

والسوفيتي، وهو ما يجر الحركة النقابيــة من أي استقلالية أو أصالة أو مبادأة، ومـا يربطهـا ربطـًا ميكانيكيًـا بـالحزب، ويجعلهـا أداتـه في توصـيل أوامره للجماهير.. والكتاب دراسة فنيـة خالصـة تنتهي إلى أن العلاج الوحيـد لأزمـة النقابيـة هـو الإسـلام، ويضـرب المثـل لـذلك بـدعوة الاتحـاد الإسلامي الدولي للعمل.. أما الكتاب الثالث فهو "الإسلام والحركة النقابيـة" وهـو يفنِّد مـا يدَّعيـه البعض من تعـارض مـا بين الإسـلام والنقابيـة، ويثبت أن الإســلام يـــدعو إلى النقابيـــة، وأن الاتفاقيـات الجماعيــة الــتي هي عمــاد العمــل النقابي في المجتمعات ذات الاقتصاد الحـر، هي مـا توجبـه الآيـة 282 من سـورة البقـرة، وأن المجتمــع الإســلامي القــديم أقــر "أســلاف" النقابـــات، ووكـــل إليهـــا اختصاصـــات تفـــوق الاختصاصـات الـتي تقـوم بهـا النقابـات الآن. والحق في آخر هـذين الكتـابين مشـروع دسـتور الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

فأي اتحاد موجود يمكن أن يفخر بمثـل هـذه الدراسات والمعالجات الفنية والنظرية لفكرته.. رغم مـا يتـوفر لمعظمهـا من أمـوال وخـبرات ورجال.

تاســعًا – إن قيــام الاتحـــاد على أســـاس إسـلامي لا يثـير أيـة حساسـية، ولا يكـون عقبـة أمام عالميته، خاصة في العالم الإسـلامي الـذي تكـون الأغلبيـة السـاحقة فيـه من المسـلمين، وتكـون النقابيـة الإسـلامية فيـه مثـل الاقتصـاد الإسلامي، والسياسة الإسـلامية والآداب والنظم

الاجتماعية الإسلامية لا تثير شيئًا لأنها تنطلق من دين وعقيدة الأغلبية الساحقة.

وبالنسـبة للـدول الأخـرى الـتي لا تـدين بالإسلام، أو تكون بها أغلبيات غير إسلامية، فمن المحقق أن الإسلام أقرب إليها من "الاشـتراكية العلميـة" الـتي لا تـرى في الأديـان كافـة سـوى "أفيون الشعوب"، وتعمل جاهدة للقضاء عليهـا، سـواء كـانت إسـلامًا أو مسـيحية، فلمـاذا تتقبـل هذه المجتمعات نقابية ماركسية معاديـة لـدينها، ولا تقبل نقابية إسلامية متسـامحة مـع دينهـا. إن سماحة الإسلام جزء ثابت من التـاريخ الإنسـاني والعالمي. وقد اعترف بـه حـتى أعـداء الإسـلام. لأنه ممـا لا يمكن أن يُجحـد؛ فـالتنكر لمثـل هـذا الاتحاد، سواء جاء من نقـابيين مسـلمين أو غـير مسـلمين، لا يمكن أن يعـود إلا إلى الجهالـة من ناحيـة، أو الجمـود على الأوضـاع، والعـزوف عن كل تجديـد من ناحيـة أخـرى.. وهي اعتبـارات لا تعنينـا. وقـد أصـدر التـاريخ حكمـه عليهـا في الماضي.. وسيصدر عليها حكمه في الحاضر.

وقـد تضـمَّن دسـتور الاتحـاد مـادةً تـتيح للمنظمات غير الإسـلامية الانضـمام والحـق في العضـوية الكاملـة، إذا تعهـدت بـاحترام دسـتور الاتحـاد والإيمـان بالعـدل الإسـلامي.. وليس في هذا مفارقة، بل إنه أمر طبيعي لأن الإسلام جـاء بعـد الأديـان الأخـرى، وهـو يعـترف بهـا وينسـب الخلاف إلى التحريـف في النصـوص وإرادات رجـال الـدين. والإسـلام بعـد ليس حكـرًا للمسلمين، إنه إرث للبشرية بأسرها.

عاشــرًا – إن الاتحــاد يعلن بصــراحة أنــه لا يتدخل في سياسات الدول الأعضـاء، ولا يتـورط في خلافاتها ومنازعاتها، لأنه لم يقم لتعميق هذه الخلافات والوصول بها إلى الجمـاهير.. إنـه قـام للوحدة ولجمـع الصـفوف – ولا يمكن أن تجتمـع الصوف والخلافات السياسـية قائمـة، إلا بتجـاوز هذه الخلافات كلية، وليس من اختصاص الاتحاد، ولا ممــا يــدخل في ســلطته الحكم على هــذه الخلافــات.. ولا يعــني دخــول هــذا الميــدان إلا التمزق والتحـزب والخضـوع لفريـق.. ومعـادات فريـــق.. والســـوابق الشـــاهدة على جريـــرة التورطــات الحزبيــة والتيــارات السياسـية على الحركة العماليـة الدوليـة عديـدة، من أول اتحـاد عمالي دولي ظهر مع بداية القـرن، حـتى تمـزق الاتحاد الدولي للعمال العرب منذ بضع سنوات.

ومن عناصر الإبداع أيضًــا أن الاتحــاد توصَّــل إلى حقيقة غريبة، فعندما كان بصــدد البحث عن الشــواهد الإسـلامية عن العمــل في الإســلام، اكتشف أن معالجـة الإسـلام نفسـه من منطلـق العمـل يمكن أن يـثري الإسـلام بقـدر مـا يـثرى الإسلام العمل. ومن هنا كان استكشـافه لفكـرة المقاصَّة التي تقـوم على الآيـة .. إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ والحـديث "...وأتبـع السـيئة الحسنة تمحُها" وتفضيله لهذه الوسـيلة القرآنيـة النبـوي على الوسـيلة الفقهيـة "سـد الذريعـة" واستكشافه أيضًا أن العمل هو "مصداق الإيمـان ومعيـار الثـواب والعقـاب في الآخـرة" وتفضـيله التيسـير والتسـهيل بصـفة عامـة على التعسـير والتشــدد، وإيثــار منطــق العمــل على منطــق

الفــروض النظريــة الــتي يقــوم عليهــا الفقــه الإسلامي، ويذهب الفقهاء فيها مـذاهب خياليـة، وأن أسلوب "الشـورى" يجب أن لا يقتصـر على مجـال السياسـة كمـا تفهم الـدعوات الإسـلامية القائمــة، ولكن أن يمتــد ليشــمل الشــورى في الإدارة. وأن أي كسب دون عمل فهـو ربـا حـتى وإن انتفَى الاستغلال الذي ظن أنه مـبرر تحـريم الربـا، وأن إضـرابا تقـوم بـه نقابـة انتصـافًا، أو لمطالبة وطنية، يمكن أن يكون صورة من الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر. فهــذه أحكــام جديدة، أمكن التوصل إليها بمعالجة الإسـلام من منطلق العمل.

مطبوعات الاتحاد:

العمـل في المجـال الثقـافي، وبوجـه خـاص بطريقة الكتاب هو أبــرز اهتمامــات الاتحــاد، لأن العمــل الحــركي والتنظيمي يصــطدم بــالنظم والأوضــاع من ناحيــة، ويتطلب نفقــات ماليــة لا تتوفر للاتحــاد. ومن ثم فإنــه ركــز على الكتــاب. وما ينشره الاتحاد يتفاوت ما بين رسائل صغيره في 48 صـفحة، وكتب متوسـطة الحجم مـا بين 100 و 260 صفحة.

وفيما يلي بيان بهذه الكتب:

الاتحــاد الإســلامي الــدولي للعمــل (كــتيب تعريفي).

الاتحـــاد الإســـلامي الـــدولي للعمـــل يبـــدأ المسيرة.

الإسلام والحركة النقابية.

أزمة النقابية.
رسالة الإسلام.
أخت الصلاة المهجورة (الزكاة).
الحركة النقابية من منطلق إسلامي.
الخيار الصعب (قضية التنمية).
الحساسية الدينية.
وجوه الائتلاف والاختلاف.
الدولة العصرية.
رؤية لمضمون الحكم بالقرآن.
محكمة العدل الدولية الإسلامية.
الاتحاد الإسلامي الدولي في عامين.
العودة إلى القرآن.
لا حرج (قضية التيسير في الإسلام).
نحن ودعوتنا.
لست عليهم بمسيطر قضية الحرية.
الشورى في الإدارة.
الحركة العمالية الدولية.
عمال السودان والسياسة.
الحرية النقابية (3 أجزاء)
العهد.
تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي.
نحو حركة نقابية مثقفة.
الحركة النقابية السودانية تجد نفسها.
1- Islam amd Trade Umions.

2- The International Islamic Confederation of Labour.
3- Tow ards Islamic Labour and Unionism
Three Papers by
Dr. Ismai al Faruqui.
And Gamal al Banna

وللاتحاد نشرة غير دورية عنوانها "الله أكبر".

وقد أدت هذه الكتب إلى نشر فهم إسلامي لقضية العمل لم يكن موجودًا قبل الاتحاد. وظهرت آية ذلك في عناية بعض الدعوات الإسلامية بالحركة العمالية، وتغيير مسلكها التقليدي القديم. والحق أن الاتحاد وما قام به من اتصالات وندوات ثقافية في مختلف الدول الإسلامية، وهذه الكتب التي بعث بها إليها، أوجدت رأيًا عامًا إسلاميًا جديدًا حول العمل. ولكن هذا الرأي الجديد يدخل في صراع مع الفهم القديم، والرواسب والأفكار والتقليدية، وقد خدم الاتحاد الحركة النقابية في السودان بوجه خاص، وكذلك إلى حد ما في المغرب.

ويضم الاتحاد منظمات واتحادات عمالية في السودان وباكستان والمغرب والأردن وبنجلاديش، ولا يهم الاتحاد بوجه خاص كثرة عدد الدول، ولكنه يعني بتعميق الفكرة، ولو في بلد واحد. لأن تعميق الفكرة في بلد واحد أفضل من نثرها على سطح دول عديدة.

ولم يتوصل الاتحاد بعد إلى مقر رئيس لحساسية دعوته بالنسبة للحكومات العربية، ولأنه ظهر مع ظهور أحكام الطوارئ في مصر. ورفض السلطات دخول عمال مصر في معسر

الدعوة الإسلامية. ولهذا قنـع بمكتب اتصـال في جـنيف وبمكتب رئيسـه في القـاهرة. ويتلاقى مندوبو الاتحاد سنويًا في جـنيف خلال حضـورهم لجلسات مؤتمر العمل الدولي.

وقد حرص الاتحاد منذ يومه الأول أن لا يقـع تحت تأثر حكومة أو منظمة، وأوضح للمنظمـات المنضمة له أن الاتحـاد "ملتقى" إسـلامي، وأنـه يقبلها جميعًا ما دامت تمثل اتجاهًا إسلاميًا ولكنه لا ينـاقش ولا يفضـل اتجاهًـا على اتجـاه داخـل الاتحاد، ولا يسمح بمجادلات مذهبية فيه.

ولو قدرت الـدعوات الإسـلامية هـذا الإتحـاد قدره وتعاونت معـه بـإخلاص، لكـان ذلـك أعظم خدمـة تقـدمها نحو نفسـها، ونحـو بلادهـا ونحـو الإسلام ولكن ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

* * * *

الفصل السابع
دعوات وصلت إلى الحكم

الــدعوات الــتي تعرضــنا لهــا في الفصــول السابقة دعوات ذات صفة شعبية، تعمل لتحقيق أهدافها بوسـائلها، الـتي قـد يكـون منهـا الحكم، ولكن لم تسنح لها فرصة الحكم.

وهناك دعوتـان سـنحت لهمـا فرصـة الحكم ومارسناه بالفعل هما الوهابية التي هي المذهب المطبـق في الحجـاز منـذ سـبعين عامًـا تقريبًـا، والجعفرية التي هي دعوة الثورة الإسلامية الـتي تحكم إيران منذ عـام 1979. وهاتـان الـدعوتان من الدعوات العريقة – فللوهابية تاريخ يعود إلى مائتي عام وللجعفرية تاريخ يعود إلى ألف عـام. ولكن العراقـة بقـدر مـا تكـون مـيزة فيمكن أن تصبح نقيصة، إذا لم تجدد نفسها بما يتماشَى مع الأوضاع.

وغرضــنا من كتابــة هــذا الفصــل ليس هــو الاســـتعراض الأكـــاديمي لخصـــائص الوهابيـــة والجعفريــة، أو تعريــف القــارئ على دقائقهمــا، فهذا مـا يتطلب كتابًـا أو أيضًـا، ومـا يخـالف نهج هذا الكتاب. ولكن غرضنا – ونحن بصدد دعــوات وصــلت إلى الحكم – أن نثبت بمنطــق الوقــائع أمرين.

أولهمـا: إن الحكم في حـد ذاتـه ليس هـو – كمــا يتصــور الكثــير من الــدعاة الإســلاميين – الوسـيلة الـتي تمكن الـدعوة، وتعمـق جـذورها وتصل بها إلى الانتشار والنجاح والتحقيق.

إن الحكم يمكن أن يكـــون بلاءً وخطـــرًا محققًا، وكارثة، للدعوة، ما لم تكن مؤثلة تمامًا. لأنه ما أن تصل الـدعوة إلى الحكم حـتى يقـوم صــراع مــا بين الـــدعوة والســلطة، ويغلب أن تنتصر السلطة، وتتغذَّى على الدعوة حـتى تـأتي عليها، ولا تحتفظ منها إلا بالقشور التي تكفل لها نوعًـا من التغطيـة المذهبيـة أو "الكـامو فلاج"، وبهذا تكون الدعوة قد ضحت بنفسها على مذبح الحكم. ولو أنها لم تصل إلى الحكم لما تعرضت لهذه المحنة، ولاكتسبتْ قوة، ولاتسعت قاعـدتها بدلاً من أن تدق قمتها..

وقد تحاول بعض الدعوات استعجال الوصـل إلى الحكم بالتحـالف مـع هيئـات أخـرى قـد لا تشـاركها الإيمـان، وإنمـا تتفـق معهـا في إرادة الوصول إلى الحكم. وهـذه الممارسـة هي أبعـد شيء عن طبيعة الـدعوة.. وتكـاد تـؤدي بهـا إلى الانسلاخ منها..

ولكن يحدث أن تحالف الدعوة حكامًا يــؤمن بها، ويقوم نوع من التعاون ما بين الـدعوة الـتي تقدم الفكر، والحاكم الذي يجرد السـيف، فـإلى أي مدى يكون حساب الكسب والخسارة؟ يغلب أن يـؤثر هـذا التحـالف على الـدعوة. ويمكن أن تكون الخسـارة في النهايـة أكـبر من المكسـب. لأن فـترة التحـالف ستقتضـب مـدة العمـل مـع الشعب، ومد وتعميـق معـاني وأفكـار الـدعوة – وستمضـي هـذه المـدة في خـدم السـلطة أو – على أفضل الأحوال – التعاون مع السلطة.

ومن الحقائق التاريخية أن الدعوتين موضوع هذا الفصل بدءًا حياتهما "الرسمية" بتحـالف مـا

بين الداعية والحاكم، الفكر والسيف. ففي حالـة الوهابية قام هذا التحـالف مـا بين الشـيخ محمـد بن عبد الوهاب. ومحمد بن سعود أمير الدرعية. وظل حـتى الآن مـا بين آل سـعود. وآل الشـيخ. وفي حالــة الجغرافيــة، فقــد حــدث هــذا عنــدما اتصـل الشـيخ صـفي الـدين – وهـو أحـد شـيوخ شـيعة أردبيـل بـرئيس قبيـل "الآف قيـون لـو" أوزون حســن. اتصــالاً انتهى بــامتزاج المــذهب الشيعي بالقوة العسـكرية. وإلى هـذين الحلفين يعود ظهور الدعوتين على منصة الحكم – ويعـود أيضًا ما اتسم به التطبيق من قصور.

ذلـــك لأن أســـلوب الســـلطة.. يختلـــف عن أسـلوب الـدعوة.. فالسـلطة لا يمكن أن تقـوم بــدعوة، وإذا دعت، فســيأتيها أبعــد النــاس عن حقيقــة مــا تــدعو إليــه، سـيأتي إليهـا الأفـاقون والانتهـازيون والوصـوليون. وهـو مـا يحـدث إذا حــاولت الســلطة أن تؤســس حزبًــا أو هيئــة، وشواهد ذلك عديدة.. لعـل آخرهـا محاولـة عبـد الناصر تكوين هيئة التحريـر، ثم الاتحـاد القـومي ثم الإتحاد الاشتراكي. وقد أخفقت جميعًا وكانت فشلاً وهيئات "سلطوية".

فالسلطة كدعوة فاشلة، ولهذا فإنها تلجـأ إلى وسـيلتيها الخالـدتين اللـتين يرمـز لهمـا بـذهب المعـــز وســـيفه، فلـــديها الإغـــراء والـــترغيب والمناصـــب والنفـــوذ إلخ.. ولـــديها الـــترهيب والسجون والمصادرة والاضـطهاد. وكـل وسـيلة من هاتين مفسده، ولا يمكن أن تأتي بخير.

والنتيجـــة أن الســـلطة تفشـــل إذا إرادت أن تقـوم بـدور الداعيـة. وأنهـا تفسـد النفـوس إذا

اسـتخدمت وسـلتيها. فعملهـا يـدور بين الفشـل والفساد.

وقــد ظن الشــيوعيون أن الكليــة هي أصــل الشــرور، وأنهــا هي الــتي تغــري الرأســماليين بالتحكم والطغيان إلخ.. فجعلـوا هـدفهم القضـاء عليها بالسلطة – ولكنهم نسوا أن السلطة أسوأ من الملكية. وهكذا فإنهم أرادوا اصطياد الملكية بالسـلطة، ولكن السـلطة صـادتهم، وأفسـدت عليهم محاولتهم القضاء على الملكيـة، أو جعلت القضاء على الملكية بالوسـيلة السـلطوية أسـوأ من الملكية نفسها (رغم أنها سيئة).

ولا يتحدث القرآن الكريم عن السلطة أبــدًا، وعنــدما يتحــدث عن "الحكم"ـ فيغلب أن يقصــد القضاء، أو حكمًا يقـوم على القضـاء. لأن الحكم الإسلامي هو الحكم بالقرآن، والقرآن هو أسمى قانون. فالحكم الإسلامي له طبيعة قضائية. وإذا أراد القرآن الحكم مطلقًا، فإنه ينســبه إلى اللــه تعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ ﴾.

ولم يحــدث أن تحــالف الرســول مــع أحــد رؤوس العــرب رغم كــل مــا لقي من أعــراض واضطهاد. ولمـا عـرض عليـه بعضـهم أن يسـلم على أن يكـــون لـــه من الأمـــر شـــيء، رفض الرسول وكان يقدم دعوته للناس جميعًا. وكانت البيعة الأولى له من سبعين رجلاً وامـرأة.. وبعـد أن آمنت الجمــاهير جــاء دور انتخــاب النقبــاء. فأسـلوب الـدعوة النبويـة كـان أسـلوب أصـوليًا سليمًا. كان الحكم هـو النهايـة.. هـو الـذي طلب الرسول. وانتظـره.. ولم يكن البدايـة المطلوبـة أولاً.

وكان الذين تعاطفوا مع الإسلام، في مكة والمدينة هم الجماهير، وكان الذين تنكروا له، في مكة والمدينة أيضًا هم الكبراء والأثرياء والحكام..

وستجد في الحديث عن الوهابية، والجعفرية أن الحكم كان على حساب الدعوة، وليس لحساب الدعوة، وأن الحكم كسب من الدعوة أكثر مما كسبت الدعوة من الحكم.

وما من دعوة أساء إليها الحكم كالجعفرية، ذلك أن إيران كانت سُنية حتى دهمها الحكم الصفوي سنة 1501، ودخل الصفويون في حرب ضروس مع العثمانيين الذين كانوا يمثلون السُنة – ودفعت هذه الحرب الصفويين لأن يلصقوا بالسنة – مذهب أعدائهم الألداء – كل نقيصة – كما عمدوا إلى المبالغة التي تصل للخيال في تمجيد آل البيت، ونسبة المعجزات إليهم دعمًا لدعوتهم..

وحتى لو استبعدنا هذا العامل الاستثنائي، فسيظل دائمًا من الخير للدعوات أن نعتمد على وسائلها الشعبية التي تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والإقناع القلبي والأسوة.. من أن تستعين بالسلطة والحكم وذهب المعز وسيفه فتفسد القلوب وتدخل عليها عنصرًا، لا يمكن التعرف معه على حقيقة إيمان المؤمنين. وهل هو إيمان قلبي أو هو خوف أو هو طمع..

ثانيها: والأمر الثاني الذي نريد البرهنة عليه بعرضنا لتجربة الدعوتين في الحكم، أن الدعوة ما لم تكن دعوة متكاملة، تقدم ما يمكن أن يكون "نظرية"، يمكن في ضوئها تحديد المواقف تجاه التحديات واستلهام الحلول، وتعيين الأهداف، سواء القريبة أو البعيدة؛ فإنها

لن تستطيع أن تملأ الفراغ أو تؤدي دور "الدعوة الحاكمة"، وسيضطر أصحابها إلى تلفيق الحلـول تلفيقًـا، قصـارى مـا يمكن أن يصـل إليـه وهـو محاولة تحقيق الأهداف دون المساس بالسلطة، بالمصالح المكتسبة، بالأوضاع التي قامت نتيجـة للسلطة. فإذا أدى المضمون الموضـوعي للحـل إلى مساس بالوضع الذي تقـولبت فيـه الـدعوة، عنـدما اسـتحوزت على السـلطة، فإنـه يسـتبعد ويعـد مخالفًـا للـدعوة، وإن لم يكن مخالفًـا بهـا. ولكن ماسًا بالسلطة.

وهذه الإثارة عن قصور الدعوة تنطبـق على الـدعوات الإسـلامية بوجـه عـام، إذ هي تتجاهـل كثـيرًا من القضـايا الاجتماعيـة العامـة الهامـة (العمال – النسـاء – الاقتصـاد – الفنـون والآداب إلخ..) حتَّى لا تضـطر للإعلان عن مواقـف مرفوضة من الآخرين، أو تضـطر لتقبـل مواقـف ترفضـها هي. وهـذا الموقـف – موقـف التجاهـل على سوئِهِ – أفضل من موقف دعوات أخرى لم يكن في حسـبانها أصـلاً، وبـاديء ذي بـدء – كـل هذا التعقيد الاجتماعي والسياسـي والاقتصـادي. ومن المفارقـات أن من بين هـذه الـدعوات الأخـيرة الـدعوتين اللـتين قـدر لهمـا أن تصـلا للحكم. فـآخر الـدعوات تـأهيلاً للحكم هي الـتي تقلدت الحكم بالفعل!!

فماذا يمكن أن تقدمـه "الوهابيـة" لتحـديات العصر، وهي التي تدور حول التوسل والشـفاعة والصـفات والقبـاب والقبـور.. ومـاذا يفهم "المتحجرون" من الوهابيين إزاء قضية العلاقات الصناعية – أو الفنون الإدارية. أو جواز الإضـراب أو قيام الأحزاب.. وماذا يمكن "للجعفرية" الـتي تقوم على الوله بآل البيت وأفضليتهم – وتنتظـر الإمام الغائب – صاحب الزمان - وتدور عواطفها كلها حول العتبات المقدسة، أو ذكرى استشـهاد

الحسين التي يسير فيها "المتولِّهـون" صـارخين، نادبين إلخ.

إن دعوة كالجعفرية قامت أصولها المذهبيـة على اقتراضـات تاريخيـة كـانت ماثلـة من ألـف عـام، ثم انطـوت تمامًـا، أو دعـوة "كالوهابيـة" ظهرت في بيئة صحراوية بدائية.. لا يمكن لهـذه أو تلك مجابهـة تحـديات العصـر، أو فهم لغتـه أو مجابهته بما يكفل لها الانتصار..

وسـنرى في اسـتعراض تجربـة الوهابيـة والجعفرية في الحكم مصـداق الفرضـين الـذين قسمناهما، ألا وهما:

الأول: أن الاعتمـاد على الحكم في نشـر الـدعوة [كم حـدث في حـالتي الوهابيـة والجعفرية] يحمل للدعوة مخاطر جمـة ويلـوث صفاءها ونقاءها، كما قد يفسد الـدعاة أنفسـهم، أو يحولهم إلى أحكام، أو يحملهم بأوزار الحكام.

الثاني: أن الدعوات الإسـلامية لم تصـل إلى مستوى النظرية المتكاملة التي يمكن أن تجابـه تحـديات العصـر. فبعضـها يتجاهـل المشـكلات، والبعض الآخر ليس لديه فكرة عنهـا. وعليهـا أن تعترف بأن ما كـان يصـلح من ألـف عـام، أو مـا ظهر في بيئة صحراوية بدائيـة، أو نتيجـة لوقـائع تاريخية عفى عليهـا الزمـان.. لا يمكن أن يصـلح الآن. وأن عليهـا أن تخـرج من قوقعـه الـدعوة الضيقة إلى الإطار الإسـلامي الفسـيح بـدون أن ترى في هذا حرجًـا أو غضاضـة، فإنهـا من قبـل، ومن بعد – دعوات إسلامية.

أ- الوهابية

للحجاز – لأن هذا هو الاسم التاريخي للبلاد، فما عهدنا دولة تحمل اسم ملكها[1]، وعهدنا بالملوك يحملون أسماء دولهم – لأن الملوك بالدول، وليست الدول بالملوك، وضع خاص بين الدول – ومنزلة متميزة. ففيها أول بيت وضع للناس لعبادة الله، وفيها روضة من رياض الجنة يثوي بها جسد الرسول. وشاهدت الفلوات ما بين مكة والمدينة رواحَ وغدواتِ الرسول والصحابة.. وكتب عليها تاريخ الإسلام حروفه الأولى.. ولا يمكن لأي بقعة من بقاع الأرض أن تفخر بمثل ذلك.

ومن ناحية أخرى فالحجاز صحراء غير ذي زرع، عاش معتمدًا على معونات الدول الإسلامية التي رأت في هذا واجبًا عليها، وكان يستمد من موسم الحج ما يفرج كربته. وما يسد حاجته.

وجاء وقت كان أعيان هذا البلد من وزراء أو تجار "مطوِّفين".

وكان الحجاز يتبع السلطنة العثمانية، وكان لدى الأتراك على غشومتهم ضعف نحو الحجاز. فلم يبخلوا عليه بالمساعدات، وانهالوا على الحرمين بالذهب والفضة والتحف.. ولكن نظام حكمهم كان عقيمًا وأوجد نوعًا من الازدواجية ما بين الباشا التركي.. وزعماء القبائل أو بقية آل البيت النبوي.

---

1 (?) باستثناء "روديسيا" التي حمَّلوها اسم سيسيل رودس – وهو من أكابر مجرمي الاستعمار البريطاني، وقد خلصت من اسم هذا الزنيم وأصبح اسمها "زيمبابوي".

وكـان فهم الإسـلام قـد تـدهور إلى تقليديـة ضيقة أو صـوفية خرافيـة وسـاد حـديث الأوليـاء والأوتـاد والأقطـاب، وانتشـرت أفكـار الشـفاعة والتوسـل لشـفاء الأمـراض، أو قضـاء الحاجـات وتسوية المشكلات..

وكـان الإمـام تقي الـدين بن تيميـة (661 – 728 هــ) قــد حــاول أن يقضــي على هــذه الخرافات في مصـر والشـام، واكتسـبت دعوتـه شهرة كبيرة، وكان الشيخ يتصف بقدر كبــير من الجــرأة، لعلهــا كــانت مطلوبــة لنســف التــل المتعـالي من الخرافـات، ولكنهـا أثـارت عليـه العلمـاء والسـلاطيين، الـذين كـان قـد بـادأهم بالهجوم "ولم يقتصر على ذلك بل هـاجم بقلمـه ولسانه كل الفرق الإسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضــة والقدريــة والمعتزلــة والجهميــة والكرامية والأشعرية وغيرها، وطعن كـذلك على الرجال الذين يعتبرون حجـة في الإسـلام، فقـال على منبر جامع الصالحية؛ أن عمـر بن الخطـاب وقع في كثير من الأخطاء، وقـال أيضًـا؛ أن علي بن أبي طالب أخطأ ثلاثمائة مرة، ولم يتردد في مهاجمة كثير من الأعلام الـذين سـبقوه، وانعقـد إجماع النـاس على تفـردهم بـالعلم والتفقـه في الـدين والفلسـفة فهـاجم الغـزالي بشـدة، كمـا هاجم محي الدين بن عـربي وعمـر بن الفـارض والصوفية بوجه عام، ودعـا النـاس في كثير من الجرأة والقوة إلى إصلاح شأنها، وتقـويم أمرهـا، ووصفَ للناس سبيل هذا الإصلاح والتقويم، بــأن نصحهم بالرجوع إلى القرآن والحديث، والاكتفاء بنصــيهما كمــا فعــل مــارتن لــوثر؛ حين دعــا المسيحيين إلى إصلاح شأن دينهم بــالرجوع إلى الكتاب المقدس وحده"[1].

---

1 [(?)] الشـرق الإسـلامي في العصـر الحـديث – حسـين مؤنس ص 188 ـ 189، وقد عاد في هذا الاقتباس

وليس الغـريب أن ابن تيميـة قـد عـورض، وحورب، وسُجن، إن الغريب أنه لم يُقتل، لأن ما قالـه على رؤوس الإشـهاد كـان يمكن أن يـؤدي إلى قتله. وإنما تعود نجاته إلى عارضته، ورباطة جأشة، وتمكُّنه التام من العلوم الإسلامية، وكـان يمكن أن تنجُ دعـوة ابن تيميـة لـولا أن النـاس شُغلوا بحرب التتار، وأن بساطة دعوة ابن تيمية وتجريدها – على صحتها النظريـة – مـا كـانت – تتمشَّـى مـع درجـة التعقيـد الـتي وصـل إليهـا المجتمع المصري والشامي وقتئـذٍ، وإنمـا كـانت تصلح لمجتمعٍ بسيط فطـري الطبيعـة، كمجتمـع الحجـاز مثلاً، وقـد كـان هـذا من أسـباب اهتـداء محمد بن عبـد الوهـاب إليهـا، قـدر مـا كـان من أسباب نجاحها هناك.

محمد بن عبد الوهاب:

ولـد محمـد بن عبـد الوهـاب المشـرفي التميمي النجدي (1115 ـ 1206 هـ - 1703 – 1791 م) ببلـدة العيينـة القريبـة من الريـاض، وتلقى علومه الأولى على والده دارسًا شـيئًا من الفقـه الحنبلي والتفسـير والحـديث، حافظـًا القـرآن وعمـره عشـر سـنين يـذهب إلى مكـة حاجًـا، ثم سـار إلى المدينـة ليـتزود بـالعلم الشـرعي، وفيهـا التقى بشـيخه محمـد حيـاة السندي (ت 1165 هــ) صـاحب الحاشـية على صحيح البخاري، وكان تأثره به عظيمًا. وعاد إلى العُيَيِّنَـة، ثم توجـه إلى العـراق عـام 1136 هــ - 1724 م ليزور البصرة وبغـداد والموصـل، وفي كل مدينة منهـا كـان يلتقي بالمشـايخ والعلمـاء، ويأخذ عنهم وغادر البصره مضطرًا إلى الإحسـاء

إلى دائرة المعارف الإسلامية – وجزيـرة العـرب في القرن العشرين – حافظ وهبة.

ثم إلى حـريملاء. حيث انتقـل إليهـا والـده الـذي يعمل قاضياً" [1]..

وفي هذه الفترة تعر محمد بن عبـد الوهـاب على دعـوة ابن تيميـة فـأعجب بهـا، وتجـاوبت بساطتها وصـرامتها مـع طبيعتـه البدويـة، ووجـد فيمـا اتسـمت بـه القطـع والحسـم، والوضـوح والصـراحة مـا يمكن أن يحسـم شـأفة مظـاهر الخرافة الـتي سـادت العقيـدة، والـتي رأى فيهـا ابن تيميـة نوعًـا من الشـرك، وأفـتى بكفـر من يعتقدها وقتلـه مثـل قولـه في الإقنـاع: " إن من دعا ميتًا، وإن كان من الخلفـاء الراشـدين، فهـو كافر، وإن من شك في كفره فهو كـافر" وقولـه في الرسالة السُنية "أن كـل من غلا في نـبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًـا من الإلهيـة مثـل أن يقـول يـا سـيدي فلان – أغثـني أو انصـرني، أو ارزقـني أو أجـرني وأنـا في حسـبك ونحـو هـذه الأقوال؛ فكل هذا شرك وضلال يُستتاب صاحبه، فإن تاب نجا وإلا قُتل"..

مثل هذه الأحكام في جُرأتهـا أعجبت محمـد بن عبد الوهاب؛ فتبناها، ووجد فيها ما يتسلح بها ليقضي على ظـاهرة بنـاء القبـور ورفـع القبـاب والتمسح بالأضرحة والتشـفع بالأوليـاء. وبـدأ في نشر دعوته عندما كان في حـريملاء عـام 1143 هـ - 1730 م. ولكنه مـا لبث أن غادرهـا بسـبب تآمر نفر من أهلها عليه لقتله.

---

1 [(?)] الموسـوعة الميسـرة في الأديـان والمـذاهب المعاصـرة – النـدوة العالميـة للشـباب الإسـلامي – الرياض ص 273.

"فتوجــه إلى العُيَيِّنَــة وعــرض دعوتــه على أميرها (عثمان بن معمر) الـذي قـام معـه بهـدم القبور والقبـاب، وأعانــه على رجم امـرأة زانيـة جاءته معترفة بذلك.

أرسل أمير الإحساء عريعر بن دي إلى أمـير العُيَيِّنَة يأمره فيها بأن يمنـع الشـيخ عن الـدعوة، فغادر الشيخ البلدة كي لا يحرج أميرها.

توجـه إلى الدرعيـة مقـر إمـارة آل سـعود، ونزل ضيفًا على محمد بن سويلم العريـني عـام 1158 هـ حيث أقبل عليه التلاميذ وأكرموه..

الأمــير محمــد بن ســعود الــذي حكم خلال الفترة (1139 ـ 1179 هـ) علم بمقدم الشيخ فجاءه مرحبًا به، وعاهـده على حمايتـه وتأييـده، وجرى بينهم الحوار التالي:

الأمير: أبشـرك ببلادٍ خـير من بلادك، وأبشـر بالعز والمنعة.

الشيخ: وأنـا أبشـرك بـالعز والتمكين، وهـذه كلمة "لا إله إلا الله" من تمسك بهـا وعمـل بهـا ونصــرها، ملــك بهــا البلاد والعبــاد، وهي كلمــة التوحيـد، وهي مــا دعــا إليهــا رســل اللــه كلهم، فالأرض يرثها عباده المسلمون..

ثم اشترط الأمير على الشيخ شرطين:

أن لا يرتحــــل عنهم، وأن لا يســــتبدل بهم غيرهم.

أن لا يمانع الشيخ في أن يأخذ الحـاكم وقت الثمار ما اعتاد على أخذه من أهل الدرعية..

أما عن الشرط الأول فقـد قـال لـه الشـيخ: ابسط يدك أبايعك الدم بالدم والهدم بالهدم.

وأما عن الشرط الثاني فقد قام له: لعل الله أن يفتح لك الفتوحات؛ فيعوضك من الغنائم ما هو خير منها[1].

الأفكار والمعتقدات:

ما هي الأفكار والمعتقدات التي يمكن القول أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتهى إليها أو تبناها؟ ويمكن أن نقول إنها "الوهابية"؟ تقول الموسوعة الميسرة:

كان الشيخ المؤسس حنبلي المذهب في دراسته لكنه لم يلتزم ذلك في فتاواه إذا ترجح لديه الدليل فيما يخالفه، وعليه فإن الدعوة السلفية اتسمت بأنها لا مذهبية في أصولها، حنبلية في فروعها.

دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقًا منذ سقوط بغداد سنة 656 هـ.

أكدت على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعدم قبول أي أمر في العقيدة ما لم يستند إلى دليل مباشرة، وواضح منهما:

اعتمدت منهج أهل السنة والجماعة في فهم الدليل والبناء عليه.

دعت إلى تنقية مفهوم التوحيد مطالبة المسلمين بالرجوع به إلى ما كان علي المسلمون في الصدر الأول للإسلام.

توحيد الأسماء والصفات: وهو إثبات الأسماء والصفات التي أثبتها الله لنفسه، وما أثبتها رسوله ﷺ له من غير تمثيل ولا تكييف ولا تأويل.

---

1 (?) المرجع السابق ص 274

التركـيز على مفهـوم توحيـد العبوديـة ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ "النحل 116".

إحياء فريضة الجهاد، فقد كان الشيخ صـورة للمجاهــد الــذي يمضــي في فتح البلاد ينشــر الدعوة ويزيل مظاهر الشرك الـتي انحـدر إليهـا الناس.

القضـاء على البـدع والخرافـات الـتي كـانت منتشرة آنذاك بسبب الجهل والتخلف من مثل:

زيارة قبر يزعمون أنه قـبر الصـحابي ضـرار بن الأزور وسؤاله قضاء الحاجات.

زيارة قُبَّة يقولون إنها لزيد بن الخطاب.

الترَدُّد على شجرة يقولـون إنهـا شـجرة أبي دجانة، وأخرى تُسمى الطرفية.

زيارة مغارة تُسمى مغارة بنت الأمير.

تقسيم التوسل إلى نوعين:

توسل مرغوب فيه، وهو ما كان بأسماء الله الحسنى.

توســل مبتــدع منهيٌّ عنــه، وهــو مــا كــان بالذوات الصالحة "بجاه الرسول، بحرمة الشــيخ فلان..".

منع بناء القبور وكسوتها وإسـراجها ومـا إلى ذلك من البدع التي تصاحبها.

التصدِّي لشـطحات الطـرق الصـوفية، ولمـا أدخلـوه على الـدين من أشـياء لم تكن فيـه من قبل.

تحريم القول على اللـه بلا علم (وأن تقولـوا على الله ما لا تعلمون) "الأعراف: 33".

إن كل شيء سكت عنه الشارع فهو عفوٌ، لا يحـل لأحـد أن يحرمـه أو يوجبـه أو يسـتحبَّه أو يكرهه ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تَسْـأَلُوا عَنْ أَشْـيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ "المائدة 101".

إن تـرك الـدليل الواضـح والاسـتدلال بلفـظ متشابه هو طريق أهل الزيغ كالرافضة والخوارج ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ﴾ [آل عمـران: 7".

إن النـبي ﷺ ذكـرَ أن الحلال بيِّن الحـرام بين وبينهمـا أمـور متشـابهات، فمن لم يفطن لهـذه القاعـدة وأراد أن يتكلّم عن كـل مسـألة بكلام فاصل فقد ضلَّ وأضلَّ.

ذكر الشيخ في بيانه لأنواع الشـرك ومراتبـه أنه:

شـركٌ أكـبر: وهـو شـرك العبـادة والقصـد والطاعة والمحبة.

شركٌ أصغر: وهو الرياء لقولـه ﷺ في حـديث رواه الحاكم: "اليسير من الرياء شرك".

شـركٌ خفي: قـد يقـع فيـه المـؤمن وهـو لا يعلم، كما قال ﷺ: "الشرك في هـذه الأمـة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاةٍ سـوداء في ظلمة الليل".

لقـد عملت هـذه الـدعوة على إيقـاظ الأمـة الإسلامية فكريًـا بعـد أن رانت عليـه سـجفٌ من التخلف والخمول والتقليد الأعمى.

العناية بتعليم العامة، وتثقيفهم وتفتيح أذهان المثقفين منهم ولفت أنظـــارهم إلى البحث عن

الدليل، ودعوتهم إلى التنقيب في بطون أمهات الكتب والمراجع، قبل قبول أية فكرة فضلاً عن تطبيقها.

للشيخ مصنفات كثيرة أهمها (كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد) و (كتاب الإيمان) و (كشف الشبهات) و (آداب المشي إلى الصلاة) و (مسائل الجاهلية) وعدد من المختصرات والرسائل التي تدور حول أمور فقهية وأصولية أكثرها في التوحيد.

الجذور الفكرية والعقائدية:

لقد ترسم الشيخ في دعوته أعلامًا ثلاثة استن طريقتهم وهم:

الإمام أحمد بن حنبل (164 – 241 هـ).

ابن تيمية (661 – 728 هـ).

محمد بن القيم الجوزية (691 – 751 هـ).

فكانت دعوته صدىً لأفكارهم، وترجمة لأهدافهم في واقع عملي[1].

واستعراض "الأفكار والمعتقدات" هامٌ لأنه يوضح أن التركيز هو على زيارة القبور، والتوسل والشرك والصفات إلخ. وليس هناك أي إشارة إلى قضايا تتعلق بالاقتصاد أو السياسة – وهذا التركيز في الوهابية ستظهر جريرته عندما ستتحول السعودية من صحراء بلقع كما كانت أيام الشيخ – إلى أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم.. إذ لن تجد الدولة الجديدة في الوهابية ما يفيدها في وضع سياساتها ونظمها. ولم يجد الوهابيون أنفسهم فيها ما يجعلهم يلزمون قادة "السعودية" جادة

---

1 [(?)] الموسوعة الميسرة ص 276

الشرع بالنسبة للشورى، والعدل والحريات إلخ.. كما سيلي في فقرات تالية.

التاريخ والتطور:

لا يتسع المجال بالطبع لاستعراض تاريخ الوهابية، فقد حكمت الدرعيّة في حياة الشيخ. وحاربت القبائل المجاورة وضمَّت معظم الجزيرة العربية، وكتب محمد بن سعود إلى السلطان العثماني بأن لا يرسل "المحمل"، وهاجم سعود الثاني بن عبد العزيز بن عمر بن سعود، الذي تُطلق عليه بعض المراجع الأوروبية "نمر الجزيرة العربية" ــ حدود العراق وشرق الأردن ــ ولكنه إبتل بالحملة المصرية التي أرسلها بناء على أمر السلطان العثماني، محمد علي، وكانت تحت إمرة ابنه طوسون، واستطاع سعود أن يهزم طوسون بفضل حرب المناوشات والأكمنة ولكنه تُوفِّيَ هذه الفترة، وأوصى ابنه عبد الله أن لا يدخل في حرب مكشوفة مع المصريين، الأمر الذي لم يحافظ عليه؛ عندما استدرجه إبراهيم باشا ــ ابن محمد علي الذي خلف طوسون ــ فهزمه إبراهيم، وأسره وأرسله إلى القاهرة التي أرسلته إلى الأستانة، وأعدم هناك.

ولكن هزيمة الوهابية أمام الحملة المصرية كانت جولة واحدة من جولات عديدة، فقد انقلب الحظ على محمد علي نفسه، وعلى الدولة العثمانية.. وتآمرت عليها الدول الأوربية، وظهرت مرة أخرى الوهابية.

وفي الفصل الأخير لها، استطاع عبد العزيز آل سعود أن يستحوز على الجزيرة العربية، وأن يدخل مكة والمدينة المنورة بعد سلسلة من الحروب تحالف فيها مع آل الشيخ ــ أي أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ فأعاد الحلف

القـــديم الـــذي تم بين جـــده الأعلى محمـــد بن سعود، والشيخ محمد بن عبـد الوهـاب، وبفضـل هذا الحلف عادت الـدعوة الوهابيـة قويـة، وآمن بهـا كثـير من أهـل نجـد الـذين عرفـوا بالبـداوة والجفاء، وحملـوا لفـترة مـا اسـم "الأخـوان" أو "الغطغط"، ومـا كـانوا يـترددون في أن يضـربوا بالسيف من يقول "سيدنا" محمد، وذكر الدكتور عبـــد الـــرحمن الشـــهبندر، في كتابـــه "القضـــايا الإجتماعية الكبرى في العـالم العـربي (1936)" أنه: "في الحملة النجدية التي شنت الغـارة على شرق الأردن منذ نحو عشر سـنوات (أي حـوالي 1927) هجم بـدوي من الغطغـط في جملـة من هجموا على قرية تُدعى "أم العمـد" ليجاهـد في سـبيل اللـه أعـداء الـدين من المرتـدين الـذي يُجـــيزون زيـــارة القبـــور وطلب الشـــفاعة من أصحابها، فرأى امـرأة في حجرهـا إبنهـا؛ فنـادت تسـتغيث وتطلب الأمـان، ولكن لا أمـان للمرتـد فـذبح الطفـل أولاً، ثم ذبحهـا وهـو يهلـل ويكـبر وينشد النشيد المعروف:

هبت هبـــوت الجنة ... رائح فين يا باغيها[1]

ولاقَى الملـــك عبـــد العزيـــز منهم عنتًـــا في الأيـام الأولى لحكمـه؛ عنـدما حرَّمـوا التليفـون والراديو والتصوير الفوتوغرافي إلخ. وجـاء وقت كـــان الطـــبيب المصـــري والمهنـــدس المصـــري يمتحن "ماذا تقـول في آيـات الصـفات!!" ولكن الملك عبد العزيز روَّضهم شيئًا فشيئًا. وبعد عناء طويل..

وكان من الوسائل التي اسـتطاع بهـا الملـك عبد العزيـز أن يسـيطر على القبائـل، أنـه عمـد

[1] (?) ص 151

إلى كل قبيلة تقريبًا من قبائـل الحجـاز، فأصـهر إليها، وكان بعد استكمال العدد الشـرعي لأربعـة زوجـات يطلِّق واحـدة فواحـدة ليـتزوج بـأخرى، وأنجب من كـل واحـدة عـددًا من الأبنـاء وتـزوج هؤلاء الأبناء – وقد أصـبحوا أمـراء– وأنجب كـل واحد منهم أبناءً، أصبحوا بـدورهم أمـراء. وهكـذا تكونت قبيلة ملكية تمثـل قبائـل الدولـة، ويمثـل كـل قبيلـة منهـا أمـير - على الأقـل – في هـذه القبيلة. وقبل ظهـور البـترول كـان هـذا الربـاط فخريًـا وأدبيًـا، وعنـدما ظهـر البـترول كـان في البترول متسـع للجميـع.. وبهـذه الطريقـة أوجـد الملـك عبـد العزيـز طريقـة جديـدة في النظم السياسية وتقلد زمـام الحكم، يمكن أن نسـميها "القبيلة الملكية" أو "قبيلة العقال الذهبي".

وقبـل ظهـور البـترول كـان الحكم القبلي، والفكر الوهـابي يكفيـان دولـة صـحراوية فقـيرة محدودة في كل شيء، لا ترتبط بالعـالم إلا عـبر موسـم الحج.. وكـانت العلاقـات مـا بين الحجـاز والـدول الإسـلامية وثيقـة؛ فكـل طـرف يحـرص على الآخر بحكم الأخوة الإسلامية..

ولكن البترول الذي تفجر في السـعودية غيَّر كل شـيء في هـذه الدولـة – خاصـة بعـد حـرب رمضــان ســنة 73 الــتي قفــزت بثمن برميــل البـــترول من ثلاثـــة دولارات إلى أربعين دولارًا، فتدفق نهرٌ ذهبيٌ على الحجاز، وأصبحت السماء تمطر ذهبًا وفضه ودولارات..

وكان الحجاز قد شاهد شيئًا كهـذا منـذ ألـف عام؛ عندما انهالت ثروات كِسرَى على المدينــة، وعندئـذ قـال عمـر بن الخطـاب للمسـلمين "إن

شئتم نَكيل لكم كيلاً، أو نَزن لكم وزنًا" ووزع كل شـيء على المسـلمين، حـتى بسـاط كسـرى الثمين، قُطِّع قطعًـا ووُزِّعت، ولكن الوهابيـة لم تتضمن شيئًا بالنسـبة للبـترول والـدولارات، ولم يستطع آل الشيخ أن يقترحوا على "السعوديين" شـيئًا أو يقفـوا في وجـه السـفه، والتبـذير الـتي جعلت "العربي" وجهًا قبيحًا في العالم أجمع..

كمـا لم يكن لـدى آل الشـيخ في الـتراث الوهابي شيئًا عن الشـورى، فليس مـا يمنـع من أن تكون الشورى الوحيـدة هي شـورى "مجلس العائلة" في القبيلة الذهبية..

ولم تجد ما تقوله بالنسبة للأخوة الإسـلامية. وأن الـبيت الحـرام للمسـلمين جميعًـا سـواء العـاكف فيـه والبـاد، وأن ليس لآخـر أن يصـد المسلمين عنه باشـتراط التأشـيرات والضـرائب ومختلف صور التحكمات.. وما الفرق بين الحكم السـعودي اليـوم والـذين قـال فيهم القـرآن.. ﴿ وَهُمْ يَصُـدُّونَ عَنِ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَمَـا كَـانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَـاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُـونَ وَلَكِنَّ أكـثرهم لاَ يَعْلَمُونَ 34 ﴾ الأنفال..

لقـد أراد السـعوديون اكتسـاب شـعبية، والظهور بمظهـر التواضـع، فـأطلق الملـك على نفسه "خادم الحرمين الشـريفين" وهي مفارقـة لـدعوةٍ قـامت لتجريـد المسـاجد من الزخـرف والزينة، وهدم القباب عليها، ومارسـت هـذا أول عهدها بالحرمين.. ولا يريـد الإسـلام ممن يملـك أن يكون خادمًا للحرمين، وإنما أن يكـون خادمًـا للمسلمين أو للإسلام، وإنما يكون الملـك خادمًـا

للحـرمين أمـر يقـرِّب مـا بين الملـك السـعودي والشاه الصفوي المتيم والهائم بالعتبات.

ولم تُعن الوهابية، أقل عناية، بقضـية العـدل لا في المجتمـع السـعودي نفسـه، أو بالنسـبة لاستغلال السعوديين للوافدين على بلادهم طلبًـا للعمـل، وممارسـتهم لأسـوأ صـور التحكم واستغلال الحاجة، والعنصرية المقيتة التي تجعل السعودي فوق المسلم المصـري أو السـوداني. وتضـع "الأمـريكي" في أعلى المسـتويات.. والمسلم في الحضيض، وتبيح للتجار والمقاولين أن يعيشـوا على عـرق العامـل عن طريـق مـا يُسمى "بالكفيـل" وهي بقيـة من بقايـا النخاسـة القديمـة. نهَى عنهـا الإسـلام وأطلـق عليهـا القسـامة – وكـان جـديرًا بالوهـابيين أن يطـالبوا بإلغائهـا، لأن النَّهي عنهـا جـاء في أحـد المراجـع الإسلامية التي حققها أحد شيوخهم[1].

أمـا عن كرامـة الإنسـان والحريـات، فهي قضـية مغلقـة لا تفهمها، ولا تسيغها الوهابية، ولم يكن عبثًا تلك الظـاهرة الـتي تثـير الانتبـاه. أن يكـون أول مـا يبحث عنـه رجـال الجمـارك في المطـارات والمواني السعودية هو "الكتب" فإذا عثر أحدهم على كتـاب فكأنـه عـثر على مخـدرات ويتعـرض

[1] (?) هـو تيسـير الوصـول إلى جـامع الأصـول، بتحقيـق الشـيخ حامـد الفقي. والنهي عن "الكفيـل" كمـا يسمونه، والقسامة (بالضم) كما سماها الرسول جاء في حديث عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسـول الله ﷺ إياكم والقسـامة..؟ قـال: ومـا القسـامة، قلنـا: الرجل يكون على الفئام من النـاس فيأخـذ من حـظ هذا وحظ هذا" الجزء الرابع ص 145.

للمساءلة، ويتعرض الكتـاب للمصـادرة.. فكيـف يمكن أن يرجى خير من نظام يناصب العلم والمعرفـة العداء.. ويعلنها حربًا شعواء على الكتاب..

هل معنى هذا أن الوهابية لم تحقق شيئًا.

بالطبع حققت..

فإنها أوجبت تطبيق الحـدود، وكمـا كـان من إنجـازات الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب أنـه "رجم" زانية اعترفت بالزنا، فإن ما يحرص عليه آلُـهُ هـو القطـع في السـرقة.. وتطـبيق بقيـة الحـدود. والحـدود إذا جـردت من مضـمونها الإسـلامي لم تعـد أكـثر من عقوبـات رادعـة زاجرة، وهي تأتي بفائدة الـردع، وكـانت مطبقـة في أوروبا طوال القرون الوسطى.

ماذا أيضًا؟

إنهـا أوجبت على النـاس جميعًـا حضـور الصـلوات في المسـاجد، أو على الأقـل، إغلاق المحال. وهو "إنجاز" هزيل يمكن لأي "بلدية" أو "نقابة" أن تحققـه، لأن البلـديات والنقابـات هي التي تحدد ساعات العمل وأوقات الإغلاق أما جرَّ الناس جرًا إلى المساجد.. فهي عملية شـكلية لا تحقق القُربى إلى الله.

وقد ترى الوهابية أن من مآثرها أنها ألـزمت النسـاء الحجـاب الثقيـل، وحـرَّمت عليهم قيـادة السيارات. وأنها قضت على كل صـور اللهـو من سـينما أو مسـرح أو غنـاء [إلا الدف] وهو أمر تزيد سوءاته، عن حسناته، ولا نرى أنه يستحق شرحًا أو إيضاحًا.

ولكن قد ترى الوهابية أن أعظم إنجازاتها أنها قضت على مظاهر وصور "الشرك" وهذا أمر عظيم – ولكنه لا يحتاج صولجان الدولة وسلطانها، بل إن تدخل الدولة قد يفسده. ويمكن لأية هيئة متطوعة أن تقوم به..

* * * *

إن الوهابية تعرض لنا مثالاً لدعوة تقوم على تطهير "العقيدة" كما تفهمها من مظاهر الشرك.. دون أن يكون لها أي أثر بالنسبة لقضايا المجتمع الكبرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وإنه يمكن أن يوجد في مجتمعها أسوأ صور الظلم والفساد والاستغلال والسَّفه.. دون أن ترى أن إصلاح هذا يدخل في عملها..

إنه الإفلاس، إفلاس أغنى دولة في المنطقة.

ب- الجعفرية [1]

الثورة الإسلامية الإيرانية التي قادها آية الله الخوميني عام 1979 تُعد من أكبر.. ولعلها أكـبر الأحداث الإسلامية التي مرَّت بالعـالم الإسـلامي طوال القرن العشرين. هذا القرن الذي شاهدت بداياتـه حضـيض الاسـتعمار الـذي سـقطت فيـه الدول الإسـلامية، حـتى قـامت الحـرب العالميـة الثانية فحررتها منـه، وإن كـانت قـد أوقعتهـا في إسـار اسـتعمار آخـر، وشـاهدت في وقت واحـد ظهور إسرائيل كدولة، وصعود الدعوة الإسلامية عام 1948، ثم تلت ذلك موجة الانحسار وظهور طغمة العسكريين وتلفيقاتهم السياسـية، ولعبـة "القط والفأر" مع الدعوات الإسلامية..

في هذا المنـاخ المتقلب المضـطرب، الـذي يغلب اليأس فيه الرجاء، لمعت – كشهاب ثـاقب – بارقة الثورة الإيرانية، وسطعت، وملأت الآفاق نورًا..

ولا يعود الأثر الكبير للثـورة الإيرانيـة إلى أنَّ إيران دولة كبيرة المسـاحة، كثـيرة العـدد، غنيـة المـوارد، ذات حـدود اسـتراتيجية وموقـع هـام، ولكن أيضًا إلى الملابسـات "الدراماتيكيـة" الـتي أحـــاطت بـــالثورة. فمن ناحيـــة وجـــد حـــاكم متغطرس وصل به الصلف والزهور والغـرور أن يصـفع رئيس وزرائـه في محفـل عـام! ويظن نفسه ملك الملـوك ــ شاهنشـاه ــ الـذي يجلس على عرش الطاووس. ونصب هذا الدَّعي نفسـه

---

1 [?] آثرنا تعبير الجعفرية على تعبير الأثنى عشرية، لأن الأمـام جعفـر الصـادق هـو رأس هـذه الفرقـة من الشـيعة، وقـد كـان رجـل دين، ودولـة، وتـوفرت لـه صفات نادرة، وأن ألصقت به دعاو لا أصل لها.

عدوا للإسلام ورموزه، نصيرًا لما ظنها الحضـارة الأوروبية ورموزهـا، وكـان مجـردًا من المـواهب بالمرة. ولكنه استطاع بمـوارد النفـط الضـخمة، وبتأييـد الولايـات المتحـدة أن يـرأس أكـبر قـوة عسـكرية في المنطقـة، وأن يؤسـس جهـاز مخـابرات رهيب "السـافاك" وفي مناسـبة للاحتفـال بـذكرى قيـام الإمبراطوريـة الفارسـية القديمـة – صـنع مـا صـنعه الخـديوي إسـماعيل؛ عندما افتتح قناة السويس، فـدعا ملـوك وأمـراء أوروبـا إلى مهرجـان يفـوق "ألـف ليلـة وليلـة" وكانت الأطعمـة والأشـربة تـأتي من "ماكسـيم" في باريس بالطائرات..

في مواجهة هذا الطاووس المختال، المـزين بالـذهب والمـاس، المـدجج بالسـلاح، المحمي بالسـافاك، المـدعم بأمريكـا ظهـر شـيخٌ واهن الجسـم، في الثمـانين من العمـر، لا يملـك إلا سـجادة صـلاته. ويقيم في بلـد بعيـد.. اسـتطاع كأنما بمعجـزة – أو بتوفيـق السـافاك ــ البلاط ـ أمريكا التي وقفت مشدوهة فاغرة الفم..

قالت إحدى الصحف إن عودة الخوميني من باريس إلى إيـران لا تماثلهـا إلا عـودة ليـنين من سويسرا إلى روسيا, ولكن الحقيقة كانت أعظم من ذلـك بكثـير، فلم ينتظـر ليـنين على محطـة السـكة الحديـد إلا مجموعـة من حزبـه، قلقـة، متربصـة، وكـان عليـه أن يعمـل طـوال عشـرة شـهور ليصـل إلى الحكم وسـط معارضـات وثورات لا حد لها. أما الخوميني فقـد وجـد بحـرًا من البشـر.. كأنمـا خـرج كـل الشـعب الإيـراني لاسـتقباله وسـط حماسـة لم تسـبق، وأسـلمه السـلطة بالإجمـاع، ولم يشـذ إلا الـذين لوَّثـوا

أيديهم بدماء الشعب من السافاك أو البلاط أو لصوص وحاشية الشاه المخلوع.

وفي حقيقة الحال، فإن الثورة الإيرانية تكاد تكون أعظم الثورات في العصور الحديثة – بمعايير الثورية بما في ذلك الثورة الفرنسية 1789 والثورة البلشفية سنة 1917 فالشعب كله اشترك فيها. وغيرت الثورة تغييرًا جذريًا الحياة قبلها. فقد كانت طهران – كباريس – مدينة أوروبية فيها كل مظاهر الاستمتاع والانطلاق الأوروبي. وبعدها أصبحت بلدًا إسلاميًا يلتزم بمقاييس الحفاظ الإسلامي. وقبلها كان الخبراء الأمريكيون والإسرائيليون يقتعدون مناصب الحكم والإدارة.. فحل محلهم الفقهاء بعمائمهم ولحاهم..

نعم، لم يحدث هذا في إيران – منذ أن خرجت الرايات السود من ألف عام لتقضي على الخلافة الأموية. وتحل الخلافة العباسية..

* * * *

وفي مصر تلقينا هذه الثورة بكل الحب والإعزاز والحماسة والتشجيع.. لم نهتم بأية تفرقه فقهية أو تحليل عقلاني، لأنها لمست وترًا حساسًا في نفوسنا، فرأينا ثورة "العمامة" على "القبعة" وعودتها إلى مجال الصدارة والسياسة.. ويا لها من عودة انبثقت من أعماق الماضي القديم.

* * * *

كان على الثورة الإيرانية أن تتصدَّى للوقائع الصلبة.

وفي الأيام الأولى بدا كل شيء ميسرًا بفضل دفعة الحماسة الدافقة، وجدة التجربة..

ولكن الثورة الناشئة لم تترك طويلاً..

فـالقوى العالميـة الـتي أخـذت على غـرة بانتصارها، دبـرت لهـا مكيـدة تجهضـها، فـدفعت أحد عملائها من الطغمة العسكرية ليشـن عليهـا حربًا ضروسًا تحت لافته "قادسية صدام"..

ويا له من زيف.. وادعاء..

إن كل حرف في كلمـة "قادسـية" يتـبرأ من كل حرف في كلمة "صدام".

وتــدفقت أمــوال النفــط من الســعودية والخليج، وبعثـوا من حريـات التـاريخ كلمـات: المجوس.. التتار.. الفرس.. ووقفت أمريكا وراء الجميع..

كـان الخوميـني يريـد أن يخلص العـالم من شخص شرير بمعنى الكلمة..

ولكن العـرب – على بُكـرة أبيهم!.. وقفـوا وراءه.. ودفــع الكويــتيون البخلاء الممســكون بسـخاء.. وأنفـق السـعوديون بسـفهٍ في سـبيل إبقاء هذا الشرير..

فتركه الخوميني.. ليكون لهم حزنًا، وليحـرق آبارهم وقلوبهم ويفعـل بهم الأفاعيـل.. ثم يعـود ليدمر كل ما أقامه هو نفسه تدميرًا!

وإذا كان الخميني قد تجرع كأسًا من السم - فـإن سـهمًا من سـهام دعائـه أصـاب صـدام فأصماه، وجعله أمثولة يتعوذ أقل الناس منها..

تُصـمُ السـميع وتُعمي البصـير، ويسـأل من مثلها العافية..

وزهق باطل صدام..

وعادت إيران، ولكن بعد أن خســرت ثمــاني سنوات فقدت فيها دفعة الثورة، التي كان يمكن أن تحقق لها الكثير، كما فقدت أمامها ورمزها.

ومع هذا تظل إيران – دولة إسلامية منتصرة تملك ما لا تملكه أية دولة إسلامية أخرى..

إن مصـــــر يمكن أن تنافســـــها في عـــــدد السكان، ويمكن أن تفوقها بالعربيــة، ولكن ليس لديها إمكانيات النفط، أو الموارد الطبيعية.

والحجـــاز يمكن أن يفوقهـــا في البـــترول وبالعربيــة، وبالمشــاهد المقدســة.. ولكن ليس هناك شعب..

والشعب هو أقوى القوى..

ولــدى إيــران شــعب من خمســين مليــون. يتسم بالذكاء.. وصـفه الأثـر "لـو كـان العلم في الثريـا لنالــه نــاس من فــارس" وقــدم لصـحبة الرسول رجلاً ورعًا ذكيًا أحبه الرسول حتى قــال "ســلمان منــا أهــل الــبيت" وخــدم الثقافــة الإســلامية، وأنجب لهــا عباقرتهــا في الحــديث والتفسير والفقه، وحتى اللغة العربية..

وبيننا وبين "الشيعة" وشائج عديدة..

فإذا كـانت الشـيعة تفخـر بأنهـا تنتسـب إلى فـارس الإسـلام النبيـل، وصـفِيِّ الرسـول الأثـير الإمام علي بن أبي طالب.. فنحن أيضًــا ننتســب إليه ونفخر به..

وإذا كــانت تــرى في الإمــام أبي عبــد اللــه الحسـين سـيد الشـهداء.. ورمـز الفـداء.. فنحن أيضًا نعتبره كذلك..

وإذا كان رأسـها المباشـر هـو الإمـام جعفـر الصادق، فإن جعفر الصـادق هـو إمـام من أئمـة السُنة..

وإذا كـانت تـرى أن "الإمامـة" من أصـول العقيدة.. فنحن – أيضًا – نؤمن أن الإسلام يعتـبر الحكم رسالة سامية ومهمة مقدسـة، وليسـت – كمـا تنظـر إليـه الديمقراطيـة – كـرة تتقاذفهـا الأحـزاب ومغنمًـا يطمـع فيـه الطـامعون. وإن "الإمـام" يجب أن تتـوفر فيـه صـفات معينـة.. فـالفرق بيننـا وبين الشـيعة يكـاد يكـون في "الدرجة".

وفي الـدعوة الشـيعية بعـد صـيحة تنتظمهـا وتسير معها منـذ أن ظلمـوا عليًـا حقَّه، وسـيروا الجيـوش لحربـه، وحقُّه كالشـمس في رائعـة النهار، ثم تتبعوه حتى خضَّبوا لحيتـه بـدم رأسـه، وراح شهيدًا في أشرف ساعة من أشـرف فجـر يـوم "17 رمضـان" حـتى الفـترة الراهنـة. تلـك الصيحة هي الثـورة على الظلم والتطلـع للعـدل والتنديـد بالطغـاة، والعـالين في الأرض والمتحكمين في النـاس، ومـا يضـعونه من ملـك عضـوض ونظم كسـروية وقيصـرية، والانتهـاض بالجماهير المسحوقة المغلوبة على أمرها لتثـور وتحطم عنها إصرها والإغلال، وتعيد مـرة أخـرى الخلافة الراشدة، فكأنها دعـوة المظلـومين ضـد الظالمين وعندما سنحت الفرصة للزيدية ـ وهي إحدى فصائل الشيعة للحكم في طبرسـان وفي اليمن ــ أعـادوا مـرة أخـرى تقاليـد الخلافـة الراشـدة، وعنـدما قـامت الثـورة الشـيعية في إيران؛ فإنها أطاحت بأحـد الطـواغيت ثم نطحت طاغوتًـا آخـر حـتى زعـزعت قوائمـة وزلـزلت دعائمه..

وقد يعترض معترض، ماذا تقول فيما تحفل به بعض كتابات الشيعة من المزاعم الفظيعة والدعاوي الشنيعة.. وما تتضمنه من غلو في حب الآل، وتنديدٍ ببعض الصحابة، وتأويل لظاهر القرآن أو حتى إدعاء قرآن آخر؟ فنقول أن الشيعة مذهب عريق شرد دعاته شرقًا وغربًا، وتعرضوا لحرب أرادت استئصاله تمامًا؛ فاضطروا إلى سرية حالت بين الجمهور والأئمة فكانت "الغيبة" أمرًا واقعًا، وكانت "التَّقيَّة" تكنيكًا وأسلوبًا لازمًا، ولم يكن مناص في كثير من الحالات من الكناية والرمز واللجوء إلى لحن القول. وسمح هذا بوجود الغلاة والمتشددين بل واندساس بعض الأعداء والشائنين. وهي ظروف كان لابد أن تتعرض لها دعوة سلخت ألف عام من الملاحقة والاضطهاد. وقد رأينا بأنفسنا كيف أن الاضطهاد الذي لاحق دعوة الأخوان المسلمين خلال خمسين عامًا أدَّى إلى ظهور أجنحة تذهب إلى ما لم تذهب إليه الجماعة نفسها وتلوذ بصور من العنف والشطط، فما بالك لو ظل هذا الاضطهاد خمسمائة عام.

والمسلك الأمثل الذي يكون علينا أن نسلكه هو أن نتفهم هذه الأوضاع، وأن لا نحاسب الدعوة والجماعة على سلوك آحاد أو شذوذ أفراد، أو ظهور صور من الغلو والتشدد؛ فهذا أمر معهود في الدعوات، وقد تنبَّه إليه كثير من كتاب الشيعة أنفسهم، وقد أمرنا الإسلام برأب الصدع ولم الشمل، وأن نصل من قطعنا، ونحسن إلى من أساء إلينا، وحذَّر النبي المسلمين من أن يعودوا بعده كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض. وعلّمنا القرآن أدب القول وحسن الاستماع فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وما أجمل هذا وأنبله وأبعده عن شنآن العداوة ولدَدَ

الخصومة. فما بالنا لا نستمع إلى ما يقول القوم ونتبع أحسنه..

والأمر بعد ليس أمر عاطفة فحسب، أو واقعة تاريخية، ولكنه أمر مصلحة عُظمى قد لا يوجد ما يماثلها، وأي مصلحة أعظم من وحدة المسلمين وأن تعود "دار الإسلام" مفتوحة الأبواب، لا تحدها الحدود، ولا تقطعها السدود، ولا تعزلها الخصومات والقيود.

في سبيل هذا الأمل العظيم عمل حسن البَنَّا ومحمود شلتوت وعبد المجيد سليم وغيرهم من الدعاة وأئمة المسلمين، وتغاضوا عن الخلافات والمزاعم، حتى مع افتراض وجودها، لأن الأهم يغلب المهم.

ونحن نقف من الشيعة الموقف الذي وقعه مفكر شيعي جعفري، عمل للثورة، ومهَّد أمامها السبيل ذلكم هو "علي شريعي".

إن علي شريعي يفرق تفرقه حاسمة بين "التشيع الصفوي" و"التشيع العلوي" وينسب إلى الأول كل ما علق بالشيعة من مثالب ولوثات لأغراض سياسية، ولكسب التأييد الأعمى من الجماهير..

إن علي شريعي يقول:

- إن التشيع العلوي والتشيع الصفوي، يبدو أنهما فرقتين متقاربتين في الظاهر، ولكنهما في الواقع مناقضتان لبضعهما، ولا يوجد ما يربط بينهما سوى الاسم، سأحاول أن أعرض باختصار مقارنة بين هذين "المذهبين"، وكيف ينظر كل منهما لمبادئ وقضايا أساسية وهامة لدى الشيعة:

في التشيع العلوي

الوصاية:

تعني أن الرسول، طبقًا لأوامر الله تعالى، أوصى بأفضل الأشخاص وأكثرهم كفاءة في

أهل بيته، على أساس كونه أكثرهم علمًا وتقوى واستحقاقًا.

الإمامة:

تعني قيادة ثورية، تهدي الناس في الكفاح من أجل بناء مجتمع سليم؛ وتقوم بتوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال في الرأي. إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملي لمبادئ ورسالة الإسلام؛ ويمكن بالعمل تحت قيادتهم أن نتربى ونعي أكثر فأكثر.

العصمة:

تعني الاعتقاد بالتقوى الفكرية والاجتماعية للقادة المؤمنين، الشاعرين بالمسؤولية، والساعين من أجل العلم وحكم الشعب. ويعني هذا، رفض حكم الجور، ورفض طاعة العلماء المشكوك بنزاهتهم ورجال الدين المزيفين المرتبطين بأجهزة الخلافة.

الولاية:

تعني القبول بحب علي، والتصرف اقتداء بسلوك علي، باعتباره نموذجًا راقيًا لأحد عباد الله. كانت قيادته تهدي الناس كسراج منير، وحكمه كان كتطلع الإنسان نفسه عبر التاريخ: أمل في العدل والحرية والمساواة. وإن في سنوات حكمه الخمس لخير دليل، ينشدها الناس ولا زالوا، كقدوة.

الشفاعة:

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة في الآخرة.

الاجتهاد:

عنصر الحركة والتطور في الدين عبر الزمن، وخطوة فخطوة مع التاريخ والثورة

الدائمـة للإنسـان. إنـه تطـور في نظـرة الـدين يسـمح بتطـور منسـجم في الفقـه حسـب التغييرات.

التقليد:

علاقـة منطقيـة وعلميـة ضـرورية بين عامـة الناس وعلماء الدين، المتخصصين في المسـائل العملية والحقوقية، وقضايا أخرى ذات طابع فني ومتخصص.

العدل:

الاعتقاد بوجود صفة العدالة في اللـه، وبـأن الكـون قـائم على التـوازن والعـدل، فالنظـام الإجتمـاعي والحيـاة أيضًـا، يجب أن ترسـى على أسس العدل، إن الظلم واللامساواة همـا نظـام غـير طـبيعي وغـير إلهي، بـل إنـه ضـد اللـه. إن العـدل هـو أحـد ركـنين أساسـيين في الـدين، فالعـدل هـو هـدف الرسـالة والشـعار العظيم للإسلام.

الدعاء:

نص يربي ويعلم. يلقن الجمال والطيبة. إنـه عمل يقود الروح نحو المعـراج، إنـه يبعـد المـرء لحظات عن الحياة اليومية ليقرب من الله.

الانتظار:

الإعـداد الـروحي والعملي والعقائـدي، من أجل الإصـلاح والثـورة وتغيـير العـالم أمـل يعين على الإيمان القاطع بزوال الظلم وانتصار الحـق والعدل، وسيادة الطبقة المحرومة والمستضعفة على العـالم، حيث وعـد اللـه بـأن يـرث المستضعفون الأرض. إنه ثقة بانتصـار الجمـاهير

والنـاس الصـالحين الـذين كرسـوا أنفسـهم من أجل الثورة العالمية.

الغيبة:

تعني مسؤولية النـاس في تقريـر مصـيرهم، وفي اتخاذ القرار فيما يخص: إيمـانهم، قيـادتهم، حيـاتهم المعنويـة والاجتماعيـة، تعـني مسـؤولي الشـعب في انتخـاب قيـادة نابعـة من صـفوفه، قيـادة مسـؤولة ونزيهـة تسـتطيع أن تنـوب عن قيادة الإمام.

* * * *

إن التشـــيع العلـــوي هـــو تشـــيع المعرفـــة والمحبة.

إن التشيع العلوي هو تشيع السنة.

إن التشيع العلوي هو تشيع الوحدة.

إن التشيع العلوي هو تشيع العـدل، [العـدل في العالم، في المجتمع وفي الحياة]

إن التشيع العلوي هو تشيع الممارسة.

إن التشيع العلوي هو تشيع الالتزام.

إن التشيع العلوي هو تشيع الاجتهاد.

إنه تشيع المسئولية.

تشيع الحرية.

تشيع ثورة كربلاء

تشيع الشهادة

تشيع السعي وراء التقدم والتطور

تشيع التوحيد

تشيع الاختيار

تشيع صداقة الحسين
تشيع الإنسانية
تشيع الإمامة العلوية
تشيع الانتظار الإيجابي
تشيع تقية المناضل الشجاع.

في التشيع الصفوي

الوصاية:

تعـني تعـيين سـلطة غـير منتخبـة، وراثيـة، تســــــــــــــــــــــــــتند إلى التسلسل الوراثي وعلاقة الدم والقرابة.

الإمامة:

هي الاعتقـــاد بـــ (12) اســـمًا، باعتبـــارهم معصومين ومقدّسين، عناصـر فـوق البشـر ومَن ما وراء الطبيعة، وهم الوسيلة الوحيـدة للتقـرب والشـفاعة، إنهم 12 ملاكًـا يمكن عبـادتهم، وهم مخلوقات غيبيـة، بـل وإلـه صـغير يتحكم بالـدنيا وبمشـــيئة النـــاس إلى جـــانب الإلـــه الأكـــبر في السماء.

العصمة:

تعني مفهومًـا ذاتيًـا، صـفة اسـتثنائية خارقـة لمخلوقـات غيبيـة، ليسـت من طينـة البشـر، ولا يمكن أن يخطئوا في شيء؛ ويعني هـذا بـأن 14 شخصًا فقط امتلكوا هذه الـذات الخاصـة وهـذه الصفات.

هذا يعني أيضًا، الاعتراف بأن انحراف وعدم نزاهة الحكومات القائمة هي أمر طـبيعي (لأنهـا ليسـت معصـومة)، والقبـول بعلمـاء الـدين غـير النزيهين ورجال الدين غـير المتقين، بحجـة أنهم غير معصومين، ولا يمكن توقع الكمال منهم.

الولاية:

تعــني حب علي فقــط، والتنصــل من كــل مســؤولية عمليــة. تعـني الأمـل بالجنـة فقـط، بسـبب الاعتقـاد بولايـة علي. أي أن الولايـة هي لضـمان الآخـرة، وليسـت شـيئًا يفيـد المجتمـع والشعب. إنها مسألة لا تهم الناس بل تهم اللــه. إذ أنهــا تعــني في مفهــوم التشــيع الصــفوي التشارك مع الله في إدارة الكون والعالم.

الشفاعة:

وسيلة لنجاة من لا يستحق!

الاجتهاد:

عنصر الجمـود والتحجـر في الـدين، وعـائق أمـام التقـدم والتجـدد والتغيـير، وسـيلة لإدانـة وتكفـير وتفسـيق كـل عمـل جديـد، كـل كلمـة جديدة، وكل نهج جديد في الدين ونظـام الحيـاة والعلم والفكر، وفي المجتمع.

التقليد:

الطاعة العمياء لرجال الدين. التبعية المطلقة وغـير القابلـة للنقـاش لرجـل الـدين، وذلـك في العقــل والعقيــدة والحكم. أي حســب تعبــير

القــرآن: عبــادة رجــال الــدين "عبــادة الأخبــار والرهبان من دون الله"([1]).

* * * *

هذا هو ما ارتآه علي شريعي

وهذا هو ما يراه من أهـل السـنة المـنزهون من الغرض، البُرآء من المـرض المشـفقون من الفرقة الحريصون على الوحدة.. والذين يريدون لإيــران أن تكــون قــوة كــبرى وعــزًا للإســلام والمسلمين..

وفي نظرنــا أن على شــريعي وضــع أمــام "المؤسسة الشيعية" البداية الصحيحة.. والتي لا منــاص عنهــا. وإذا ســلكتها كســبت الشــرف والانتصار، وإذا تجاهلتها خسرتهما..

فلا يتصور أن ينجح اليوم، في عصـر الثقافـة والمعرفة وثورة المعلومـات، مـا نجح قـديمًا في ضـم الجمـاهير واكتسـاب تأييـدها، عنـدما كـانت أمية، جاهلة، منقطعة عن العالم فكـان لابـد من الأسـاطير، والتهاويـل والرمـوز ليمكن الحفـاظ عليها، وإبقاء حبل الدعوة متصلاً حتى الانتصار..

وقــد جــاء الانتصــار وأصــبح هــو "صــاحب الزمان".

وقد انتصرت الثورة لا لإيمان خاص بالتشــيع الصفوي.. ولكن لأن شيوخ الشيعة – آيات الله – مثلوا نبل رموز التشيع العلوي في مواجهة أسوأ وأحط صور الحكم الدنيوي..

---

1 (?) هكذا تكلم على شريعتي تأليف طـالب رسـول ص 177 - 181

فالمؤسس الشيعية ليست اليـوم في حاجـة إلى الصفات التي أضفاها التشيع الصفوي عليهـا من قداسة وعظمة.. فضلاً عن أن هذه الصـفات تتناقض مع روح العصـر وعليهـا أن تعلن العـودة إلى التشـيع العلـوي؛ ففيـه وحـده الرمـوز الـتي تلهم الشعب القوة والمثالية..

* * * *

وليس لدينا تصـور دقيـق عمـا هـو واقـع في إيران اليوم.

نحن نعلم أن قـــادة الثـــورة يتصـــفون بالإخلاص، ويأخذون أنفسهم بالتقشف ويجعلـون من الدعوة نقطة الانطلاق والتحرك..

ولكننا لا نعلم شـيئًا عن حقيقـة الأوضـاع، أو أن ما نعلمه يختلف عن الواجب..

فهــل يتفــق اصــطحاب الــدعوة الشــيعية بالجماهير المسـتعبدة والمسـتغلة.. بعـدم وجـود حركـة نقابيـة تمثـل العمـال وتكـون دليلاً عمليًـا على مقاومة الاستغلال كائنًـا مـا كـان، أو نظـام شامل للتأمينـات الاجتماعيـة أو سياسـية قوميـة للصحة والإسكان..

هـل يتفـق مـع الأخـوة الإسـلامية أن يقاتـل جناح شيعي جنـاح مسـلم آخـر في لبنـان، بينمـا ينتظر المارونيون المنتصر ليجهزوا عليه..

هل يتفق مع تقاليد أن تضع إيـران يـدها في يد طاغية سوريا الملوثة بدماء الأطفال والنساء. وهو الذي هدم حماة على أهلها، ومارَسَ وأخـوهُ أحطَّ صور التعذيب.

إن طاغية سـوريا سـفاح مثـل يزيـد؛ فكيـف

تصانعه الشيعة؟

وهـل يتفـق مـع تقاليـد على بن أبي طـالب تجاه الخوارج.. عـدم وجـود معارضـة.. أو حريـة سياســية.. أو صــحافة حــرة تعــبر عن إرادات ومشاعر الآحاد والجماعات..

إن الإمـام علي كــرم اللــه وجهــه ذهب في الحرية مع المعارضة إلى ما لم يذهب إليـه أشـد الأحرار.. فعندما تكتل الخـوارج ضـده واعـتزلوه وحملوا سيوفهم، لم يتعرض لهم وسـمح بوجـود هذا التكتل المسـلح المعـارض.. ولم يقـربهم إلا عندما قتلوا أحد أصحابه.. عندئذ فحسب تعـرض لهم لا بقتـال.. ولكن طالبًـا أن يسـلموه القاتـل فهتفوا "كلنـا قتلـه!" وعندئـذ لم يكن منـاص من قتـال القتلـة.. ومـع هـذا فقـد أوصـى أن لا يتبـع هـاربهم، ولا يجهـز على جــريحهم، ولا تســتباح مغانمهم.

ولو اتبعت إيران تقاليـد علي بن أبي طـالب وما وضعه من قواعد مع المعارضة، لكانت أشـد بلاد الله حرية..

* * * *

إن المؤسسة الشيعية اليوم على ميعـاد مـع التاريخ،

إنها تقف في مفترق الطرق..

وراؤها السلطة، العصـمة القداسـة، الغيبـة، التقيَّة، إسـماعيل الصـفوي، الشـاه عبـاس، مـا ألصــق زورًا من اتهامــات بالســنة بتــأثير لــدد خصومة الصفويين للأتراك السُـنين، عنـدما كـان الفريقان في حرب حياة أو موت..

وأمامها التواضـع، الإخلاص، العـدل، الحريـة، المسـاواة، علي بن أبي طـالب، الحسـين، زين العابدين، زيد.. جعفر..

فإذا التفتت إلى الوراء فستحتفظ – لفترة – بالسلطة ولكن التاريخ لن يسامحها.. والجمـاهير لن تسكت عليها وسيحكم اللـه عليهـا كمـا حكم على أمم قــد خلت ﴿ فَمَــا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّــمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾.

وإذا نظــرتَ إلى الإمــام فســتكون جــديرة بــتراث علي والحســين الــدعوي.. الكفــاحي.. وسترود الطريق نحو "دار الإسلام".

وستكسب الحُسنيين النصر والشرف.

* * * *

الباب الثاني
دعوة العمل الإسلامي
الفصل الأول

تمهيد ومنطق

مقدمة

انطلقت الـدعوات الإسـلامية السـابقة كلهـا من منطلق واحد هـو "الإسـلام".. وبوجـه خـاص "الفهم السلفي للإسلام"..

فبعضـها اسـتهدف شـرح الإسـلام وإظهـار حقيقتـه، وبعضـها الآخـر اسـتهدف تنقيتـه من الخرافات.. إلخ.

وقد يبدو أن هذا أمر طبيعي ومنتظر.. فماذا تريد من دعـوة إسـلامية غـير هـذا؟.. إن إمعـان النظر يوضح أن القضية ليست بهذه البساطة..

فهـذه الـدعوات ليسـت دعـوات "أكاديميـة" تقدم بحوثًا لتنال بها درجة علمية، ولا هي هيئات "آثار" تنقب في الحفـائر لتصـل إلى أثـرٍ تـوارَى تحت الرمال..

إنها هيئـات تقـدم دعـوة إلى النـاس وتطلب منهم الإيمان بها..

وهــذا مــا لا يتيســر إلا إذا أخــذت الــدعوة الإسـلامية شـكل نظريـة لهـا مقومـات وتكامـل ووحدة النظرية.

وهــو مــا عجــزت عن أن تقدمــه الــدعوات الإسلامية السابقة.

إنهـا لم "تسـتقطع" أو تسـتلهم من الإسـلام نظرية ما.

فنظريتها هي نظرية الإسلام، ولكن الإسـلام رحبٌ وفسيحٌ بصورة لا يتأتَّى معها أن يوضـع في سلة نظرية.

وعنـــدما أحيت الرافضـــة الجديـــدة فكـــرة "الحاكمية الإلهية" فإنها أوجدت "منطلقًا" لها.

وقـــد أوجـــد هـــذا المنطلـــق في القـــديم "الخـوارج" بسـيوفهم على عـواتقهم، وجبـاههم مُسْوَدَّة من السـجود، وتلاوتهم للقـرآن لا تجـاوز تراقيهم حتى يفنون على شط النهراون.

وأوجد – في العصر الحـديث مـثيلاً للخـوارج ينطلقـون حـتى تحتـويهم السـجون، أو تحطمهم صـــخور الواقـــع أو يقتلـــون، ولكن المهم أنهم وجدوا "منطلقًا" يدفعهم إلى حركة تتسم بجـرأة وشـــجاعة، ونقطـــة القـــوة تعـــود إلى وضـــوح وبساطة وخلوص المنطلق، ونقطة الضعف تعود إلى أنه كائنًـا مـا كـان – ليس إلاّ منطلقًـا وليس نظريـة، وبالتـالي فلا يمكن أن يقيم بنـاءً أو يبـدأ عهدًا.

وكان من أسـباب عجـز الـدعوات الإسـلامية عن التوصـل إلى نظريـة إسـلامية أن جمهورهـا ورث الإسـلام وراثـةً، ولم يـؤمن بـه ابتـداءً عن اختيار وفكرة وتمحيص. فلم تُثِرْ عجائب الإسـلام في نفســه الدهشـــة، ولم تدفعـــه غـــرائب إلى الرغبة في الاستكشاف ومر على آياته غافلاً.

كان هذا الجمهور كأهل مكة بالنسبة للكعبة، وكأهل القاهرة بالنسبة للأهـرام، لا يـأبهون لهمـا

بينما يهـرع النـاس من أقصـى الأرض لزيارتهمـا واسـتلهام العـبر والعظـة. فـإذا كـانت الوراثـة تؤصـــل الإســـلام في نفس صـــاحبه كبقيـــة الموروثات فإن هذا المسلم لم يستطع أن يــرى الإسلام، لأنه ليس شيئًا خارجيًـا عنـه (فـالعين لا ترى نفسها).

وقصــارى مــا يمكن أن تصــل إليــه هــذه الــدعوات هــو رؤيــة "جلــد الإســلام" أو بعض جزئياته أو بعض منطلقاته.

أما الإسلام ككـل فهـذا مـا لا يمكن أن تـراه تمامًا لأن شرط رؤيته – ككل – هو البعد عنه.

وكما يحدث عندما يريد أي واحد منا أن يرى صورة ما ككـل فإنـه يبعـد عنهـا. أمـا إذا اقـترب منها، فإن البصر سينصرف إلى جانب دون آخـر. وحتى عندئذٍ – فإن مـا يـراه من قـرب ليس هـو في حقيقــة الأمــر الإســلام موضــوعًا ومجــردًا، ولكنه الإسـلام المـوروث، الإسـلام السـلفي، أي أن الفهم السلفي للدعوات الإسلامية حجبها عن رؤية الإسلام الحقيقي – إسلام ما قبل السلفية.

وكــان ممــا دعَّم هــذه الحقيقــة أن الــدعاة الإسلاميين ركزوا دراستهم في الثقافة الإسلامية التقليديــة، ولم يشــركوا بهــا الثقافــة الأوروبيــة الحديثـة.. حـتى وإن ألم بعضـهم بهـا، فمـا كـان الإيمان الموروث لديهم بقداسة الإسلام ليـدع إلا هامشًا ضئيلاً من التأثير على موضوعية الدراسة وجديتها، ولـو أنهم درسـوا هـذه الثقافـة دراسـة عميقة، وأخذوها مأخذًا جادًا لحقق لهم ذلك نوعًا من التكامل في الفكر.

ومن الخطأ الفاحش أن يظن أحد أن الثقافة الأوروبية لابد وأن تكون مناقضة للإسلام بحكم صدورها عن أوروبا، لأن الثقافة الأوروبية تدين فيما تدين به للإسلام نفسه، ولا يجوز أن نحكم على الثقافات بالأزمنة والأمكنة والمعيار على الصحة أو الفساد هو المعيار الموضوعي الذي وجهنا إليه القرآن الكريم وعلمنا إياه الرسول الكريم ﷺ.

واستغرق الدعاة الإسلاميون في دراساتهم الإسلامية، وركزوا العناية على الجوانب النظرية في الدعوة مثل صدق نسبة حديثٍ ما إلى الرسول، أو الاستخدام اللغوي السليم لحرف ما في إحدى الآيات.. إلخ.

وهو وإن كان أمرًا لازمًا. ولا مناص عنه، إلا أن التركيز عليه جعلهم ينسون نقطة هامة جدًا، تلك هي أن دعوتهم إنما أريد بها أن تقوم للناس، وسيطالب الناس بالإيمان بها؛ فهناك الناس الذين سنقدم إليهم، والدعاة الإسلاميون عادة قلما يلحظون الناس كطرف آخر، فاعل وله وجوده وله كيانه، وضروراته وآلياته. فهم ينظرون للناس كطرف سالب يتلقَّى من الموجب، أو كوعاء فارغ يُصب فيه المضمون كأنه خُلق لهذا، وقد يستشهدون ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾.

وهذا استشهاد خاطئ – والاستشهاد القرآني فيما نحن بصدده هو ما تعبِّر عنه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فهل حاول الدعاة المسلمون أن يتقرَّبوا إلى

الجماهير، ويعلموا مـا توسـوس بـه نفوسـهم..؟ هـل يعلمـون أن أول مـا يهـدف إليـه مراهـق أو شاب هو أن يُشبِع غريزته الجنسـية الـتي تعـوي بين جنبيه كوحش جـائع؟.. هـل يعلمـون أن أهم ما يفكر فيه الأب هو إطعام أبنائـه وكسـوتهم؟.. هل يعلمون أن آمال المرضـى هي الصـحة، وأن آمـال المسـجونين هي الحريـة؟ إن اللـه تعـالى يعلم هذا، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، وقـد وضع في الإسلام وسائل وطرق لتحقيق آمـالهم وحل مشاكلهم. ولكن الدعاة الإسـلاميين غفلـوا عن هذا – وتجاهلوا الصلة الوثيقة ما بين الإسلام والنـاس، ولم ينظـروا إلى الإسـلام من منطلـق النـاس، أو في مـرآة المشـاكل والاحتياجـات والمشـاعر والآلام – كـأن الإسـلام تجريـد مُنبَتٌّ عن الناس أو الحياة، واتجاهات وطرق دراستهم للإسـلام تنم عن هـذا، فهم في القـرآن مثلاً لا يتحدثون عن الحكمة في الآيات قدر ما يدرسون "أسـباب الـنزول" كمـا لـو أن القـرآن مجموعـة "حواديت" نـزلت الآيـات بسـببها. وانتهَى الأمـر. وعبثًـا يقولـون أن العـبرة بعمـوم اللفـظ لا بخصوص السبب" لأنه ما دام هناك سبب معين، فقد قُضيَ الأمـر، ولن يكـون لهـذه الإشـارة من معـنى إلا تشـويه عمـوم اللفـظ، وهـذا أيضًـا مـا يفعلونـه في اعتبـار العِلَّة في القيـاس وليس الحكمة، لأن العلة مغلقة، أو بتعبرهم "منضبطة" ولكن الحكمة مفتوحة..

* * * *

نقطة التحول الكبرى هي أن الإسـلام يريـد الإنسـان – ولكن الـدعوات الإسـلامية تريـد

الإسلام وتعمـل للإسـلام مسـتقلاً عن الإنسـان، في حين أن القــرآن لا يفتــأ يُــردِّد أن رســالة الإسـلام هي إخـراج النـاس من الظلمـات إلى النور، ورفع الأَصُر والأغلال التي كانت عليهم.

نتيجة للأسباب السـابقة.. أعـني: أن الإسـلام كوراثـة لم يضـرب في النفـوس جـذوة النظـر والاستكشاف والتأمل، وأصبح نوعًا من تحصـيل حاصل. وكانت هذه الحقيقة في أصل التسجيل السلفي للإسلام وإبرازه كتراث..

واقتصــار الــدعاة الإســلاميين على الثقافــة الإسلامية السلفية التي دعمت المعنى الــتراثي والإطـار السـلفي، وعـدم احتفـالهم بالثقافـات الأخرى الـتي كـان يمكن أن تسـتكمل القصـور في الفهم والحكم.

وإغفـال الـدعاة الإسـلاميين لفكـرة الإنسـان وإن الإسـلام إنمـا أنــزل للإنسـان، وأن خدمــة الإسلام إنما تكون عبر الاتسـاق، وليس بتجـاوز الإنســان، لأن تجــاوز الإنســان لا يعــني إلا أن يكــون الإســلام دراســة أكاديميــة مجــرَّدة – متحجِّرة فالإنسان هو العنصـر الحي وهـو الـذي يمثل الحياة، والوجود العملي..

لهذه الأسباب..

لم تستطع الدعوة الإسلامية أن تقدم نظرية إسـلامية، وكـانت أقصـى جهودهـا هي محاولـة تنقية العقيدة من الغشاوات.

ولابــد للوصــول إلى النظريــة الإســلامية التخلص من وجود القصور السابقة أي:

تجاوز السلفية ليمكن الوصـول إلى القـرآن. إذ أن الســـلفية فرضـــت نفســـها وصـــية على القـرآن، أو عقبـة في الطريـق إلى القـرآن. ولا يمكن الوصول إلى القرآن إلا يتجاوز السلفية.

الفهم الشـامل والعميـق للقـرآن. وطبيعـة الخطـاب القـرآني ومـردود ذلـك. ورفض انـتزاع آية، أو جزء من آية من السياق، والحُكم بمـا قـد توحي إليه. إذ لا يمكن فهمها حقًا إلاَّ في ضوء ما سبقها وما لحقها، ثم متابعة إيـراد القـرآن لمثـل معنى هذه الآية في مواضع أخـرى. إذ قـد يكـون لها حُكم آخـر بحيث يكـون هنـاك بـدائل وسـعة، والتوصل إلى "روح القرآن" ومفاتيح هذه الـروح من القيم العليا التي يسـتهدفها القـرآن كالعـدل والحريـــة والمســـاواة والســـماحة.. والمعرفـــة وكرامة الإنسان.

مراجعـة السُـنة في ضـوء القـرآن الكـريم وقِيَمِهِ العُليا، ووضع معايير صارمة للحيلولة دون تسرب الوضع، أو تغـير المـدلول نتيجـة للروايـة بالمعنى إلخ..

إحكام الثقافـات والمعـارف المختلفـة الـتي تكشـف عن "السُـنن" الـتي وضـعها اللـه تعـالى لصلاح النفس، وصلاح المجتمع، بما في ذلـك مـا تقدمـــه الحضـــارة الأوربيـــة من دروس ثمينـــة. والمفروض أن نحرص على المعرفة أينما كانت، وأن نعمل بتوجيه القـرآن ﴿ وَلاَ يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾.

ويجب أن يكون "الإنسان" هو منطلـق هـذه الثقافات والدراسات ومحورها، لأنـه هـو المـادة الحية، ولأنه هو الذي نزل الإسلام له.

وهناك عامل آخر خارجي – يفـترض التحـرر منه. ذلك هـو ملاحظـة المسـتويات المتدنيـة، أو الخوف من الحفاظ المتأصـل، أو مقاومـة قـوى مضـادة، أو حـتى الحـرص على كـثرة العـدد، أو عدم الـدخول في معـارك. إن هـذه العوامـل إذا أُخذت في الاعتبار عند وضع النظريـة، فسـتؤدي إلى الهبوط بها، أو تمييعها، أو التنازل عن أجـزاء ثمينة من مكوناتها. لهذا فيفترض أن لا تستهدف النظريـــة عنـــد وضـــعها اكتســـاب الجمـــوع، أو الوصول إلى الحكم. فهـذا وذاك يمكن أن يكونـا "ســـم" النظريـــة. إن المهم هـــو الســـلامة الموضوعية، والإيمان بها، وحول هـذا وذاك يجب أن يدور محور العمل.

وكـل عـارف بالـدعوات الإسـلامية القائمـة ينتهي بســـهولة إلى أن هـــذه الاشـــتراطات لم تتوفر في أيٍّ منهـا.. فكلهـا بـدأت من "المقـرر" الســـلفي، وليس من الفهم القـــرآني. وعلى أن بعض قادتهـا أحكم الثقافـة الأوربيـة، إلاَّ أن من المشـكوك فيـه أنـه اسـتفاد منهـا في تكـوين دعوته، واصطدمت معظمها بالمستوى المتجـني والتقليدي لفهم الناس، وغلبـة الموروثـات. وهـو الأمـر الـذي اعـترف بـه أيضًـا قـادة الـدعوات الإسلامية اهتمامًا بتجديد الفكـر الإسلامي. وهـو الدكتور حسـن الـترابي فيمـا سـبق أن قـدمناه. ونعلم أن الجبهة الإسـلامية في السـودان تسـير في محاولاتهـا التجديديـة على الشـوك. وتتلفت يُمنـةً ويُسـرة قبـل أن تتحـرك خطـوه صـغيرة. وتجابه كل يـوم باتهـام. وقـد توضـع قضـيتها بين

أيدي أكثر القضاة تزمتًا [كما حـدث بالفعـل [1]]
وكـان الإمـام الشـهيد حسـن البَنَّا في منهجـه الـتربوي وملاحظتـه للاعتبـارات الماثلـة وردود الفعـل، يضـطر إلى أن يأخـذ النـاس على قـدر عقـولهم، ويصـانع أئمـة المسـاجد ووعـاظ الأوقـاف.. الخ.. وقـد خلّص المـودودي الـذي اعـتزل في مكتبـه من هـذه المـؤثرات البيئيـة، ولكن منهجه السلفي لم يصل به إلا إلى "فكـرة الحاكمية الإلهية".

إن هذه الاعتبـارات والاشـتراطات كلهـا هي ما تضعه دعـوة العمـل الإسـلامي نصـب عينيهـا، وهي تأمل أن تنجح في تقديم نظريتها الإسلامية ودعوتها.

المنطلق:

تأخذ دعوة العمل الإسلامي نقطة انطلاقهـا من واقعة هامـة أثبتهـا القـرآن الكـريم في أكثر من صورة وفي أكثر من آية. تلـك هي اسـتخلاف اللـه تعـالى آدم على الأرض وظـروف وملابسـات وطبيعـة هـذا الاستخلاف، وما يستتبعه من نتائج.

عرضت سورة البقرة لهذه الواقعة:

 وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ

---

1 (?) نحن نشير إلى واقعة معينة تعرضـت لهـا الجبهـة؛ عندما قدم الشيخ عبـد البـديع صـقر رحمـه اللـه إلى الشيخ عبـد العزيـز بن بـاز بالسـعودية شـكوى، يتهم فيها الجبهة بمجاوزة الحدود في بعض الاجتهادات.

إلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

■ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وفي سورة الأعراف، عرض القرآن نقطة سجود الملائكة لآدم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

﴿ ثُمَّ لآَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْـــدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَــانِهِمْ وَعَنْ شَــمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِـدُ أَكـثرهَم شَاكِرِينَ ﴾

- ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَـا مَـذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وفي سورة الإسراء جاء:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

﴿ قَـالَ أَرَأَيْتَـكَ هَـذَا الَّذِي كَـرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

﴿ قَـالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَـكَ مِنْهُمْ فَـإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾

﴿ وَاسْــتَفْزِزْ مَنِ اسْــتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَــوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِــكَ وَرَجِلِــكَ وَشَــارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولاد وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّـيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾

- ﴿ إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾

وفي سورة الكهف:

- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْـجُدُوا لآَدَمَ فَسَـجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَــانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَـــقَ عَنْ أَمْـــرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيَــاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بدلاً ﴾

وفي سورة طه جاء:

﴿وَلَقَـدْ عَهِـدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْـلُ فَنَسِـيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾

* * * *

هذه الآيـات في منتهى الأهميـة والخطـورة، ليس فحسب لأنها توضح تصـوير القـرآن لنشـأة الحياة ومكان الإنسان فيها. ولكن أيضًـا لأن هـذا التصوير يختلف عن التصوير اليهودي المســيحي الذي تراه في العهد القديم والأناجيـل في نقـاط هامة، تبرز تميز الإسـلام مثـل اسـتخلاف آدم[1]، وسـجود الملائكــة لأدم. ورفض إبليس ذلــك، أو حتى وجوده، فقد اسـتغنى عنـه بالحيـة. كمـا أن الإشـــارة إلى تعليم آدم الأســـماء جـــاءت، وهي كبقية نصوص التوراة تحصره في "البهـائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية".

لا يتسـع المجـال لإجـراء مقارنـة، لأن هـذه المقارنـة سـتحيل موضـوعنا إلى بحث أكـاديمي

---

1 [?] تضمنت كتب التفسير العديد من النقول والأقـوال التي لا أصل لها عن قضـية الاسـتخلاف، وهي أقـرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقـة. فجـاء في بعضـها أن الاستخلاف إنما جاء بعد الملائكة، لأن الملائكة عاشوا على الأرض قبل آدم. وجـاء في بعضـها أن المقصـود هو استخلاف جيل لجيل بمعـنى "خلائـف"، وقيـل أن هناك قراءة "خليفة" بالقـاف وليس بالفـاء. وكلهـا لا تستند على أصل وأقربها إلى المعنى. وهو "خلائــف" الأرض مما لا يكون للسياق معه معنى، ومن هنا فقد ضربنا صفحًا عنها، وأخذنا بما تدل عليه الألفـاظ ومـا يـؤدي إليـه السـياق، وهـذا فيمـا نـرى هـو التفسـير السـليم للقـرآن. أمـا مـا عـداه فهـو أخـذ بـالرأي أو تحكيم للأقاويـــل المظنونـــة في النص المحكم، والواضح الذي لا يحتاجها.

عن مقارنة الأديان. وسيأتي هذا على حساب إبراز دعوة العمل الإسلامي.

المهم أن التصوير القرآني لنشأة الحياة والإنسان الذي نجده على أتمه في سورة البقرة، ونجد إشارت عديدة إليه في السور الأخرى، يتضمن:

أن الله تعالى قرر أن يستخلف آدم وذريته على الأرض، رغم ما أشارت إليه الملائكة من إفساد وسفك الدماء..

أن الله تعالى ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وهو تعبير يُقصد به مفاتيح المعرفة، وأن هذه الصفة هي التي تبرز تميز آدم على الملائكة.

أن الله تعالى بعد أن زوَّد آدم بهذه المعرفة أمر الملائكة بالسجود له. فسجدت الملائكة كلهم إلاّ إبليس الذي تصوَّر أنه أفضل من آدم، لأنه خُلق من نار وآدم خلق من طين.

أن الله تعالى غضب على إبليس وطرده من السماء. وفي مقابل هذا جعل إبليس مهمته هي إفساد بني آدم وقد أنظره (أي مد له الأجل) حتى يوم القيامة، وسمح له باستخدام كل قوى الإغراء، وأن يعدهم مختلف الوعود.

كانت أولى صور ذلك إغراء آدم، الأمر الذي أدَّى إلى نزوله الأرض؛ حيث واصل إبليس إغواءه. وأصبح استخلاف آدم على الأرض يأخذ صورة اختيار ما بين قوى المعرفة التي زوَّد الله بها الإنسان والرسالات السماوية التي أنزلها الله لتعزيز عمل هذه المعرفة، وحل ما استغلق منها.. وبين غواية إبليس وما يعرضه من فتن

وشهوات وإغراءات عادة ما تـدور أحابيلـه فيهـا، حــول المــال والنســاء والســلطان والــذات أو الأنانية!

ويقف الإنسان، الهداية على يمينـه والغوايـة على شماله. وعليه أن يختار بين هذين النجدين.

وهـذا التصـوير ملـيئ بالإيحـاءات والـدلالات والفعاليــة والديناميكيــة. وهــو لم يــرد مــرة أو مــرتين ولكنــه جــاء مــرارًا وتكــرارًا. وذكــر في معظم السُّوَر، وهو ما يؤكـد أنـه يمثـل التصـوير القرآني للحياة. ودور الإنسان في الوجود.

واستخلصت دعوة العمل الإسلامي من هــذا التصوير الركائز الأربعـة التاليـة، وجعلتهـا دعـائم دعوتها:

الركيزة الأولى: كرامة الإنسان.

الركيزة الثانية: قداسة المعرفة.

الركـيزة الثالثـة: حريـة الاختيـار بين الخـير والشر.

الركيزة الرابعـة: أن العمـل هـو الـذي يحكم على هـذا الاختيـار ويصـدقه، فهـو الفيصـل في النهايـة، وهــو الــذي يحــدد مصـير الإنســان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومن أجــل هــذا، ولأنــه هــو نتيجــة وثمــرة الاستخلاف، فإن دعـوة العمـل الإسـلامي حملت اسمه وأصبحت "دعوة العمل الإسلامي".

يلف هذه الركائز جميعًـا ويحيـط بهـا العـدل المشتق من "الحق" الذي قـامت بـه السـموات والأرض.

يتضح من ذلك أننا نشتق دعوتنا من صميم التصوير القرآني. وأننا لم نستجد تنظيرًا – أو نحاول أن نلجأ إلى انتفاء مبادئ معينة، ومحاولة التلفيق بينها على غير أساس أو على أسباب الهوى، كما قد يظن البعض. إننا عمدنا إلى أقدس مقدسات الإسلام. وهو القرآن الكريم، فنقلنا منه آيات بينات واضحة ومكررة في أكثر من سورة، ثم أحكمنا من هذه الآيات نظريتنا، فإذا كان لنا من فضل فهو ترجمة المعاني التي تضمنتها هذه الآيات، دون تعسف من أي نوع، أو تطويع لا يسمح به المعنى. وإنما استطعنا ذلك لأننا لم ننظر في هذه الآيات بعيون الأسلاف، أو نقرأها في التفاسير أو نسمح للإسرائيليات والنقول أن تفتات على المعنى، لقد تركنا المعنى القرآني يقودنا فقادنا إلى نظريتنا.

كما يجب الإشارة أيضًا إلى أن الركائز التي استخلصناها مترابطة بعضها ببعض ترابط التكامل؛ فالعلم والمعرفة تعزز الكرامة الإنسانية.. والحرية شرط لازم لها لا يتصور وجودها بدونها. وأن يكون العمل هو المحك والثمرة والمعيار هو "القفلة" الطبيعية لمثل هذه الحياة، ولهذا جاءت كل ركائز النظرية متوالية ومتتابعة في أربع آيات من سورة البقرة، كل آية تسلم للأخرى، وترمز إلى إحدى الركائز. فلا يتصور أن يكون فيها تنافر أو تضاد – فهذه الآيات كالبنيان يشد بعضها بعضًا.

* * * *

الفصل الثاني

الركيزة الأولى: كرامة الإنسان

في دين يقوم على الوحدانية الخالصة، ويتمحور حول الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يلد ولا يولد ولم يكن له كفوًا أحد، يكون أعظم تكريم يضفيه الله تعالى على خلقٍ من خلقه أن يجعله "خليفة" له على الأرض.

لم يكن هناك شيء أعظم، أو أعلى من هذا، ذلك أن الإسلام لا يمكن أن يربط بين الإنسان والله تعالى برابطة بنوة، ولو على سبيل الرمز، فهذا ما لا يسمح به الإسلام، وما يخالف فلسفة فكرته عن الله تعالى.

ولم يكن الإسلام ليقول – كما قال العهد القديم "أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته[1]، على صورة الله خلقه" (التكوين 28)

1 [(?)] الحديث الذي ينسبونه إلى النبي عن أن الله تعالى خلق آدم على صورته، ورمزوا له بالصحة لم يقصد به أن الله تعالى خلق آدم على صورته تعالى. ولكن على صورة آدم التي كان عليها (وكان بالحديث أن طول آدم عندما خلقه الله تعالى ستون ذراعًا) ونقطع أن الحديث من الإسرائيليات. وأن المقصود به هو المعنى الذي في التوراة، ولكن جاءت إضافة الستين ذراعًا فأوجدت أشكالاً. وقد روى الحديث أبو هريرة عن همام بن منبَّه. وقد استشكل ابن حجر "قال ابن حجر يُشْكِل على هذا ما يوجد الآن من آثار الأمم السابقة كديار ثمود، فإن مساكنهم تدل على أن قاماتهم لم تكن مفرطة في الطول. ولم يظهر لي ما يزيل الأشكال" (فيض

أو "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا بالخير والشر (تكوين 23) فهذا لا يسمح به توحيد الإسلام وجوهر فكرته عن الله تعالى، وما قد يدفع البعض لأن يتصور تجسيمًا لله - كالإنسان.

ولكن الإسلام مع هذا وضع الإنسان موضعًا يمثل أقصى درجة من درجات التكريم هو أن يكون خليفة.

وكلمة "خليفة" بالذات تستحق التأمل، فهي أعمق وأقوى في الدلالالة من كلمة "نائب" أو "وكيل" وقد تعطي انطباعًا أن الله تعالى أسلم أمر الأرض للإنسان، وترك له حرية العمل على أن يحاسبه على النتائج.. وهو يتلاءم مع التصور الإسلامي للكون، والوجود، والسنن التي وضعها الله لحكم هذا الكون، والثواب والعقاب في الآخرة.

ماذا يمكن للإسلام أن يفعل في تقديره كرامة الإنسان أكثر من هذا؟..

لقد ارتأي كثير من المفكرين أن من أسباب تفضيل الأوروبيين للمسيحية أنها كرمت الإنسان، وجعلته "ابنًا لله"، ومن الواضح بالطبع أن هذا فرض لاهوتي يعسر تفهمه في حين أن الفرض الإسلامي أقرب إلى العقلانية في

القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج3 ص 447) وما يزيل الأشكال هو همام بن منبه – الإسرائيلي الأصل. وقد جاء الحديث في مشكاة المصابيح ولم يعلق – أو يستشكل عليه – محققه الشيخ ناصر الألباني.

التصوير، وفي تحقيق الكرامـة. فلا يسـتخلف إلا من هو محل الثقة والتكريم والإعزاز.

وهناك تفرقة أخـرى بين الإسـلام واليهوديـة والمسيحية في هذا الصدد فالإسلام يتحـدث عن استخلاف آدم على الأرض، وعن تعليمه الأسماء كلها، وعن أمر الله تعالى للملائكة السجود لــه.. كل هذا قبل أن يُزِلَّهُ الشيطان. ويكـون هـذا هـو السـبب المباشـر "لـنزول" آدم الأرض، وليس السبب الأصـيل الـذي كـان في علم اللـه عنـدما قرر استخلافه بعد توبة الله عليـه. ولكن الروايـة اليهودية/ المسيحية تعرض "نزول" آدم باعتبـاره "السقوط" نتيجة لاستسلامه للإغـراء أو بـالتعبير المسيحي "الخطيئة الأصلية"، الرواية الإسـلامية تـرى في الاسـتخلاف تعزيـزًا وتكريمًـا، بينمـا المسـيحية تـرى في "السـقوط" عقوبـة أو تجريمًا..

* * * *

ويشير القرآن إلى تكريم "بني آدم" ﴿ وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُم مِّنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّـلْنَاهُمْ عَلَى كَثِـيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الإسراء 70..

ويعطي القـرآن هـذا التكـريم مـدلولاً عمليًـا هو: أن الله تعالى سخر كـل مـا في هـذا الكـون من شـمس وقمـر ونجـوم وسـماء وأرض.. إلخ للإنسان.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْـرِ بِـأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ دَائِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم 32 – 33).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جميعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية 13).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان20).

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَّمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل 5 – 14).

فانظر إلى مدلول هذه الآيات، ومعنى "سَخَّرَ لَكُمُ " واحص كم " لَكُمْ" جاءت بآيات سورة النحل. وكيف شملت هذه الآيات تعبيرات – جمال – زينة – حلية – مما يدل على شمول

تكريم الله تعالى للإنسان، وأنـه لا يسـد حاجاتـه المادية من أكـل وشـرب وركـوب وسـير. ولكن أيضًا الزينة والحلية والجمال..

وتحـدث القـرآن عن المؤمـنين حـديثًا يـبين مدى تكريم الله تعـالى لهم وفضـله عليهم ﴿ هُـوَ الَّذِي يُصَـــلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُـــهُ لِيُخْـــرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَــاتِ إِلَى النُّورِ وَكَــانَ بِــالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًــا. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَـدَّ لَهُمْ أَجْـرًا كَرِيمًا﴾ الأحزاب 43 – 44).

﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة 119).

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة 100).

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (البينة 8)

وأشارت الأحاديث إلى أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّهُ، وحديث قدسي "من تقـرب منِّي شبرًا، تقربت منه ذراعًا ومن تقـرب منِّي ذراعًـا تقربت منه باعًا. ومن أتاني يمشي أتيته هرولــة، ومن لقيني بقـراب الأرض خطيئـةً لا يشـرك بي شيئًا لقيتُه بمثلها مغفرة "رواه مسلم".

وكائنًـا مـا كـان المجـاز في هـذه التعبـيرات وتعبير "يصلي عليكم" و "رضـوا عنـه" فإنهـا تنم عن تقدير رائع للإنسـان. بـل إن اسـتخدامها مـع

ضــرورات المجــاز يــترك هامشًــا من المعــنى الحرفي في إبراز معنى الإكرام. والحـق أن هـذا أحد الأدلـة على كـرم اللـه تعـالى الـذي لا يُحـد، ورحمتــه الــتي تفــوق المــدارك، فهــو الخــالق المنعم، يفيض على الإنسان دون حسـاب، ودون مقابـل، لأن الحسـاب والمقابـل إنمـا هي معـانٍ إنسانية بحته.

مضمون هذه الآيات.

وما عبَّر عنـه القـرآن الكـريم من اسـتخلاف لآدم وتكريم لبَنِيهِ يستتبع أن يكـون لـه مضـامين عملية، وإلا لكان ذلك لغـوًا.. تعـالى القـرآن عن ذلك.

أ- الكرامة حقٌ إلهي:

أول هــذه المضــامين أن الــذي قــرر هــذه الكرامة وأضفاها على بـني آدم هـو اللـه تعـالى، وما يقرره الله ويمنحه لا يمكن لأحـد أن ينزعـه، فالكرامة حق إلهي، لا يمكن لأي حاكم أن يتنكـر لها.. وهذه الكرامـة أشـبه بحيـاة أدبيـة، لا يجـوز لأحد المساس بها، إلا عندما يرتكب صاحبها آثامًا محددة، وكأنها في هذا تشبه الحياة المادية التي وهبها الله أيضًا للإنسان، ولا يجوز المسـاس بهـا إلا في الحالات الـتي حـددها اللـه تعـالى، فكـأن اللــه تعــالى حمَى الحيــاة الأدبيــة للإنســان في شكل الكرامة الإنسـانية، وحمى الحيـاة الماديـة له في شكل تحـريم القتـل. ولا يجـوز المسـاس بهــذه أو تلــك، إلا عنــدما يــرتكب فــرد مــا من الجرائم ما يبرر ذلك.

ب- الكرامة لبني آدم جميعًا دون تمييز:

من الواضـح بـالطبع أن الكرامـة الإنسـانية الـتي أضـفاها اللـه تعـالى على الإنسـان تشـمل جميع بني آدم – رجالاً ونساءً دون نظر إلى لـون أو جنس أو بلد.. أو ماض أو مسـتقبل.. إن هـذه الكرامة حق إلهي، لا يمكن لأي نظام أو فـرد أن يُحرم الإنسان منه، أو هي بالتعبير الشـائع "حـق طبيعي"، وهو تعبير أن كـان شـائعًا، إلا أنـه أقـل في الدلالة من حق إلهي.

ومن هنا نعرف أن قصر الكرامة على البيض دون السـود، أو الرجـال دون النسـاء، أو الأوروبيين دون الآسيويين إلخ.. هذه التفرقات لا أصـل لهـا، وتنـاقِض الشـمول الـذي تضـمنته الكرامة، كما أراده الله تعالى.

ج- كرامة الإنسان: جسدًا...

ويفـترض أن تغطي هـذه الكرامـة كـل مـا يتعلق بالإنسان جسدًا ونفسًا. فالجسد الإنسـاني له كرامة إذا أهدرت أهدرت كرامة الإنسان. لأن الجسد ما هـو إلا الهيكـل الجميـل المحكم الـذي خلقـه اللـه بيـده ونفخ فيـه من روحـه وسـواه، فعدله، وجعله في أحسن تقويم وأناط به العمل.

ويدخل في كرامة الجسد أن لا يهان بضـرب أو تعـذيب أو حبس يقيـد الـرجلين عن الانطلاق الذي خلقهم الله له.

والجسد الإنساني ليس كجسـد الحيـوان. إن له حقوقًا ومقتضيات. وقد يمكن لكل "قطة" أن تنـام في صـندوق قمامـة. ثم تقـوم تتمطّى وتلحس شعرها. فـإذا هـو يلمـع ويـبرق. وهـذا لا

يصلح للإنسان. فكرامة جسد الإنسان تتطلب أن يغتسل. وآداب الإسلام التي توجب ذلك بدءًا من الوضوء وما يتعلـق بالطهـارة، حـتى التخلص من الشعر الزائد في مواضع من الجسم – هو مما لا يوجـد في دين آخــر، بــل في أي تهــذيب آخــر. ويروع الإنسان المسلم الذي يسـافر إلى أوروبـا وأمريكا إهمال هؤلاء النـاس لصـور من النظافـة والتجميل قررها الإسلام منذ خمسة عشر قرنًـا، عندما لم تكن الإمكانيات التي وضعها العهــد في أيديهم متاحة.

ولابـد للجسـد من أن يكتسـي بلبـاس، وقـد ينظـر الإسـلام إلى الـزي كمـا تنظـر إليـه بيـوت الأزياء ريشًا، وجمالاً، وحليـة وهي ألفـاظ قرآنيـة أشار إليها القرآن عند إشارته إلى الزي، وعندما رأى الرسـول أعرابًـا في أسـمال احْمَـرَّ وجهـه ـ على مــا ذكرنــا في موضــع ســابق ـــ لأن هــذا المنظر مخجل يدفع بحمرة الخجل إلى الوجه.

ولا يحتفظ الجسد الإنساني بلياقتــه أو حــتى بكيانه – ما لم ييسر له الغذاء المنتظم – فإذا لم ييسر له جاع. وإذا جاع لم تعُـد لـه كرامـة، وقـد خلـق الله هـذه الأرض، وقـدر فيهـا أقواتهـا بمـا يكفي أهلهـا، وأوجب نظم التكافـل الاقتصـادي، ونـدد بالـذين يكـنزون الـذهب والفضـة، وجعـل وجود المترفين مبررًا لتدمير المجتمعات كل هذا حرصًا منـه لوفـير الأمن الغـذائي، لأنـه بدونـه لا تتوفر الكرامة الإنسـانية، وأي دولـة تـدَّعى ثم لا تطبق هذا فإنها لا تفهم الإسلام.

ولمــا وقــع الإســلام بين الضــرورات الــتي تتطلب في بعض الحــالات المســاس بالجســم

الإنسـاني، عنـدما يسـيء فـرد مـا التصـرف، فيسرق أو يـزني إلخ.. وبين حرصـه على كرامـة الجسم الإنسـاني اضـطر للأخـذ بالجَلْـد والقَطـع وهما معًا يهدران كرامة الجسد الإنساني. ولكنـه إنما اضطر إليهما لأن البدائل عنهما أسوأ منهما. فلا جدال في أن في الجَلد إهدار لكرامة الجسم الإنساني، ولكن هذه المهانة لا تطـول لأكـثر من سـاعة. في حين أن السـجن يتضـمن صـورًا متعددة من إهدار كرامة الجسم لسنوات طوال.

ومع هذا، فإن الإسلام رغم أخذه بالعقوبـات البدنيـة احتفـظ بمنطقـة من الجسـم، لا يجـوز المسـاس بهـا، تلـك هي الوجـه. وهـو اسـمي وأجمل ما في الجسم الإنساني.

وقـد حـرمت الأحـاديث تحريمًـا باتًـا لطم الوجه، وعندما لطم أحد أبناء مقرن (وهم ثمانية من رجالات الإسلام) جاريـة لـه، أمـره الرسـول بعتقهـا، وعنـدما اعتـذر عن ذلـك، وتعلـل بشـدة حاجتهم إليهـا، قـال الرسـول " فلتخـدمهم حـتى يستغنوا عنها، فإذا استغنوا عنها فليعتقوها".

وليس معنى تحريم الأحاديث لطم الوجه أن الإسلام لم يحرم الضرب مطلقًـا، إن المبـدأ هـو التحريم، والاسـتثناء يكـون لأسـباب، وفي حـدود وبضمانات حددها الإسلام لأن الضـرب هـو أكـثر الوسائل بدائية وشيوعًا لإهـدار كرامـة الإنسـان. ولما كان عادة يمارس بحكم الولاية فقـد حرَّمـه الإسـلام من المنبـع. فـأكثر هـذه المنـابع هـو مـا يتعلـق بسـلطة الحـاكم على المحكـومين. وقـد وضَّـح عمـر بن الخطـاب أمـام النـاس بصـريح العبارة: "إننا لا نرسل عمالنا ليضـربوا أبشـاركم

ولكن ليعلموكم دينكم.." وأعلن أنه سيقتصُّ من كـل والٍ يضـرب أحـد الرعيـة، وعنـدما قـال لـه عمـرو بن العـاص "يـا أمـير المؤمـنين أرأيت إنْ أدَّبَ الأمير رجلاً من رعيته أتقصـه منـه؟" فقـال عمر: "ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه".. وهـذا مـا حـدث فعلاً بالنسـبة لعمرو بن العاص وابنه في القصة المشهورة.

فإذا قـال أحـدٌ ليس هـذا هـو مـا نعرفـه عن الإسلام، أو أن الإمام مالك أجاز الضرب للإقـرار إلخ.. فنحن نقول: هذا هو إسلام القرآن وإسـلام محمد.. فخذ أو دع.

وبعد ولايـةِ الحـاكم على الرعيـة تـأتي ولايـة السيد على خدَمِـه. ومـرة أخـرى نـرى الرسـول يجعـل العتـق كفـارة هـذا الضـرب في الحـديث المشـهور عن أبي مسـعود البـدري عنـدما كـان يضـرب غلامـه بالسـوط فقـال لـه الرسـول ﷺ: "أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك، منه عليـك على هذا الغلام" فقلت هو حرٌ يـا رسـول اللـه.. فقــالﷺ : أمــا لــو لم تفعــل للفحتــك النــار أو "لمســتك النـار" والأحـاديث مترادفـة في هـذا المعـنى. ومترادفـة في عتـق الـذين ضـربوا من الغلمان.

ولم يكن الضرب وقتئذ بتلك الأسـواط الـتي تشُق الجلـد. لا في الحـدود أو في غيرهـا. وإنمـا كانت بأسـواط بدائيـة. وأشـار حـديث نبـوي إلى ضرب "بالسِّواك"!

قد يثار هنا تأديب الزوجة والولـد.. والـرد أن الأصـل في التـأديب أن لا يكـون بالضـرب. وإن الضرب إنما يمثـل الاسـتثناء. وفي هـذه الحـدود العائليـة الخاصـة، والأفضـل والأمثـل أن نسـلك مسـلك الرسـول فلم يـروَ عن الرسـول ﷺ أنـه ضرب خادمًا أبدًا ومن باب أولى إحدى زوجاته – وكنَّ في بعض الحــالات يغاضــبنه، والنهي عن الضرب هـو أيضًـا من السـماح بـه، فلا يحتج بـه، وقد قـال رسـول اللـه ﷺ "لا تضـربوا إمـاء اللـه"

فجـاء عمـر إلى رسـول اللـه فقـال ذئـرن [1] النســاء على أزواجهن، فـــرخص في ضـــربهم. فطاف بالرسـول نسـاء كثـير يشـكون أزواجهن فقال رسول الله لقد طـاف بآل محمـد نسـاء كثـير يشـكون أزواجهن، ليس أولئـك بخيـاركم" فقضية الضرب ليست أمـرًا مُسـلّمًا بـه، ولا هـو مطلق.

ولا يكـون من قبيـل الاسـتطراد – مـا دمنـا بصـدد كرامــة الجســم الإنســاني الإشـارة إلى الأحاديث المتكررة التي تـوجب إحسـان معاملـة الأرقاء والخـدم، وأن يـأكلوا ويلبسـوا ممـا يأكـل ويلبس سادتهم[2].

ح- كرامة الإنسان نفسًا:

وكرامة الإنسـان كنفس لا تقـل عن كرامتـه كجسد. بل لعلها أهم. والواقع أن القرآن الكريم يتكلم عن الإنســـان باعتبـــاره نفسًـــا ليشـــمل الجانبين.

وكرامـــة الإنســـان – كنفس – تشـــمل كـــل الجوانب الأدبيـة والنفسـية والفكريـة. فالإنسـان يملك ما لا يملكـه مخلـوق آخـر إنـه يملـك إرادةً

1 [?] أي اجـترأن وغلبن. والحـديث رواه أبـو دواود وابن ماجه والدرامي (مشكاه المصـابيح، ص 973 حـديث 3261).

2 [?] بل الحرص على "الكرامة" يمتد ليشـمل الحيـوان أيضا فتحريم لطم الوجه في الإنسـان يقابلـه تحـريم الوسـم في الوجـه للحيـوان. وتحـريم الإرهـاق واحـد بالنسبة للإنسان والحيوان. وتحـريم التعـذيب يشـمل الإنسان بحيث لا يجوز قصاصا، ويضم الحيوان الكلب العقور، لان هذه المبادئ وضعها الله تعـالى رب هـذا الكون بأسره من إنسان وحيوان. فهي أوسع وأشمل من الإطار الإنساني. كما أنها أكثر قداسة.

وفكرًا، واحترامهما هو ما يعـني كرامـة الإنسـان كنفس.

فيفـترض أولاً أن يعامـل الإنسـان معاملـة "أدبية" مهذبة كريمة، فلا يخاطب باسمه المجرد بل بلقبه أو كنيته، ومن باب أولى أن لا يشـتم أو ينبذ بالألقاب، وعندما قال عمرو بن العاص لأحد النـاس "يـا منـافق" رُفـع الأمـر إلى عمـر بن الخطاب الذي أوجب عليـه حـدًا..، وأن لا يـروع، ولـو هـزلاً، وأن لا يُسـاء الظن بـه، أو تستقصـي عوراته وعثراته، وأن لا يتجسس عليه، أو يوشي به، أو يكون موضـوعًا لنميمـة ﴿أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾.

والنفس الإنسـانية إرادة وفكـر، وكرامتهـا تكون بتحقيق الحرية لهما. والبعد عن كـل صـور الإكـراه والتقييـد والضـغوط – ويـدخل في هـذا حريـة الفكـر والاعتقـاد. فكـل نفس – من ذكـر وأنثى – يجب أن تحترم إرادتها. ما لم توقع شرًا ملموسًا بأحد، أو تنتهك إيجابيًا إرادة آخـر، ويجب الابتعاد عن التحكم في إرادات الناس وأفكارهم. وسـيأتي الحـديث عن هـذا في الحـديث عن الركيزة الثالثة من ركائز دعوة العمل الإسـلامي وهي الحرية. لأن ركـائز الـدعوة متكاملـة، وهـذا الجانب يتصل بالحرية بسبب وثيق.

وتنسحب كرامة الإنسان جسدًا ونفسًـا على بيته فيكون في حماية السـتار فلا يجـوز اقتحامًـا أو الافتيات على خصوصيته. وما دام بـاب الـبيت مغلقًـا، فلا يجـوز لسـلطة أن تقتحمـه حـتى وإن إرتكبت وراءه المنكرات، مـا لم يـدل على ذلـك أثـر يجـاوز الـبيت إلى الخـارج كارتفـاع صـوت

(صراخ، شـتائم، إلخ..) أو نفـاذ رائحـة،.. والـبيت في الإسلام هو قلعة المسـلم أكـثر ممـا هـو في أي بلد آخـر، لأنـه في حمايـة السـتار، الـذي هـو أقوى وأمنع من الدستور أو القانون.

* * * *

عندما قـال الفليسـوف كانـط: "إن الإنسـان غاية في ذاته" اعتبر ذلك أفضل صياغة تعبر بهـا الحضارة الأوروبية عن "مبدئيـة" الإنسـان، ولكن القـرآن الكـريم كـان قـد سـبق إلى هـذا عنـدما قال.. ﴿ مَن قَتَلَ نفسًـا بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّاسَ جميعًـا وَمَنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّاسَ جميعًا﴾ فـإن هـذه الآيـات تتضمن تقديسًا لحياة الفرد على أسـاس مبـدئي وعام.

ولقد كان يفـترض – والإسـتخلاف يتضـمن – بداهة الكرامة. والآيات القرآنية عديدة عنهـا، أن يكون هذا المبدأ من المبادئ الشائعة في الفكـر الإسلامي.

ولكن هذا المبدأ لم يجذب إنتبـاه المفكـرين الإسلاميين بالدرجة الواجبـة، وأهـدر معنـاه خلال التفاسير المقحمة على الآيـات. بحيث لم يرتبـوا على الاسـتخلاف مـا يسـتتبعه..، بـل أسـاء معظمهم لهم.

وقد يصور ذلك ما كتبـه العلاَّمـة المـودودي، عندما مسخ معنى الاستخلاف ليتفق مـع فكرتـه المحورية عن "عبودية الإنسان" فقال:

".. فمنزلـة الإنسـان في هـذا الكـون من الوجهة الإسلامية أنه خليفـة للـه. أي نـائب عنـه

في مملكتـــه، لا يتصـــرف فيهـــا إلا طبقًـــا لحـــق الاستخلاف والتصرف الذي وهبه الله إياه..

ثم يمضي فيقول:

.. أو لا تـــرى أنـــك إذا وكلت إلى أحـــد أمـــر ضيعتك وجعلته نائبًا عنـك فيهـا، تكـون واثقًـا من نفسـك بأربعـة أمـور.. أولاً: أنـك أنت صـاحب الضيعة ومالكها الحقيقي، لا هذا الذي وكلت إليه أمرهـا.. ثانيًـا: أنـه يجب على هـذا الرجـل أن يتصـرف في ملكـك حسـب مـا أمرتـه بـه أنت وأرشـدته إليـه. ثالثًـا: أنـه لا ينبغي لـه أن يشـق عصـا طاعتـك، ويتعـدَّى الحـدود الـتي أقمت لـه ولعمله. رابعًا: أن من واجبه في هذه الضـيعة أن يقضي فيها ما تريد قضـاءه أنت، لا مـا يريـد هـو نفسه"([1]).

والخطأ في هـذا هـو مـا أشـرنا إليـه، عنـدما عرضنا لأسـلوب المـودودي في ضـرب الأمثـال. فـــالمودودي يقيس اللـــه تعـــالى على الكـــائن الإنساني. ويتصور أن الله تعالى يريـد ويتصـرف كما يتصرف آحاد النـاس. تعـالى اللـه عن ذلـك. وحتى بالنسبة لآحاد الناس، فـإن الـرئيس الـذي لديه الملكة الإدارية يحسـن انتخـاب خلفائـه، ثم يـــدع لهم الحريـــة في العمـــل، ويحاســبهم في النهاية. وقـد يكـون ظلومًـا غشـومًا مثـل محمـد علي باشا، ولكنه يكون من الـذكاء؛ بحيث يقـول لأعضاء مجلس الشورى بعـد أن منَّ عليهم بأنـه

---

1 (?) نظـام الحيـاة في الإسـلام – للمـودودي – الطبعـة الخامسة – الاتحـاد الإسـلامي العـالمي للمنظمـات – الطلابية (2) انظـر كتابنـا "العمـل الإسـلامي لإرسـاء سيادة الشعب والحكم الدستوري" ص 75.

هو الذي علمهم وأنشـأهم".. حـتى إذا كنت آمـر أحدكم شفاهًا أو تحريـرًا بقـولي لـه أجـر المادة الفلانية بهذه الصورة، وحصل منه اعتراضٌ عِلّيٌّ، وذكرني وأفادني شـفاهًا أو تحريـرًا، بـأن المـادة المذكورة مُضرَّه، فهذا يكون منه عين ممنونيـتي الزائـدة".. فهـذا الكلام قيـل من أكـثر من مائـة عام ومن حاكم عسكري، ومع هذا فإنـه يعلم أن التضـييق على المستشـارين والمنـدوبين إلخ.. يحـول دون انطلاق مبـادأتهم الخلاّقـة لتحقيـق أفضل النتائج.

فمـا أورده المـودودي خطـأ في حـق اللـه تعالى، وخطأ بالنسبة لكبار الإداريين. وهو يمثـل نفسية عتيقة تتملكهـا الغـيرة وتحوطهـا الظنـون والشـكوك، نفسـية تـاجر رفيـق أو فلاح ضـيق الأفق.

ومع هذا فان المودودي في كلامه هذا يمثـل الاتجـاه الإسـلامي السـائد. الـذي قضـى على الكرامة الإنسانية، وقضى على الحريـة والإرادة، والعـزة. ومكّن الآخـرين من السـيطرة على المسـلمين، واسـتعبادهم و "من يهن يسـهل الهوان عليه".

* * * *

الفصل الثالث

الركيزة الثانية: قداسة العلم

رأينـا في التصـوير القـرآني الـذي قدمتـه سورة البقـرة لقصـة الحيـاة الإنسـانية. السـياق الـذي أخذتـه الآيـات. فبعـد تقريـر اللـه تعـالى استخلاف آدم، وبعد دهشة الملائكة لمـا تنسـمته في بـني آدم من ميـل للفسـاد وسـفك الـدماء، يحدث شيء عبرت عنه الآيات:

﴿ وَعَلَّمَ آدم الأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلاَءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿قَـالَ يَـا آدم أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

فالسياق هنا يبرز أن الله تعالى لما علَّم آدم الأسماء كلها، ولمـا عجـزت الملائكـة أن تجاريـه أمر الملائكة أن تسجد لآدم. والربط ما بين تعلم الأسماء والسجود هو ما يحكمـه السـياق. فضـلاً عن أننا لا نجد ميزة أخرى للإنسان على الملائكة أو الشياطين. فإنه من طين. أكثف من الملائكـة المخلوقة من نـور، أو الشـياطين المخلوقـة من نار.. أما نفثة الحياة، فـإن اللـه تعـالى نفثهـا في

كل مخلوقاته الحية. ففيما نرى أن مبرر السجود هو تميز آدم بما علّمه الله. وهذا ما يعطي العلم قداسة لا تعلوها قداسة أخرى، لأن السجود عادة لا يكون إلا الله تعالى[1].

وقد يثور تساؤل حول استخلاصنا لكلمة العلم من التعبير القرآني "وعلّم آدم الأسماء كلها" وما قد يذكره بعض المفسرين "أو ما ذكرته بالفعل التوراة" [2] أو ما يوحي به المعنى الحرفي ولكن التقصي يثبت لنا أن ما اخترناه هو التفسير الحقيقي لما أراده القرآن. فلا معنى لأن نقول أن الله تعالى علّم آدم أسماء الحيوانات، والنبات، والبلاد فقال له "هذا أسد وهذا ثعلب وهذا تفاح، وهذا عنب إلخ.. فضلاً عن أن كلمة "كلها" تفترض أن يعلّمه الله تعالى كل الأسماء بما فيها من أسماء صواريخ وطائرات ودبابات. وما سيأتي به المستقبل مما نجهله

1 [(?)] من النقط الهامة التي تبرز تميز الإسلام عن المسيحية واليهودية أن العهد القديم يذكر أن الشجرة المحرمة هي شجرة "المعرفة" بينما يذكر القرآن أنها شجرة "الخلد" وهذا ما يتفق مع ما سبق من أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها فليس هو في حاجة إلى شجرة المعرفة، ولا في المساس بها شي يثير غضب الله تعالى أما "الخلد" فالأمر مختلف لأن الخلد معناه أن يحيا فلا يموت. وهذا يخالف ما وضعه الله للإنسان، وبقية الكائنات أيضا من سنة الموت كجزء لا يتجزأ من آليات الحياة. فضلا عن أن الحرص على الخلد فيه تشبث بالمضمون الذاتي. والإسلام يؤثر دائما المضمون الموضوعي. وإنما كانت سقطة الشيطان الكبرى هي أنه قال "أنا" خير منه ..

2 [(?)] ت

نحن الآن. ومجرد المعرفة للأسماء لا معنىً له إذا لم يتضمن دلالة هذه المعرفة. فالتعبير في نظرنا لا يحتمل إلا معنى واحدًا هو مفاتيح المعرفة وعناوينها، باختصار العلم. واستخدام القرآن الكريم للكناية والمجاز أمر معروف يتفق مع أسلوب القرآن في تفضيله لهما على التحديد القاطع، لأنهما أكثر إثارة للنفس من ناحية، ولأنهما يحولان دون إغلاق الموضوع واعتباره منتهيًا. إن القرآن يريد دائمًا للعقول أن تسرح في معانيه، ويريد لمعانيه أن تكون مجالاً لهذا السرح والفكر، لأنه لكل الناس ولكل العصور.

* * * *

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يقال أننا نقتطع ثلاث أو أربع آيات لنقيم عليها دعوى عريضة، أو صرحًا ممردًا. الأمر ليس كذلك لأن القرآن الكريم تضمن مئات الآيات التي تنم عن قداسة العلم، وترفعه عاليًا، وتربط بينه وبين الإيمان، وتربط بينه وبين الإيمان. وهناك العشرات من الأحاديث النبوية التي تفضل العلم على العبادة. وعندما يكون الأمر أمر مئات من الآيات وعشرات من الأحاديث في معنى واحد فإن الأمر يخرج عن صفة الإلمام الطارئ أو الظاهرة العارضة، إلى الركيزة الدائمة المقررة. كما لا يمكن أن نهمل دلالة أن تكون أولى آيات القرآن الكريم وتوجيهاته هي اقرأ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

ومن الآيات التي توضح أهمية العلم وأنه طريق الإيمان:

 هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ (آل عمران 7).

فإذا عطفنا " والراسخون في العلم" على الله تعالى فكأننا رفعنا العلماء إلى مستوى واحد مع الله تعالى في هذه الناحية.. ونحن نؤثر الفصل، ويكون معنى الآية أن الراسخين في العلم يقولون آمنا به إلخ.. فالرسوخ في العلم حمل أصحابه على الإيمان به. وهذا أمر طبيعي. لأن العلم يبصر الإنسان بإعجاز الله تعالى، ومن ثم يسلم العالم له..

 شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18 آل عمران)

فانظر كيف جمعت الآية بين الله تعالى والملائكة وأولي العلم.. في أمر من خاصة الإيمان..

.. لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (6 سبا)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

وهناك 85 آية جاء فيها كلها فعل "يعلمون" بمعنى أن الذين يعلمون هم الذين يسيغون الإيمان ويفقهون الدين، وأن "الذين لا يعلمون" لا يستطيعون ذلك. ويسلك بهم عدم علمك مسالك الضلال أو المقاومة. ولو كانوا "يعلمون" لآمنوا ولجنَّبوا أنفسهم الضلال والعذاب.

وقد ذهب الإمام أبو حامد الغزالي إلى أن كل الآيات التي جاءت في القرآن بمعنى إخراج الناس من الظلمات إلى النور هي بمعنى إخراجهم من الجهل إلى العلم.

وقد يقال إن العلم هنا هو العلم بالدين، وليس العلم بالجغرافيا والهندسة إلخ.. والرد أنه حتى لو كان الأمر كذلك فنحن نقبله، لأن المسلمين إنما أوتوا من جهلهم بدينهم، ولو علموه حقًا لعلموا أنه يقول على إعمال الفكر، وتوظيف الأبصار والأقدام للاعتبار بآيات الله ومشاهد خلقه وتراث الأولين إلخ.. ولو علموا هذا لتقدموا.. ولأقبلوا على دراسة الجغرافيا والهندسة إلخ.. لأنها كلها من آيات الله، ولهذا فإن الآية 28 من سورة فاطر، جعلت "الكون"

سـواء في الثمــرات، أو الجبــال، أو النــاس أو الــدواب من آيــات اللــه الــتي تســتحق العلم والمعرفة، وتؤدي إلى الإيمان.

وليست الآيـات الـتي سـقناها عن العلم هي الآيـات الوحيـدة عن العلم والمعرفـة، لأن هنـاك آيات بالمئات تشير إلى التدبر والتفكير والاعتبار والاتعاظ واسـتخدام العقـل، وهي كلهـا "أدوات" العلم ووسـائله.. وكلهـا تـؤدي إلى معـنى واحـد: إعمال العقل هو سبيل الإيمان.

ومما يتفق مع هذا أيضًا أن الإسلام، لما كان هو الذي يؤذن بالعقل، والذي يقدم العقلانية إلى النـاس جميعًـا بالأسـلوب الـذي يسـيغه النـاس، وليس بأسلوب الفلاسـفة المتعمـق الـذي يشـق على الناس فهمه – فإنـه جعـل معجزتـه "كتابًـا" يُتلَى، ورفض مطـالب العـرب من الرسـول أن يأتي بمعجزة، أو تكون له جنـة، أو يـنزل ملائكـة من السماء.. إلخ.. رفض الإسـلام هـذا كلـه وردَّ عليهم.. أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرَى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ.. (العنكبوت 51).

* * * *

إن واقعـة سـجود الملائكـة لآدم إثـر تعلمـه الأسماء..

والآيـات العديـدة عن العلم والعقـل والتـدبر والتفكُّر..

وأن أول آية استُهل بها القرآن كانت "اقرأ".

وجعل المعجزة الإسلامية كتابًا يُتلَى..

والأحـاديث العديـدة عن تمجيـد العلم وفضـل العالم على العابد.

كـل هـذا أليس كافيًـا لتأكيـد قداسـة العلم والأهمية القصوى للمعرفة..؟؟

مـاذا كـان يمكن أن يفعـل الإسـلام أكـثر من هذا..؟؟

والمضـمون العملي لهـذه الآيـات والأحـاديث عن قداسـة العلم والمعرفـة أن يكـون الإلمـام بالعلم ـ كل صنوف العلم ــ واجبًـا على الإنسـان المسلم.. وواجبًا على المجتمـع المسـلم وواجبًـا على الحكومة المسلمة.

لقد فهم المسلمون ذلك في أيـامهم الأولى، وليس هناك ما يشـبه ذلـك الإقبـال على العلـوم والمعـارف في القـرون الثلاثـة الأولى للإسـلام التي أنجبت عباقرة الفكر في الفلسفة، والأدب، والفقـه، والهندسـة، والطب، أو حركـة الترجمـة أيام المأمون..

يكفي أن نعلم.. أن علم العلمـاء المسـلمين كـان هـو الأسـاس الـذي قـامت عليـه حركـة "الإحياء" في أوربا في القرن الخامس عشر..

* * * *

قـد نفهم أن عوامـل التحلـل الـتي أصـابت المجتمعـات الإسـلامية أدت إلى شـيوع الجهالـة والأمية..

ولكننا لا نفهم "سـلبية" الـدعوات الإسـلامية إزاء واجبهـا المقـدس نحـو الثقافـة والمعرفـة.. فـالمفروض أنهـا كـدعوات، وأن دعاتهـا كـرواد، يعلمون ما لا يعلمه عامَّة الجماهير..

إن أيــة دعــوة إســلامية لا تضــع العلم في صــدارة اهتماماتهــا وأولوياتهــا، أوْ لا تُقيم منــه ركيزة من ركائزهـا، أوْ لا تجعـل من الحث عليـه (تعلم.. تعلم.. تعلم) شعارًا لها.

مثل هذه الـدعوة تكـون قـد ظلمت نفسـها، وظلمت جمهورها.. وظلمت الإسلام.

في مصــر مثلاً كــانت الهيئــة الوحيــدة في الأربعينيات التي تستطيع محو أمية الشـعب هي "الأخــوان المســلمون"، لأنهـا هي الـتي تغلغلت في أعمـــاق الريـــف واكتســـبت إيمـــان الفلاح، وجعلت الشـــيخ الصـــعيدي يلبس "الشـــورت" ويلعب "سويدي" ولو أنها نفضـت يـديها من كـل شــيء، وركــزت جهــدها لمحــو أميــة الشـعب المصــري.. لحققت شـيئًا رائعًــا، وكســبت أروع وأنبل ذكرى يمكن أن تُذكر عن هيئةٍ ما..

ولكن هــذا لم يحــدث لأن الإيمــان بقداســة العلم لم يصـــل لـــدى الأخـــوان إلى الدرجـــة المطلوبة..

وليس الأخوان بدعًا في الهيئـات الإسـلامية، فما من دعوة توصلت إلى هذه الصلة الوثيقة ما بين الإسلام من ناحيـة والعلم من ناحيـة أخـرى، أو تنبهت إلى ما يعنيه سجود الملائكـة لآدم، إثــر تعلمــه الأســماء كلهــا، أو الربــط مــا بين تعلم الأسماء.. والسجود..

* * * *

إن دعــوة العمــل الإســلامي تــؤمن بــالعلم وتــؤمن أنــه "تــراث محمــد" الــذي غفــل عنــه

المسـلمون، وتنبـه لـه الأوروبيـون فبنـوا عليـه مجدهم..

إن العلم اليـوم هـو مصـدر الـثروة، ومصـدر القوة.. كما أنه أحد مصادر العزة..

العلم هــو مصــدر الــثروة.. لأن كــل ثــروة العصر الحديث إنما هي ثمرة لتطبيق العلم على العمل، الاختراع والكشوف والبحـوث على تربـة الأرض، وهوائهــا وجبالهــا، على الحبــوب وعلى لقاح الحيوان، وعلى عناصر الكون من كربون أو أكسجين..

في القــرن الثــامن عشــر كــانت أفكــار استخدام طاقة وصنع آلات معدنيـة موجـودة في فرنسـا قبـل بريطانيـا، ولكن الفرنسـيين كـانوا وقتئــذ ينظــرون إليهــا كطُــرَف وعجــائب. أو "ألعــاب" للكبــار كألعــاب الصــغار. ولكنهم في بريطانيا طبقوها على صناعة الغـزل والنسـيج – فكان ذلك بداية الثورة الصناعية التي مهدت بعد ذلــك للثــورة الكهربائيــة، وثــورات الــذرة والإليكـترون والكومـبيوتر والترانزسـتور والليـزر إلخ..

الصـناعات كلهـا، والزراعـات كلهـا، وسـائل الانتقال والخدمات كلهـا.. من ثمـار العلم.. وقـد أصبح الآن من الممكن بفضل العلم أن نصنع أي شيء من أي شيء.. من الكربون.. حريـرًا ومن البــترول لحومًــا وهلم جــرًّا.. لأن العلم أوجــد "الإكسير" الذي يحوِّل الرصاص إلى ذهب وأفنى القدماء أعمارهم فيه..

لقــد ســخَّر العلم للإنســان "بســاط الــريح" وجعل صواريخه تجاوز الجاذبية الأرضية، وتســبح في الفضــاء العميــق، وجعــل لــه مــردة كمــردة الجــان، تقيم الصــروح الممــردة وتــذيب الحديــد وتــدفع إلى البحــر بالمنشــآت.. كــالأعلام، كأنهــا قطــع الجبــال.. أصــبح العلم يضــاعف الثمــار النباتيــة، ويحســن الســلالات الحيوانيــة ويخصــب التربة.

باختصار أصبح العلم مصدر الــثروة.. وانظــر إلى اليابان التي هزمت في الحــرب.. فانتصــرت في الســلم بــالعلم، وأصــبحت أغــنى دولــة في العالم.

أما أنَّ العلم هو مصدر القوة فمنــذ أن اخــترع العلم "الطاقة" البخارية، وقد أصبح مصدر القوة Power وهذا هو ماردٌّ به جيمس وات على ملك إنجلترا، عندما زار "ورشته" وسأله ماذا يصنع..؟ فقال جيمس وات: إننا نصنع يا مولاي مــا يريــده العالم أجمع: نصنع القوة! وقد كان هذا الاخــتراع بدائيًا فطريًــا.. وقــد تقــدم الآن بصــنع الصــواريخ والــدبابات والطــائرات الــتي تصــور كــل شــيء والقنابــل الذريــة إلخ.. فكــل الأســلحة والــذخائر ومعدات القتال هي ثمرة من ثمرات العلم..

والعلم أيضًا هو أحد مصادر الكرامة لأن العلم يضفي على صاحبه سمتًا وكرامــة، ولأنــه يجعلــه أهــدى ســبيلاً وأصــدق حكمًــا، وأبعــد عن التــأثر بالخرافات. وقد كان يكفي أن يكون شــخص مــا من حملة القــرآن العظيم أو من حفظتــه ليكــون محلاً لإكرام ومستحقًا لمزايا..

وهكـذا نـرى العلم مصـدرًا للـثروة وللقـوة وللكرامة. إن الله تعالى لم يكن ليجعل الملائكة تسجد لمن علمه الأسماء كلها.. عبثًـا، لقـد كـان سبحانه وتعـالى – يعلم منزلـة العلم ومـا أودعـه في من قوى ومزايا.

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي، تؤمن بالعلم هداية للعمل.. وتدعو من لم يكن متعلمًا إلى أن يتعلّم، ومن كان متعلمًا إلى أن يزداد علمًـا ﴿ وَقُـل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ تدعو من يلم بلغة واحدة.. ومهـارة واحـدة إلى أن يعلم لغـة أخـرى.. أو ثالثـة.. ومهارة ثانية أو ثالثة، أن العلم كالبحر مهما تأخذ منه فإنه لا ينفـد، ومهمـا تطلب منـه لا يـرفض.. ولا يطلب مقابلاً.

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو للعلم المفتوح الـذي لا يعـرف أسـوارًا ولا حـدودًا ولا يشـترط شهادات، ولا يأبه بالخانات أو الدرجات.. وتقدمه معاهد وجماعات حرة مفتوحة.

إن دعوة العمـل الإسـلامي تـؤمن بالتـدريب المهـني المفتـوح أمـام العمـال، ليجعـل من النـابهين منهم مهندسـين ومـديرين، وأبطـالاً في مجـال الإنتـاج الصـناعية، فينهضـون بأنفسـهم وبلادهم..

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو النساء بوجه خـاص إلى أن يتعلمن في كـل مـا يتجـاوب مـع قابليـاتهن، فـإذا كـان اللـه تعـالى قـد وضـع في بعضهن ملكـة، وموهبـة للهندسـة أو الرياضـة أو الآداب أو الفنـون.. فمن هـو ذا الـذي يئـد هـذه

الموهبة، ويمارس في العصـر الحـديث مـا كـان يمارسه الأعراب في الجاهلية.

إن دعـوة العمـل الإسـلامي تـدعو للكتـاب.. تدعو للمطبعة تدعو أجهزة الإذاعـة والتليفزيـون لتكف عن إذاعة التفاهات وإشـاعة الفاحشـات.. ولتقوم بدور في التثقيف والتعلم.

إن دعــوة العمــل الإســلامي تــدعو لإشــاعة الفنـون والآداب وتـرى فيهـا زينـة الحيـاة الـدنيا وأحد علامات التذوق النفسي والتميز الإنساني.

إن دعـوة العمـل الإسـلامي تـؤمن بالعقـل، ولكل ما يهدي إليـه العقـل، ولا تـرى حـدًا يقـف عنده إلا الذات الإلهية.. وما وراء الغيب..

إن دعوة العمل الإسلامي ترى أنه إذا كـانت الـــدعوة لرغيـــف العيش مقدســـة، وإذا كـــانت الدعوة للانتظام في صفوف الصلاة فريضة، فإن الدعوة للعلم وللكتاب لا تقل عن هـذين، فكيـف ندعو للبطون ولا ندعو للعقول.

إن دعــوة العمــل الإســلامي تــدعو الهيئــات الإسلامية التي تؤمن بالجهاد.. إلى أن تتعلم، لأن العلم هـو وسـيلة الجهـاد، وهـو الـذي يضـع في أيديها السلاح الذي يكفل لها المنعة في الــداخل والانتصـار في الخـارج، وبدونـه سـيكونون عبيـدًا للكفرة، ينظفون لهم مباولهم ويغسلون كــؤوس خمرهم وأطباق خنزيرهم..

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن أن الشــعب القــوي الــذي يعــرف حقَّه فيطــالب بــه واجبــه فيؤديه، ويتصـدَّى لحكامـه هـو الشـعب المتعلم،

أما الشعب الأمي الجاهل فما أسهل أن يخدعه الحاكم بمعسول القول:

ويدللون إذا أريد قيادهم ... كالبهم تأنس إذ ترى التدليلا

ثم يتحكم بعد ذلك فيهم كما يشاء.

إن دعوة العمل الإسلامي لا تتأثر بدعاوي "الغزو الثقافي" لأنها ترى أن المعرفة والعلوم إرث حضاري للبشرية كلها، دون تمييز أو حساسية، أسهم فيه المصريون القدماء واليونان، وقدَّم المسلمون فيه إضافتهم المميزة والإسلام بعيد عن مشاعر الدونية أو الاستعلاء أو الانغلاق. إنه الحكمة والعدل مع الأصدقاء والأعداء ونحن بعْد لنا عقول.. نأخذ في ضوئها ما نشاء، وندع في ضوئها ما لا نريد.. ولكننا نرفض كل دعوة للانغلاق أو لفرض وصاية على العلم والثقافة والمعرفة.

وأخيرًا، فإن دعوة العمل الإسلامي تجعل من شعاراتها الأثيرة "تعلم.. تعلم.. تعلم.. تعلم من المهد إلى اللحد.."

* * * *

الفصل الرابع
الركيزة الثالثة: الحرية

أعطتنا الآيات التي استشهدنا بها من سـورة البقـــرة ركـــيزتين من ركـــائز دعـــوة العمـــل الإسـلامي، همـا الكرامـة الإنسـانية المتأتيـة من اســتخلاف اللـــه تعــالى الإنســان على الأرض. وقداسة العلم الـتي جعلت الملائكـة تسـجد لمن علمـه اللـه الأسـماء كلهـا: آدم.. ويمكن للآيـات الــتي أعقبت الآيــات الــتي استشــهدنا بهــا من سورة البقرة أن توصلنا للركيزة الثالثـة. ولكنهـا تشير إليهـا في اقتضـاب. ومن هنـا سنشـير إلى آيات من سور أخرى تقدم لنا بنوع من التفصـيل الركيزة الثالثة..

فهذه الآيات من سورة الأعراف تعرض بقية مشـاهد ظهـور الحيـاة الإنسـانية، بعـد أن تمـرد أبليس على أمر الله تعالى، وما أعقب هذا:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَـالَ أَنَـا خَيْــرٌ مِّنْــهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَــهُ مِن طِينٍ ﴾ (12)

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَـا يَكُـونُ لَـكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(13) ﴾

﴿ قَالَ انظرنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) ﴾

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) ﴾

﴿ قَالَ فَبِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ﴾

﴿ ثُمَّ لآَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْـــدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَــانِهِمْ وَعَنْ شَــمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِــدُ أَكْــثرهَم شَاكِرِينَ (17) ﴾

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) ﴾

وفي سورة الإسراء يعرض القرآن هذا المشهد:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أأسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾

﴿ قَــالَ أَرَأَيْتَـكَ هَــذَا الَّذِي كَـرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَــهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (62)

﴿ قَــالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَــكَ مِنْهُمْ فَــإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63) ﴾

﴿ وَاسْــتَفْزِزْ مَنِ اسْــتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَــوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِــكَ وَرَجِلِــكَ وَشَــارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادَ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّــيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (64) ﴾

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65) ﴾

ومــرة ثالثــة يكــرِّر القــرآن الصــورة نفســها في سورة الحجر:

﴿ قَــالَ يَــا إِبْلِيسُ مَــا لَــكَ أَلاَّ تَكُــونَ مَــعَ السَّاجِدِينَ (32) ﴾

﴿ قَــالَ لَمْ أَكُن لأَسْــجُدَ لِبَشَــرٍ خَلَقْتَــهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33) ﴾

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) ﴾

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) ﴾
﴿ قَالَ رَبِّ فَانظرنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) ﴾
﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) ﴾
﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم (38) ﴾
﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) ﴾
﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

في سورة ص:

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (75)
﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (76)
﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) ﴾
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) ﴾
﴿ قَالَ رَبِّ فَانظرنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) ﴾
﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) ﴾
﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم (81) ﴾
﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) ﴾
﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) ﴾

إن هذه الآيات المترادفة من سور متنوعة بمعنى واحد، بل وبألفاظ تكاد تكون واحدة، تبرز عددًا من الوقائع على أعظم جانب من الأهمية، سواء بمعناها المجرد، أو بما يمكن أن يستخلص منها.

* * * *

فنحن نـرى إبليس يتمـرد، ويـرفض إطاعـة الأمـر الإلهي لسـبب معين، هـو أنـه يـرى نفسـه أفضل من آدم فقـد خلقـه اللـه من نـار.. وخلـق آدم من طين..

إننا نشهد للمرة الأولى "أنـا" تظهـر، وتـؤدي بصاحبها إلى المنطق الذاتي، فيرى نفسه أفضل من غـيره، لأنـه من نـار.. ولأن غـيره من طين.. وسيأتي بعده كثيرون يرون أنفسـهم أفضـل من غيرهم لمجرد أنهم ولدوا في القصور، بينما ولـد غيرهم في الأكواخ.

وهــذا الــدرس لــه أهميتــه في الســلوك الإنســاني، ويقــدم مفتــاح معظم الانحرافــات، ولكنه ليس هو الذي يهمنا في السياق..

الذي يهمنا في السياق أن اللـه تعـالى طـرد إبليس من الجنة مذمومًا، مدحورًا، فأراد أن يثأر لنفسه من عدوه آدم وبنيه – وطلب أن ينظره – أي أن يسمح له بالبقاء إلى يوم القيامة، وأجابـه اللـه تعـالى إلى هـذا، بـل وسـمح لـه بمشـاركة الإنسـان في الأمـوال والأولاد، وأن يسـتفز منهم من يشــــاء، ويجلب عليهم بخيلــــه ورجلــــه.. ويعدهم .... إلخ.. كما رأينا في الآيات.

في الـوقت نفسـه. فـإن اللـه تعـالى لا يـدع الإنسان فريسة سهلة لإغراء الشيطان، إنـه أولاً زوده بالعلم، والمعرفة، ثم هو أيضًا يرسل رسله وينزل كتبه لهداية الإنسان: "إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِيين..".

إننا لا نجد مثيلاً لهـذا "الإخـراج" و "الحبكـة" في إقامة الحياة الإنسانية، وجعلها مسرحًا تؤدى

عليه رواية الحياة.. بكل دراماتيكية، وديناميكية.. وحيوية.. وانتصار.. وهزيمة.

فنحن نرى الإنسان وعلى يمينه العلم والمعرفة، وهداية الرسالات السماوية والكتب المنزلة، والفطرة السليمة التي فطر الله عليها الإنسان، والأمانة التي نزلت في جذر قلبه.. وعلى يساره نجد غواية الشياطين من مال.. وجاه وشهوات وسلطان، وكل ما يمكن أن تثيره في النفس "الأنانيات" التي هي في الأصل إثاره الشيطان، والتي تسرى في الإنسان مسرى الدم..

ويظل الإنسان حرًا.. مختارًا:

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ (29 الكهف)

﴿ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (29 الكهف)

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (15 الإسراء)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (18 الإسراء)

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (19 الإسراء)

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (20 الإسراء)

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) ﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) ﴾

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) ﴾

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) ﴾
﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) ﴾
﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) ﴾
﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (الليل 10)

والنهاية..؟

النهايــة أن توجــد الفئــات المتفاوتــة تبعًــا لإيمانها وصلابتها. أو ضعفها واستخذائها..

هنــاك الأئمــة الــذين يــدعون إلى الجنــة.. والأئمة الذين يدعون إلى النار..

هناك السابقون السابقون وهنـاك اللاحقـون وهنـاك القاعـدون.. "منهم ظـالم لنفسـه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات".

هناك من صـدق عليهم إبليس ظنـه، وهنـاك من استعصموا بالإيمان وانتصروا على الغواية.

وهناك من خلطوا عملاً صالحًا.. وآخر سيئًا..

ورُبما كان المثـال "النمطي" هـو آدم نفسـه الذي اسـتزَلَّهُ الشـيطان "فغـوى ثم اجتبـاه ربـه فتاب عليه وهدى".

والحــق أننــا لا نكــاد نجــد واحــدًا ينجــو من الضــعف والإغــراء، فكــل بــني آدم خطّاءون.. ولكنهم يتوبــون ويتــوب اللــه على من تــاب.. فرحمة اللـه أكـبر من عصـمة الإنسـان، ولولاهـا لهلك الإنسان..

.. هكذا يعرض القرآن الكـريم الحيـاة الـدنيا مشاهد متتالية.. متقابلـة.. من الهُـدى والضـلال، من الاستسـلام لزهـرة الحيـاة الـدنيا. وشـهوات المــال والنســاء وجاذبيــة الحُكم والســلطان

والشهوة، والاعتصام بما هو أقوم من قُربى إلى الله، وإيثار للعمل الصالح.

وبــالطبع لــو أراد اللــه تعــالى لغــير هــذه الصورة،

كان يمكن أن لا يسمح للشـيطان بممارسـة هذه السلطات الواسعة، وتملك كل هذه الأفانين للإغراء والإغواء..

كـان يمكن أن يجعـل الإنسـان كالملائكـة لا تخطئ.

 وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَـا مِنكُم مَّلاَئِكَـةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60 الزخرف)

 وَلَـوْ شَـاءَ اللـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35 الأنعام)

 وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (107 الأنعام)

 وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (99 يونس)

 وَلَـوْلاَ أَن يَكُـونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً لَّجَعَلْنَـا لِمَن يَّكْفُـرُ بِـالرَّحْمَنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُـقُفًا مِّن فِضَّـةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَـرُونَ. وَلِبُيُـوتِهِمْ أَبْوَابًـا وَسُـرُرًا عَلَيْهَـا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًـا وَإِن كُـلُّ ذَلِـكَ لَمَّا مَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِـرَةُ عِنْـدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (33 – 35 الزخرف)

كان من الممكن أن يفضي الله بهذا، ولكنــه أراد للحياة أن تكون بالصورة التي عرضناها.

فما الحكمة من هذا..

الحكمــة أن تكــون الحيــاة الــدنيا دارِ ابتلاءٍ واختبار، فلا تكون جنـة تسـكنها الملائكـة أو نـارًا تسـكنها الأبالسـه.. ولكن يوجـد فيهـا من الجنـة هدايـة الأنبيـاء.. ومن النـار غوايـة الشـياطين " ليحـيي من حي عن بيِّنَـة.. ويهلـك من هلـك عن بيِّنَة.. ".

ولكن هـذا الوضـع لا يسـتقيم إلا بعنصـر هـو الــذي يعطي المشــهد حيويتــه ومضــمونة ذلــك العنصر هو الحرية.

فالإنسان حـرٌ تمامًـا في أن يسـلك مسـالك الهداية..أو يهوي مهاوي الضلال.

حرٌ في أن يؤمن.. وحرٌ في أن يكفر..

حرٌ في أن يريد العاجلة.. وحـرٌ في أن يريـد الآجلة.

وبدون هذه الحرية، لا يكون للمشهد كله أي معنى..

فلو قُسِر الإنسان على الهداية لمـا كـان لـه الفضل فيها.. ولو قسر الإنسان على الضلالة لما كان له ذنب فيها..

وليس للشيطان رغم كل قوتـه من سـلطان على الإنســان إذا أراد أن يستعصــم، كمــا ليس للنبي من سلطة على من آثر الضلالة، لأن النبي ليس حفيظًا.

إنها إرادة الإنسان، والحرية هي قـوام الأمـر كله.

وثمـــة حـــديث معـــروف يقـــول: "الأعمـــال بالنيات" فإذا كـانت الأعمـال بالنيـات.. فلا نيـات دون حريات.. ومن ثم، فلا أعمال دون حريات..

إنـــه لمن الغـــريب حقًـــا ضـــحالة الإحســـاس بالحرية لـدى المسـلمين، في حين أنهـا حجـر الزاوية في البناء الذي أقامه الله للحياة الــدنيا.. وللهُدى والضلال، وبـدونها لا يقـوم ولا يكـون لـه معنى.

* * * *

بصرف النظر عن هذا التصوير القرآني للحياة الدنيا وطريقة عملها، فإننا لو افترضنا أن الدولة الإســلامية هي هي دولـــة العقيـــدة.. فـــإن هـــذا يفـــترض بالضـــرورة والتبعيـــة أن تكـــون دولـــة الحرية..

ذلـــك لأن من المســـتحيل أن نحمـــل النـــاس قسرًا على الإيمان بالعقيدة.

بل إن الترغيب – يماثـل الـترهيب – في هـذا، لأنـــه رشوة" على الإيمان..

لا الـــترهيب.. ولا الـــترغيب يمكن أن يصـــلا بالإنسان إلى إيمان صـحيح، لأنهمـا يكونـان قـوة ضـاغطة على حريـة الإنسـان من ناحيـة، وعلى قدرته على التمييز والاختيار، وبنعكسـان بالتـالي على إيمانه..

إن الإيمـــان الحقيقي هـــو الـــذي يتـــوفر لـــه عنصـــــران الحريـــــة من ناحيـــــة الإنســـــان و "المنطقية" من ناحية الدعوة..

فالإنسان عندما يكون حرًا مختـارًا، ويـرفض دعوة سليمة، منطقية، فإنه عندئـذ يكـون خاطئًا

ويكــون تفكــيره منحرفًــا ويســتحق المؤاخــذة، وعندما يؤمن بها ويسلم لهـا فإنـه عندئـذ يكـون مستحقًا للثواب..

ولكي يؤكد القرآن الكريم معنى الحرية فإنه في آيات لا حصر لها قضى، قضـاء باتًـا ومؤكـدًا، بأمرين:

الأول: أن الله تعالى نفسه هو الذي يحاسب الناس، ويؤاخذهم، ويفصل بينهم فيما كـانوا فيـه يختلفون من هداية وضلال إيمان وكفر.

الثاني: أن هذا يحـدث يـوم القيامـة.. عنـدما تنصب محكمة العـدل الإلهيـة. لإثابـة المحسـنين ومعاقبة المذنبين..

فالأمر خارج تمامًـا عن سـلطان الأفـراد، أو النظم أو الهيئات، خـارج عن إطـار محـاكم هـذه الحياة الدنيا.

* * * *

في قضـــية الإيمـــان.. والكفـــر.. الهُـــدى والضلال.. الأمر متروك تمامًـا للفـرد. فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..

الحسـاب والعقـاب عليهـا إنمـا يكـون يـوم القيامة والله تعالى وحده هو الذي يحكم فيها..

* * * *

هذه هي المبـادئ القاطعـة الفاصـلة، البينـة التي ينطق بها التصـوير القـرآني لنشـأة الحيـاة، والآيات المتكررة والمترادفـة عن حريـة الإيمـان والكفر، والآيات التي تماثلها – تكرارًا ووضوحًا – عن أن الله تعـالى وحـده ودون غـيره هـو الـذي يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون..

والآيات كلها متكاملة، لأنها من أصل واحد، فكل آية تكمل جانبًا من جوانب هذا الأصل. فلو لم يكن هناك حرية لما كان هناك معنى لغواية الشياطين أو لهداية الأنبياء، ولو جيز أن يكون الثواب والعقاب على الإيمان في الحياة الدنيا لما نشأ الضمير، فإنما ينشأ الضمير عندما يقبل الإنسان أو يرفض. إيمانًا دون جزاء مادي أو أدبي في الحياة الدنيا، كما لا يمكن لكل ما في هذه الحياة الدنيا من أساليب إغراء.. أو قوى ضغط أن تحوله عن إيمانه.

هذا هو الضمير، ولو جاز لأحد أن يتولى الحكم لكان يجب أن يعلم السرائر، ويشق عن القلوب وهيهات..

وكرامة الإنسان التي اقتضتها الاعتبارات التي أشرنا إليها في الفصلين السابقين، لا توجد إلا في مناخ الحرية، فلا كرامة في ظل إرهاب.

فالآيات كلها تصب في هدف واحد. إرادة الله تعالى أو تقيم بناءً واحدًا أراده الله، وكل آية بمثابة لبنة في البناء..

ومع هذا كله ومع وضوح الصورة وتكرار الآيات عن حرية الاعتقاد فإن معظم.. أو كل الدعوات الإسلامية تعزف عن الحرية، وتتبنى بدرجات متفاوتة. ضوابط على الإيمان. يمكن أن تصل إلى حد قتل المرتد أو "من يجحد معلومًا من الدين بالضرورة".

والمجتمع المثالي لديها هو مجتمع القيود.. والأحكام المسلطة، والقوانين الآمرة..

إنه مجتمع العبيد..

وإنمـا فضـل المسـلمون الأول الإسـلام لأنـه أخرجهم من عبادة الحكام إلى عبادة الله..
وأي عبـادة للـه بقـانون من العقوبـات تكـون عبـادة لقـانون العقوبـات. ولمن وضـع قـانون العقوبات ولا تكون لله..
وإنما تكون العبادة لله، والإيمـان باللـه عنـدما يصـدر ذلـك عن حريـة، وطواعيـة، بـل وعاطفـة وقُربى..

* * * *

إن دعــوة العمــل الإســلامي تــؤمن بحريــة الفكر والاعتقاد إلى آخر مدى، إلى مـدى " فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.." ولا تضـع قيـدًا من أي نوع على الفكر والاعتقاد..
فلــو أراد مســلم أو كفــر فإنمــا على نفســه يجني، ولن يضير المسلمين أن ينقصوا فـردًا، أو حتى مليونـًا، ولن يمس الإسـلام شـيئًا أن يخـرج منـــه من لا يـــؤمن باللـــه. ولن يحزننـــا الـــذين يسارعون في الكفر.
إن دعوة العمل الإسلامي لا تكفِّر أحـدًا، حـتى الذي يُقر على نفسه بالكفر،[1] لأن القضية قضية "عدم اختصاص" فليس من شأننا أن نقـول هـذا مؤمن. وهذا كافر.. وهذا سيدخل النار..

---

1 [(?)] إن مقارنــة ذلــك بمــا جــاء في الــدُرِّ النضــير في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني ص 46، "وقال شـيخ الإسلام تقي الدين في الإقناع من دعاميتا. وإن كــان من الخلفاء الراشدين فهــو كـافر، وإن من شــك في كفــره، فهــو كــافر" يوضــح المســافة البعيــدة بين الاتجـاهين. ناهيـك بناشـئة دعـوات الـرفض الجديـدة التي تكفِّر، وتهدر دم كل مخالف.

وأن يقر أحد على نفسه بـالكفر شـيء، وأن نقر نحن هذا – ولو تبعًا له – شيء آخر، لأنه حـر يفعل بإيمانه ما يشـاء ولكن ليس لنـا أن نتـدخل فيه. ولو كـان إقـرارًا لمـا يعـترف بـه، لأن ذلـك سيحملنا على أن نبـني عليـه حكمُـا.. وهـذا كلـه ليس من اختصاصـنا، إنـه اختصـاص اللـه تعـالى وحده.. يوم القيامة وحـده. وقـد يحملـه سـكوتنا على إعـادة النظـر في موقفـه، قـدر مـا يدفعـه تَنْدِيدُنا به على الإصرار عليه.

ودعــوة العمــل الإســلامي لا تـبيح مصــادرة كتاب لأنه لا يتفق مـع المقـررات، أو لأنـه يـدعو للإلحاد وينكر وجود الله وبعثة الأنبياء.. فلن يضر الله شيئًا، ولن يضر الإيمـان شـيئًا، أو ردوا عليـه الحجــة بالحجــة، والــدليل بالــدليل والبرهــان بالبرهـان، وهـو مـا فعلـه القـرآن مـع ادعـاءات المشركين.

إن المصادرة تبسط سيف الإرهاب الفكري، وحتى عندما لا يستخدم، فإن مجـرد تجريـد هـذا السيف من غمده، وجعله مشـهرًا سيسـيء إلى حرية الفكر..

وليس معــنى هــذا أن يكتب أحــدٌ ســفاهات وبذاءات، أو ينشر قذفًا أو يسيء الأدب والــذوق مـع الرسـل أو الأديـان.. أو اللـه تعـالى. إن هـذا مرفوض ومعاقب عليه، حـتى عنـدما يمس أقـل شـخص، فكيـف عنـدما يمس الرسـل.. واللـه تعالى..؟

إن القضية قضية إعمال فكـر، قضـية وجهـة نظر مبنية على مقدمات ونتائج.. حتى وإن كانت خاطئة وفاسدة.

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي عنـدما تقـف هـذا الموقـف، تـؤمن أنهـا تقـف الموقـف الإسـلامي والموقــف الموضــوعي، وليس بينهمــا تنــافر أو اختلاف، وإنمــا يحــدث هــذا مــا بين الإســلام.. والمواقف الذاتية..

فمن الناحية الإسلامية. فالإسلام يعلم أنــه لا فائــدة من ســوق النــاس للإيمــان بالإرهــاب والقَسْر، وأن الـدعوة السـليمة إنمـا تقـوم على الحكمة والموعظـة الحسـنة، وأن الحريـة تكفـل مؤمنين أعمق إيمانًا..

ومن الناحيــة الموضــوعية، فـإن الأصـل في الإيمان هو الحرية، ولا يمكن تصور حمل النــاس على الإيمان قسرًا، فهذا يخالف طبيعة الأشياء..

فليس في القضــية شــيء يثــير الدهشــة، وعندما تكون دولـة الإسـلام دولـة عقيـدة، فإنهـا تكون بالتالي دولـة حريـة.. ولهـذا يجمـع القـرآن الدعوة للإسلام، والحرص على الحرية، والتنديــد بكــل صــور "حمــل" النــاس على الإيمــان أو إكراههم عليه..

القضـية محلولـة إسـلاميًا وموضـوعيًا، ولكن هنـاك سـدنة يفرضـون أنفسـهم مـا بين النـاس واللــه.. وهــذا الوضــع يقضــي عليهم، ولهــذا يسـتميتون في الـدفاع عن أوضـاعهم المميـزة، ومصالحهم المكتسبة، وأفكـارهم الـتي تسـربت إلى الإسلام في عهود التحلل والانحطاط.

* * * *

الفصل الخامس
الركيزة الرابعة – العمل

رأينا الإنسان وقد خصَّه الله في سابق علمه بالكرامة. فقرر أن يستخلفه على الأرض وعلَّمه الأسماء كلها. وأمر الملائكة أن تسجد له.. وأسلم له هذا الكوكب الجميل: الأرض بتربتها الخصبة وأنهارها الجارية وشمسها الساطعة وثرواتها المعدنية وأشجارها وحيواناتها.. ومنحه الحرية الكاملة..

بقي أن يقوم الإنسان بدوره الذي من أجله استخلفه الله، وعلمه الأسماء، ومنه الحرية..

هذا الجور لابد وأن يأخذ شكل العمل، لأن العمل هو بلورة الحياة وثمرتها، وهو مضمونها وتجسيد معناها..

وحتى في مجال الفكر الخالص فنحن نقول "يعمل عقله" فالتفكير عمل.. بل إن عدم التفكير يؤدي إلى عمل في صورة سلبية – كالانسياق والتقليد والاتباع..

وهذا ما يوضح الأهمية القصوى لهذه الركيزة، فكل الركائز السابقة هامة. ولكن أهميتها تكمن في أنها تهيئ المجال، وتعد العدة وتبعد المعوقات، لكي يعمل الإنسان عملاً صالحًا. فهذا العمل هو محصلة الركائز الثلاث السابقة وعليه تتوقف النتيجة.. إما شاكرًا. وإما كفورًا.

وعندما نفتح المصحف، ونسير معه من الفاتحة حتى الناس، فإننا نلتقي في كل سورة

تقريبًا بتعبير قرآني متكرر ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.. فعمل الصالحات جزء مكمِّل للإيمان.. لأننا لو استبعدنا هذا الربط ما بين الإيمان والعمل، واقتصرنا على الإيمان، لكان كل واحد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله مؤمنًا يعادل أي مؤمن آخر يقول القول نفسه، ولوقفت قضية الحياة عند هذا، أو لانحصر التمايز بين رجل يصلي الفرائض، وآخر يزيد عليها النوافل وما إلى ذلك..

ولكن الشهادتين، والصلاة، والصيام لا تحرث الأرض، ولا تنبت البذر، ولا تغزل القطن، ولا يمكن أن تُرْكَب لقضاء الحوائج، ولا هي تتضمن الهمة والنشاط والمثابرة أو الدقة والأمانة أو الوفاء بالوعد، والصدق عند الحديث، فكل هذه هي ما يقدمه العمل..

من أجل هذا دأب القرآن الكريم على الإشارة إلى العمل. ويؤدي بنا الربط المستمر للقرآن ما بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى تفسيرين: الأول أن القرآن يشير بكلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى العقيدة، ويمكن أن يلحق بها العبادات، وأنه يشير بالذين عملوا إلى العمل، وبهذا يكون الإسلام عقيدة وعمل، وهو ما يقول به كثير من الفقهاء وتصبح العقيدة شيئًا، والعمل شيئًا آخر، ويكمل كل واحد منهما الآخر ليتكامل "الإسلام"، كما أن من الممكن أن القرآن إنما يهدف بربطه ما بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى أن يجعل من العمل مصداقًا للإيمان، بمعنى أن الذين يؤمنون حقًا لابد وأن يعلموا عملاً صالحًا، بحكم إيمانهم،

فالعمل في التفسير الأول عنصر مستقل، وهو في التفسير الثاني عنصر مكمل وفي المحصلة الأخيرة لا نجد اختلافًا كبيرًا فسواء كان العمل عنصرًا مستقلاً أو عنصرًا مكملاً ففي الحالتين لابد منه، سواء كان كعنصر مستقل أو كعنصر مكمل..

ويغلب أن تأخذ إشارات القرآن إلى المؤمنين صورة من ثلاث صور، فعندما يذكر ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، والآيات التي جاء فيها هذا القرآن أكثر من أن تحصى في هذا الموجز، وعندما يتحدث إلى المؤمنين بصيغة الخطاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يقر ذلك بأحد التوجيهات العملية ﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم ﴾ ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ،﴾ ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ،﴿ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴾ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ،﴿ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ إلى آخر هذه التوجيهات التي تتعلق بالسلوك أو المواقف التي يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بها. وأخيرًا فإن القرآن عندما يشير إلى ﴿ مَّنْ آمَنَ﴾ فإنه يضيف إلى ذلك: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ،﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ،﴿ مَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ،﴿ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ،﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.. إلخ.

وفي بعض الحالات لا يذكر القرآن العمل صراحة، ولكنه يعطي مضمونه جنبًا إلى جنب مختلف العبادات.. ففي سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ وفي سورة الحج ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ

بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾، ولم يأنف من أن يرمز إلى الإيمـان بكلمـة تجـارة ﴿ هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللـهِ وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَـارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ وذكر جنبًـا إلى جنب الـذين ﴿ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللــهِ ﴾ الــذين يضـربون في الأرض يبتغـون من فضـل اللـه ﴿ عَلِمَ أَن سَـيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَـرُونَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ ﴾ ﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُـولاً فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾.

فهذه الإشارات كلهـا للجمـع مـا بين الصـلاة والحج والمنافع وابتغاء فضل الله والرمز للإيمان ومختلف قربانه بالتجارة كلهـا توضـح أن العمـل بالمعنى الاقتصادي أي العمل المنتج اعتبر قرينًـا للإيمان ومصداقًا له.

وهـذا الجمـع المتكـرر المتـواتر بين الإيمـان والعمل الصالح يوحي أن الإيمان في القرآن يعد المدخل إلى عالم العقيدة، و"الهوية" للمؤمـنين. ولكن هذا المدخل والهوية لا يكفيان وحدهما، بل لابد من العمل الصالح الذي يؤكدهما ويصدقهما، فليس الإيمان بالتمني ولكن بما يصدقه العمل.

ولا يقل عن ذلك أهميـة أن الإسـلام لا يعتـبر العمل مصداقًا للإيمان أو مكملاً للإيمان فحسب. ولكنه يعتـبر العمـل معيـار الثـواب والعقـاب في الآخرة، وقـد يقدمـه عنـد الـذكر على التوحيـد ﴿

فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عملاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحدًا .

والحـق أن التصـوير القـرآني لنشـأة الحيـاة الإنسـانية على الأرض، ومـا تطلبـه من ركـائز أشرنا إليها. لا يكتمـل إلا بقيـام العمـل، واعتبـار معيار الثواب والعقاب في الآخـرة والآيـات الـتي تنص على ذلـك بصـورة قاطعـة أكـثر من أن يستوعبها المجال، وهذا بعضها.

 يَـوْمَ تَجِـدُ كُـلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْـرٍ مُّحْضَـرًا وَمَـا عَمِلَتْ مِن سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَـا وَبَيْنَهُ أمَدًا بعيدًا (30 آل عمران)

 وَيَسْتَخْلِفَكُـمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُـرَ كَيْـفَ تَعْمَلُونَ (129 الأعراف)

 لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (121 التوبة)

 لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عملاً (7 هود)

 وَتُـوفَّيَ كُـلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (111 النحل)

 فَوَرَبِّـكَ لَنَسْأَلَنَّهُـمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (93 الحجر)

 مَنْ عَمِـلَ سَـيِّئَةً فَلاَ يُجْـزَى إِلاَّ مِثْلَهَـا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَـا بِغَيْـرِ حِسَـابٍ (40 غافر)

 مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (46 فصلت)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (15 الجاثية)

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (14 الأحقاف)

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (44 الروم)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (8 ،7 الزلزلة)

وفي القرآن الكريم جزء من آية، ثلاث كلمات بعيدة الدلالة والمغزى تلك هي ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ (80 الأنبياء) من هذه الكلمات الثلاث نعلم أن الحديث صادر من الله تعالى.. فالله تعالى هو الذي "علّم" وأن الحديث موجه إلى داود، رأس بني إسرائيل وفخرها، وأن ما علمه الله لداود هي صنعة الدروع. فأي تكريم للصنعة كما جاءت اللفظة القرآنية، وهي نفسها اللفظة السارية بين العمال اليدويين.. أنْ يعلمها الله نفسه لداود نفسه.. كما تتضمن الآية أيضًا أن العلم هو وسيلة الصنعة وليس شيئًا آخر.

وأبرز من هذا كله في الدلالة الآية ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عملاً ﴾ فلا شيء أصرح من هذا في أن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا امتحانًا يدور حول العمل.

ويتفق الحديث النبوي مع القرآن الكريم في الجمع ما بين الإيمان والعمل واعتبار العمل مبرر الثواب والعقاب. فالحديث النبوي عن أن الإيمان بضع وسبعون (وفي رواية وستون)

شعبة أعلاها لا إله إلا اللـه وأدناهـا إماطـة الأذى عن الطريق، فهو يوضح لنا مدى شمول الإيمـان بــدءًا من ثــورة العقيــدة حــتى أدنى عمــل من الأعمال اليدوية..

وهناك الحديث المشـهور عن الشـاب الجَلِـد الذي تمنى الصحابة لو كان جَلَدُه في سبيل اللـه فصحح النبي لهم هذا المفهوم: "لو كان يسعى على أبــوين شــيخين فإنــه في ســبيل اللــه، أو يسعى على نفسه يعفهـا فهـو في سـبيل اللـه"، فسبيل الله ليس مقصورًا على الصلاة والصيام.

واعتبر النبي أن "أمرك بـالمعروف ونهيـك عن المنكر صـلاة، وحملـك عن الضـعيف صـلاة. وإنحـاؤك القـذى عن الطريـق صـلاة" رواه ابن خزيمـة في صـحيحه، وتحـدث عن رجـل "يتقلب في الجنة في شجرة قطعهـا من ظهـر الطريـق كـانت تـؤذي المسـلمين.." ويقابـل هـذا امـرأة "دخلت النار في هرة حبسـتها، فلا هي أطعمتهـا ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

وجاء في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي:

وقد قال الله تعـالى لنبيـه : فَـإِذَا فَـرَغْتَ فَانْصَـبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَـارْغَبْ قـال أهـل التأويـل فإذا فـرغت من أمـور الـدنيا فانصـب في عبـادة ربك، وليس هذا القول منه ترغيبًـا لنبيـه فيهـا، ولكن ندبــه إلى أخــذ البلاغــة منهــا. وعلى هــذا المعــنى قــال : ليس خــيركم من تــرك الــدنيا للآخرة.. ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخــذ من هذه وهذه. ورويَ عن النبي أنه قـال: "نعم المطيَّة الــدنيا فارتحلوهــا تبلغكم الآخــرة" وذم رجل الـدنيا عنـد علي ابن أبي طـالب كـرم اللـه

وجهه فقال رضي اللـه عنـه: " الـدنيا دار صـدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غـنى لمن تزود منها"([1]).

وعن أنس قال: "كنا مع النـبي في السـفر فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا مـنزلاً في يـوم حــار، فســقط الصــوامون وقــام المفطــرون فضـربوا الأبنيـة وسـقوا الركـاب فقـال النـبي : ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله.

وكمـا فضـل النـبي هـؤلاء المفطـرين في السفر على الصائمين، ورأى أنهم "ذهبوا بالأجر" فقد فضَّـل في حـديث تعـددت رواياتـه امـرأة لا تــؤدي إلا الفــرائض لكنهــا تتصــدق ولا تــؤذي جيرانها، على امرأة أخرى كثيرة الصلاة والصيام ولكنها تؤذي جيرانها.

وعن أبي قلابة أن ناسًا من أصحاب النــبي قـدموا يثنـون على صـاحب لهم خـيرًا قـالوا: مـا رأينا مثـل فلان قـط مـا كـان يسـير إلا كـان في قراءة، ولا نزلنا منزلاً إلا كـان في صـلاة. قـال: فمن يكفيـه ضـيعته، ومن كـان يعلـف جملـه، أو دابته قالوا: نحن.. قال: فكلكم خير منه.

وعن النبي أنه قال: "ما من مسلم يغـرس غرسًــا أو يــزرع رزعًــا فيأكــل منــه الطــير أو الإنسان، إلا كان له به صدقة "لو قامت القيامــة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

وعن عبد الله بن مسعود قـال رسـول الله "طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة".

---

1 (?) طبعة وزارة المعارف العمومية 1928 ص 111

وعن أبي هريرة أن النـبي قـال: "المسـلم من سلم المسلمون من لسانه ويـده، والمـؤمن من آمنــه النــاس على دمــائهم وأمــوالهم، وزاد الــبيهقي في شــعب الإيمــان بروايــة فضــاله "والمجاهــد من جاهــد نفســه في طاعــة اللــه، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب".

وعنه أنه قال: "آية المنافق ثلاث إذا حـدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم".

وعن أنس قـال رسـول اللـه : "يتبـع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله ومالــه وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى علمه".

وكان النبي يستعيذ من "علمٍ لا ينفع" كمــا يستعيذ من "قلبٍ لا يخشع" ويقولً إذا أراد اللــه بقوم سوءًا أوتواً الجـدل ومنعـوا العمـل.. وكـان الدعاء المأثور "اللهم علمني ما ينفعـني انفعـني بما علمتني".

وحديث المفلس يوضح لنا أهمية العمــل في مقابـل العبـادة وكيـف أن العبـادة لا تغـنى عنـه، ونصه: "أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم لــه ولا متــاع، قــال المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصـوم وذكـاة، وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هـذا وسـفك دم هذا وضـرب هـذا، فيعطي هـذا من حسـناته، وهذا من حسناته، فإن حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليـه ثم طـرح في النار".

فهــذه الأحــاديث كلهــا هي كالآيــات الــتي استشـهدنا بهـا من قبـل، تجمـع مـا بين الإيمـان والعمــل، وتوضــح أنــه حــتى تعبــيرات الصــدقة والصـلاة والإيمـان والجهـاد والمسـلم والمـؤمن تتسع لصنوف من الأعمال مستقلة عن العبادات قدر ما هي متصلة بممارسات من صميم الحيـاة العملية واليومية للناس، بل إن العبـادات نفسـها تحكم بهذه الممارسـات والأعمـال وتقـاس بهـا، حــتى وإن شــملت أدنى الأعمــال، وامتــدت إلى الحيوان والجماد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنــه "لأن أمــوت بين شــعبتي رحْلي أضــرب في الأرض، أبتغي من فضـــل اللـــه أحب إليَّ من أن أقتـــل مجاهدًا في سبيل الله".. وقد ذكـر هـذه الروايـة أحــد الفقهــاء والأســاتذة في الســعودية على أساس أنها تقديم من عمر بن الخطاب للكسـب على الجهـاد اسـتنادًا على تقـديم القـرآن الـذين يضـــربون في الأرض لكســـب الـــرزق على المجاهدين في سـبيل اللـه ﴿ وَآخَـرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـــونَ مِن فَضْـــلِ اللـــهِ وَآخَـــرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ (الزمل 2) ونقلَ ما رآه بعض الفقهاء من أن الجهاد فرض.. "وقد اقترن بالضرب في الأرض للاكتساب فيكون الاكتسـاب فرضًا بدلالة الاقتران، وتقديمه على القتال يــدل على أولويتــه"[1]، ورأى الكـاتب أن هـذا لا يخـرج

1 [(?)] الاحــتراف وآثــاره في الفقــه الإســلامي للــدكتور محمـد رواس قلعجي، صـفحة 21،ـ 22 بحث نشـره المركـز العـالي لأبحـاث الاقتصـاد الإسـلامي جامعـة الملك عبد العزيز جده.

عما أراده عمر من قوله واستطرد: "والحقيقة أنه لولا الكسب لما قام الجهاد في سبيل الله، لأن المال عصب القتال، ومن هنا جاءت أهمية الإعداد الاقتصادي والاقتصاد الحربي لتمويل الحروب، خاصة في العصر الحاضر، إذ المال هو الوقود الحقيقي للحروب، حيث تصمد الدولة في القتال ما قويت على تمويل حربها[1].

وقد يذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يذكر الذين يجاهدون في سبيل الله، فيغلب أن يذكر الذين يجاهدون "بأموالهم" أولاً ثم "بأنفسهم" ثانيًا.

كما قد يذكر أن حرص عمر بن الخطاب رضي الله على صحبة الرسول، وتقديره لأهمية ذلك، لم يمنعه من "الصفق في الأسواق" وعندما أعلم بحديث لم يسمعه قال: " ألهاني عنه الصفق في الأسواق". ولعمر رضي الله عنه أقوال أخرى معروفة في الحث على العمل، فهو الذي قال لأناس وجدهم في المسجد تاركين العمل: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول "اللهم ارزقني" فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة".. وقال: "إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول ألَهُ حرفة..؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني" وقد كان هو الذي عندما مرَّ بقوم من القراء فرآهم جلوسًا في المسجد قد نكسوا رؤوسهم فقال: من هؤلاء فقيل المتوكلون

1 [(?)] الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلعجي، صفحة 21،ـ 22 بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.

فقــال: كلا ولكنهم المتــأكلون، يــأكلون أمــوال الناس، ألا أنبئكم من المتوكلون قيل نعم.. قال: هو الـذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكـل على ربه". كذلك فإنه عندما دخل السوق في خلافتــه فرأى غالبية من فيه من النبط اغتمَّ لذلك. ولمــا اجتمع النـاس أخـبرهم بـذلك وعـذلهم في تـرك السوق، فقـالوا: إن اللـه أغنانـا عن السـوق بمـا فتح بــه علينــا. فقــال: واللــه لئن فعلتم ليحتــاج رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم.

ومقارنة جانبي العلم – أي العمـل كمصـداق للإيمان.. والعمل كمعيار للثواب والعقاب، توضح لنــا أن العمــل الإســلامي وإن كــان محكومًــا بالإيمان، ويفترض أن يـأتي تصـديقًا لـه.. إلا أنـه من ناحيـة أخـرى لـه وجـوده الموضـوع وكيانـه الخـاص، فالعمـل الحسـن أو بـالتعبير القـرآني (الصالح) من كرم أو شـجاعة أو عـدل أو إنفـاق أو وفـاء بالعهـد والوعـد.. إلخ لـه كيانـه الخـاص ووجوده قبل الإسلام وبعد الإسـلام وسـواء وقـع في دار إســلام أو في دار كفــر.. من مســلم أو غير مسلم.

وحتى في الجـانب الـذي يكـون العمـل فيـه محكومًا بالإيمـان فليس هنـاك صـعوبة في تـبين أن دعوى الإيمان مفتوحة ولا يمكن جحدها لكــل من يدعيها أو يقول "لا إله إلا الله محمد رســول الله"، وإننا لا نستطيع أن نفترض في كـل واحـد فناء الحلاج، أو هيام رابعة العدوية، ممـا لا يمكن ضـبطه أو تقـديره، ومـا يمكن أن يجنح بصـاحبه إلى بحار الأهواء المتلاطمة. وبالتالي فإن الدليل الوحيد الذي يمكن للمجتمـع الاسـتدلال بـه على

حسن الإيمان لابـد وأن يكـون العمـل، لأن النيـة والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهما إلا الله، ولهذا المعـنى حُـق للعمـل، وهـو المحكـوم بالإيمان – أن يكون هو نفسه دليلاً على الإيمـان، ومعيارًا للثواب والعقاب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وهناك حكمة دقيقة وهامة في هذا القرن ما بين الإيمـان والعمـل، وجعـل العمـل مصـداقًا للإيمان، ذلك أن العبادات التي تصطحب تقليـديًا في الأذهان بالإيمان من صـلاة أو صـيام أو حج.. إلخ يمكن أن تصـبح طقـوس شـكلية، ويمكن أن تصـبح أداة لتعميـق الإحسـاس بالـذات بصـرف النظر عن المجتمع. فالمصلي لا يعنيـه مـا تـدور عليـه حيـاة النـاس حولـه ومـا يملأ دنيـاهم من هموم ومشاكل، ما دام هـو عـاكف على صـلاته وصـيامه، مـؤمن أنـه أدى واجبـه وأنقـذ نفسـه وأرضى ربه، بـل قـد يتطـور الأمـر فتعطي هـذه الصلاة والصيام منعزلة عن العمل إشـباعًا كاذبًـا يرضي الضمير، وأن هذا هو المطلوب منه، وقـد أداه فلا عليه إذا انصرف إلى غير ذلك مما يـراه خارج إطار العبادة، وطبقًا لمصلحته وهواه، دون أي اعتبار آخر، وأخـيرًا فقـد تحيـف العبـادة على العمل، كما يحدث عندما يترك موظـف عمـومي عمله ليصلي الظهر بمجرد سماعه الآذان، ويـدع النـاس واقفين أو متعطلين في انتظـاره، وقـد يطيل ويصلي النوافل أيضًا، وكأنه يتلـذذ بتعـذيب الناس أو يتقرب إلى الله بتعطيل أعمالهم!! في حين أن في الـوقت المبـاح متسـع، وأن تفـريج كربات الناس أفضل من أي قـربى أخـرى، وقـد

تحرص إحدى الموظفـات على أن تغطي رأسـها بطرحــه كثيفــة، ولكنهــا لا تحــرص على خدمــة المواطنين.

إن دعـوة العمـل الإسـلامي إدراكًـا منهـا أن العمل هو محصلة الرحلة الطويلة من اسـتخلاف اللـــه تعـــالى الإنســـان على الأرض حـــتى يـــوم القيامـة، وتقـديرًا منهـا لـه فإنهـا حملت اسـمه وأصبحت "دعوة العمل الإسلامي".

إن دعـوة العمـل الإسـلامي تـدق النـاقوس. إنهـا تقـول للمسـلمين جميعًـا: أيهـا المسـلمون أعملوا..

فالعمـل هـو الـذي سيضـعكم في الجنـة أو يـؤدي بكم إلى النـار.. هـو الـذي سيضـعكم في الصدارة.. أو في المؤخرة في الحياة الدنيا..

أيها المسلمون اعملـوا فـإن اللـه تعـالى لم يخلقكم عبثًا، ولم يسـتخلفكم في الـدنيا سُـدى، فإذا لم تعملوا فأنتم آثمون عاصون بعيــدون عن رضا الله مستحقون لغضبه..

أيها المسلمون

إذا كنتم حريصين على أن يكـون لكم العـزة فـــاعملوا.. وإذا أردتم أن تحمـــوا أنفســـكم من عدوان الآخرين فاعملوا.. وإذا أردتم أن تظهـروا الإسـلام على حقيقتـه الواقعـة الـتي تكسـب لـه الاحــترام والتقــدير فــأعملوا، لأنكم بســلبيتكم وتكاسلكم، واعتمـادكم على الآخـرين، وبضـحالة إحساســكم بالعمــل جعلتم من عملكم تلفيقًــا، وهبطتم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات،

واســم المســلمين واســم الإســلام إلى الــدرك الأسفل من الانحطاط.

إن دعوة العمل الإسلامي تقول لكم ما قاله الرسول لابنته الحبيبـة فاطمـة، ولعمتـه الأثـيرة صفية: يا فاطمة اعملي، فإني لا أغنى عنــك من الله شيئًا، يا صفية اعملي فإني لا أغنى عنك من اللـه شـيئًا.. لا يـأتيني النـاس بالأعمـال وتـأتوني بالأحساب..

إن دعوة العمل الإسلامي تعيد عليكم ما أمر بـه القـرآن ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ105 ﴾ التوبة.

* * * *

الفصل السادس
وأخيرًا – العدل: "مايسترو" الدعوة

ليس العدل ركيزة كالركائز السابقة، ولكنه وازن هذه الركائز، وضابط الإيقاع بينها أنه أشبه بالمايسترو الذي يقود الفريق، ليعزف كل واحد دوره طبقًا لما هو مسجل في النوتة، بحيث تأتي "السيمفونية" صادقة التعبير، آمنة من النشاز تقوم فيها كل من الطبلة والكمان والبوق النحاسي بدور تتطلبه السيمفونية مع أن كل واحد منهم يختلف في طبيعة ما يصدره من صوت عن الآخر، أو هو شفرة الحياة التي تحملها "جينات" الوراثة في الذكر والأنثى، ويتمخض تلاقيها عن ميلاد كائن سوي لا تطول إحدى يديه عن الأخرى، أو تقصر إحدى رجليه عن الثانية إلخ ......، وإذا كان العمل هو معيار الثواب والعقاب؛ فإن العدل هو معيار العمل نفسه، ووجوده في الدعوة هو من طبيعة الدعوة نفسها، بحيث لا يمكن تصور خلوها منه. فالله تعالى استخلف الإنسان على الأرض فأضفى عليه كرامة وجعل الملائكة تسجد له؛ فأشار إلى قداسة العلم الذي كان مبرر هذا السجود ثم هداه النجدين، وأراد له حرية الاختيار، وجعل العمل هو المعيار والمصداق لهذه المسيرة التي تسلم كل خطوة منها إلى الأخرى، باعتبارها النتيجة الطبيعية لما سبقها، تحوطها وتحكمها حقيقة كلية منبثقة من الأصل الأعظم، من الله تعالى، فالله تعالى خلق الكون بأسره ووضع النواميس التي تحكمه، واستخلف

الإنسان في الأرض.. على أساس قبس منه هو الحق الذي هو بالنسبة للنواميس والنظم كالنفثة بالنسبة للخلق، وقد سمَّى الله تعالى نفسه الحق، وجعل السماوات والأرض تقوم بالحق وأنزل الكتاب بالحق، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ فهذه المسيرة الإنسانية من الخلق حتى يوم القيامة ومن الميلاد حتى الوفاة تحكمها – وتضبطها وتحول بينها وبين الانحراف قيمة عظمى مهيمنة عليها هي الحق، وعندما يراد تطبيق الحق؛ فإنه يصبح العدل، لأن العدل هو إحقاق الحق ووضع كل شيء موضعه، وإعطاء كل ذي حق حقه. ولهذا فإن للعدل جوانب متعددة، فله الجانب الاقتصادي وله الجانب السياسي، وله الجانب الاجتماعي، "وهو القصد" وهو الذي يحكم الإرادة الإنسانية الطليقة من الشطط والجموح، ويضبط العمل بميزانه الدقيق حتى لا يتطرف إلى ظلم واستغلال، ويضبط العلم حتى لا يصبح المارد الذي يتحكم في صاحبه. وإنما أخذ العدل هذه الأبعاد كلها – لأنه كما ذكرنا ينبثق عن الحق الذي أراد الله له أن يحكم كل شيء: الأكوان والإنسان والنظم والنواميس. ولقائلٍ أن يقول: ما هو العدل الأسطوري العجيب وكيف نتأكد أنه ليس تمويهًا وخداعًا وتضليلاً...؟ لقد قلنا في كثير من كتاباتنا السابقة أن العدل لا يمكن أن يُقبض عدًا ونقدًا، ولا يمكن أن يأخذ شكلاً رياضيًا محددًا؛ فهو يقوم على حاسة في النفس، يفترض أن توجد وتتأصل نتيجة للإيمان بتوجيهات مؤكدة ومكررة في القرآن الكريم

وفي السنة النبوية، وفي أصـول الأشـياء، وتمـيز هذه الحاسة الأعمال والتصرفات، وتحكم بما إذا كانت تتفق مع العدل أو تختلف معه، حتى عندما تختلف الأحكام من عصر إلى عصـر ومن مكـان إلى مكان، لأن العدل كظاهرة إجتماعيـة يخضـع لاعتبارات المجتمع، ولكن الطبيعة الموضوعية – المعيارية له المنبثقة من الحـق لا تجعـل العـدل جزءًا يتأثر بالأوضاع حوله، وإنما هـو يلحـظ هـذه الأوضاع ويكيِّفها، وهو في جميـع الحـالات يلـتزم إطـارًا مرنًـا وواسـعًا، ولكن قسـماته الرئيسـية واحدة، فكـل الأديـان تحض على الخـير والرفـق والإحسـان والإنفـاق. وكــل الأديــان تحــذر من السـرف والسـفه والتبـذير، والانسـياق وراء شـهوات التسـلط وكـل الأديـان تنـدد بالقسـوة والظلم والاستغلال، وهذه كلها ضوابط للعــدل – مهما كانت مرنة فإنها لا تجعل من الظلم عـدلاً.. ومن العدل ظلمًا..

ويمكن على كل حال أن نميز بين طريقــتين لتطبيق العدل يختلفان تبعًا للمجال، فالعمل كله محكوم بالعدل لأنه يندر أن يوجـد عمـل لا يمس طرفًا آخر، ومن ثم فإنه يقـع مباشـرة في إطـار العــدل فالاقتصــاد والسياســة والعلاقــات كلهــا يحكمهــا العــدل بصــورة مباشــرة، ولكن الأمــر يختلـف بالنسـبة لمجـال الفكـر فإنـه يعـود إلى الحرية، وليس معنى هذا أن يخرج من صلاحيات العدل، لأن العدل المنبثـق عن الحـق يحكم كـل شـيء.. ولكن معنـاه أن تطـبيق العـدل والحكم بمقتضـاه على الفكـر مؤجـل إلى يـوم القيامـة، ويتولاه الله تعالى، ذلك لأن الطبـائع والنـواميس

التي أقامها الله تجعل التدخل في حرية الفكر – ولو لإحقاق الحق – من جـانب السـلطات يجلب من المشكلات، أضعاف مـا يحقـق من الحلـول، ولـذلك تـرك الحكم فيـه إلى اللـه تعـالى يـوم القيامة ما لم يقترن هذا الفكر بعمـل يخـرج بـه من إطار الفكـر إلى إطـار العمـل الـذي يحكمـه العدل، فلو افترضنا أن أحد النـاس اعتنـق فكـرًا فاسدًا فهـو حـر ويمكن أن يصـدر كتابًـا أو يضـم أتباعًا، ولكنه ما أن يمارس عملاً بعـد ذلـك حـتى يخضع لضابط العلم وهو العدل.

وإنما سمح الإسلام بحرية الفكر وأن تحكمها ما ظلت في إطار الفكـر إرادة خـارج المجتمـع، وليس العـدل أن الحريـة في حقيقـة الحـال هي حرية الرأي المخالف، وقد أراد الله تعالى – كما هو ثابت في العديد من الآيات – وجود هذا الرأي المخالف في الحياة الـدنيا؛ فكـان لابـد أن يحكم فيه هو يوم القيامة، فليس هذا الـرأي المخـالف يعفي من الحساب.. ولكن حسابه مؤجـل وليس معجلاً وهو إلى الله وليس الأفراد أو السلطات.

في نظرنا أن هذا التكييف قبس من الإعجاز الإلهي في وضـع النظم وهـو مـا يمـيز النظـام الإسـلامي عن النظم الوضـعية الأخـرى الـتي تتمحـور حـول الإنسـان، ويمكن أن نجـد فيهـا الركائز الأربعة لدعوتنا: كرامة الإنسـان، قداسـة العلم، الحريـة، العمـل ولكننـا لا نجـد ولن نجـد مايسترو العدل الذي يحيـط بهـا، ولن نجـد لهـذا العدل – في غير الإسـلام موضـوعية تسـتمد من الله تعالى، مثبتـة في قـرآن محكم، وتستعصـي على التغـير والتحـوير، ولن نجـد إلا في الإسـلام

عدلاً يسمح بحرية الفكر، لا على إنها لا حساب عليها، وإنما على أن الحساب عليها إنما يكون من قبل الله تعالى يوم القيامة.

فالذي يميز دعوة العمل الإسلامي عن الدعوات الأوروبية هو أنها تعمل في رعاية الله تعالى وأمنه، وأنها تستلهم منه ركائزها ومثلها، وتجعل من قرآنه دستورًا، ومن رسوله أسوة وقدوة، وأنها أولاً وأخيرًا في قبضته. وهي تسلم بهذا تسليمًا وتسعد به وتطمئن إليه، وتجد فيه الأمن والسلام والكمال، فضلاً عن أن استمداد قيمها من الله تجعلها موضوعية – في حين أن هذه القيم [الكرامة – الحرية – العمل – العلم] في المجتمع الأوربي ذاتية، وما أن تدخل امتحانًا حتى تتضح نسبيتها وذاتيتها؛ فهي للأغنياء والبيض، وغيرها للفقراء والسود وهي ملحوظة داخل أوربا منسية خارجها.

وقد يدعي أحدٌ أن هذه ليست نظرية، وأنها تفتقد الإبداع والتكامل والأحكام الذي يُظن أنه يجده في الماركسية بشقيها المادية الجدلية والمادية التاريخية، وأننا إنما لفقنا مجموعة من القيم المثالية، ونحن نقول إنها دعوة إسلامية، وليست نظرية مستقلة عن الإسلام. ونحن لا نهدف إلى إبداع نظرية كالماركسية – تعالج التطور من زاوية واحدة أو من منطق الجدلية لتكشف مائة سنة عن ثغراتها – وإنما نعبر عن التصور الإسلامي المتكامل لنشأة الحياة الإنسانية على الأرض وطريقة عمل هذه الحياة والهدف منها، وحلقاتها مترابطة ومتكاملة تمامًا فكل واحدة تُبنى على الأخرى، وتبدأ منها

لتكملها دون أن يكون هناك تعارض أو تنافر، وإنما هو بناءٌ متماسك متناسق. أما دعوى المثالية فإن الإسلام فعلاً يرمز إلى المثال، ولكنه يتقبل الواقع كواقع، وكما قلنا في مناسبة سابقة:

"إن مثالية الإسلام تقوم على قاعدة صلبة، رصينة من طبيعة النفس الإنسانية، وهي تبدأ من هذه القاعدة وتسير بها بقدر ما تستطيع الطبيعة البشرية من مراحل التقدم، والإسلام يعلم أن مادة الطبيعة البشرية كمادة النفط يشتق منها الأسفلت الثقيل الكثيف، كما يشتق منها البنزين الخفيف الطيار والإسلام يبدأ من أسفلت الواقع ويتصاعد من هذا الواقع وبه حتى يصل إلى البنزين الطيار، وهو يعلم أن هذا الأسفلت لابد منه، وإن كان للوطأ، وأنه يجب أن يحمد باعتباره موطئًا للأقدام، وأن الطائرة لا يمكن أن تبدأ تحليقها أو تنهي رحلتها إلا على هذا الأسفلت "[1].

ومثالية الإسلام بهذا المعنى تختلف عن المثالية الخيالية فهي ليست مثالية بمعنى أنها ترفض الطبيعة البشرية بضعفها وقصورها، ولكنها كذلك ليست واقعية بمعنى أنها تستسلم للواقع، وترى أن علينا أن نأخذ الطبيعة البشرية ككل أو نرفضها ككل. إن هذا هو منطق النظريات التي تصدر عن الإنسان المجرد من الأديان، كالماركسية التي استهدفت التغيير، ولكن لأنها صادرة من الطبيعة البشرية؛ فإن

---

1 [(?)] العمل في الإسلام ملاحق مجلة العمل بالقاهرة عدد 85 لسنة 1971 ص 17.

تغييرها كـان داخـل الإطـار المطلـوب تغيـيره نفسه؛ فأحلت الحكـام ألطغـاة ونقمـة السـلطة محل الرأسماليين القساة ونقمـة الملكيـة.. ولم يكن لهـا منـاص من هـذا مـا دامت قـد حبسـت نفسها داخل الطبيعـة البشـرية ورفضـت رحمـة اللـه وهدايتـه، أمـا الإسـلام فإنـه يـرف نجمًـا ليسـتهدي النـاس بـه، ومـا ظلـوا يسـيرون في ضوئه فإنهم على هدى، وقـد يتنكبـون ضـوءه ثم يعــودون إليــه وفي جميــع الحــالات فــإنهم لا يبلغونه، لأنه ليس الهدف هو أن يبلغـوه فمـا هم ببالغيه وإنما أن يسيروا في ضوئه.

وباعتبارهــا دعــوة إســلامية فإنهــا تتقــدم للمؤمـنين بالإسـلام فعلاً. أمـا غـير المؤمـنين أو الـذين في قلـوبهم مـرض فيفـترض أن يتعرفـوا أولاً على الإسـلام وهـو شـيء آخـر غـير دعـوة العمل الإسلامي شيء أوسع مدى، ويعالج قضية الإسلام أصلاً.

* * * *

خاتمة
إلى الشباب المسلم في كل مكان

لم يكن موضوع "الدعوات الإسلامية" جديدًا على مؤلـف هـذا الكتـاب، فمن الطـبيعي، وهـو نفسه داعية إسلامي أن يكون هـذا نصـب عينيـه من وقت بعيد. فضلاً عن أنـه عـايش بعض هـذه الدعوات معايشـة طويلـة، وتعـرف على قيادتهـا في مناسـبات عديـدة. وفي سـنة 1978 أصـدر كتابه "الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لهـا ومـا عليها" الذي يعد الآن من الكتب الكلاسـيكية في الموضوع، كما أشـار إلى "الـدعوتين الكبـيرتين" أي الأخــوان المســلمين والجماعــة الإســلامية (باكســتان) في كــتيب "نحن ودعوتنــا" الــذي أصدره الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

ولكن الكتاب الذي تختمه هذه الكلمات يعــد من أكمـــل الكتب في مثـــل حجمـــه عرضًـــا للموضــوع، فقـد تـوفر لـه من المـواد والوقـائع الخاصة بنشأة وتطور بعض الـدعوات الإسـلامية مــا لم يتــوفر لغــيره، كمــا أن دعــوة العمــل الإسلامي عرضـت لأول مـرة في شـكلها الأخـير القائم على فكـرة الاسـتخلاف الإلهي ومـا يعنيـه هذا من مضامين.

إن الفكرتين المحوريتين اللتين انتهى إليهمـا الكـاتب بعـد دراسـة وتمحيص خمسـين عامًـا؛ بحيث أصبحت عنده من الحقائق المؤكدة هما:

أولاً: أن أي نظـام سياسـي أو دعـوة عامـة تتجاهل الإسلام لن تجد قبولاً قلبيًا من الجماهير، لأن الإسلام هو وجدان الشعوب الإسـلامية، وأي نظـام يحـاول التلفيـق أو التطويـع أو الخـداع محكوم عليه بالفشـل، وقـد حاولـه كـل الطغـاة الـذين حكمـوا المنطقـة في الفـترة الأخـيرة وفشلوا، وكل نظام يضع نفسه في خصـومة مـع الإسلام فإنه يقضي على نفسه آجلاً أو عاجلاً.

ففي جميع الحالات لا مفر من الإسلام.

ثانيًـا: ليس في الإسـلام مشـكلة.. إن المشكلة في المسلمين وفهمهم، والأزمـة الـتي يقـال عليهـا "أزمـة الإسـلام" هي في حقيقتهـا الأزمة الحضارية للمجتمعـات الإسـلامية وفهمهـا السـلفي المهيمن، الـذي يطبـق على المجتمـع وعلى الدعوات الإسلامية التقليدية، ويجد حمايته في الأوضاع القائمة والمصـالح المكتسـبة، وقـد فشلت حتى الآن كل المحاولات لهزِّ ـ ناهيك عن زلزلة ـ هذا الفهم التقليدي. ونحن نؤمن إيمانًا لا يتطـرق إليـه شـك أن الفهم السـلفي كائنًـا مـا كانت مآثرة القديمة – فإنه لا يصـلح مطلقًـا في التحـدي الحـديث، وأن المسـلمين غـير ملـزمين مطلقًا بالتمسك به، وأن لهم مندوحة عمَّا وضعه من قواعد ومبادئ وضوابط ما داموا في النهايـة لا يخرجـون عن توجيـه القـرآن، ولا يختـانون أنفسـهم في ذلـك. وفي القـرآن متسـع والحمـد لله.

وهذه المهمة المقدسة هي ما لم يتصدَّى لها بعد كاتب أو مفكر بصراحة وقـوة – لأن الخـوف يشل الجميع، ومن يريد أن يصلح لابد أن يرضـي

أوصياء على الفكر الإسلامي، ولابـد أن يتلطـف، وأن يقـدم الأعـذار والمـبررات، ولم يظهـر من المفكـرين الإسـلاميين من يتصـدَّى لهـا تصـدِّي داعيةٍ، حتى وإن ظهـر في الفـترة الأخـيرة عـدد من الكُتاب المبدعين لمس كل واحد منهم جانبًـا من جوانب القضية، وجاء فيه برأي جديد ولكنهم جميعًا ليسوا من طينة الدعاة، وليس لـديهم من التجـرد والتركـيز مـا يجعلهم يحكمـون الـدعوة، ويعيشون بها ولها، فبعضهم شـغل الـوزارة حينًـا وأكل من حلواء القوم، وبعضهم يعمل بالصحافة ويخضـع لضـروراتها، بينمـا يعـالج البعض الآخـر الإسـلام معالجـة بـاحثٍ أكـاديمي. وجميعهم مرتبطون بالوضع والنظام.

نتيجـة لهـذا أخـذت مجموعـات عديـدة من الــذين خــاب أملهم في الــدعوات التقليديـــة، وتملكهم الروع من دعوات "الرافضة الجديـدة"، يفتشون هنا وهناك، ويتلمسون البـديل ويـدعون الله أن يأتيهم به. وقد لمسنا هذا مــرارًا، وطُلب إلينا أن نقوم بدورنا، في الوقت الذي كنـا نفكـر فيه فيما هو أبعد ممـا تصـوروا، إن دورًا تاريخيًـا ينتظـر الـدعوة المنشـودة، دورًا يمكن أن يـؤثر على مصير العالم بأسره وليس المنطقة العربية والإسـلامية، لأن الإسـلام اليـوم مـدعوٌ لتقـديم عطائه الحضاري، كما قدمه منـذ عشـرة قـرون، ولديه من الأصول مـا يمكنـه من ذلـك لـولا تلـك السدود التي أقامها الذين احتكروا اسم الإسـلام وقـاموا بالوصـاية عليـه. وتشـتد أهميـة "الـدور الإسـلامي" بعـد تهـاوي الاشـتراكية ومـا كـانت تدعيــه من قيم، وانفــراد الرأســمالية بالســاحة

فهـل قُضـيّ على البشـرية أن تشـهد عربـدة الرأسـمالية مـرة أخـرى. إن الإسـلام وحـده هـو القوة الباقيـة الـتي يمكن أن تقـف في مواجهـة هذا.

إننـا نقـدم دعـوة العمـل الإسـلامي مؤمـنين تمامًا أن فيها ما يشفي العصر الحديث من آفتـة المستعصية، وما يحل أزمة المجتمـع الإسـلامي/ العربي. ولا تخالجنـا أثـارة من شـك في أن هـذا لمن يمـر سـهلاً ولن يـأتي قريبًـا. ولا تسـاورنا أوهـام انتصـار وشـيك. إن الانتصـار سـيتطلب معارك مريرة طويلة وقد لا يأتي قبل مرور مائة عام. إننا نزرع بـذرة لن نـرى ثمارهـا. وتلـك هي قسمة الدعاة، تسعد بهم ويسعدون بها..

إن دعوة العمـل الإسـلامي. دعـوة إسـلامية مائة في المائة كما يقولون من نقطة انطلاقهـا، وهي الاسـتخلاف الإلهي للإنسـان على الأرض حتى غاية نهايتها، وقـد قـامت على آيـات بينـات محكمة من الكتاب الكريم. وعلى تفسـير سـليم لا تطويع ولا ابتسـار فيـه، ونحن نـؤمن أن القيم التي تقوم عليها والأهداف التي تستهدفها هي ما يمثل روح الإسلام حقًا، وهي أفضل ما يمكن أن تقـوم عليـه دعـوة إسـلامية، ولغيرنـا بـالطبع أن يرى ما يشاء فنحن لا نصادر الآخرين..

وقد ينتقد البعض الأسلوب الـذي عالجنـا بـه الدعوات الإسلامية والصراحة التي تحـدثنا عنهـا، وإطلاق الأحكام وذكر الأسماء وعدم ملاحظة مـا يثيره ذلك من حساسيات إلخ.. وهذه الاعتبـارات الـتي يلحظهـا الأكـاديميون، أو الـذين يحرصـون على العلاقـات والمجـاملات، أو يعزفـون عن

إصدار الأحكام. أو يمسكون العصا من الوسط. لم تكن خافية علينا، ولكننا إنما أردنا أن نضع الحقائق كلها. وفضلنا ذلك على أن نخدع الناس أو نخفي عنهم جانبًا، ولأننا نريد تشجيع الشباب على البحث والجرأة في تناول القداسات المزعومة، لأن هذا هو ما ينقصه، وليس الحياء أو الاستخذاء، فهذا ما يجثم على الصدور.

وقد لا تُفهم دعوة العمل الإسلامي تمامًا. لأن هناك جوانب عديدة من الفكر الإسلامي تتطلب معالجة أصولية جديدة لم يتسع لها عرض الدعوة نفسها، وهذا ما لم يكن خافيًا على المؤلف؛ عندما أصدر الأصلان العظيمان "الكتاب والسنة" والذي اختصره في كتاب "الدعوة إلى القرآن" وكتاب "الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة" وعدد كبير آخر من الكتابات الإسلامية، وهو اليوم بصدد عمل عظيم هو "نحو فقه جديد".

فهذه المجموعة من الكتب تقدم فهمًا جديدًا متكاملاً للإسلام، فهمًا مستقبليًا لا فهمًا ماضويًا، فهمًا منتصرًا يعبر عن نفسه بلغة العصر، ويتسلح بسلاحه ويجابه تحدياته، بل ويصلح فساده.

وهذه الدعوة ملكٌ للمسلمين جميعًا، ولكل واحد يؤمن بها أن يقول "هذه دعوتي"، فلسنا نحن أحق بها منه، إنها ليست مقصورة على أحد إنها دعوة، وليست هيئة والشباب أولى الناس بها.

فيا أيها الشباب المسلم في كل مكان:

إذا قلنا إن هذه دعوتكم، فإنما يعود هذا إلى أن المستقبل أمامكم طويل بعواصفه ومشاكله، وهـــذه الـــدعوة وحـــدها هي الـــتي تمنحكم ـ كمسلمين حريصين على إسلامهم ـ جواز المرور إلى عالم العصـر. إن الفقهـاء التقليـديين أبعـدوا العصـر. ولم يكن ليعـنيهم هـذا في شـيء. لأنهم بفصـل أوضـاعهم الخاصـة يمكن أن ينـالوا كـل حقوق العصر وهم بمعـزل عنـه، فـإذا كـان أحـد الشيوخ يستطيع كأستاذ جامعي أن ينـال المزايـا المادية لهذا الوضع التي تكفل له معيشة مترفة، مقابل أن يلبس زيًـا خاصًـا، ويـدرس حـديث ابن حنبل أو فقه الشافعي كما وُضعا من ألـف عـام، فلا تعنيـــه في شـــيء مشـــاكل العصـــر.. ولكن مشـاكل العصـر تجـابهكم، ولهـذا قلنـا إن هـذه دعـوتكم، لأنهـا هي الـتي تقـدم الإسـلام مـدججًا بسـلاح العصـر، ومصـلحًا في فسـاد العصـر.. فخذوها بقوة.. وسـتفتح لكم مغـاليق الطريـق.. وتحل أزمتكم، وأزمة العصر الحديث أيضًا..

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير..